الدينكا
في السودان

د. فرانسيس دينق



مركز الدراسات السودانية
THE SUDANESE STUDIES CENTRE

د. فرانسيس دينق

الدينكا في السودان

ترجمة:

شمس الدين الامين ضو البيت

الكتاب الاصلي:

Francis Mading Deng:
The Dinka of the Sudan.
Waveland Press, Inc., 1984.

الطبعة الأولى

القاهرة ٢٠٠١

رقم الإيداع

٢٠٠١/٨٣٢٠

الترقيم الدولي I.S.B.N

977-5508-36-3

تصميم الغلاف:

الفنان حسين شريف

تنفيذ: مريم محمد على

مركز الدراسات السودانية

الخرطوم ٣ مربع ٥ منزل رقم ٨

تلفون/فاكس: ٤٨٨٦٣١-٢٤٩١١+

مصر: ٦ ش نخلة المطيعي شقه ٢ - مصر الجديدة

E-mail : ssc@africamail.com

د. فرانسيس دينق

الدينكا في السودان

ترجمة: شمس الدين الامين ضو البيت

مركز الدراسات السودانية

الفهرس

الأهـــداء

إلى ذكرى أخى الزعيم عبدالله مونياك دينق والذى سقط مقتولا هو وأخوانا لينوشان وأبو جابر بولابيك وأعمامنا أروب مهدى وشول قوين وكييرجال رميا بالرصاص أمام فرقة من القتلة قررت تصفيتهم دون أى وجه حق فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٠.

عسى أن يكون هذا الكتاب رمزاً متواضعاً للقضية التى ضحوا بحياتهم فى سبيلها.

مقـــدمة
الناشرين

هذا الكتاب هو دراسة خاصة كتبها د. فرانسيس دينق ابن الزعيم الاكبر لدينكا نقوك وهو امر يعزز حقيقة أن القارئ او القارئة سيجد نفسه امام تجربة استثنائية عندما يطّلع على هذا الكتاب.

أن هناك عدة مقاطع فى هذا الكتاب نجد خلالها أننا محظوظون بان نلج إلى النظام الثقافى للدينكا برؤية الشخص المعايش للاحداث من الداخل وتفسيره لها على أن هذا ليس ضماناً فى حد ذاته لوجود وصف عرقى صحيح لان منظور ورؤية الشخص الغريب على هذا النظام تعتبر جوهرية بنفس القدر، ولكن د. فرانسيس دينق يزودنا ايضا بهذا المنظور الأخر.

يحمل د. دينغ شهادة الدكتوراه فى القانون من جامعة ييل وقد ظل مزاملاً لصيقاً فى العمل مع د. غودفرى لاينهارد الانثربولوجى المعروفى من جامعة اكسفورد والذى ظل موضوع (الاثنوغرافيا) الخاصة بالدينكا موضع اهتمامه المتخصص. هذا الكتاب له استراتيجية تبدأ بوصف الاهداف التى يسعى الدينكا لتحقيقها فى حياتهم، ثم ترسى أنموذجاً للمعالم الرئيسية فى دورة الحياة للفرد فى مجتمع الدينكا وتتابع وتشرح مغزى الاحداث خلال تلك الفترات ولوجاً إلى النظام الثقافى باكمله. وعبر هذه الاستراتيجية نحصل على رؤية ثرّة ومتوازنة للغاية عن حياة الدينكا وفى الوقت نفسه نجد تجربة شخصية يتعرف القارئ من خلالها على تركيبة المجتمع وادوار الجنس، الغزل، صلة النسب، حلقات الانداد، التنافس، الاسرة، الملكية ، الاعراف الملزمة، القانون الدين، الفلسفة، الشعر والرقص.

ومن خلال قراءة الكتاب نعايش الخصائص الغنية لحياة الدينكا وفى الوقت ذاته نجد الاشباع الفكرى الناجم عن التحليل الثقافى لهذه الخصائص، وهى حياة لها خاصية تتملك لب القارئ وتحفزه، فالصفات التى يحملها تعبير (ادهينق) وتتجلى فى الكبرياء والسلوك الحسن لها أهمية عليا فمثلا تستوجب

على الرجال أن يأكلوا بطريقة انيقة وأن يتكلموا بصورة رائعة وأن يقفوا ويسيروا بخطوات موزونة. ولكن مع ذلك هنالك كثير من العنف الصرف في حياة الدينكا وبخاصة وسط الشباب الذين لا تحدهم القيود لكنه يهيمن أيضا على معظم حياة وسلوك رجال الدينكا.

هناك خصائص متناقضة فى ثقافة الدينكا، فمثل الكثير من شعوب العالم ينظر الدينكا لنفسهم كشعب متفوق ومع ذلك فهم تابعون مطيعون لابقارهم فالشباب يعرفون من خلال (ثور ذاتيتهم) الذى يزين بالذؤابات والجلد الموشى وعليه جرس معلق يقرع فى إيقاع تناغمى كلما سار الشبان برفقة ثيرانهم في استعراض يهدف لانتزاع الاعجاب وبخاصة من الفتيات.

وهذا التعريف من خلال الابقار هو إلى حد كبير ظاهرة غير مألوفة بالنسبة للغربيين ولهذا فإن محاولة ضمهما تقربنا اكثر إلى لب ثقافة الدينكا والثقافات الافريقية الأخرى حيث كانت عقدة الابقار المعروفة ومازالت لها اهميتها.

ويستخدم المؤلف تقنيات اتصال فعّالة تتيح مثلا لتجربته كأحد شباب الدينكا بالدخول ضمن الوصف. الميزة الاستثنائية الأخرى للكتاب هي استخدام الاغانى التى تُنظّم وتُلحن فى مقاطع شعريه طليقة منسابه لتعطينا النكهة التى يضفيها الدينكا على الاحداث مثل الغزل، فقدان الكبرياء، الحدة والعدوان، السخرية من المنافسين او الاعلان عن الاحداث.

ومن هذه الاغانى يمكننا ولو على نحو غامض على الأقل ادراك الفارق النوعى الحقيقى بين انماط التفكير عند كل فى الغربيين والدينكا وفى الوقت نفسه ادراك الخواص الإنسانية للعواطف والدافع المرتبطة بها.

يناقش المؤلف فى الفصل الأخير من الكتاب النزاع المدمر بين الشمال والجنوب المتمثل فى الحرب الأهلية المستمرة منذ ١٦ عاماً والتى يقدر أن عدد ضحاياها فاق المليون شخص وتشردت اعداد أخرى اكثر، هو صراع ينظر اليه على انه يمتد عميقاً بصورة تجعله اكبر من أن يكون مجرد خلافات سياسية. فهو مسألة خلافات عرقية بين الشمال العربى والجنوب الزنجى،وخلافات دينية ثقافية بين الإسلام والمسيحية وخلافات بين الجزء الحضرى القومى والتقليدى القبلى. أن هذه الحرب هى احدى مآسى أفريقيا

اليوم لا تحدد الولاءات القبلية والثقافية وحدها الخصومات والحروب فميراث الماضى الاستعمارى يخلق ايضاً فيما يبدو خلافات حادة غير قابلة للحل تؤدى إلى نزّاعات أهلية وحشية. والواقع بالنسبة للدينكا مثلما هو بالنسبة للشعوب الأخرى فى أفريقيا هو متضاعف مركب تحقيقة أن الدول الأوروبية ليست وحدها فى التى بنت الامبراطورات هناك ولكن ايضا العرب، وفى مناطق عدة فإن شعوبا زنجية إقامت مجتمعات دولة من خلال اخضاع بعضها البعض.

ورغم ذلك فإن د. فرانسيس دينق متفائل بأن تلك النزاعات سيتم فى النهاية تسويتها ولكن بكلفة بشرية عالية، وأن الدينكا سيجدون طريقهم إلى وضع من التفاعل مع العناصر الأخرى للأمة السودانية وفى الوقت نفسه حماية الكثير من الخصائص المميزة لثقافة الدينكا التقليدية والتى جعلت أهله شعباً فريداً.

جورج ولويس سبندلر

تصدير

نشأت فكرة هذا الكتاب فى عام ١٩٦٣ عندما دعا محررو هذه السلسلة د.غودفرى لاينهارد ليعد دراسة خاصة عن الدينكا وكان أن اقترح هو أن اكون مشاركاً له فى التأليف.

ورغم أن خططنا لم تخرج إلى حيز الوجود الا أننى استفدت غاية الاستفادة من د. لاينهارد. وهو بجانب انه صديق شخصى فأنه يعتبر المرجع والخبير الاساسى عن الدينكا. أننى شديد الامتنان للبرفيسور جون ميدلتون الذى تقدم بتوصية لمحررى هذه السلسلة باستئناف الدراسة الخاصة بالدينكا. ومنذ عدة اعوام وإلى الآن فإن الصديقة العزيزة جين قلاسمان ظلت مساعدة لصيقة فى كتاباتى ولولا مساعدتها التحريرية ونقدها البناء لما كان لهذا الكتاب أن يأخذ الشكل الذى هو عليه الآن.

أما بالنسبة لمصادرى فى الدينكا والمؤلفين والملحنين والمغنيين فإننى آمل أن يكون هذا الكتاب تعبيراً عن تقدير مستحق هم جديرون به.

فرانسيس دينق مادينق

الفصل الأول

مدخل

ينتمي الدينكا إلى المجموعات النيلية التى تقطن السودان، ويشكلون بتعدادهم الذى يبلغ المليونين في بلد لايزيد عدد سكانه على الخمسة عشر مليوناً،حسب التقديرات الحاليه وما يزيد عن الخمسمائة قبيلة، يشكلون، بفارق كبير، أكثر المجموعات الإثنية تعداداً فى السودان. ويقطنون ارضاً تغطى مساحتها عُشر ما يقارب المليون ميل مربع مساحة السودان، أكبر أقطار أفريقيا مساحة.

وقد عُرف الدينكا لدى رحالة القرن التاسع عشر، بل وحتى لدى رحالة منتصف القرن العشرين بوصفهم " عمالقة يقارب طولهم السبعة أقدام، ويقفون - مثل طائر (الجبركل أو الكركى) - على قدم واحدة لساعات طويلة بقرب النهر فى بحثاً عن الأسماك"(١) ولكن وصفهم "بالعمالقة " يجب ألا يصرف الانتباه عن رشاقة أجسامهم ورهافة قدودهم. كما يلاحظ كاتب آخر:

" إذا كان بوسعك أن تتصور لنفسك جنسا من الناس بأرجل طويلة، وبنية قوية، طوال القامة بدرجة تصبح معها رؤية رجل طوله سبعة أقدام، أمراً عادياً، وعلى قدر من النحافة بحيث لايستطيع رجل أبيض أن يدخل يده فى مقابض دروعهم ولا جسمه فى قواربهم الطويلة (فى الواقع أننى لا أذكر أنى رأيت دينكاوياً بدينا)، وإذا كان بوسعك أن تتخيل هؤلاء الناس لايرتدون شيئاً إلا عقود الخرز وبسمة صبوحة عريضة، فإنك تكون بذلك قد تبيَّنت الخطوط العريضة لملامح الصورة التى أحاول أن أرسمها لك"(٢).

هذه فى الحقيقة صورة وضعية شديدة العمومية، لأنها لا تقول، مثلاً، أن

الرجل الواحدة تساعدها حرية محدودة، او أن صيد الأسماك مهنة مكملة فقط لتربية الأبقار والزراعة، وأن النساء غير عاريات، وأن الدينكا طوال القامه مع جسم نحيل، فهذا أقل من الوصف الكامل. فقد تغيرت الأمور وعلينا أن نكون أكثر دقة لان الاوصاف الغرئبية تفسح الطريق لمعلومات علمية.

وأرض الدينكا هى أرض السافنا الغنية التى تخترقها مياه النيل وفروعه العديدة. ويقيم الدينكا فيها بأعدادهم الكبيرة، وتجمعاتهم السكنية الموزعة التى تفصلها الأنهر الكثيرة عن بعضها البعض، حتى أن بعضاً منهم لا يعون انتماءهم المشترك للدينكا. . . ويشترك الدينكا الذين يتألفون من حوالى خمس وعشرين مجموعة قبلية تحترم استقلال بعضها عن البعض الآخر، فى تكوينهم الجسدى المتميز، واعتزازهم بانتمائهم الإثنى ووحدتهم الثقافية اللافتة للانتباه. .. واليوم تقطن معظم قبائل الدينكا فى المناطق الإدارية التابعة لبحر الغزال وأعالى النيل، وهما اثنتان من اقاليم جنوب السودان الإدارية الثلاث. غير أن مجموعة واحدة هى الدينكا نقوك، تتبع لإقليم كردفان، إحدى الاقاليم الإدارية الست لشمال السودان.

من حيث العرق والثقافة فإن النقوك جنوبيون. وجاءت غرابة وضعهم الإدارى من واقع أن زعماءهم وقعوا معاهدات ولاء مع كل من الحكومتين الاستعماريتين فى الأبيض عاصمة كردفان: الحكومة التركية- المصرية والحكومة الإنجليزية – المصرية. وقد ظل النقوك فى اتصال مع القبائل العربية التى تقطن الشمال لقرون قبل مقدم الاستعمار. وكان من نتائج العلاقات الدبلوماسية الوثيقة والتأثيرات الثقافية المتبادلة بين قادة هذه القبائل النظام السياسى الهرمى، والمركزية التى يتميز بها النقوك فى مقابل الطابع العام لمجتمع الدينكا التقليدى اللامركزى، والذى تغيب فيه الزعامة. بينما كان للنقوك على الدوام زعماء مقدسون، وإن توزع نفوذهم فى نظام السلالات. ومع ذلك، فإن النقوك، فى معظم جوانب حياتهم الثقافية، لم يتأثروا كثيراً باتصالاتهم مع العرب. من هنا، وبالنظر إلى عزلتهم النسبية عن الجسم الرئيسى للدينكا وإرتباطهم الوثيق بالعرب، فإن الدرجة التى احتفظوا فيها بثقافتهم الدينكاوية لأمر لافت للانتباه.

وكثيراً ما تعُزى الإستمرارية الثقافية للدينكا إلى كبريائهم وتمركزهم الإثنى، والتى ينبنى عليها الاسم الذى أطلقوه على أنفسهم، فهم لايسمون أنفسهم "دينكا" بل "مونيجانق" والتى تعنى "رجل (أو زوج) الرجال". ويشير

هذا إلى أنهم ينظرون لأنفسهم باعتبارهم المقياس لكرامة الإنسان، ويؤكد تفوقهم على "الاخرين" أو "الغرباء" (الجوور ومفردها جور).

وفى الوقت الذى ينظر فيه الدينكا لأنفسهم (سادة للرجال)، فإنهم خدم ودودون لأبقارهم، ومحبون لها، وهم على استعداد للاعتراف بهذا وبكل سرور. فالدينكاوى، وبروح الخادم المخلص، يمكن أن يقتُل أو يجازف بحياته من اجل بقرة واحدة. وللدينكا أسطورة تفسر اهتمامهم بالأبقار ومعاناتهم من اجلها: خرج الدينكا للصيد وقتلوا أم الجاموسة وأم البقرة، فأقسمت الجاموسة والبقرة، المفجوعتان الثائرتان، على الانتقام من الإنسان. واختارت الجاموسة البقاء فى الغابة ومهاجمة الإنسان فى أى وقت يقع نظرها عليه، (وإلى اليوم فإن الجاموس واحد من حيوانات قليلة تهاجم الإنسان بلا استثارة) . فى الجانب الاخر فضلت البقرة، بمكر وبراعة، محاربة الإنسان من داخل نظامه: وذلك بأن تصبح حيواناً أليفاً فيصير الرجل خادماً لها، وتحرش الرجل على الرجل الاخر وتجعله يقاتل ويُقتل لإجل إمتلاكها والحصول عليها وحمايتها.

ولكن إذا كانت البقرة داهية ماكرة، فللدينكاوى أيضاً أسبابه التى جعلته يستسلم لإغوائها وينقاد إلى شَرَكها. إذ توفر الأبقار له أكثر حاجاته المعيشية. فهى تمده بمنتجات الألبان، التى يعتبرها الدينكا ليس أفضل الطعام فحسب، بل أكرمه أيضا. وبينما يُنكر الدينكا ذبح الأبقار اشتهاءاً للحومها، ويفعلون ذلك فقط كقربان للإله أو الأرواح أو الأسلاف – وفى بعض الأوقات لتكريم ضيف أو لاحتفال خاص – فإن كل الحيوانات تنتهى إلى النار أو القدور، لأنها جميعها تؤكل، بغض النظر عن السبب الذى ادى إلى موتها. وبإخلاصها وتضحيتها تقوم الأبقار بحماية الدينكا من القوى الشريرة المتمثلة فى المرض والموت. وبتقديمها مهوراً تضمن استمرار سلالة الدينكا، ويسمح توزيع هذه المهور فى دائرة واسعة من الأقارب بترسيخ شبكة العلاقات الإنسانية التى يحتفظ لها الدينكا بتقدير عال. وتستخدم الأبقار كديات للقتلى وتعويض عن العديد من الخطايا الأخرى. ويستعمل الدينكا روثها المجفف كوقود وسماد، وبولها كمطهر وجلودها مفارش، وقرونها محافظ للتبغ وأبواق ومغارف. فأبقار الدينكا تلعب دوراً هاماً فى رفاههم، وتحظى بتكريمهم وتشريفهم، حتى أنهم يصفون البقرة أو الثوره بأنها أو أنه "الخالق" . وحيث يبلغ مهر العروس أحياناً المائتين من الأبقار، فإن الدينكا

ربما يكونون أغنى ملاك الأبقار فى القارة الأفريقية، وهم كذلك بالتأكيد فى السودان. وهم يربّون أيضا الضأن والماعز، ولكنهم لا يعيرونها إلا جزءًا من الاهتمام والوفاء الذى يظهرونه للأبقار.

والأمر الذى لايعرفه الكثيرون أن الدينكا مزارعون أيضاً، ولكن إنتاجهم ظل على العموم فى مستوى الاستهلاك، وفى بعض الأحيان، ما دونه. ويعزى ذلك، جزئياً، لكرمهم الزائد واحتفالاتهم الباذخة ونفورهم من الادخار بوصفه بخلاً. غير أن السبب الأهم يتمثل فى بساطة أدواتهم والمناخ المتقلب الذى يسود المنطقة، إذ يؤدى كلاهما إلى تحديد حجم الأرض التى يمكن زراعتها، وبالتالى المحصول الذى يمكن إنتاجه. فالأمطار غير منتظمة لدرجة أنها يمكن أن تبدأ فى السقوط ويزرع الناس، ثم تتوقف فيموت الزرع، أو تغمر المزارع وتغرق المحاصيل. وعلى الرغم من أن أرض الدينكا تمتلئ بالأنهار الدائمة، إلا أن الدينكا لا يلجأون للرى، إلا فى حقول التبغ الصغيرة التى يزرعونها فى موسم الجفاف. وتمثل الديدان والجراد والطيور وأصناف متعددة من الحيوانات الأخرى تهديداً إضافياً للزرع فى جميع مراحله.

والإنسان كما الحيوان معرضان فى أرض الدينكا للعديد من المضايقات. فأشعة الشمس المحرقة فى موسم الجفاف تقضى على الحشائش وتخدع أبصار المسافرين بسراب متحرك من الأنهار والبحيرات. وتجف التربة مكونة شقوقاً واسعة وعميقة يسقط فيها الناس والحيوانات. وتغطى الأشواك الحادة الصلبة الأرض والأشجار. وتقُض أسراب الذباب القلقة مضاجع البشر والحيوان وتضطر جيوش الناموس الإنسان إلى بذل الجهد فى إبعادها أو الهرب منها إلى داخل الأكواخ بأدخنتها وهوائها الفاسد. ثم يأتى موسم الأمطار بأمطاره الغزيرة العاصفة التى قد تهطل لأيام، لتقضى على الحشائش الطويلة المتبقية، وتعوق حتى حلب الأبقار وطبخ الطعام. وتؤدى العواصف الرعدية والبروق إلى اقتلاع الأشجار واحتراق الأكواخ، وفى بعض الأوقات إلى وفاة الأقارب، وهى مآس تمثل لدى الدينكا علامات إلهية تدعو للمزيد من الإخلاص والتضحية. وهذا بالإضافة إلى فيضانات نهر النيل وفروعه التى تتسبب فى تكوين المستنقعات المائية والطينية. إلى ذلك تُمثل الحيوانات المفترسة من أسود فهود وضباع وكلاب برية، والخرتيت وفرس النهر والجواميس والتماسيح والثعابين والعقارب، تمثل جميعها تهديداً مستمراً، وحقيقياً بأكثر مما يمكن أن تنبئ به حكايات الرحالة.

ولكن، وعلى الرغم من أن إنسان الدينكا يعيش مواجهة مباشرة مع بيئة طبيعية معادية، إلا إنه يعشق أرضه. فهو مكتفٍ ذاتياً بصورة لا يمكن تعليلها ببساطة متطلباته. إذ انه يرى أن الإله كان كريماً معه بلا حدود. فهو يملك الأبقار والضأن والماعز، ويزرع أصنافاً عديدة من الحبوب. وتفيض الأنهار وبرك المياه فى منطقته بالأسماك، وتمتلىء أرضه بالحيوانات، وتنمو العديد من الحبوب البرية والخضروات والفواكه التى تشبع حاجته، ويتوافر العسل بكثرة. وبحسب الفصول تتزين سماواته ومياهه بأنواع الطيور الملونة من كل شكل وحجم، وتعج حقوله ومساكنه بالفراشات. والأرض المسطحة، تتحول من طينية سوداء إلى رملية بيضاء، ومن أرض مكشوفة كالصحراء إلى غابات كثيفة. وتعطى خضرة الحشائش النامية التى تغطى الأرض بعد سقوط الأمطار الباكرة، وانعكاسات أشعة الشمس من خلال حبات المطر المنهمرة، والوان قوس قزح الزاهية التى تصل بين اطراف الافق المتقابلة، امثلة للبهجة والجمال الذى يأتى مع موسم الأمطار، بينما تشكل الأشعة الذهبية لغروب الشمس وهى تغمر السهول، ومنظر الأبقار التى عادت للرعى قرب المنازل وهى تجأر نحو عجولها المربوطة، وخوار هذه العجول لأمهاتها التى، بالرغم من قربها، لا يمكن اللحاق بها، وغناء صبى بينما هو يوقد ناراً ويربط الأبقار، واختلاط خيوط الدخان بأشعة الغروب، والرائحة الحلوة للروث الجاف المحترق، تشكل معاً اقتراب الليل فى موسم الجفاف.

ولأن الأرض مسطحة فإن الرؤية ممكنة لمسافات بعيدة، وفى الأمسيات، عندما توقد النيران فى معسكرات الأبقار المتباعدة، يمكن رؤية منارة مضيئة ذات الوان برتقالية وحمراء وصفراء تصعد فى السماء، لتدل مسافرى الدينكا على اماكن المعسكرات. ويتضافر صدى الطبول البعيدة مع اصوات القطعان، وصياح الصبية، وغناء الطيور . ليخلق الإيقاع البطىء لحياة القبيلة. وفى الليل يختلط صرير الصراصير الحاد، ونقيق الضفادع، وغناء أم بأعلى صوتها لأهزوجة تريد بها هدهدة طفل، بينما هى تلعب بقرعة فارغة، وصوت رجل يعدد مآثر (ثور ذاتيته)، بينما يصدر الثور خوار الاكتفاء والعرفان، تختلط هذه الأصوات لتحدث انقطاعاً محبباً لسكون الليالى الريفية. وفى الليالى المقمرة ينخرط الأطفال فى اللعب لساعات طويلة، كانوا يقضونها فى العادة نياماً، ويقطع الشبان المسافات الطويلة لزيارة صديقاتهم، ويقضون معهن الليل تحت السماء الليلية فى أحاديث لاتنقطع حتى الصباح.

لمواجهة هذه البيئة العدائية يقوم الدينكا ببناء الأكواخ لأنفسهم والحظائر لأبقارهم والتى حازت جدرانها المشيدة من الخشب والطين وسقوفها المصنوعة من القوائم الخشبية والقش ، إعجاب العديد من الزوار. ويساعد طول ومتانة القش الذى يصنع منه السقف ورشاقة واستقامة الأشجار التى تؤخذ منها القوائم، على سلاسة ونعومة هذا السقف.

وفى العادة تعيش مبانى الدينكا لما يزيد عن العشر سنوات، وهذا إنجاز ليس سهلاً فى أرض تعج بالآفات وأنواع النمل القارض للأخشاب.

بالنسبة للدينكا فإن أرضهم بكل مشاقها وصعوباتها هى أفضل بلاد العالم. وحتى وقت قريب لم تكن الهجرة إلى موطن غريب أمراً نادراً، فحسب، بل معيباً أيضا. ويرقى تهديد احد الدينكا لأقربائه بترك أرض الدينكا إلى مرتبة التهديد بالانتحار او قريباً منه! فما أعظم الفقد ويلا مقابل!

والدينكاوى شخص يتميز بحس اجتماعى، بالرغم من فردانيته، مهذب وفكه ولكنه حساس، متقلب المزاج، يمكن أن يلجأ إلى ردود الفعل العنيفة إذا جُرح إحساسه بالكرامة والاحترام، وهو ماقد يحدث لأسباب يمكن أن تكون بسيطة. لذلك ينتشر العنف فى مجتمع الدينكا بصورة واسعة، وتعتبر البسالة والقوة الجسدية القيمة المركزية التى يتشربها الصبية فى أعمارهم الباكرة. حيث يُحظى التصميم والاستعداد للقتال من أجل الشرف والحق ضد أى شخص مهما كانت قوته، بتقدير عالٍ بين الأطفال والشباب؛ لذلك كثيراً ما يُخلِّف الاقتتال بالعصى بين أفراد الدينكا ومجموعاتهم المحلية أثاره ندوباً فى الوجوه ويترك الاقتتال بالحراب بين المجموعات القبلية مرارات تستمر أماداً طويلة.

ويقابل هذا الاستعداد للعنف وسط الشباب المقاتلين الذين يصطنعون حروباً يقتتل فيها الجميع، يقابل هذا، وفى تناقض حاد معه، التأكيد على العلاقات الإنسانية النموذجية، وعلى مزايا التوحد والانسجام والإقناع. وفى الغالب يتعمد الزعماء اسلوب الإقناع رغم اعتزازهم بطبائعهم القسرية عندما كانوا شباباً. ويتم التأسيس لقيم البسالة عن طريق تنظيم حلقات المقاتلين الأنداد، التى لابد أن ينتمى كل دينكاوى إلى واحدة منها عند بلوغه سن الرشد. ولكن هذه البسالة المكتسبة تُوظف فى العادة ضد المعتدين وليس للاعتداء. فى الحقيقة، ليس هناك دينكاوى واحد يقر بانه معتدى. وفى أغانى الحرب يقدم الدينكا أنفسهم كمقاومين أشداء للعدوان. ولكن بالنسبة للشباب

فيكفى تحرش بسيط لبدء قتال. وبجانب مقاومة العدوان يتم التنفيس عن نوازع العنف وسط الشباب بتوجيهها لحماية المجموعة من الحيوانات المفترسة، والرعى فى مناطق معادية، والاعتناء بمزارع الزعماء، وبناء المساكن، واتخاذ الإجراءات الوقائية لمقاومة انتهاك بعض العادات من قبل أعضاء حلقات المقاتلين الأنداد. ولكن هناك مجالات أخرى للتنفيس عن طاقات الشباب العنيفة، كالغناء والرقص التى هى وسائل معتادة لتنمية إحساس شباب الدينكا بالكبرياء والكرامة.

ولكن برغم كبرياء الدينكا وتمركزهم الإثنى، فإنهم كرماء وودودون مع زوارهم. تمنعهم أخلاقهم السامية وإحساسهم بالكرامة واستقامتهم، من استغلال الغرباء.

ولكنهم إذا أعطوا سبباً لحجب الاحترام عن أحد الغرباء لسوء تصرفه، فإن هذا الغريب يكاد أن يفقد لديهم مؤهلات البشر. حينئذ يصبح الدينكا على استعداد لاستخدام مكرهم ضده دون أى إحساس بالذنب.

وعلى الرغم من أن الدينكا هم الآن جزء من السودان الحديث، إلاّ أنهم بقوا من بين أقل المجموعات التى تأثرت بالتحديث. ولوقت طويل كان كبرياؤهم وتمركزهم الإثنى هو السبب الرئيسى الذى يُقدم تعليلاً لهذا الوضع. غير أن تطورات مابعد فترة الاستعمار تشير الآن إلى أن ذلك لم يكن إلا تفسيراً جزئياً . فقد عملت السياسات الاستعمارية على عزل القبائل، والحفاظ على الثقافات التقليدية. وفى الوقت الحالى قاد تجاوز تلك السياسات إلى عمليات تبادل ثقافى عميقة، كان من نتائجها بالإضافة إلى التعليم الحديث أن أظهر الدينكا مقدرات على التأقلم والتغيير لم تكن متوقعة من قبل. غير أن معاناة والام التغير كانت لها آثار خطيرة. ابرزها واكثرها مأساوية أنها حولت اناساً عاشوا كرماء وأحرارا إلى أشخاص فاقدى الثقة بأنفسهم "وضعاء" بل وخاضعين أذلاء، بدا أن مصيرهم حتى الآن هو تحلل نظامهم التقليدى بلا بديل جديد. وعلى الرغم من أن بعض الأفراد تمكنوا، وبدرجات متفاوته من النجاح، فى شق طريقهم إلى مراتب المجتمع السودانى الحديث المختلفة، إلا أنه يبقى أن الأمر بالنسبة لمعظم الدينكا كان تجربة قاسية غالية الثمن، قليلة العائد وذات مستقبل مظلم. بالنسبة للآخرين لم يكن التغير إلا رحلة مؤقتة بحثاً عن القيم المادية للمدن، كوسيلة للحصول على تلك القيم التقليدية للدينكا التى أصبح من الممكن الآن شراؤها بالنقود. لذلك صار

معتاداً بصورة متزايدة أن يعمل شباب الدينكا فى المدن لكسب المال الذى يستطيعون به شراء ثور للاستعراض أو أبقار للزواج. وتسببت هذه الهجرات المتكررة من وإلى المدن فى إحداث الضرر فى كلا العالمين. وتقف الأكواخ القذرة التى يعيشون فيها بأطراف المدن، وطعامهم الذى لايتعدى الخبز والجعة المحلية المصنوعة من الذرة، ووضعهم الاجتماعى المتدنى، تقف جميعاً مثالاً على هذا الضرر.

وقد ساهمت الأزمة السياسية بين الجنوب الزنجى والشمال العربى والتى اشتعل أوارها قبل الاستقلال، فى زيادة العناء الذى ارتبط بالتغير. حيث تسببت، مثلها فى ذلك مثل كل الحروب الحديثة، فى كثير من المعاناة للأبرياء الذين راحوا ضحية للإرهاب والقتل الوحشى من كلا الجانبين. وللمفارقة وجد الجنوبيون الأمان فى مدن الشمال التى ما زالت تراعى قدراً من معايير النظام العام لسكانها. وهرب الآلاف لاجئين إلى خارج حدود القطر، حيث اصبحوا، فى هذه المجتمعات الجديدة، مواطنين من الدرجة الثانية مثلما هو حال اللاجئين فى كل مكان. وقد جاءت الحكومات وذهبت من غير أن تتمكن من إخماد العصيان، أو أن تجد حلاً للمشكلة.

ويتحدث الدينكا عن فترة العداء التى سادت بينهم وبين المُسترقِين العرب فى القرن التاسع عشر بوصفها الفترة التى فسد فيها العالم، ويتحدثون عن عالمهم اليوم؛ باعتباره عالماً فاسداً. ومع ذلك فإنهم عارفين أو غير عارفون، يقتربون من امتلاك ناصية الأزمة، ويقبلون على ممارسة تأثير أكبر على المستوى الوطنى. فهم حتى، ولو بسبب تعدادهم وحده، سيشكلون قطباً هاماً فى مستقبل السودان.

وبالطبع فإن المجتمع التقليدى الذى وصفته هنا سيذوى ويندثر مع الزمن، ولكن الدينكا سيأخذون معهم إلى صلب المجتمع السودانى الحديث ومجتمعات العالم، الأخرى، تلك القيم والمشاعر والصفات العزيزة لديهم أو التى لا يمكنهم التخلى عنها. لذلك فإننى أكتب، على نحو ما حول ماكان وماهو كائن وما سيكون.

وأنا أكتب أيضاً كمراقب للأحداث ينتمى للدينكا، وطبيعى أن يكون هناك الكثير الذى يمكن أن يقال لصالح أو ضد هذا الوضع. وأبرز المخاطر التى يمكن أن تثار هنا هى خطر التحريف فى كلا الاتجاهين: فقد يصبح الكاتب مدافعاً بأكثر مما يلزم عن مجتمعه، وينحو بالتالى للمبالغة، أو قد يكون حذراً

بأكثر مما يجب من مخاطر الإهتمام الشخصى، وينحو للتقليل من شأن الأحداث. وبوصفى دينكاوياً وابناً للزعيم الأكبر للدينكا نقوك، فإننى سليل لأسرة تتجمع لديها أخبار المجتمع كل يوم. ذلك أن منزل الزعيم بالنسبة للدينكا هو الملتقى الرئيسى الذى يُجْمِعون فيه. ولأن أرض الدينكا هى أرض المساواة حتى بين غير المتساوين، فلم يكن التفاعل بيننا وبين أولئك الذين يفدون إلينا مقيداً فى يوم من الأيام. فلقد نشأت كطفل مثلى مثل أى طفل دينكاوى، اجتمع بحرية بالأطفال الآخرين وبلا أى حواجز اجتماعية. غير أن الإستثناء الهام كان فى أننى كنت، ضمن قلة قليلة، من أوائل الذين ذهبوا للمدرسة، واصبحت بذلك معرضاً للتغيير. وعندما كبرت ووجدت نفسى اذهب للدراسة فى أماكن بعيدة عن موطنى، زاد اهتمامى بتقاليد الدينكا وتركز. وعندما كنت أدرس القانون بجامعة الخرطوم وصلت إلى مرحلة أردت فيها جسر الهوة بين القانون الذى رأيته مطبقاً فى موطنى وذلك الذى كنت أدرسه فى الجامعة. ولم يكن هناك اهتمام رسمى بالقانون العرفى فى الجامعة، ولكن بعض المنتمين للكلية من الأجانب كان اهتمامهم كبيراً. فقاموا بتشجيعى وساعدونى بطريقة غير رسمية. حتى صرت، بفضل توجيههم أقضى إجازاتى دارساً للقانون العرفى للدينكا وجالساً فى محكمة والدى أتفحص الحالات القضائية عائداً بها للجامعة. حتى وثائق جدى، ومستجوباً للزعماء وكبار السن. وقد سارت الأمور إلى الحد الذى سعى فيه بعض أعضاء الكلية لإقناع عميدها الأجنبى بانتداب محاضر وطالب من السنوات النهائية لمرافقتى وإجراء المزيد من الأبحاث وفحص المعلومات التى جئتُ بها. ولأنه لم يكن من الممكن دراسة القانون العرفى بمعزل عن نواحى الحياة الأخرى، فقد توسعت أبحاثى عن الدينكا وزادت، حتى شملت محفوظاتى عدة مئات من الأغانى المسجلة، التى قمت لاحقاً بنسخها وترجمتها. وفى الخارج واصلت عملى عن الدينكا مع القانونيين والأنثروبولوجيين. وقد آثرت أن أقدم هنا هذا السرد المفصل لكى أؤكد أننى فى اهتمامى بالدينكا وفى أبحاثى عنهم جهدت لكى أكون دارساً موضوعياً، مستفيداً فى نفس الوقت من اطلاعى على دخائل أمورهم.

ولعله يجدر هنا أن أشير إلى أن اسم "دينق" عندما يرد، لايحيل دائماً إلى أسرتى، فهو اسم شائع وسط الدينكا. ويستخدم على شرف الإله دينق، وهو روح متعددة الجوانب لا يفوقه فى الاهمية إلا الرب.

وسأورد الآن بضع كلمات عن الأسلوب الذى اتبعته فى هذا المؤلف. فهدفى الرئيسى هو وصف الدينكا، انطلاقاً من أرضية نظرية واسعة لاتقف عائقاً بأى شكل أمام تحقيق هذا الهدف. ولا يتوجه اهتمامى للكتابة عن الدينكا فقط بصفتهم الجامعة، ولكن كمشاركين فى سيرورة اجتماعية، أنظر إليهم فيها كأناس يبحثون عن القيم من خلال المؤسسات وباستخدام الموارد. والناس يشملون الأفراد، والمجموعات والكيانات الأسطورية. و"القيم" مفهوم فضفاض للأولويات اليومية، مادية وروحية، وليست صياغة مجردة للمبادئ التى تقترن بكلمة "قيمة". وأعنى "بالمؤسسة" كل أنماط الممارسات القائمة والمخصصة لملاحقة قيمة ما أو مفهوم لها. والموارد تشمل تلك المادية والبشرية. وهذا المفهوم للسيرورة الاجتماعية يتضمن أنه بينما يهدف المجتمع إلى المبادئ، فإن الحياة العادية تزخر بالمنافسة والصراع والإخفاق بدرجات متفاوته. غير أنه من المهم النظر إلى هذه العمليات والاختلافات فى إطار نظام شامل له "منطقه الداخلى" وتراتبيته القيمية والمعيارية، التى توفر الأساس لقياس وتقويم السلوك. وفيما عدا تلك المواضع التى أشير فيها إلى غير ذلك، فإن هذا الوصف يتصل بالحاضر. ومن المحتمل أن تكون بعض الأشياء التى مررت بها ولاحظتها فى شبابى قد تغيرت الآن. ولكن فى غياب دليل ملموس على ذلك، فإننى أصفها كجزء من الحاضر.

وأقوم فى البداية بتقديم الأهداف الأسمى التى تشكل النظام. وتشمل هذه الذرية ومفهوم العلاقة الإنسانية النموذجية، وقيمة الكرامة الإنسانية. ولكى أصف حياة الدينكا بشكل ملموس، فإننى ألجأ لأسلوب مقاربة دورة الحياة مسلطاً الضوء فيها على لحظات الميلاد والرضاعة والطفولة والشباب والرجولة والكبر ثم الموت. وبما أن منطقة الدينكا تمر الآن بفترة تغيير حاد، فإن عنوان الفصل الأخير هو "التغيير" ويصف كلاً من جوانبه الثقافية، والأفراد الذين تأثروا بها. بعد ذلك تلخص الخاتمة الكتاب وتثير بعض المسائل المتصلة بمستقبل الدينكا فى إطار المشاكل التى تواجههم الآن.

الفصل الثانى

الأهـــداف

التناســل

بالنسبة لرجل الدينكا يمثل المكان الذى أتى منه وذلك الذى سيذهب إليه معلمَيْن فى دورة الحياة يتم إحياؤهما واستمرارهما بالتناسل. وبرغم القلق الذى يثيره الميلاد، فإنه سبب للابتهاج، ولكن الموت نهاية لا يكون الخلاص منها إلا بخلود النسل.

لذلك يخشى الدينكاوى أكثر من أى شىء آخر أن يموت دون أن يكون له ابن "يقف على رأسه"، يحفظ اسمه ويُحيى تأثيره فى هذا العالم. ومنذ اللحظة التى يتم فيها ميلاد الطفل يبدأ إعداده لهذا الدور، ومنذ أن يشب عن الطوق وحتى يُسجى فى قبره، يكون همه الرئيسى أن يُخلّف أطفالاً يكونون له ماكانه هو لمن سبقوه. ففى أعين الدينكا يُعتبر الفانى الحقيقى هو الرجل الفقير، الذى تقدم به العمر ولايملك أبقاراً يتزوج بها، والشاب الذى تخاذل أهله عن تزويجه، والرجل الذى لم يستطع لسبب من الأسباب أن يحقق هذا الهدف الكبير. لذلك عندما يموت رجل ويترك خلفه أبناءً يحزن الناس له ولكنهم يؤكدون بسرعة أن "موته لم يكن موتاً سيئاً". بخلاف الرجل الذى يموت دون أن يكون له ذرية، فذاك هو الميت الحقيقى. وهناك كلمة أخرى للموت عند الدينكا: الهلاك "ريار". لذلك فإن كل مايحتاجه المرء لكى يحرض شخصاً ضد قريب تخاذل فى تزويجه، أو لدفع رجل فقير لكى يجتهد فى الحصول على مهر الزواج، هو أن يهدد ذلك الشخص "بأن رأسه سيهلك" أوببساطة "بأنه سيهلك". وعندما يموت رجل دون أن يترك ذرية، فإنه يصبح لزاماً على عشيرته أن تختار أحد أقربائه ليخلّف له أطفالاً من أرملة تركها خلفه، أو من إمرأة يتزوجها هذا القريب "لشبحه". وهذا مايكوّن مؤسسات "تحرير

الأرواح" و"زواج الأشباح". ولأن الموارد ليست متوافرة دائماً فلا يظفر كل رجل بهذه المعالجة: لذلك يموت البعض وتندثر سلالتهم.

والخلود من خلال الذرية يعنى أكثر من حمل الأطفال وتربيتهم. ومصطلح "الوقوف على الراس" (كوول اى نهوم) له دلالات اجتماعية أعمق من كلمة "الميلاد" المعتادة (ديتث) لذلك ليس غريباً أن تسمع أحد الوالدين وهو يشكو: "إننى لم "الد" أو "هذه ليست سلالتنا". حيث تعكس هذه التعابير خيبة الرجاء والخجل، وفقدان الأمل فى هذا الابن الذى فشل فى أن يعكس الصفات الحسنة لوالديه وسلالته. وبهذا المعنى فإن "الميلاد": مرادف للذرية.

غير أن الأبعاد البيولوجية والاجتماعية للخلود أكثر حضوراً فى "الوقوف على الرأس" منها فى "الميلاد". فالخلود بالذرية هو امتداد لهذه الحياة فى المستقبل، أو للمستقبل فى هذه الحياة، من خلال ذكرى الميت. فكلما كان هذا الميت قريباً من الأحياء بيولوجياً واجتماعياً، عظمت ذكراه. لذلك فان ابن المرء من صلبه هو افضل وسائله للخلود بالذرية.

والطفل الوسيم، الشجاع، المهذب، الذكى، الحكيم، المفوه، أو الذى يستحق، فيما عدا ذلك، الثناء والتقريظ، يُعطى أبويه بهجة أن يريا نفسيهما مخلدين فى الفضيلة. والأبناء محسوبون على ابائهم وأقاربهم بدرجة تجعل الدينكا يعتبرون الثناء على ابنائهم او اقاربهم ثناء على النفس يكشف عن قلة فى الذوق. وفى الواقع لا يفعل الدينكا ذلك إلا فى أغانيهم، حينما يلجأ الناس أحياناً للفخر بأنفسهم وعشيرتهم وأصدقائهم، أو فى حالات معينة تكون فيها الصراحة أمراً ضرورياً. وعلى الرغم من أن الأطفال ينالون الثناء والتقريظ ويحظون بكثير من الحب، إلا أن ذلك يحدث بصورة غامضة ودقيقة يصعب فهمها ورؤيتها. بل إن الدينكاوى يمكن أن يوبخ طفله بأسلوب يفهمه كل الدينكا بوصفه تواضعاً- أى أنه زائف. وفى الغالب ينظر كل دينكاوى لنفسه ولسلالته كنموذج مثالى. مما يؤدى إلى انكار اى خلل أو إعاقة يعانى منهما الطفل، وعَزْوهما لمؤثرات خارج الإرث الذى ينتمى إليه الوالد المعنى، ما لم تكن هناك أدلة كافية تقودهما إلى السبب. وقد سمعت أباً يقول مستنكراً سلوك ابنه: "إنك لن تعلم ما يجول بقلب امرأة (يعنى الأم)، من يدرى من اين أتت بهذا المولود (يعنى الإبن)، إن أبناءنا لا يتصرفون ابداً بهذه الصورة. "وللمفارقة، فقد كان معروفاً عن هذا الأب فى صغره العناد وقوة الرأس التى كان الابن فى ذلك الوقت يمارسها معه.

إن ما يطلبه الأب هو كمال سلالته من خلال الذرية. ولذلك كلما كبر عدد الأبناء الذين خلّفهم الرجل من اكبر عدد من الزوجات يمكن الحصول عليه، صار ممكناً أن يتكاملوا ليكملوا ذلك النموذج المثالى، إذ سيكون من بينهم رجال يمتازون ببناء جسدى جذاب، ومحاربون مشهورون بشجاعتهم، ومستشارون يتميزون بالذكاء والحكمة، ورجال ذوو ادب جم وحس اجتماعى فائق ، ومناقب أخرى مثيلة مما يمكن أن يأتى به الحظ أو الصفات الوراثية. ومن المرغوب فيه أن يعكس الأبناء، وخاصة الذكور، مناقب ابيهم. وليس هناك ما هو أجلب للمسرة عند الابن مثل سماعه انه يشبه والده. وفى المستقبل فهو امر جارح لمشاعر الرجل أن يقال له انه لا يشبه والده، أو أنه يشبه والدته.

وهذا يشير إلى الطبيعة الأبوية المكثّفة لمجتمع الدينكا. وذلك على الرغم من أن نساء الدينكا يحظين باهتمام واحترام عظيمين، ولكن فقط بوصفهن سلالة خاصة من الشركاء الأقل مرتبة، أو بكلمات أخرى، وسائط لتحقيق أهداف الذكور. غير أن هذا لا يعنى أن الخلود بالذرية هو مسألة تقتصر على الذكور، وإنما تعنى أن التراتبية النوعية تمتد إلى مسألة الحياة الأبدية. فقد يكون الرجل فخورا جداً بأمه وعشيرتها، وقد يحبها اكثر من ابيه، ولكن موضوعياً يظل الخط الأبوى هو المسيطر. والنساء أنفسهن يدعمن هذا التراتب النوعى. حيث يسعد الأم أن ترى وتسمع أن مولودها ، وخاصة الابن، يشابه أباه، ويستفزها أن تسمع (حتى لو كانت تعرف) أنه يشبهها. ولأن نظام الأسماء لدى الدينكا مؤسس على الخط الأبوى، فإن دعوة الابن بأمه تمثل إهانة لها، إلا إذا كان الابن متوجوداً فى ظل مجموعتها الأبوية. وتسارع الأم إلى ملاحظة مناقب زوجها وسلالته لدى ابنها، وسواء كانت حسنة أم سيئة، وهى ستكون مستعدة للحديث بتواضع زائف عن خصاله النبيلة، والسخرية من سيئاته التى لن تكون أبداً سيئة مادامت إرثاً أبوياً. ولن تعترف الأم فى الغالب أبداً بأن ابنها يتصف بشىء من خصالها أو من خصال عشيرتها، حتى لو رأت ذلك، إلا إذا كانت هذه الخصال لسبب ما ذات أهمية استثنائية.

والخلود عن طريق الخلف واحد من أسس استمرارية ثقافة الدينكا. فكلما عظمت ذكرى الأموات وحسن تمثيلهم، بقيت الأمور والأحوال كما تركوها، وبالعكس. إذ إن ترك إحدى الموروثات يعنى إنكار وجود الأسلاف وإسهاماتهم فى ثقافة خلفهم. وفى العادة يكون الرد على أى اقتراح بهجر عادة بالية: "إن كلامك صحيح، ولكنها عادة أجدادنا منذ أقدم الأزمان". ومن

المفترض أن يعطيها هذا صلاحية وقابلية للتطبيق لا تخضع للمساءلة. وتعج أساطير الدينكا وحكاياتهم الشعبية، وبالأخص أغانيهم، بقصص تسرد وتتقصى أسلافا بعيدين تفسر بها الأحوال الحاضرة، حتى وإن كان الدليل مغلفاً بالأساطير والمعجزات التى لم تعد قادرة على الصمود. ولدى الدينكا، فإن هذه المُسلمّة تفضى إلى نتيجة هى أن الأسلاف الذين عاشوا طويلا وانجزوا أعمالاً أكثر هم أعظم من الموتى العاديين. إن متانة العلاقات فى حياة الفرد هى عامل حاسم وحرج. ولهذا السبب، ولأن الخلود يستلزم ضمناً علاقات زوجية، فإن الأسرة هى الوسيلة الرئيسية للخلود بالذرية.

تركيز الدينكا على إستمرارية هوية الفرد وتأثيره فى هذاالعالم، لا يعنى ضمنياً أنه لا توجد صورة أخرى للحياة بعد الموت. ولكن لابد من الاعتراف بأن معتقداتهم فيما يتعلق بهذا الموضوع معقدة وغير واضحة. فهم يرفضون بشكل حاسم المفهوم المسيحى للحياة الأخرة بوصفها من تعاليم المبشرين. ويحدث أن يستمع بعض التقليديين إلى شباب تحولوا إلى المسيحية وهم يتحدثون بحماس عن المعارف الجديدة التى حصلوا عليها، فيضحكون منهم كأنهم يريدون أن يقولوا أن هؤلاء الأولاد مازالوا صغاراً غير قادرين على الفهم، أو أنهم يدرسون أوهاماً لا صلة لها بعالم العقلاء. وسيؤكدون أن المرء عندما يموت فإنه لن يقوم مرة أخرى لكى يُحاكم فى عالم آخر. وليس لدى الدينكا أى شكوك حول قابلية اللحم البشرى للهلاك: ففى الأرض، كما فى السماء هناك حيوانات وطيور مفترسة ستقتتل فوق الحيوانات النافقة وجثث البقر الملقاة فى العراء. وحتى عندما تقبر الجثة، فهناك عوامل أخرى للفناء تقبع فى الانتظار. وعندما يشار إلى الموتى بصورة تهكمية فإنه يقال عنهم:- "لقد التهمتهم الأرضة والنمل" (اسى بووت)، ولكن فى الوقت الذى يعتقد الدينكا أن الميت يكف عن الوجود بصفة عضوية (سامحين بنوع من البقاء لعظامه)، فيبدو أنهم يؤمنون بنوع من التواجد الروحى. فالموتى يستمرون فى إيصال المطالب للأحياء عبر الأحلام أو التكهن. وإذا لم يُستجب لهم، فقد يعاقبون الأحياء إلى درجة الموت. ولا يلزم أن يكون الشخص المقتول نفسه هو الشخص المعاقب. ليس لأن موت أحد الأقارب يمكن أن ينظر إليه كعقاب للأقارب الآخرين فقط، ولكن أيضاً لأن الميت قد يتسبب فى موت قريب بدوافع الحب والرغبة فى صحبته فى العالم الآخر. ويفسر الدينكا مرض الأطفال، الذين ماتت أمهاتهم، وموت هؤلاء الأطفال بغضب الأمهات من إساءة الأحياء

معاملة هؤلاء الأطفال وبرغبتهن فى أخذ الطفل بعيداً عنهم لينضم إليها فى عالم الأموات. وبقدر ما يمكن إرضاء الأم ومصالحتها إلا أنها قد تكون عنيدة فتصر على قتل طفلها الحبيب.

وبالإضافة إلى التواصل الذى ينسب إلى الموتى، يدعو الدينكا موتاهم لكى يتضرعوا إلى الرب، أو الآلهة الأقل مرتبة، أو الموتى الآخرين، ليغفروا خطاياهم أو حتى ليكفوا عن مضايقة الإنسان. ويمكن أن يعبر رجل عجوز، مات أغلب أنداده، عن عدم رضائه بالأحياء بتمنى اللحاق بهؤلاء الصحاب. وهو شىء مختلف وأكبر من أن يقول شخص "أتمنى لو أننى كنت ميتاً" وقد يهدد أحدهم بإطلاع أقربائه الموتى على الكيفية التى تدهورت بها الأوضاع. ويمكن أيضاً أن يعترف بصلاحه بإبداء عزمه على: "إخبار أبيك عندما أقابله فى الأرض". ومما يثير العجب بالطبع أن يكون الأسلاف الذين يعتقد أنهم يراقبون أحوال الأحياء، أن يكونوا فى حاجة لمن يخبرهم. ولكن فى المقابل فإن فكرة المجىء قدماً من مواقع الحياة يعطى، لدى الدينكا أبعادا حقيقية وتأكيداً للنورانية المقدسة لأسلاف المرء.

من خلال تأكيده لحياة كل فرد وبقائه عن طريق السلالة، فإن مفهوم الخلود بالذرية يعطى القوة والحيوية للهويات الفردية والجماعية. لذلك يهتم كل فرد بصورة أكثر مباشرة بتأسيس سلالته الخاصة. وبرغم أن اهتمام الفرد بهذه المسألة يعنى ضمنياً الاهتمام بمصالح الجماعة، إلا أنه ليس من الضرورى أن تتفق المصلحتان دائماً - فى الواقع أنهما قد تختلفان أحياناً، والسبب هو الزواج. وذلك عندما يريد الأب أو إبن أكبر أن تتكاثر الأبقار قبل أن يتزوج بها ابن أو أخ أصغر.

وتكتسب الأهمية التى يَحظى بها كل فرد فى الأسرة زخماً جديداً، من واقع أن طفل الدينكا يلقن ، ومنذ عمر مبكر، أن يحفظ عن ظهر قلب نسبه الأبوى حتى آخر الأسلاف الذين يمكن استقصاؤهم. وتعتبر هذه العملية من أولى الوسائل التى يتم بها اختبار ذكاء الطفل، وتحاول كل أم أن تجعل ابنها يترك انطباعاً جيداً فى سامعيه. ومع تنامى طاقات الطفل الإدراكية، فإن سيرة حياة أسلافه (أو أسلافها)، والأساطير المتصلة بأصولهم، وأعمالهم البطولية ومرتبتهم فى المجتمع الذى عاشوا فيه، يعاد سردها لتعليل الوضع الذى تعيشه الأسرة فى الحاضر. وإذا لم يرق مستوى الحاضر للتعبير عن المجد الذى كان بالأمس، وهذا مايحدث عادة لأن الدينكا يبالغون فى ميراث آبائهم،

فلابد للقصة أن تجد تفسيراً لمواضع الاختلاف. ولأن الأسلاف موقرون، فإن التدهور غالباً ما يُعزى لسوء الحظ أكثر منه للتقصير. أو قد يقع اللوم على الضعف الأخلاقى للأجيال المعاصرة، الذى يجعل الرجال غير قادرين على إتيان الأعمال العظيمة. وقد يفخر الدينكا بصعودهم من مرتبة دنيا، ولكنهم غالباً مايعتزون بإرثهم الرفيع أو يندبون سقوطهم منه. وفى معظم الأحيان فإن هوية ومرتبة الأسرة هى مجموع الهويات والإنجازات الإيجابية لكل أعضائها، من مؤسسها الأول حتى عميدها الحاضر. ومن النادر فى ظل مجتمع تسوده المساواة، الانحدار إلى نقطة الصفر. وبرغم سعى عائلات معينة إلى المحافظة على أوضاعها، وإضفاء الاستمرارية على بنيتها الأساسية، فإن قدراً كبيراً من الحراك يحدث باستمرار، حيث يصير أناس فقراء أغنياء – مثلا بسبب أن بنات كثيرات قد جلبن مهوراً كبيرة – ويصبح أناس أغنياء فقراء، مثلا بسبب قلة البنات أو القريبات. وفيما عدا ذلك فإن الأهمية الاجتماعية نسبية وذاتية. ومعظم الدينكا يفخرون بشيء ما، ويحسون بالأهمية لسبب ما. وبما أن الأسرة هى عنصر مهم فى هذه المسألة، فإن الدينكا لا يترددون فى تحريف التاريخ وتمجيد سلالاتهم. ولا يعتبرون ذلك أمراً غير مرغوب فيه، هذا إذا نظروا إليه كأكذوبة فى المقام الأول.

ولا يقل البعد الجماعى لمفهوم الاستمرارية السلالية تميزاً عن بعده الفردانى، إن لم يزد عنه، فهنا كذلك لا سبيل للخلود إلا بتسلسل للنسل يكوِّن جماعة متكاملة. وبينما يحصى الناس أنسابهم بتعداد فردى للآباء، فإن الجماعة السليلة تعرّف بصورة جماعية بنسبتها إلى عميدها. لذلك، وبالنظر للمجموعة بوصفها تكاملا لوحدات تتبادل الاعتماد على بعضها البعض– وفى الوقت نفسه تتمايز عن بعضها البعض، وحيث يبقى دور الفرد فيها دوراً حيوياً بمثل هذه النظرة يمكن وضع الأساس الذى يمكن به فهم الطبيعة المتضامنة والمتنافسة بل والمتصارعة لمصالح الأفراد والجماعات.

الوحدة والانسجام

يعبِّر الدينكا عن مفاهيمهم للوحدة والانسجام بمصطلح (شينق cieng)، والذى يعنى فى صيغة الفعل "يعيش معاً" و"يرعى ويغتنى" و"ينظم أو يرتب" و"يسكن" و"يعامل (شخصاً ما)". وفى صيغة الاسم يعنى "الأخلاق" "السلوك

"العادة" ؛"التصرف" "الطبيعة" "العرف" "حكم" "قانون" "طريقة حياة" أو "ثقافة" وتنضاف هذه المفاهيم العشرة الأخيرة إلى صيغ الاسم من الأفعال السابقة. وكما هو واضح من هذه الكلمات، يمكن استخدام كلمة "تشينق" بصفتها أداة خالصة للوصف، ولكن الأكثر هو استخدامها بصفة تقريرية وإيعازية تتضمن حكماً تقيمياً. ولتأكيد هذا الحكم يضيف الدينكا إليه الأوصاف والأحوال المناسبة: "شينق سيئ" "شينق حسن" و"يشينق، بصورة جيدة" أو"يشينق سيئة" وقولك "هذا شينق" أو "ذلك الشخص يعلم شينق هو تقويم إيجابى، بينما يشير قولك" ليس هذا بشينق" أو أن "هذا الشخص لا يدرى شينق" إلى حكم سلبى.

وعلى الرغم من أن بعضاً من هذه المعانى لا توضح ذلك صراحة إلا أن شينق هو فى الواقع مفهوم فى العلاقات الإنسانية. فهو يعطى قيماً إنسانية مثل الكرامة والأمانة والشرف والاحترام والإخلاص والصلاح والقدرة على الإقناع وصفاً مركزياً. فى الوقت الذى تكون فيه القيم المادية تابعة للقيم الإنسانية رغم أن الأولى تستخدم للتعبير عن النوازع الأخلاقية. ومن هنا يسعى التعليم التقليدى لترقية تلك المعارف التى تخدم العلاقات الإنسانية الحميدة، بدلاً من التأكيد على التعليم كهدف فى حد ذاته. وفى مجال الاقتصاد يكون تركيز شينق على اقتسام المنتج والعناية بالمحتاجين، بدلاً من زيادة الإنتاج فوق احتياجات الاستهلاك. وفى هذا السياق فإن التعاون فى الإنتاج أمر هام، ولكن الهدف منه إنسانى قبل أن يكون اقتصادياً. فعندما يقيم أحد الرجال وليمة ويدعو أنداده وأصدقاءه وجيرانه لمعاونته فى حقله، فإن عملهم معه ينصب على مساعدته فى إنتاج محصوله المعتاد وليس لزيادة الإنتاج فى حد ذاته.

ولا تحض "شنيق" على الوحدة والانسجام بمواءمة مصالح الآخرين فحسب، بل تدعو إلى أن يساعد الفرد الآخرين. وبرغم الطبيعة العنيفة لمجتمع الدينكا، فإن "الشينق الحسن" يعارض الإكراه والعنف: لأن التضامن والانسجام والتعاون المشترك يمكن تحقيقها بصورة أفضل وطواعياً عبر الإقناع والحجة.

ويحوز "تشنيق"درجة القداسة التى يَحظى بها نظام أخلاقى موروث، ليس فقط من الأسلاف، الذين تلقوه بدورهم من الرب، ولكنه محصن ومحروس منهم أيضاً. لذلك ينظر للاعتراض على عدم التقيدبه بوصفه سلوكاً غير

اجتماعى يستوجب العقاب الدنيوى، وإنما – وذلك هو الأهم، بوصفه خرقاً للنظام الأخلاقى يمكن أن يعرض صاحبه للعنة روحية، للمرض أو الموت، تبعاً لفداحة الجرم المرتكب. وفى المقابل فإن التزاماً قوياً بقيم شينق يجلب لصاحبه المكافأة الدنيوية والروحية.

وينظر الدينكا للشينق بوصفه إرثاً برهن على قيمته عبر الأجيال، واكتسب قداسة وسمواً برغم جوانب سلبية قد تكون فيه، وهى جوانب تكاد تكون غير منظورة للدينكا. وقد سألت مرة من المرات أحد رجال الدينكا عمّا يعتقد انه سلبى فى أسلوب حياة شعبه. بعد برهة صمت ونظرة حائرة ثم بسمة، أجاب قائلا: "كيف يكون هناك أمر سيئ فى حياة الدينكا؟ لو كان هناك مثل هذا الشىء، ألم يكن الدينكا قد تخلوا عنه منذ أمد طويل؟"

ويسارع الدينكا للاعتراف بالتفوق المادى "للأجنبى الأحمر" عندما يشاهدون طائرة تحلق فى السماء، أو قوة المدافع ، وذلك بتعابير مثل "إنه قوة" أو "إنه خَلاَّق"، ولكن لا يصبح ذلك سبباً فى نظرة سلبية للنفس. فعندما تُثار مثل هذه المسألة، يكون التعليل المعتاد للتفاوت بالنظر إليه كمجرد اختلاف، ويكون الرد: "ولكنهم "جوور" بينما نحن رجال الرجال- لهم طريقتهم فى الحياة ولنا طريقتنا" . ولا يمكن عدم ادراك المعنى المقصود: "من الممكن أن تكون لهم أشياء حسنة فى طريقة حياتهم، ولكن طريقتنا هى الأفضل "وفى الواقع فإن الالتزام بطرائق الدينكا يُنظر إليه باعتباره أمراً واجباً، إذ الخروج عنها يمكن أن يقود للفساد البدنى والروحى.

وسواء كانت تشينق هى طريقة للحياة أو نسق من المعايير، فإنها تبدأ من البيت مع الأسرة، وتتبع الأسرة فيها مخيلة القبيلة. فى الواقع، فإن "شينق" تتضمن معنى أن يعيش الناس معاً فى الأسرة والبيت والقرية والقبيلة أو البلد. وتتركز كل معانيها المتعددة على طريقة "معيشتهم معاً".

الكرامة الإنسانية

هناك نسق آخر من المبادئ يقود حياة الدينكا ويتعلق بقيم العزة والشرف والكرامة. ويتم تلقين الطفل هذه القيم فى عمر مبكر، وتذهب معظم معارك الطفولة للدفاع عنها. ولقد رأينا أيضاً أن الدينكا ينظرون للخلود على أنه المحافظة على وتوقير اسم الرجل بوصفه مؤشراً على احترامة وجزء من

كرامته. ويبلغ زخم الكرامة أَوْجَهُ فى فترة الشباب وبالتحديد عند التدشين عندما يقترب الرجل من سن الزواج ويستعد لبدء سلالته الأسرية.

والرجل فى هذه المرحلة يوصف بأنه "ادهينق" (adheng) والتى يمكن ترجمتها بصورة دقيقة إلى "السيد المحترم"، وفصيلته هى أدهيينق (adheeng) أو الكرامة والاحترام. غير أن "أدهيينق" .مثلها فى ذلك مثل "شينق" – لها معان عديدة وإن. كانت كلها إيجابية. فالاسم منها يعنى "كرامة الأهل" و"الجمال" و"الوسامة" و"الأناقة" و"الجاذبية" و"الرشاقة" و"اللطف" وكرم الضيافة" و"العطاء" و"الأخلاق الحميدة" و"الرشاد" و"العطف أو الرحمة". والصفة من كل هذه الأسماء هى أدهيينق (adheeng). ويدخل الرقص والغناء فى إطار "ادهينق" إلا إذا كانا فى صلاة أو بعض المناسبات الدينية. كذلك الزينة الشخصية، وحفلات التدشين واحتفالات الزواج، واستعراضات ثيران – الذاتية، وباختصار كل تظاهرة ذات قيمة جمالية. كما أن الأصل الاجتماعى للرجل، وبناءه الجسمانى، والطريقة التى يمشى ويتكلم ويأكل أو يلبس بها، وتعامله مع بنى جنسه من البشر، كلها عوامل تدخل فى تحديد "أدهينق" هذا الرجل.

والمقابل "لدهينق" هو "يوور" والصفة منها "أيور" ولكن لكى يصير شخص ما "أيور" فإن المسألة لا تكمن إلى حد كبير فى الشكل الجسمانى والهيئة، وإنما فى الوضع الإجتماعى والتصرفات.

وعلى الرغم من أن "دهيينق" تتصل بالعلاقات الاجتماعية إلا أنه لا يجب خلطها "بشينق": ذلك أن "شينق" يعطى معايير لتقويم السلوك، بينما يرتب "دهيينق" الناس بحسب السلوك، وتتطلب "شينق" من المرء أن يتصرف بصورة معينة، بينما تسميه "دهيينق" صالحاً لتصرفة بتلك الصورة المعينة، شينق هو مفهوم للمعايير – وسيلة، بينما "دهيينق" هو مفهوم عن الوضع أو المكانة – فهو غاية.

ومع ذلك فإن تحديد وضع إنسان ما بأنه "دهيينق" لا يعود دائما للاعتبارات الكلية للشخصية. فقد يكون شخص ما "أدهيينق" بطرق معينة و"أيور" بأخرى. أو قد يكون "أدهيينق" إذا مال ميزان الأعمال الإيجابية والسلبية لصالحه.

من المعالم الرئيسية لثقافة الدينكا أنها تتيح لكل فرد فيها سبيلاً إلى الكرامة والشرف والعزة، وذلك مع اختلاف الدرجة وتنوع الوسائل فهناك

الوسائل الحسية التى غالباً ما تتصل بالمظهر والقامة والجاذبية الجنسية، وهناك الخصائل الحميدة فى علاقة المرء بالآخرين، وهناك الفضائل المنسوبة أو المكتسبة، مادية أو روحية، فهى كلها تدخل فى تحديد مكانة الشخص الاجتماعية. بعض الناس يبرزون بميزاتهم الحسية، غير أن معظم الناس يسعون لكسب الاعتراف بهم بالتزامهم بقيم "الشينق". ولكن هناك آخرون يعتمدون إلى حد ما على الطبقة الاجتماعية التى نشأوا فيها أو صعدوا إليها، والأفضلية تكون فى العادة للأخيرة. هذه الوسائل تتداخل ولا يمكن فى الواقع فصلها عن بعضها البعض، فقط بالنظر إليها كبدائل وباعتبارها جميعاً وسائل تقود إلى نفس النتائج، يمكننا أن نفهم الكيفية التى يجد بها كل فرد فى أفراد الدينكا نصيباً ما من قيم احترام الذات والاعتزاز بالنفس والكرامة الإنسانية، وسنتمكن من خلال تفصيل هذه المعايير من توضيح هذه المسألة.

لا يمكن أبداً المبالغة فى تأكيد الأهمية التى يوليها الدينكا للجاذبية والكمال الجسمانى. فأن كون المرء أعمى أو أصمَّ أو أبكمَ أو معوقاً أو مشوهاً بأى شكل كان، يكاد ينحدر به إلى ما دون درجة الإنسانية. فى المقطع الشعرى التالى يعبر أحد المغنِّين عن معنى أن يكون المرء معوقاً فى مجتمع الدينكا:

يا ابناً شاباً لأبى مانجوك
لو أن الناس كانوا يصاغون من الحديد
لطلبت أن يُلقى بى فى النار،
حتى أستطيع أن أبدأ حياة جديدة
فقد أصابنى حظ سيئ على أيدى الإله الخالق
والآن وحدها العزيمة التى تبقينى مع الرجال،
ولكننى لا أحس بأننى مثلهم،
بساقى الذى لايتيح العدْو،
لا السرعة ولا الرقص.
يا للبنات، عندما تقرع الطبول،
أذهب وأجلس كالطفل على المعقد
فكيف يكون لى أن أسعد.

وغنى عن القول أن المرء يعامل، فى مثل هذه الظروف، بقدر عال من التعاطف والاهتمام. حتى أن الاعتقاد السائد عن المعوقين هو أن رفضهم فى الزيجات

يجلب اللعنة. بل إن بعضاً منهم تمكن من التميز رغم إعاقتهم. ومع ذلك فإن الفقد عظيم. وعلى الرغم من التقدير العالى الذى يحظى به أولئك المعاقون الذين يتخطون إعاقتهم، وينجحون فى الحياة، إلا أن قدراً من الشعور بالمرارة يلازمهم دائماً.

وإنها لميزة كبيرة أن يكون المرء وسيماً أو جميلاً، غير أن "الجمال الحسى" هو مسألة أكبر من أن يحددها الميلاد. فالرجل لا يكون "أيور" لأنه وُلد قبيحاً، ولكنه كذلك لأنه يهمل مظهره ولا يهتم بأن يكون جذاباً. والدينكا لا يترددون فى الإشارة الصريحة إلى الخلل الجسمانى الذى يرونه أمامهم سواء كان ناتجاً من قبح طبيعى أو من الإهمال. وإنك لتجد بعض الآباء الذين يعتذرون بصراحة، أحياناً من باب التواضع وأحياناً من باب التهكم، عن قبح أبنائهم أمام هؤلاء الأبناء. ولقد سمعت مرة رجلاً يقول لابنه: "بقبحك هذا، من سيظنون أنه أبوك؟" وكما سمعت رجلاً يقول لبنته: "إنك مترفعة برغم قبحك، فكيف إذا كنت جميلة؟" وسمعت أحدهم يقول بلهجة عزاء لفتاة بلغت سن النضج: "لقد أصبح ذلك القبح جمالاً".

مع ذلك لا يكاد أحد من الدينكا يخلو من إحساس بالجمال أو يتوانى عن استعراض الأبهة والعظمة. وتعطى ثقافة الدينكا وسائل عدة لإبراز الجمال الطبيعى، أو لتعويضه إن كان مفقوداً، وأهم هذه الوسائل هو التزيُّن. ومن بين وسائل الزينة المستخدمة لدى كل من الرجال والنساء: الخرز والأصداف التى تلبس فى المعصم وحول العنق وعلى الجبهة، وحجول العاج التى تلبس فى أعلى اليد وحول المعصم، ولفائف الأسورة المعدنية الطويلة التى تُضع حول معاصم الرجال والنساء وحول أرجل النساء. وتضيق الحجول والأسورة حتى تؤدى إلى تورم الأطراف، ولكن ليس إلى الدرجة التى تعوق الدورة الدموية أو تتسبب فى "الغرغرينا". وقد تكون هذه الوسائل مصدراً للضيق والألم، ولكنها تعطى الفرصة لمرتديها لاستعراض فخور بالأيدى والأرجل أثناء السير. ويبدأ صبغ الشعر إلى لون أحمر أو أشقر منذ الطفولة، ويعتبر تركه على لونه الأسود لدى الناضجين مؤشراً على الحداد. والأفضل أن تكون اللثة سوداء والأسنان بيضاء وتفصلها فجوات عن بعضها البعض. وأسنان الدينكا بيضاء بصورة لافتة للانتباه، وهم يعزون ذلك إلى اعتمادهم الذى يكاد يكون كلياً على

الألبان. وقد عرفتُ بعضاً من الدينكا الذين رفضوا الشاى والقهوة التى قُدمت إليهم من الأوروبيين أو العرب لاعتقادهم بأن ذلك يؤدى إلى اصطباغ أسنانهم بلونهما. ويتم باستمرار تنظيف الأسنان باستخدام الفحم والرماد وفروع الأشجار. ويمضى معظم الدينكا يومهم كله وهم يمضغون قطعاً من الأغصان اللينة، ولا يضعونها جانباً إلا للشرب أو الأكل، ويداومون على غسل ومضمضة الفم قبل وبعد الشرب والأكل.

ورجال الدينكا عادة عراة، غير انهم يغطون مؤخراتهم بقطع مفصلة جيداً، من جلود القطط المتوحشة الزاهية الألوان عند الرقص وفى المناسبات العامة. وبعكس رجالهن وفى توافق تام مع اقتصارهن الجنسى على أزواجهن، فإن نساء الدينكا ظللن على الدوام مكتسيات. فالمراة ترتدى زوجاً من جلد الخراف أو الماعز وتلبس واحداً منهما فى المقدمة والآخر فى المؤخرة، يلتقيان فى الوسط ويتدليان من الخصر، بفتحة فى كل واحد من الجانبين تبدأ من أعلى الفخذ، وتتسع عندما يبلغ الجلد الركبتين. وحتى وقت قريب كانت الفتيات يسرن عرايا فى البيوت، برغم ارتدائهن لتنورات قصيرة فى المناسبات الرسمية وفى حضور الغرباء. أما النساء المتزوجات فكن وما زلن يرتدين تنورات طويلة تصل حتى أقدامهن. وفى حالات الحداد تقصِّر النساء تنوراتهن ولايعتنين بهن. وعادة ما تكون النساء فى الأجواء المنزلية العادية عاريات الصدور، ولكن فى المناسبات الرسمية ترتدى النسوة المتزوجات ثوباً يلتف حول البدن وينتهى بعقدة فوق أحد الكتفين، بينما يكون مفتوحاً فى أحد الجانبين.

وتُصبغ التنورات بألوان هادئة أو سوداء، وتُطرز أطرافها بالخرز والأصداف. ويحدث أحياناً أن ثبتت على هذه الأطراف أجزاء من الفراء الطبيعى. وعادة ما تعطى تنورة المرأة فكرة عن طبقتها الاجتماعية والاقتصادية، إذ إنه ليس سهلاً الحصول على الأدوات اللازمة لتزيين تنورة، كما أن اقتناءها إن وجدت يشكل عبئاً لا يقدر عليه كل الناس. وفى كل الأحوال تدخل الطبقة كعامل فى التذوق والاختيار.

وفى مجتمع يعطى قيمة فائقة للزواج، مثل مجتمع الدينكا، يمكن أن تكون النساء تاليات للرجال فى وضعهن الاجتماعى، ولكنهن يبقين فى مركز اهتمام

هؤلاء الرجال. يغنى أحد الرجال:-

المرأة هى الإله،
فعندما تدهن رأسك بيديها،
تنام كأنك أصلة.
إنها دائما تكوِّن نفسها
ومن أجلها يصطاد الرجل الحيوان
ومن أجلها يرعى الرجل الأبقار

وينفق الأقارب ثروات كبيرة فى تزيين الفتيات لكى يجذبن الرجال، ومعهم المهور. ومع ذلك فإن لقب "السيد" يفضل عند الدينكا كثيراً لقب "السيدة". وفى الواقع، بينما نجد مقابلاً لكلمة السيد هى "ادهينق" فإننا لانجد مقابلاً دقيقاً لكلمة "السيدة" إلا فى الحالات التى تستخدم فيها كلمة "السيد" لتصف "فتاة" أو "امراة" مؤهلة له.

كذلك فإن حب الدينكا للأبقار، والذى يقارب العبودية، يتصل بمرامى "الادهينق". وتشكل الثيران مركزاً لعدد من النشاطات الجمالية، فعندما يغنى رجل لثور ذاتيته فإنه يتهادى برشاقة ولطف يكشف عن إعتزاز عميق، جسده مغطى ومحمل بأدوات الزينة، يحمل فى كفه اليسرى مجموعة من الحراب اللامعة المزينة، وتتدلى يده اليسرى من زاوية كوَّنها سوار العاج الضخم الذى يحيط بأعلى اليد، ويحمل بيده اليمنى حربة فى وضع الاستعداد لرميها، رأسه مرفوع إلى الأعالى، وثوره يتقدمه محركاً ذؤابته الكثيفة، ومحدثاً رنيناً من الجرس المعلق عليه، بينما يصدر من الثور خوار مصاحب. ويغتبط الأقارب لهذا الأداء الرائع، لأن فى جاذبية رجلهم مرضاة لهم، وفى رفعة اسمه، مجدهم:-

عندما انهض للغناء، يختفى عذَّالى،
لاننى اقف وأجعلهم يبتلعون كلماتهم،
لا أحد يتشكك فى كلماتى،
لاننى مثل أجدادى،
فأنا أقف لكى يرانى أبائى،
وأقف لكى يرانى آباء آبائى،

ولكى يشاهدنى المارّون.
فأنا أنهض لكى يرونى، أمشى، باعتزاز،
كما كان ذلك فى الماضى البعيد،
فى الزمن الذى وُلدت فيه عشيرتى.

غير أن التغنى بثور المرء أو معه ليس إلا مثالاً للاتصال الوثيق بين "دهينق" والغناء والرقص. فالأغانى والرقصات تؤدى أدواراً وظيفية فى الحياة اليومية للدينكا. فهى لا تتعامل مع حالات إنشائية، وإنما تعبر عن حقائق معلومة وأناس معروفين وأهداف محددة. ولكنها فوق كل ذلك مهارات رائعة يجد فيها الدينكا الراحة النفسية والسمو المعنوى. ذلك أن القوة والانتقام اللذين يضربون بهما على الأرض، والرشاقة التى يعدون بها فى رقصات الحرب المسرحية، والارتفاعات التى يقفزون إليها، ومشاعر الفخر والرضا عن النفس التى يحملون بها أنفسهم، والطريقة التى يستقبل بها صوت المغنى الحاد بالصدى الجماعى العالى للكورس تتضافر جميعاً لتهيىء للدينكا جواً من البهجة والحماس يصعب وصفه. وعندما يتوقف الغناء، تتصاعد أصوات قرع الطبول ويصل الرقص إلى الذورة، ويبدأ كل فرد، وهو فى حالة من الانتشاء والتحقق الذاتى، بالشدو بامجاده الخاصة:-

أنا السيد المحبوب الموشح بالخرز،
أرقص على الطبول وأثبت على أقدامى،
أنا الذى تجتمع فتيات القبيلة حوله،
وتهرع إليه ثروتها،
أيا كون، أيا كون، يا ابن داو
أنا سيد يرقص دون أن يخشى على عظامه
لأننى سيد رقيق، كشىء مبهج ولذيذ.

* * *

عندما أرقص على قرع الطبول
فأنا لا أرقص مع فتاة تفقد الإيقاع



(لا توجد فى النص دينكا أجار وهم يحاكون قرون الثيران فى قفزة راقصة)

المصدر : الحكومة السودان.

تلك الفتاة المشوشة التى تفسد انسجام الرقص،
الفتاة الضعيفة (بنت الصياد) التى تعيش على النهر،
ولكننى أرقص مع الجمال الطالع الرائع،
فأنا لست هيناً عند الرقص على الطبول،
لا لست هيناً،

فليس هناك من يتحدانى فى القبيلة
ولا يمكن أن اتبعثر حول اكول
فأنا محترم كرجال الحكومة.

ورقص الدينكا هو فى الأساس نشاط جماعى، يلعب فيه التنسيق ووحدة الحركة دوراً بالغ الأهمية. إذ يجب أن تكون مجموعة الرقص بأكملها، وليس الشركاء فقط، فى حالة انسجام تام. وإنه لمما يثير العجب رؤية جميع الراقصين وهم يقفزون ويهبطون ويضربون الأرض بأقدامهم فى نفس اللحظة، وقد أشارت الأسطر الفائتة إلى أن الخروج عن الإيقاع يعرض مرتكبه لأن يكون هدفاً للاستخفاف به كراقص. ومع ذلك فإن روح الجماعة لا تغطى على دور وأهمية الفرد. فلقد رأينا أن هناك لحظات فى الرقص يبدأ فيها كل فرد بالترنم بأمجاده الخاصة، وهو ما يوضح أهمية الرقص والغناء لإحساس كل راقص واعتزازه بنفسه. ولا تشير المجموعة إلى نفسها فى الأغانى الجماعية "بنحن" بل "بأنا"، مما يدل على انه يُنظر إلى هوية الجماعة فى الأساس باعتبارها تكاملاً لذوات مأخوذة كذات واحدة. ولأن كل الدينكا يرقصون، باستثناء بعض الأفراد ذوى المكانة العالية وكبار السن (برغم أن بعض كبار السن يستمرون فى الرقص) فإن هذا التوازن والدعم المتبادل بين الأنا الفردية وهوية الجماعة، لا يرضى تصور الفرد عن نفسه فحسب، بل يؤكد كذلك هويته كعضو في هذه الجماعة.

وتتحدد "دهيينق" أيضاً بالسلوك الشخصى والنزاهة. فهناك، على سبيل المثال اداب للطعام يُنتظر من كل فرد من أفراد الدينكا الالتزام بها. ولا يجوز للرجل أن يقوم بحلب المواشى حتى أن بلوغ سن التدشين تُعرف "بالتوقف عن الحلب". ولا يجوز للرجل أن يطبخ، أو أن يبقى بقرب النساء وهن يطبخن. وإذا ما اضطر الرجل لأن يحلب أو يطبخ فى حالات السفر، مثلا، التى لا تكون فيها بصحبته نساء، فيجب أن يؤدى الرجال ذلك لبعضهم البعض وليس لأنفسهم أبداً. وليس مسموحاً للرجل المحترم بالشكوى من الجوع، إلا فى الأغانى (التى توفر ايضاً متنفساً للكثير مما يجد الدينكا، فى ظروف أخرى فى ذكره سبباً للحرج) وحتى فى هذه الحالة، يجب أن تكون المسألة قد صارت ماضياً، وانها قد حدثت لأسباب نبيلة، مثل الرعى فى معسكرات

بعيدة، أو المعاناة فى سبيل معالجة إحدى الأبقار. وعلى الرغم من أن طعام الدينكا يتكون من عصيدة سميكة تؤكل بمعالق من القرع تكون غاية فى الرقة من حفر نقوش الزينة التي عليها، إلا أن الرجل يجب أن يكون حريصاً على عدم كسر هذه الملعقة أبداً. لأن فى ذلك مؤشرا مخجلا على نهم هذا الرجل ويعنى هذا ضمناً تناول قطع صغيرة لا تملأ الفم وتتسرب من جنباته:-

لقد رأيت سيداً فى ذاك اليوم،
كان يرتدى لفائف فى أسفل يده،
وسواراً من العاج فى أعلاها.
ثم ملأ ملعقته.
يا أيها السيد، الا تشعر بالخجل؟
يالها من أشياء ثلاث رفعها الرجل!

وفى تعارض كامل مع آداب المائدة الأوروبية، يعتبر الدينكا الأكل بفم مقفل سلوكاً غير لائق كأنما يخفى المرء نهمه بهذه الطريقة أو كأنه سارق للطعام عندما يمضغه بصمت فى فمه المقفل؛ لذلك يمضغ الدينكا طعامهم بحرية محدثين أصواتاً بأفواههم، التى لا يفتحونها كلية ولكنهم لايخفون الطعام فيها أيضاً. وعندما يمسح الرجل فمه أثناء الأكل، فإن ذلك يعنى أنه قد اكتفى. ويتعلم الأطفال أنه إذا حدث ذلك عن طريق الخطأ أو للضرورة فإن الواحد منهم يجب أن يتوقف عن الأكل. واحدى الألعاب الشائعة بين الأطفال هى محاولة مسح فم شخص آخر حتى يتم إجباره بهذه الطريقة على التوقف عن الأكل. ولا يجوز للرجل أبداً أن يفرغ إناءه مهما كان نصيبه من الطعام قليلاً. كما لا يجوز له أن يشبع، إذ إنه ليس مسموحاً لبطن السيد أن يبرز إلى الأمام. ويجب ألا يأكل بقايا الموائد، فذلك أمر تفعله النساء والأطفال. كما لايجوز له أكل الذرة بغرز أسنانه فى القندول، إذ إن ذلك أيضاً من خواص الأطفال والنساء. وبدلاً من ذلك فعليه أن يفصل الذرة من القندول بأصابعه، قبل أن يأكلها. ولكى يكون المرء محترِماً لنفسه، فإن عليه أن يتجنب الزيارات غير الضرورية، التى قد تُفسر باعتبارها جرياً وراء الدعوات. بل إن رفض تلبية الدعوات يُمارس بصورة شائعة تصل إلى حد النفاق:-

لم أُهَنْ أبداً بسبب السحر،

ولم أُهَنْ أبداً بسبب السرقة،

أو بسبب زيارات غير ضرورية، يذهب إليها بعضهم،

بل ويقضون الليل فى بيوت الغرباء،

عندما لا يكون لديهم مايفعلونه،

بهذه أيضاً لم أُهَنْ أبداً.

وبسبب النهم،

حيث لا يقول الرجل أبداً،

"ليست لى، بل هى لك"

بهذه أيضاً لم أُهَنْ أبداً.

والمقطع التالى لمغنٍّ تقاسم المعسكر مع رجل نهم، كان يستخدم ملعقة كبيرة تماثل جرساً مجوفاً:-

يا الرجل الذى ظلم نفسه (بمقاسمته للمعسكر مع رجل نهم)

فقد كان أفضل له أن يلعق عسله وحده فى بيته،

ويا لذلك الرجل الذى اقتنى له جرساً مجوفاً،

فأفضل ذلك الذى يقرع رجلاً بعضى على رأسه،

والذى يتقاسم معسكراً مع رجل لا يعرف

أن يقول "لا"

فأفضل منه من يقيم مع رجل مجنون،

ويعلم أن عليه أن يكون جاهزاً لتفادى رمية حربة.

ولا تشكل الأمثلة المشار إليها أعلاه إلا نموذجاً للقيود التى يفرضها الاحترام على الدينكا. وفيما عدا تلك الحالات التى أبرزتُ فيها حكماً مغايراً، فإن هذه القيود تنطبق على النساء كذلك، وإن بدرجة أقل. فما لم تكن المراة ضيفة، مثلا فإنه بوسعها كسر ملعقتها أو إفراغ إنائها من الطعام، دون أن يشكل ذلك عيباً. ومع ذلك فإن من الأسوأ بكثير أن تكون المرأة نهمة، مقارنة بالرجال. ولكن العادة أن نساء الدينكا لا يأكلن إلا قليلا. وكما يقول الدينكا فإنهن "يأكلن بأعينهن" أثناء الطبخ.

وبالطبع فإن بعض هذه القيود قد تبدو، لأولئك الذين يبحثون عن تعليلات مادية، وليدة ظروف نقص الطعام، وبالتالى فهى ترمى إلى توزيعه بتساوٍ بين

الناس. ولكن على رغم من وجاهة هذا التفسير، إلا انه لا يوضح المسألة تماماً. إذ إن أرض الدينكا لا تعرف هذا النقص الواضح فى الغذاء. فحتى عندما يكون المحصول غير كافٍ بسبب الاستهلاك البذخى، فهناك دائماً غذاء وفير فى الغابات والأنهار لسد حاجة السكان. هذه الأعراف هى ببساطة اعراف الكرامة والاحترام بالنسبة للدينكا.

فيما يتعلق بالعلاقات الإنسانية، تأخذ "دهيينق" وجهتين مختلفتين: وجهة محافظة يكون فيها إبداء الاحترام اساساً بالاجتناب، والوجهة الثانية تتطلب، وتعنى ضمناً، القيام بواجبات إيجابية تتمخض عن فوائد. ويتصل الاجتناب فى معظم الأحيان بالأقرباء من المصاهرة، وخاصة بين الرجال والنساء. وهو ليس بذلك الوضوح بين الأنداد الذين عادة مايسود بينهم الهزل والملاطفة. ويمتد مفهوم القرب بالمصاهرة ليشمل كل اولئك الذين يمكن نظرياً أن يدخلوا فى علاقة مصاهرة. فكل امرأة متزوجة ليست من الأقارب، هى صهر محتمل، ويجب بالتالى إبداء مظاهر الاحترام لها من كل أولئك الذين يمكن أن يقترنوا بذريتها. وفى الواقع يقوم الناس فى مثل هذه العلاقات أحياناً بمخاطبة بعضهم البعض بألقاب المصاهرة، حتى فى الحالات التى لم تحدث فيها حالات زواج حقيقية بينهم.

وعلاقة الأقرباء بالمصاهرة هى علاقة يسودها الاحترام الشديد ويحكمها العديد من الطقوس والمراسم. فلا يجوز فيها أن يأكل الرجل فى بيت صديقته أو فى بيوت أقاربها. يمتنع الرجل وبعض من أفراد أسرته البارزين، من الرجال والنساء، عن الأكل فى بيوت أقارب زوجته، حتى بعد زواجها وانتقالها إلى بيت زوجها، أو عن تناول أى طعام تكون قد جلبته هذه الزوجة من أقاربها أو اشترته بنقودهم، وينتهى هذا الامتناع فى العادة بما يعرف "غسل الفم" أو "مسح الفم" والذى يتضمن إهداء بقرة أو عدة أبقار للشخص الممتنع. ويتطلب إبداء الاحترام الذى هو الدافع وراء الاجتناب، يتطلب من المرء إظهار الوقار والتأدب والتحفظ فى وجود الأصهار، وخاصة من الجنس المقابل. ومن ذلك الا يتحدث المرء وجهاً لوجه مع صهر بارز من الجنس المقابل. وكثيراً ما يشاهد المرء رجلاً فى جانب من شجرة وامرأة فى الجانب الآخر، أو أحدهما داخل كوخ بينما يبقى الآخر خارجه، وهما منهمكان فى نقاش حاد لمسألة قد لا تكون بهذه الخطورة. وعندما يقابل رجل امرأة فى الطريق، فإنه يطقطق

اصابعه بصوت عال قائلاً:- "هل يمكن أن نلتقى؟" "هل يمكن أن أحضر؟" أو: "هل لى أن أمر؟" وهو ماتجيب المرأة عليه قائلة: "نعم، بكل شرف".

عندما تقترب امرأة من الدينكا من أصهارها القاعدين، أو أى رجال آخرين يمكن أن ينضافوا لهذه الفئة، فإنها تجثو على ركبتيها قبل الوصول إليهم بمسافة، وتُعلن قدومها وتقترب وهى تحبو على ركبتيها، وتتوقف على بعد عدة ياردات للتحدث إليهم. وعندما تقوم المرأة بتقديم الطعام للرجال، فإنها تجثو على ركبتيها على مسافة منهم. وتحبو إليهم لتضع الطعام أمامهم، ثم تحبو راجعة إلى الخلف حتى تبتعد عنهم، ثم تنهض وتسير على رجليها.

"دهيينق" يشترط إذاً قيماً أخلاقية عالية لدى الدينكا. وقد كتب الميجور تيثرينجتون (Titherington) الذى يعود احتكاكه بالدينكا إلى أيام الاستعمار:

". . الإحساس بالقيم الأخلاقية عالٍ لدى الدينكا. فالقتل العمد - فى جلاء عن القتل فى اقتتال شريف - يندر وجوده وسط الدينكا، كما أن السرقة ذاتها - خلافاً لنهب الأبقار بالقوة أو الإحتيال عليها فى حالات النزاع على ملكيتها - غير معروفة، وكلمة الرجل هى وثاقه، وفى الحالات النادرة التى يُطلب فيها من رجل أن يُقسم، فإن قسمه ذاك يُقبل بلا تردد أو تشكك"[1].

كذلك كتب ميجور كورت تريت (Court Treatt) بعد أن اتصل بالعديد من الشعوب الأفريقية "الدينكاوى. . رجل محترم. فهو يمتلك حساً عالياً بالشرف، ويكاد لا يكذب".[2] فى موضع آخر:- "ولابد أن أضيف كرامة واعتزازا نادرين فى السمت والمظهر"[3].

وينتشر وسط الدينكا نهب الأبقار أو سرقتها، ولكنه دائماً ما يحدث فى إطار التنازع على ملكيتها، ولا يُعتبر أو يُسمى حتى "سرقة". إذ إن السرقة فى ذاتها لا تحدث إلا نادراً جداً، ولكنها وقتما تقع، حتى عندما يكون المسروق شيئاً هيناً مثل قطعة تبغ، فإن مرتكبها يتعرض لمقاطعة صارمة ويعاقب من أنداده فى السن.

ويقوم هؤلاء ببقر ثور الذاتية الذى يخص السارق حتى الموت، أو الذى

1- Major G.W. Titheringtion. "The Raik Dinka of Bahr-el-Ghazal Province" Khartoum, Sudan Notes and Records, vol.10, 1972, pp. 159 - 169.

2 - Major C. Court Treat "Out of the Beaten Track, New York: E. P. Dulfon & Co. Inc. 1931, p. 115

3- المصدر السابق، ص 116

يخص أخاها إن كانت أنثى. وتتضافر الأهمية الوظيفية لمجموعة الأنداد، والملابسات الدرامية التى يتم بها قتل الثور والسرعة التى ينشر بها الخبر، لتعطى الدليل الكافى على أن الإجراءات العقابية تفوق كثيراً الجرم المرتكب. وينفر الدينكا من النميمة التى ينظرون إليها بوصفها نوعاً من الكذب، وباعتبارها غير لائقة بأخلاق وشخصية السيد المحترم.

فى معسكرنا، "مانقار التونج دى اجينق"،
لم أتحدث أبداً عن شخص من ورائه، مع أحد،
ولم أخنق أبداً بكلماتى،
ليتنى أموت، فأنا أكره الكلمات التى يهمس بها،
سيد كأنها فحيح الثعبان،
عندما تُقشر كلمة السيد مثل قصب السكر
فإن شرفه يكون قد ذهب.

يصبح المرء "ادهينق" إذا كان ذا طبع مسامح، وإلى حد ما، إن امتلك ثروات مادية وافرة، غير أن "الادهينق" المثالى هو ذلك الذى يجمع بين الكرم والثروة. ويشمل ذلك امرءًا كريماً لكنه فقير، فيكفى أنه يبذل جهده، بينما هو يقف على أعتاب أن يكون "يور" على المستوى المادى. وفى المقابل فإن رجلاً غنياً تعيسا هو "أيور"، إذ لا يكفى أنه يعطى إذا كان يفعل ذلك متردداً، أو لايعطى بما يتناسب مع مايمتلك. ولكنه "أدهينق" على نحو ما، بسبب ثروته. أما "الادهينق" المثالى فهو المرء الذى يفتح بابه ويستضيف أى شخص فى أى وقت، ويستمتع بفعل ذلك، كما أنه يستطيع أن يتحمل ذلك. ومثل هذا "الادهينق" يمكنه ذبح حمل أو ثور بحسب أهمية الضيوف أو عددهم.

ولا يكفى لكى يكون المرء "أدهينق" حقيقيا، أن تهبط عليه ثروة مفاجئة من السماء. وفى المقابل فإن السقوط من الغنى إلى دائرة الفقر بصورة مفاجئة، لا يؤدى بالضرورة إلى انتفاء كل صفات "الادهينق" ويؤخذ فى الاعتبار دائماً قدر من المكانة الموروثة. لذلك هناك تطابق كبير بين "بينى" (الزعامة والأرستقراطية) و"أدهينق". وهناك تطابق أيضاً بين أن يكون المرء "ليك" (أى شخص عادى) وكونه "ايور". ولكن يجب التشديد على أن الحديث عن الشخص كزعيم أو أرستقراطى أو ثرى، هو حديث عن السلطة والنفوذ والثراء

وليس عن المكانة الكلية المتضمنة فى "ادهينق" فيما عدا أنه يُتوقع فى العادة، من الزعيم ومن الثرى اللذين يملكان فرصاً أكثر، التزاما أكبر بالخصائل المثالية لدهينق بالمقارنة مع الرجل العادى ومع الفقير.

ولنفس السبب المتصل بالأصل، فإن شخصاً ما قد ينظر إليه بوصفه "يور" إذا لم يكن له أب أو أقارب يُعتمد عليهم حتى دون أن يكون له ذنب فى ذلك. وهو أمر قد لا يكون بالسوء الذى تصوره الأغنية التالية، ولكن أبياتها توضح هذه النقطة:-

عندما كادوا أن يعتدوا علىّ فى أبيى،
لم ينقذنى إلا دينق، الإله المحتذى،
من غيره كان سينقذنى؟
أليس الزعيم هو أب اليتامى
يا للتعاسة.
أن يصاح على
"الرجل الذى مات أبوه"
أيها الدينكا، إننى لم ألتهم أبى
فليس هناك من تطبخ أمه للموت.

وتعنى الكلمة التى يستخدمها الدينكا لليتيم" الشخص الذى أُخذ (بواسطة الرجل الميت)، "أبار"، وهى تشير إلى الآثار الخطيرة لموت رجل على أولئك الذين يعتمدون عليه. تمتد حالة اليتم حتى سن الرشد. وهى السن التى يبلغ فيها ألم من لا أب له ذروته، بسبب المسئوليات التى تقع على عاتقه.

وحتى يمكن إستيعاب الأثر التهذيبى "لدهينق" على كل الدينكا، قد يكون من المفيد إلقاء نظرة فاحصة لمعرفة من يتبع أية سبيل، ومن أى وضع ونحو أى وضع بديل. وبما أن المسنين الذكور من السلالة يتحكمون فى الوسائل المادية والمتوارثة "لدهينق" فإن الشباب من الرجال والنساء يشغلون أنفسهم بقيم مثل الغناء والرقص، التى، رغم كونها نشاطات يمارسها الشباب فى كل مجتمع، إلا انها تؤدى، فى مجتمع الدينكا، وظيفة القيمة البديلة. وبهذه الطريقة يتم إشباع رغبات الذين لا يملكون، مما يؤدى إلى تهدئة عدائهم المزمن.

وينهى "دهيينق" عن الضجيج والعنف والعدوانية، وهى خصائل يتم التركيز عليها فى طفولة الدينكا بوصفها مكونات للشجاعة وطريقاً للقوة الجسمانية. وهى الخصائل التى يجب ضبطها والتحكم فيها عندما يصبح المرء على أعتاب سن النضج. حيث يتم تشجيع الشباب من الرجال على الإنخراط فى النشاطات التى تتطلب الشجاعة والمغامرة وقوة التحمل، من دون أن تؤدى للانكسار أو تقود إلى مخاطر غير مبررة. فيسافرون إلى أماكن بعيدة لقطع الأشجار التى تصلح كطبول، ويقومون بالرعى فى معسكرات نائية بحثاً عن الكلأ الأفضل، ويصطادون الحيوانات البرية التى تهدد القطعان والرجال، ويتنافسون فى الألعاب الرياضية، ويعاقبون أندادهم الذين يرتكبون أفعالاً معيبة، وبالطبع فإنهم يدافعون عن الأرض والقطعان ضد المعتدين، وفيما عدا ذلك فإنهم يجدون متنفساً لطاقاتهم فى أغانى الحرب والرقصات.

وأكثر مايكون الميل إلى التنفيس عن طاقات الشباب وضوحاً فى الأهمية التى يوليها الشباب من الرجال والنساء للأبقار، وعلى وجه الخصوص للثيران والفحول. فهم يجعلون قرونها أكثر حدة ويدفعونها للتقاتل. وعادة ترمز الفحول المخصية (أى الثيران) إلى خصائل الوقار والخضوع فى جانب منها، وإلى العنفوان والشجاعة البدنية فى جانب آخر. ويقوم الشباب من رجال ونساء الدينكا، فى أغانى الثيران، بمدح ثيرانهم أو ثيران أزواجهم أو أصدقائهم لعنفوانها وقوتها بالرغم من أنهم قد يذمونها لنفس الصفات، وهى ترمز بالنسبة لهم للسلطة والثراء. وعادة ما يعبر الواحد منهم عن اعتزازه بثروة أسرته فى أغانى الثيران، وفى علاقته بثور ذاتيته، لذلك عندما يمتلك الرجل الشاب ثوراً أو عدة ثيران، فإن إحساسه بالغنى، هو وزوجته أو صديقته، لا يقل بحال عن أبيه الذى يمتلك كل القطيع. وواقع أن الثور، رغم كونه خصياً ومرغماً، له هذا الوضع المحورى فى جماليات القطيع، هو إشارة رمزية لواقع الشباب من الرجال والنساء الذين يحتلون، رغم تبعيتهم لكبار السن، موقعاً هاماً فى جماليات مجتمع الدينكا.

تعطى لغة الدينكا دليلاً واضحاً على أهمية القيم الجمالية كوسائل تعويضية أو بديلة "لدهيينق". فيوصف الرجل بأنه "الويب" (كذاب) ، وإن كان ذلك لا يعنى كل النقيصة التى ترتبط عادة بهذه الكلمة - إذا لم يكن يجيد

الرقص والغناء، ولكنه يحرص على ترك الانطباع بأنه مغنٍّ جيد، أو راقص ممتاز، ويحيط نفسه بهالة من المبالغة كأنه شخص باهر الوسامة، ويدّعى الكرم الزائد كأنه ثرى، أو يتصرف، فيما عدا ذلك، بأى صورة تفاخرية فى وضع يتصل "بدهيينق". وفى نفس الوقت فإن شخصاً متميزاً فى الغناء والرقص والوسامة والثراء أو أى خصيلة أخرى من خصائل "دهيينق" ويتصرف وفق هذا الوعى والاعتزاز بتميزه، يوصف أيضاً بأنه "كاذب". فى الواقع يُنظر لكل شاب أو شابة يشغل نفسه (أو نفسها) بالقيم الجمالية باعتباره واهماً، ولكن لا يعنى ذلك نقصاً حقيقياً لدى الدينكا، بل هو، فى الواقع وأغلب الأحيان مدح فى قالب الذم.

ويُعامل الغناء بنفس الطريقة. فتأليف أُغنية يسمى "خلق" أغنية (كاك ديت)، والكذب يسمى أيضاً "خلق" الكلمات (كاك ويل). وتستخدم كلمة "كاك" لوصف عمل الإله فى "الخلق"، وعلى الرغم من أن مقارنة الخلق الإلهى بالكذب تتجاوز الحدود المعقولة التى يمكن أن يحتملها هذا التشبيه، إلا أن العامل المشترك هو إيجاد شىء لم يكن موجوداً من قبل – فى حالة الأغانى، فإن الكذب قد يشير إلى المتعارف عليه من المبالغة والتحوير الذى يحدث فى الأغانى، ولكن هناك أيضاً المقارنة المتضمنة فى أن الأغانى توفر للشباب من الرجال والنساء قيماً إيجابية، لم تكن لتتوافر فى ظل المعايير القيمية المستخدمة من الكبار، الذين يقومون بتحديد المثل المقبولة فى النظام. ولا يجوز أن يفهم هذا بوصفه إنكارا للوظيفة الحقيقية التى تؤديها الأغنية، أو أنه يعنى اقتصارها على الشباب. ذلك أن الأغانى تعنى الكثير جداً لكل الدينكا، رجالاً ونساءً، وفى كل الأعمار، وهو الأمر الذى لولاه لكانت أهميتها للشباب فى الغالب، بلا فائدة. ومع ذلك فإنه لأمر ذى دلالة أن تهتم هذه المجموعة بها.

من هنا فإن "دهيينق" هو مفهوم للمكانة التى يمكن الوصول إليها بطريق الوسائل الجمالية التى يسلكها الشباب، وبواسطة الوسائل المادية التى يتحكم فيها الكبار. وفى العادة يُنظر لأساليب الشباب، بدرجة تقل أو تكبر، بوصفها اكتسابا "لدهيينق" متخيلا، بينما أساليب الكبار توفر ذلك "الدهيينق" الحقيقى. لكن وعلى الرغم من ذلك، فإن قيم الشباب مجللة بالطقوس وبالمراسم، بالأساطير وبالأمجاد، مما يجعل أطرها وتأثيرها على المجتمع

ظاهراً للعيان ولافتاً للانتباه، بأكثر مما هى عليه أوضاع الكبار المحسوبة ببرود والمضمونة سلفاً. والنتيجة هى شباب هادف، معتز بنفسه، راضٍ نفسياً، ومشارك اجتماعياً، يستمتع بمطايب الحياة الآنية، ويتطلع فى الوقت نفسه لفرص التملك والانتفاع اللاحقة التى تنتظره عندما يتقدم به العمر. وفى حالة الرضى هذه، فإنهم يلتزمون بالأعراف الأساسية للنظام الذى أملاه كبارهم.

الفصل الثالث

الميــــــلاد

تحديد النسل

تُعتبر نسبة نمو السكان وسط الدينكا واحدة من أعلى النسب فى السودان، وليست تلك بصدفة، إذ إن التناسل عند الدينكا قيمة بالغة الأهمية. وعادة ما يتطلع الزوجان لإنجاب أكبر عدد من الأطفال يمكن أن يرزقا به. ولكن بجانب الظروف "التى يتدخل فيها سوء الحظ ليحدد العدد الكلى للأطفال الذى يمكن تربيته بواسطة الزوجين، يمارس الدينكا أعرافاً تؤدى إلى التحكم فى الإنجاب وتباعد بين الولادات، على الرغم من أنها لا تُعتبر وسائل لتحديد النسل.

إن نسبة الوفيات وسط الدينكا مرتفعة جداً - ويزداد الأمر سوءا بين الأطفال. وقد أبان تعداد السكان لعام ١٩٥٢، أن متوسط حياة الفرد المتوقعة فى السودان لاتتجاوز ٢٨ سنة، كذلك أوضح نفس التعداد أن السودان، حيث يولد ٥٢ طفلاً لكل ١٠٠٠ من السكان، يحتل المرتبة الثالثة فى العالم حسب نسبة المواليد، بينما ظلت نسبة الوفيات، التى تبلغ ١٩ لكل ١٠٠٠، عالية بصورة لافتة، برغم إنخفاضها الواضح عن نسبة المواليد. وقد أوضح تعداد نموذجى للسكان أجرى عام ١٩٥٣ أن ٩٤ طفلا من كل ١٠٠٠ يموتون فى السنة الأولى. هذا وتبلغ نسبة الخصوبة وكذلك نسبة الوفاة فى جنوب السودان ضعف مقدارها فى الشمال.

ليس من السهل أن تجد زوجين من الدينكا لم يفقدا طفلاً أو طفلين على

الأقل. وكثيراً ما تستخدم أسماء من مثل "الذى لقى حتفه" أو " الذى ليس فى أمل" أو"الذى نجا" لتشير إلى أحزان الماضى، أو التوقعات قليلة الحيلة بوفيات قادمة. لذلك عندما يقول الدينكا أن طفلاً مازال اصغير من أن لكى يُعطى اسماً، فإن ذلك إشفاق من الموت، أكثر منه حكم على السن أو إقرار بحياده الجنسى- كما يبدو أنه الحال فى الاستخدام الحالى للضمير (it) للرضيع فى اللغة الإنجليزية.

تنتمى النساء اللاتى يموت أطفالهن بانتظام إلى ما يشبه طبقة خاصة. ويعزى الوضع المتدنى الذى تحتله هؤلاء النساء إلى الاعتقاد السائد بأنهن مسؤولات بصورة أو بأخرى عن فقدان أبنائهن. والمقاطع التالية لامرأة فقدت أطفالها وظلت على الدوام تغنى بتعاسة:-

ارفعى صوتك بالعويل يا جوركول،
ارفعى صوتك بالعويل يا مالينق دى دينق،
فكل عام يأتى، ويأتى معه عويلى،
وكل عام يأتى،
ومعه يأتى حدادى.

وفى الأغنية التالية يعزو رجلٌ الموت المتواصل لأبناء جدته ليس لذنب جنته، ولكن لنزعات الإله المتقلبة وشؤم البومة:-

جدتى، جدتى
أُلويل بنت كول
قد اتت وهى فى عزة انكرها الرب
هى سيدة فخمة أنجبت العديد من البنين
ثم .. يا حزنها!
حطمت معولاً وهى تحفر قبراً لهم
تركت والدى كعجل جاموس منفرد
تصرخ البوم فى دارنا فى الدجى
طائر الليل ألقى علينا دجى سحره
صاح طير عظيم
" حين يأتى السحر، حين يأتى السحر
ياابن دينق، حين يأتى السحر
سوف تدفن طفلاً هنا آخر"

طائر الليل ألقى على والدى سحره
فهو يعلم أين مقابرنا
ولذا ظل طفلاً وحيداً أبى
أرضنا، أرضنا
أرضنا فى بابيم
والدى سربلته الجثث
لم يعد موضع لِقدم*

ويحد الموت من الانفجار السكانى جزئياً، غير أن النمو السكانى وسط الدينكا أقل مما يمكن تفسيره من خلال نسبة الوفيات وحدها، كما أن الموت ليس هو المبرر الشائع الذى يعطيه الدينكا كسبب لرغبتهم فى المزيد من الأطفال. ويبدو أن التجربة قد علمت الدينكا أن التوالد بلا ضوابط يضر بصحة الأم والأطفال. من بين وسائل ضبط النسل المستخدمة تحديد حد أدنى لعمر الزواج، وامتناع المرأة المرضعة عن ممارسة الجنس، وإنهاء النشاط الجنسى للمرأة التى تتزوج بنتها أو يصل ابنها مرحلة التدشين وإجراءات أخرى يتخذها الشركاء غير المتزوجين لمنع الحمل.

وعلى الرغم من أن الدينكا كانوا يتزوجون فى أعمار مبكرة عمّا هى عليه الآن، إلا أن سن الزواج لم تكن فى الواقع أبداً منخفضة، كما هو شائع بصورة عامة عن المجتمعات التقليدية. ويحدث أن يقدم رجل لفتاته الجميله سواراً وقبل زمن طويل من الوقت الذى تعى فيه هذه الفتاة معنى الخطبة المتضمن فى هذه الهدية. ولكن لا يمكن العزم على الزواج وإكماله إلا بعد أن تبلغ الفتاة مرحلة البلوغ. ولكن حتى هذا لا يعدو أن يكون نظرية قانونية لا غير، إذ تتزوج الفتاة، فى واقع الأمر، قريباً من سن العشرين أو حتى ما بعد ذلك، وفى المقابل يتم الإسراع بتزويج إبن مات أبوه ليحصل بسرعة على أطفال حتى لا تنتهى سلالته إذا ما مات هو فجأة، وكذلك قد يتزوج الابن لرجل مهم فى عمر باكر حتى يتسنى له التخفف من بعض الالتزامات الاجتماعية التى تفرضها عليه مكانته، ولكن لا يسمح لأى رجل بالزواج قبل سن البلوغ. ويتزوج معظم الرجال بعد سنوات من تدشينهم الذى يكون على الأقل عند الدينكا أنقوك، بين السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة من العمر.

*ترجمة هذه الأغنية قام بها الأستاذ/ عصام عبدالرحمن فى كتاب آخر للمؤلف هو "طائر الشؤم" ص٩.

وقد يضطر أولئك الذين لا يملكون الوسائل المادية للإنتظار حتى الثلاثينيات والأربعينيات من عمرهم. ولكن فى النهاية يتزوج كل رجال ونساء الدينكا وإذا حدث أن بقيت فتاة غير متزوجة لفترة طويلة، قد يبادر أقاربها بإعطائها لرجل حتى ولو بمهر رمزى. وبالمثل إذا لم يستطع رجل الزواج لضيق ذات يده فقد يُهدى فتاة بمهر رمزى على أمل أن يقوم بتسديد مهرها الحقيقى فى المستقبل، حتى إذا كان ذلك من خلال أطفاله.

ويتميز الزواج لدى الدينكا بفترات الخطوبة الطويلة التى تستمر على الأقل لعدة سنوات. ويتمثل أحد الأسباب الأساسية لطول فترات الخطوبة فى صعوبة الحصول على مهر الزواج. ولكن نسبة للتكلفة العالية للزواج، فلا ينتظر من أحد فى العادة أن يقوم بدفع كل متطلباته، من غير مساعدة الأصدقاء والأقارب. من ناحية أخرى تؤدى هذه المساعدة إلى السمو بالدور الاجتماعى للزواج وتقدم الدليل على العلاقات الاجتماعية الواسعة للرجل، وبالتالى تمكنه من ترسيخ وضعه. غير أن الصعوبة الكبيرة التى يقابلها مثل هذا الرجل تتمثل فى دفع معارفه وأقربائه لكى يهبوا لمساعدته. حيث يجب زيارة كل واحد من هؤلاء الأقارب والأصدقاء وإشعاره بالأهمية البالغة التى يعنيها فى هذا الزواج. ولكن بعضاً من هؤلاء يزيدون من صعوبة المهمة ببخلهم إستمساكهم، مما يستدعى زيارتهم عدة مرات، قبل أن يوافقوا على التنازل عن أبقارهم. وبعض الرجال يكونون فى أوضاع غاية فى السوء، لا تمكنهم من الزواج إعتماداً على أنفسهم، كما أنهم لا يحصلون على أى مساعدات من الأقارب والأصدقاء. وهؤلاء هم الذين ينتظرون حتى تصل أعمارهم إلى الثلاثينيات أو أكثر من ذلك. ولا تقتصر أسباب طول فترات الخطوبة على الصعوبات المتصلة بإعداد وجمع المهر، ففى جانب العروس أيضاً يجب توزيع الأبقار فى دائرة واسعة، بحيث ينال كل قريب منهم نصيباً عددياً ونوعياً يرضيه. وهو أمر بالغ الصعوبة، كثيراً ما يستغرق وقتاً أطول مما تريد أو ترغب فيه الأطراف المعنية. تعود هذه السلسلة الطويلة من الإتصالات الشخصية، وفترة الخطوبة الطويلة التى اقتضتها، إلى تعارف وإجتماع شمل تدريجى، ولكن بخطى ثابتة، للأسر المعنية، وهو عامل هام فى ثبات واستقرار زيجات الدينكا. ونظراً لأن الخطوبة تتم فى العادة بعد أن يبلغ الطرفان سن النضج، فإن فترة الخطوبة الطويلة ترفع بصورة واضحة من سن الزواج. غير أن هذا التمديد لا يرجع لاعتبارات عملية خالصة.

من المتفق عليه لدى الدينكا أن ينال الصبيان والفتيات قسطاً من الحياة الحرة والنضوج الجنسى قبل أن يواجهوا مسئوليات الحياة الزوجية. لذلك فهم يشجعون الاختلاط بحرية تامة بين الجنسين، وعلى الرغم من أنه يؤدى أحياناً إلى علاقات جنسية قبل الزواج، إلا أن معايير السلوك الجنسى وضبط النفس، لهى من المتانة بحيث لا يحدث إلا نادراً إساءة استخدام هذه الحرية. وتنتظر التجربة الواسعة والنضج من الرجال على وجه الخصوص. ومع أن البقاء بدون زواج لفترة طويلة يُعتبر عيباً، إلا أن بعض الشباب من الرجال يقاومون، فى الواقع، الزواج المبكر، ويفضلون بدلاً منه حرية حياة العزوبية فى معسكرات الأبقار . يقود هذا التأخر فى الزواج إلى تأجيل الإنجاب وتقصير مرحلته.

يتم تحديد النسل أيضاً من واقع أن المرأة المرضعة التى ترضع طفلها لفترة تتراوح بين عامين إلى ثلاثة أعوام، تمتنع عن ممارسة الجنس خلال هذه الفترة. والخروج على هذا العرف يؤدى إلى إصابة الطفل بنوع من الإسهال يسمى "ثيانك"، يُعتقد أن عدواه يمكن أن تنتقل لكل جيرانه من الأطفال الذين هم فى سنه. وبما أنه من المفترض ألا تتقاسم المرأة المرضعة السرير مع زوجها، فليس صعباً أكتشاف مخالفتها لهذا العرف، إن خالفته، وهو أمر نادر على كل حال. ويرجع السبب فى ندرة الخروج على هذا العرف إلى تعدد الزوجات الذى يوفر بدائل جنسية للرجل، وإلى الأهمية القصوى التى يوليها المجتمع لإنجاب الأطفال (مما يزيد من غبطة المرأة ورضاها فى إرضاع طفلها). ولا تعود المرأة إلى ممارسة الجنس مع زوجها إلا بعد فطام الطفل وإرساله إلى قريب للأم. وهذا يعنى أن الحد الأدنى للفارق فى العمر بين أحد الأطفال والطفل الذى يليه، وسط العائلات متعددة الزوجات يتراوح مابين ثلاث إلى أربع سنوات. ولهذا فإن نظام تعدد الزوجات هو وسيلة لضبط النمو السكانى، لأنه يوزع فرص الالتقاء بالزوج بصورة واسعة.

وترجع محدودية العدد الكلى للأطفال الذين تنجبهم المرأة، أيضاً، إلى أن النساء يتوقفن عن الإنجاب قبل مرحلة انقطاع الدورة الشهرية. فمن غير اللائق أن تستمر أم "السيد" أو "السيدة" فى الحمل والإنجاب، إذ إن عليها أن تتوقف حالما تتزوج إحدى بناتها، أو يُدشن ابن لها. وقد يبدو ذلك مستغرباً فى مجتمع يولى كل هذه الأهمية للأطفال. غير أن الاعتراض ليس موجهاً، فى الحقيقة ضد أن تنجب النساء أطفالاً وهن فى منتصف العمر، ولكن ضد

السماح لهن بممارسة الجنس. إذ إن مواصلتهن لممارسة الجنس مع أزواجهن تؤدى إلى غيرة الزوجات الأخريات، وهى غيرة برغم القيود القوية المفروضة عليها، وقلة ضررها بالمقارنة بما هو متوقع بمقاييس المجتمعات التى لا تعرف تعدد الزوجات، إلا أنها حقيقية ومعترف بها. لذلك ينتظر من الزوجات الأوائل أن يكن أقل منافسة من الزوجات المتأخرات، وسيكون من غير اللائق فى حقهن أن يتنافسن على سرير الزوجية مع زوجات أخريات قد يكن فى عمر بناتهن، لذلك تطلب بعض قبائل الدينكا من الزوجة الصغيرة مخاطبة ضرتها الكبيرة بوصفها "أمها". ومن هنا فإن وضعهن فى حالة منافسة على سرير زوجهن، يكاد يشابه مشاركة الأم لابنتها على رجل.

بالإضافة إلى ذلك يصر الدينكا على عدم الخلط بين الأوضاع المختلفة. فإذا ما تزوج أحد أبناء المرأة أو بناتها أو بلغ سن الزواج، فإن هذه المرأة تصبح على وشك أن تكون أماً أو جدة بالمصاهرة. وسواء كانت كان هذا الوضع حقيقياً أم محتملاً، فإنها تكتسب وضعاً جديداً تحكمه قواعد للاحترام معروفة ومعترف بها ومطبقة بصرامة كبيرة، ويؤدى الخروج عنها إلى تبعات خطيرة تستوجب الرمى باللادينية أو اللعنة الروحية أو 'الإصابة بالمرض. والمرأة التى تكون قد اكتسبت وضع الحماة ثم تخاطر رغماً عن ذلك بالحمل هى إمرأة تخلط الأمور والأوضاع بعضها البعض. إذ إن عملها هذا لا يجعل الالتزام بالتقاليد والأعراف أمراً صعباً فحسب، وإنما يمثل فى ذاته خروجاً على هذه الأعراف والتقاليد.

غير أن تحديد النسل ممارس بأوضح ما يكون وسط الشركاء غير المتزوجين. إذ على الرغم من أن الدينكا لا يقيمون وزناً كبيراً للعذرية، إلا أن الحمل خارج مؤسسة الزواج يثير اشئمزازهم. وباستثناء بنات وجهاء المجتمع (اللائى يجب أن يكنّ أكثر حرصاً من غيرهن) فإن المزاح والمغازلة والمطارحات الغرامية بين الجنسين مقبولة تماماً، بغض النظر عن مشاريع الزواج المستقبلية. وتتيح المناسبات مثل حفلات الرقص والدعوات، والتى عادة ما يحضر إليها أناس لا تربطهم صلة القرابة، من أجزاء مختلفة من المنطقة، فرصة جيدة لكى يختبر شركاء متباعدون مدى ملاءمتهم لبعضهم البعض، خاصة فى ظل أعراف مجتمع الدينكا التى تمنع منعاً باتاً زواج الأقارب أو اتصالهم الجنسى. فمن المقبول تماماً أن يذهب الرجل إلى أى فتاة ويُعرفها بنفسه. وكثيراً ما تتمنع الفتيات ويتظاهرن بعدم اهتمامهن بإقامة مثل هذه

العلاقات، وقد تعنى بعض منهن ذلك، إلا أن علاقات كثيرة تنمو من مثل هذه المقابلات.

ويُسمح للشاب بزيارة صديقته أى عدد من المرات يروق له ولصديقته بشرط أن يتقابلا على أطراف قرية الفتاة (أو أبعد قليلاً)، مراعاة لأقربائها. وفى المقابل فإن حرية الاختلاط هذه محكومة بقواعد صارمة ومتصلبة، بالرغم من أنها قد تفلت عن انتباه المراقب الخارجى. وفتيات الدينكا يبدين من التزمت قدراً يجعل أى انطباع بالاباحية خاطئاً تماماً، ومع ذلك فإن شباب الدينكا من الجنسين يعشق ويقدر الصحبة المختلطة. لذلك يقضى المحبون ليال كاملة، فى ضوء القمر أو فى الأكواخ وهم يتحادثون بلغة الدينكا المطارحات، تلك اللغة الفلسفية ذات الشاعرية العالية. وقد تمر سنوات على مثل هذه الصداقة، قبل أن تكون الفتاة مستعدة "للتحدث" مع صديقها. وهو الوقت الذى ينامان فيه معاً.

ولا يعنى ذلك بالضرورة القبول بالمضاجعة، ولكنه فى ذاته مقبول تماماً. فى بعض المناطق تقام أكواخ خاصة للفتيات يقمن فيها بالترفيه عن خطّابهن أو قد يستخدمن أكواخاً مهجورة لهذا الغرض. ويحدث أن ترافق الفتاة صديقها أو إحدى قريباتها، سواء كان مع الرجل رفيق أم لا. وتخدم هذه اللقاءات التعارف والتآلف بين الطرفين، ولكنها مقيدة بالتأكيد على عدم الإخلال بأعراف السلوك القويم، خاصة من جانب الرجل. ولايهتم الدينكا فى العادة بالفحص أو التدقيق فى هذه العلاقات لمعرفة ما يجرى فيها، إذ إن ذلك لا يهم كثيراً، ما دامت الفتاة تحرص على عدم الدخول فى علاقات حميمة مع رجال عديدين. فبرغم التقدير الذى تجده المحبوبية والكياسة، إلا أن الإباحية، مع أنها مقبولة من الرجال، فإنها مقبولة إطلاقاً من النساء.

يتجاهل الدينكا الممارسات الجنسية المسئولة أو يتقبلونها بتسامح، ولكنهم يتجنبون الحمل خارج إطار الحياة الزوجية. وهم لا يعرفون "الأبناء غير الشرعيين" بالمفهوم الغربى لهذا المصطلح، لأن الطفل عندهم منتم دائما لهذه العائلة أو تلك. أما نتاج السفاح فهو "ابن الأبقار (أى المهر الذى يُقدَّم للمرأة) بالتالى فهو ابن للزوج.

ويُلحق الطفل الذى وُلد خارج إطار الزوجية بأبيه المشهور أما إذا تعلق الأمر بأكثر من رجل، وهو شىء ممكن وسط الدينكا، فإن ادعاء أحدهم بأنه الذى مارس الجنس معها أولاً هو الذى يُقبل. أما إذا رفض الأب المشهور

قبول الطفل، فإن الطفل يبقى مع أمه وينضم معها إلى الرجل الذى يتزوجها فيما بعد، أو يُلحق، فيما عدا ذلك، بعشيرة أمه. ولكن أبناء العلاقات المحرمة يحتلون وضعاً اجتماعياً متدنياً، الأمر يجعل الرغبة فى إنجابهم قليلة أو معدومة. كما أن ميلادهم قد يقود إلى غضب الأسلاف والآلهة مما يؤدى إلى ولادتهم ميتين، أو يتسبب فى موتهم لأنهم يذكرون الناس بالخطيئة. ويتفاوت استنكار العائلات لهذا العمل من عائلة لأخرى بناءً على وضعها الاجتماعى، ففى الوقت الذى قد يكتفى فيه الرجل العادى بالتعويض الذى يتلقاه عن هذا الجرم، فإن الاحتمال الأكبر أن يقوم رجل وجيه وعلى وجه الخصوص، إذا كان زعيماً، بنبذ الطفل وقد يتبرأ كذلك من أمه، إن لم يكن فى الواقع فبالعقل. لذلك يموت معظم الأطفال اللاشرعيين من جراء المعاملة التى يلاقونها من المجتمع، حيث يحرمون من الحب والرعاية المناسبة حتى الأم التى يصعب فى العادة زعزعة حبها وتعلقها بطفلها، قد تصبح مقتنعة بلعنة الآباء إلى الدرجة التى تؤدى بها إلى اليأس وإلى إهمال رعاية طفلها الرعاية اللائقة.

ويستخدم الدينكا لتجنب الحمل تحوطات مثل الاحتكاك الخارجى من غير إيلاج وأسلوب بلوغ، والسحب قبل التناغم الذروة، وبرغم بعض الأقوال من أن فتيات الدينكا فى بعض المناطق يستعملن حشائش معينة للتخلص من الأجنة، إلا أن الإجهاض يوشك أن يكون غير معروف لديهم. ومع ذلك، وإذا ما اقتضت سلامة الأم فقدان طفلها – سواء كان الحمل شرعياً أم محرماً، فإن بعض الخبراء يستخدمون أساليب طبية، مدعومة بالدعوات الدينية، للمساعدة فى التخلص من الجنين. وبالمثل يُجرى نوع من أنواع العمليات القيصرية للمساعدة على الوضع فى حالات الولادة المتعسرة، ولكن عادة ما يولد الطفل ميتاً. ولكن كثيراً ما تغطى الفرحة بسلامة الأم ونجاتها على الحزن على فقدان الطفل، إذ سيكون بإمكانها إنجاب العديد من الأطفال مستقبلاً.

ويتضح مما سبق أن الدينكا، برغم أنهم لا يمارسون تنظيماً للأسرة بصورة واعية، إلا أنهم يحددون حجم الأسرة ويباعدون بين فترات الإنجاب. ولا يكون للأم، إلا فى الحالات النادرة، أكثر من خمسة أو ستة أطفال أحياء. ويبدو أن المتوسط هو أربعة أطفال. مع ذلك لا يتم أبداً التدخل فى عمليات الإخصاب والحمل بطريقة تنم على عدم الرغبة فى إنجاب الأطفال، حتى فى الأوقات التى يتم فيها التعبير عن عدم الرغبة، مثل حالات الحمل الحرام، فإن سبب الإعراض عن الطفل هو وقوفه شاهداً على علاقة مخزية أكثر منها

اعتراضاً على شخصه. وبسبب الحديث عن تحديد النسل كوسيلة لتخفيض حجم الأسرة أو ضبط النمو السكانى لقطر ما، يسبب هذا الحديث صدمة كبيرة للدينكا التقليديين. إذ يبدو لهم أن مشاهدة إنسان ما، ثم إقفال باب الحياة فى وجهه لاعتبارات تتعلق بقلة الموارد، لهو أمر غير إنسانى. صحيح أن الدينكا يعلمون أن لديهم أراضى زراعية واسعة ويتوافر الغذاء بكميات كبيرة، ولكن المسألة بالنسبة لهم تتعلق بالقيم الأخلاقية الأساسية، إذ إنهم لا يتخيلون كيف يمكن منع الحياة بغرض إصلاحها.

سأحكى هنا قصة حدثت لى لعلها تلقى بعض الضوء على هذه النقطة: عندما مات أبى ترك خلفه أكثر من مائة زوجة، الكثيرات منهن صغيرات السن جداً، وبعضهن بلا أطفال، وجرت العادة حسب تقاليد الدينكا، على توريث زوجاته الصغيرات لإخوانه وأبنائه وابناء أخواته وأبناء إخوانه. لذلك عقدنا اجتماعاً للأسرة لنقرر كيف ينفذ ذلك. وكان كل أبناء أبى قد تحولوا إلى الإسلام أو المسيحية، وتعلموا أن مثل هذا العرف هو أمر غير أخلاقى ولا يجوز لهم المشاركة فيه. مع ذلك فقد كان معظمنا يعيشون بأعراف الدينكا وقد تجاوزنا الانبهار الأولى للتحول إلى أديان أخرى، وعدنا مرة أخرى للقيم الأساسية لمجتمع الدينكا. لذا كان الكثيرون منا على استعداد للالتزام بالعرف حتى يحافظوا على شرف الأسرة وسط الدينكا. وكان رأيى الذى عبرت عنه فى ذلك الاجتماع هو إعطاء الفرصة للنساء لكى يخترن بين البقاء أو المغادرة. وكانت حجتى أن شروط الحياة الحديثة تفرض حتى على مجتمع الدينكا، عدم إنجاب أعداد غير محدودة من الأطفال، لأن علينا أن نفكر فى كيفية تعليمهم وفى مستوى معيشتهم. ولقد كان لأبى عدد ضخم من الأبناء سيشكلون وحدهم عبئاً كبيراً، ولكن المسألة ستزداد سوءًا بسبب التأثير المتنامى للحداثة ولأن توزيع الأرامل سوف يعنى أعداداً أخرى كبيرة، بأكثر مما كان سيُولد لأبى لو ظل على قيد الحياة. ساندنى فى هذا الموقف أحد إخوانى وهو طبيب كان خارج السودان أيضا، وأعطى مثالاً لمناطق فى العالم لا يقوم فيه الرجال والنساء بتحديد النسل فحسب بل يقومون أحياناً بتعقيم أنفسهم. وضحك الجميع، كما لو أن التغيير الذى تعرضنا له لم يكن قابلاً للتصديق فحسب، بل كان أمراً مخزياً. أمرنا عمنا الأكبر فى الاجتماع بالكف عن الدعوة لهذه المسألة، ثم أضاف: " إنكم تتحدثون كما لو أنكم بقيتم أطول مما يجب فى تلك البلاد التى يَخْصُون فيها الرجال" وكانت تلك هى النهاية. فقد استسلمنا.

فالقضية بكاملها لها بعد دينى. يتمثل فى أن الطفل ينتمى للسلالة – وهى سلسلة طويلة تشارك فيها الآلهة والأموات والذين سيولدون. من هنا لا يمكن أن ينفرد الأبوان وحدهما بتقرير ما إذا كانا سينجبان أم لا. فهناك مصالح عديدة لأشخاص عديدين لا يمكنهم الالتقاء مع بعضهم البعض حتى يتفقوا على قرار، ويسود الاعتقاد بأن أكثرهم أهمية (وهم الأسلاف) يريدون لشجرة العائلة أن تتفرع وتزدهر وتستمر.

الإخصاب والحمل

يعترف الدينكا بالمبادئ البيولوجيه الأساسية للإنجاب، ولكنهم يؤمنون أيضاً بتداخل عوامل معينة أخرى يتجاوز إدراكها القدرة البشرية. فالإخصاب ليس مجرد ناتج للعلاقات الجنسية بين رجل وامرأة، ولكنه كذلك فعل الخلق لدى الإله وبركات أرواح الأسلاف. وتم التعبير لغوياً عن مفهوم تعاون الأب مع الأم والأرواح فى هذا المشروع بكلمة "دهيث" التى تعنى يولد كما تعنى يلد. ذلك أن مفهوم الدينكا للإخصاب لا يفرق بين دور الأب والأم. فهما يتصلان لكى يولّدان معاً وينجبان، بينما يتدخل الإله "ليخلق" ويساعد الأسلاف فى حماية المخلوق من قوى الدمار الخبيثة. بالتالى فإن كل إنسان هو نتاج لفعل إنسان، وخلق إلهى وبركة الأسلاف. وهؤلاء هم جميعاً آباء وأجداد، أمهات وجدات. وتتم الإشارة حتى للإله بتعابير شخصية مثل "الجد" أو "الأب"، إذ يتضمن سمو الإله أبوته المنزهة لكل شخص وللإنسانية جمعاء. وفى المقابل يُنظر للأب بوصفه نوعاً أو درجة من الإله.

ويدفع الدينكا الدمج المفهومى لدور الوالدين إلى أقصى مداه حتى ليوشك أن يتجاوز حدود المعقولية اللغوية. فيقال عن الرجل أنه قد حمّل زوجته طفلاً، كما يقال عنها أنها قد حملّته طفلاً ويستعمل المصطلح نفسه للتعبير عن العلاقات الجنسية التى تؤدى للحمل. ومن هنا كان الطلب الذى يخاطب به أحد رجال العشيرة، فى مؤسستى تحرير الأرواح وزواج الأرواح، بأن "يدخل كوخ" أرملة، قابلاً للاستبدال بالطلب منه أن "يحمّلها أطفالاً".

هذا التعريف المتقارب لدور الجنسين هو نوع من التبرير للادعاءات الأقوى للأب فى أبنائه، بالمقارنة مع الأم. فهو لا يفى بالوظائف العادية للأب فحسب، وإنما يُنظر إليه كمشارك فى الإيفاء بوظائف الأم ايضا. وهو بذلك يشابه الإله،

لأنه القوة الخارجية التى تفعل فى الأم لتجعل الإخصاب ممكناً. أما الأم فينتظر منها، فى لحظات الجماع، أن تظل متلقية خاضعة للرجل الفاعل الذى يحقنها "ببول الإنجاب" وهو ما يصنع منه الإله طفلاً. أحياناً يشار إلى الإخصاب بوصفه عملاً يضع فيه الرجل طفلاً فى رحم المراة. لذلك كثيراً ما تجد أباً حانقاً يربت على بطنه ويتمتم قائلاً :"كيف يمكن لطفل جاء من بطنى أن يفعل هذا لى؟". ويعتقد الدينكا أن ذلك شئ خطير، أن تصل الأمور إلى هذه المرحلة، وقد يكون قاتلاً. وبما أن أقارب الأب – خاصة إخوانه وكبار السن – يُعتبرون "آباء" و"أجداداً"، فباستطاعتهم استبطان هذه القوة واستدعاءها إذا اقتضى الأمر. فبإمكان أحد الأعمام، أو حتى أحد أفراد السلالة البعيدين، أن يربت بالمثل على بطنه، ويتمتم بهذا المصطلح :" ابن بطنى هذه . . . "، ثم يلعن بنفس القوة، إن لم يكن بأقوى منها، لضعف عامل المودة، الذى يمكن أن يكون له تأثير مخفف على هذه اللعنة عند الأب الحقيقى.

أما النساء فلا يُنتظر منهن أن يلعن ذريتهن بنفس الطريقة. ويقال أن الأم تخلص نفسها، فى ساعات الولادة، من نزعات اللعن، وذلك بأن تضع نقطة من دم الوضع على طرف لسانها مرددة: يا إله أبى، هلا جعلت لسانى بارداً مع طفلى هذا، حتى لو كان قلبى يشتعل بالغضب". ولكن القوى الخارقة قد تكون لها مبادرتها الخاصة ضد أى طفل مذنب بالخروج الغليظ على حقوق الأم. وبما أن العلاقة بين الطفل وأمه هى من الوثوق بحيث يندر أن تصل الأمهات إلى حدود المرارة الممكنة بين الطفل وأبيه، فإن تدخل القوى الخارقة هو ايضا أمر نادر، ولكنه غاية فى السوء إذا حدث، كما يمكن أن توضح ذلك بجلاء قوة المشاعر وكثافتها.

وبينما يرتبط الوضع المتفوق للرجل على إدعاءاته الكبيرة، رغم زيفها، بدوره فى النشاطات المتصلة بالإنجاب، إلا أنه من النادر أن يُعتبر مسئولاً عن حالات العقم أو العيوب الخلقية. فالنساء هن المستودع الذى تظهر فيه آثار النشاطات المشتركة للإله والرجل، ومن هنا فإن الفشل يُعزى إلى جدبهن وعقمهن. فلا ينظر للعقم فى معظم الحالات، بوصفه نتاجاً لخلل بيولوجى، بل يُنظر إليه فى إطار خلل أخلاقى فى جانب الأم أو أقربائها. وإذا ما كان وفاؤها لزوجها مشكوكاً فيه، يتم فحص سلوكها الجنسى فى الماضى والحاضر، وإذا كانت علاقاتها غير منسجمة مع محيطها، وخاصة مع نساء زوجها، تتم دراسة هذه العلاقات ويُتحرى فيها عن أى جرم من جانبها، وإذا

كانت خلفيتها العائلية مشكوكاً فى نقائها الأخلاقى، فإنه يتم أيضاً البحث عن مواطن الخلل فيها، سواء كانت موروثة أم مكتسبة.

بالطبع توجد حالات كثيرة لا تكون فيها النساء أو أسرهن موضع شك. وقتها قد يكون العقم نتيجة سحر من عين حسود، أو لعنة رجل غاضب لأنه غير راض عن نصيبه فى حقوق القرابة، وخاصة فيما يتعلق بتوزيع المهور، أو يكون نتيجةً لرفض الأسلاف مباركة الزواج لأنهم لم ينالوا أنصبتهم فى المهور أو لتأخرها، أو، وهو أمر نادر عند الدينكا - بسبب خلل بايولوجى ما فى المراة، لا يمكن لومها عليه.

مهما يكن سبب العقم، فإن كشفه يتم عن طريق طقوس يقوم بها كاهن. وهو حالما يكشف السبب، فإنه يقترح العلاج، والذى عادة ما يتمثل فى إبطال العمل الذى جلب ذلك السوء. فإذا ما كان هناك خطأ أخلاقى من جانب المراة أو أقربائها، فإنه يتم تطهيرها طقسياً بواسطة خبير متخصص فى ذلك المجال. وإذا كان نتيجة سحر، يستخدم ساحر خيِّر لا بطال مفعول القوى الشريرة. وفى حالات اللعنة المبررة من شخص مظلوم، يُطلب عفوه وتدفع له ترضية. ويقام حفل كفارة طقسى يبارك ذلك الشخص بعده المراة ويدعو لها بالحمل. ويمكن أيضاً استعطاف الإله والأسلاف وطلب رضائهم ومساعدتهم. كذلك يمكن أن يقوم بعض الرجال الأقوياء من الكهنة الكبار بالدعاء للنساء العقيمات بالحمل، دون حاجة للبحث عن أخطاء محتملة فى ماضيهن. وبالنظر لتاكيد الدينكا على التناسل بوصفه أساس الزواج، فإن حالات العقم غير القابلة للعلاج تعتبر سبباً للطلاق وإعادة المهر. وهو سبب يغتنمه معظم الأزواج إذا لم تكن لهم زوجات أخريات، أو مالاً يتزوجون به أخريات، ينجبن لهم أطفالاً. وفى المقابل من الصعب تطليق زوجة لها اطفال فالأطفال عند الدينكا هم الضمان الأقوى لاستقرار الحياة الزوجية.

من وقت لأخر يُعزى العقم للضعف الجنسى للرجل أو لعقمه. وعادة ما يثور الشك حول هذا الرجل إذا كان لديه زوجتان أو أكثر ولم تحمل أى منهن. وبالطبع لا يؤدى حمل فجائى وسط حالة عقم طويلة، إلا لمزيد من العار المتصل بالضعف الجنسى والعقم. احياناً قد تلجأ المراة المتهمة فى خصوبتها، والتى تكون قد تعرضت للفحص وللكهانة وغيرها من أنواع الإهانات، قد تلجأ لعلاقة جنسية خارج إطار الزوجية تختبر بها نفسها، وتترك بها الحقائق لكى تتحدث عن نفسها.

العجز الجنسى أو العقم الذكورى لا يُعزى، إلا نادراً لجرم أخلاقى أو عمل سحرى، بل يُنظر إليه كضعف فى فحولة الرجل، وذلك ما يجعله عيباً أكبر واشد وطاة من العقر. لذلك إذا ما نجحت امراة فى إثبات هذه المسألة على رجلها، فإن غضب الزوج قد يؤدى إلى إنهاء الحياة الزوجية فى هدوء، ولكن فى معظم الحالات يتم إقناعه بالسماح لأحد الأقارب بالقيام بدور المولّد سراً. بينما يواصل الزوج العقيم لعب دوره أمام المجتمع كزوج وأب. عادة تفضل الأطراف كافة حل هذه المسألة في هدوء تام. وقد تنشر شائعة هنا أو هناك ولكن هذا الحل يمثل عرفاً مقبولاً، لا يعرض اسم الرجل للفضيحة أو العار باستثناء بعض الإهانات النادرة، التى تستدعى فوراً العقاب الشديد، بل والتعويض عن طريق مال الترضية للزوج المفترى عليه.

عندما يقترن الحمل بالخيانة الزوجية، كأن يتم الإخصاب خارج إطار الزوجيـة، فليس أمـام المراة إلا الكشف الاختـيارى عن أب الجنين، لأنها ستعرض، فى حالة امتناعها لضغوط شديدة بغرض إجبارها على الاعتراف. ومن غرائب نظرة الدينكا للإخصاب، أنهم قد يعتبرون عدة رجال مذنبين بتحميل امراة (داخل أو خارج إطار الزوجية) إذا كانت لهم علاقة معها فى إطار فترة زمنية معينة، عادة ما تكون شهراً. فى هذه الحالة يعاقب المذنب بالتعويض وحده، أو كما فى هذه الأيام، بالتعويض والسجن، بناء على الحالة الإجتماعية للفتاة.

والدينكا لا يظهرون أى اندهاش بالحمل، الا إذا كان نتيجة خيانة زوجية. فهو ياتى دون أن يلحظه أحد، وذلك على الرغم من فرحهم بكل ما يؤدى إلى إنجاب طفل، إلا أنهم لا يبدون أى مظاهر لهذا الفرح ناهيك عن الاحتفال به.

قد يكون السبب الأساسى لهذا الهدوء الظاهرى هو قلة ثقة الدينكا فى نجاة الجنين، إلا أنه يجب ألا يؤخذ بأى حال باعتباره قلة فى الاهتمام. فهناك دائما الخوف من أن الفرح والاهتمام الزائد قد يؤدى للفت انتباه العيون الشريرة، مما يعنى أن عدم الاكتراث هو فى الحقيقة نتيجة لاهتمام معكوس. يشهد على ذلك العناية المكثفة التى تعطى للمراة بهدوء تام منذ الإخصاب وحتى ساعات الولادة. حيث تراقب وجباتها باهتمام شديد. وتُمنع من تناول الحلويات ويُطلب منها الإكثار من تناول الأطعمة الحامضة. ولأن الحمل مقترن بالإرادة المقدسة، يجب عليها أن تكون نموذجاً للنقاء والاستقامة. وإذا ما كانت المراة توأماً، أو ذات خلفية زوجية متميزة على نحو ما، فإن عليها أن

تحمل حرية مقدسة أثناء فترة الحمل. ويجب على كل امرأة حامل تجنب السير حافية الأقدام، خوفاً من أن تطأ بقعة ملوثة ببول زوج خائن، أو مواضع أقدام قاتل، أو بقايا مريضة لأحد الآثمين. كما أن عليها أن تتجنب صحبة أمثال هؤلاء الناس، إلا إذا كان قد تم تطهيرهم عبر الطقوس المناسبة. وإذا ما ساورها شيء من عدم الراحة فى وجودهم، فإن ذلك قد يكون كافياً لإثارة الشكوك، ومن الأفضل والأسلم لها دائما فى هذه الحالة الابتعاد عنهم.

وبينما يرى الدينكا أن الممارسة اللا أخلاقية للجنس تعرض الأم وجنينها للخطر، وفى الوقت الذى يحرمون فيه تماماً الاتصال الجنسى مع المرأة المرضعة، إلا أنهم يعتقدون أن الجنين يجب أن يتم تفقيسه وتفريخه (قور)، وذلك عن طريق الإتصال الجنسى. إذ يعتقدون أن الاتصال الجنسى بين الزوجين أثناء الحمل يفيد نمو الطفل ويسهل عملية الولادة. وكما هو واضح من إستخدام كلمة "التفقيس"، فإن وظيفة الرجل تُشبَه بما تفعله الدجاجة مع بيضها، ويرتبط ذلك بمعانى الدفء. لذلك لم يكن مستغرباً أن يسمى الدينكا الولادة المتعثرة الأليمة "أيل" (وتعنى لسعان البرد)، وهى نفس الكلمة التى تستخدم لوصف معاناة الطفل الذى لاينال ذلك الحمام الدافئ، الذى يمثل جزءا ضرورياً من العناية بالرضع.

وحسب المرحلة التى تجد فيها الحامل نفسها، فإنها تُدفع لكى تقلل من العمل الذى تؤديه، ولكن فى العادة لا تتوقف نساء الدينكا عن العمل حتى الوضع. وبغض النظر عن سلوك المرأة الحامل، فلا يجوز أبداً معاقبتها بالضرب، وهى العقوبة التى تتعرض لها بعض النساء أحياناً. ولهذا الاستثناء، بخلاف الضغوط البدنية والنفسية، يعزى جزئياً المزاج الناشز الذى تشتهر به النساء الحوامل بصورة عامة.

غير أن درجة تعكر المزاج تتفاوت بصورة كبيرة. فإذا ما كانت المرأة جامحة مشاكسة للرجال على وجه الخصوص، يعتقد الدينكا بأن لديها سبباً كى تتوقع مولوداً ذكراً، أما إذا كان ذلك هو سلوكها إزاء النساء فهى حامل بأنثى. وبالمثل فإن الخصائل الحميدة تعطى مؤشراً أيضاً: فإذا ما كانت المرأة الحامل شديدة اللطف والرقة مع الرجال، يُعتقد أنها تنتظر بنتاً، وإذا كانت كذلك مع النساء، يقال أنها تنتظر ولداً. وعلى الرغم من أن الدينكا، وخاصة النساء، يجدون متعة كبيرة فى الثرثرة حول هذه التقديرات، إلا أن هذه الأحكام هى بعض من الأساطير الموجودة فى كل العالم، والتى عادة ما تتبخر فى ساعات الولادة.

باقتراب موعدالوضع يكون العمل فى تجهيزات معينة قد اكتمل. وعادة، تقضى المرأة فترة وضعها الأول مع عشيرتها من جانب أبيها، أما فيما عدا ذلك، فإن أمها تأتى إليها قبل مدة من موعد الوضع لتساعدها فى التجهيزات السابقة للولادة من أجل العناية بها وبمولودها بعد الولادة. وتأتى الإشارة الحاسمة مع تلك الآلام الجادة "القارصة" المعروفة لدى النساء، خاصة كبيرات السن بينهن. ويتم إرسال شخص لإحضار القابلة، التى تكون قد أُخطرت مسبقاً. وليس لدى الدينكا قابلات متخصصات، كما لم تتدرب أى من نسائهم على أداء هذا العمل. والنساء اللاتى يؤدين هذه المهمة هن نساء خبيرات كبيرات السن صار لخبرتهن فى هذا المجال طابع احتكارى يمكن أن ترثه المرأة عن أمها.

وتعنى القابلة بالنسبة للدينكا أكثر بكثير من مجرد كونها خبيرة فى الولادة. وهى لا تتقاضى أجراً، ولكن فى العادة يتم دفع مبلغ رمزى لها يعتبر هدية للأرواح التى سهلت وأشرفت على أدائها الماهر. أما فيما عدا ذلك فإن الرضا الذى تجلبه هذه الوظيفة يكمن فى العلاقة التى تتأسس بين المولود وأسرته من جانب، والقابلة وأسرتها من الجانب الآخر. وإذا كان هناك عرف لدى الدينكا يمكن مقارنته بالعرف المسيحى المعروف بالأم الكفيلة (Godmothre)، فهو القابلة. ويطلق عليها الدينكا كلمة "قييم" (المُستقبِل أو المتقبل)،الذى يستقبل هدية الإله الرجل – مولوده. وقد يحدث أن يحس الرجل فى سنواته المتقدمة ببعض الحرج، عند الإشارة لامرأة بوصفها قابلته، إلا أن علاقته بها تظل قوية وحميمة، وتتخذ طابع الأمومة الروحية من جانبها. والبنوة البارة الرحيمة من جانب الطفل.

يسبق موعد الوضع تجهيز كوخ يترك جانباً لهذه المناسبة. وقد تقتصر المرحلة النهائية على كبيرات السن من النساء، بينما يتم بصرامة إبعاد الرجال والأطفال. فى حالات تعسر الولادة، وعندما يكون إخلاص المرأة لزوجها مشكوكاً فيه، يطلب منها الاعتراف بأى علاقة محرمة يمكن أن تكون قد اقامتها. إذ أن تقاليد الاعتراف عند الدينكا تقاليد هامة يتم الالتزام بها بصورة لافتة للنظر. ولا يشمل الإعتراف أو الفحص تلك العلاقات التى اقامتها المرأة قبل زواجها ولم ينتج عنها حمل، أما فيما عدا ذلك، فحالما

تصبح آثار الحمل مؤكدة فى العيون الخبيرة لكبيرات السن، تُجرى تحريات واسعة، لدفع المرأة على كشف أسماء كل الذين كان لهم معها علاقات جنسية حتى تأخر الدورة الشهرية يمكن أن يثير الشكوك ويؤدى إلى ضغوط تطالب بالاعتراف. ذلك كان هو قدر الفتاة التى ألفت هذه الأغنية:

لقد ثار الناس فى وجهى،
الصبيان والنساء الكبيرات والفتيات،
"لقد حملت هذه الفتاة"،
لقد سمعتها ونفيتها،
إذ كان السبب هو أن الإله أمسك الدم،
لبقرة واحدة قابلتها منجيرة،
وأنا الآن موسومة بالعار كأننى من القردة،
وعرفت وحدة الورل المطعون بالحربة،
فى معسكر دون دى كوك،
قالت لى بنت أبى،
أرجوك قولى لى الرجل،
أجبت: "لن يكون
لأنه يا أختى، ليس هناك رجل"
فأنا أحمل "سرى" بقلب واحد،
ويأتى الناس ليلونوه بالأكاذيب.
"سرى" ليس له أرجل يتجول بها،
لكى يلاقى السيد الذى يحب.

بالطبع يكون الافتراض، فيما يتعلق بالمرأة المتزوجة، أن علاقاتها تقتصر على إطار الزوجية، وفى معظم الأحيان التى تقترف فيها هذه العلاقة يكون إحساسها بالذنب وخوفها من انتقام القوى الخارقة هو الذى يدفعها لهذا الاعتراف. ويتمثل انتقام القوى الخارقة فى المرض والتهديد بالموت. إذ تكفى إصابة شديدة بالحمّى أو الصداع للتهديد بالموت، وتقود إلى الاعتراف.

بعض النساء يحتفظن بعشاق حتى اللحظات الأخيرة. وحتى إذا كشفت امرأة أسماء عدد من عاشقيها فى وقت سابق، فإنها قد ترفض كشف واحد معين، إما لخوفها من الفضيحة أو لكى تجنبه التعرض للعقوبة التى توقع فى هذه الحالات. وتلك هى الحالات التى تظل دفينة حتى ساعات الولادة. وبما أن

كل الدينكا يؤمنون بإحتمال التعرض لعقوبة الآلهة فى مثل هذه الظروف، فإن تعسر الوضع يمكن أن يكون نتيجة للاحتفاظ ببعض العاشقين، وسبباً للاعتراف بهم. وعادة ما تكون الضغوط التى تمارسها كبيرات السن من النساء، من القوة بحيث يكون من الصعوبة بمكان مقاومتها. فإذا ماحدث وماتت امرأة مشكوك فى سلوكها عند الوضع، فإن السبب فى ذلك يُرجع ببساطة إما إلى إمتناعها عن الاعتراف أو إصرارها على عدم الكشف عن بعض الأسماء إن اعترفت، أو موافقتها التى جاءت متأخرة على ذلك الاعتراف.

أما إذا كان سلوك المرأة الجنسى فوق كل شبهة، كما هو الحال مع النساء المتزوجات عامة، وتعرضت رغم ذلك "لأريل" (أى ظروف صعبة أثناء الوضع)، فيتم استدعاء كاهن لكى يكشف عن أسباب هذه التعقيدات. والتى عادة ماتكون: مخالفة الآلهة والأسلاف وإخفاء الجرائم أو بعض الأخطاء الأخلاقية وعدم معالجة ظلم الحقه المعنى بأحد أبناء جنسه. ويتمثل العلاج الذى يقترحه الكهنة فى جلسات تكفير الذنب الطقسية التى تدعمها مساعدة بدنية يقوم بها خبراء.

حالما يُولد الطفل، تقوم القابلة بامتصاص الغشاء من خيشومه كى يتمكن من التنفس. وهو عمل منفر جداً، برغم ضرورته، الأمر الذى يقود إلى شحن علاقتها بالطفل بعواطف حارة، تصبح مصدر سلطة روحية مؤثره عليه فيما بعد.

وتؤخذ صرخة الطفل الأولى كمؤشر على نجاح عملية الوضع. ويستقبلها الدينكا بتعابير للتحايا تجسد نماذج العلاقات الإنسانية، التى سبق وفصلناها عند الحديث عن قيم: الشينق".

يطريك الإله،
أحضر، فأهلك فى "شينق"
وأرضك فى "شينق".

يشمل الإعلان الذى تتضمنه هذه التحية جانبين اثنين. أما أولهما – وهو الجانب الظاهر – فهو تأمين سلامة المولود. فإذا ما كان هناك وضع يراعى فيه الحد الأدنى من قيم "شينق" فسيعنى ذلك أن هذا المولود سيجد عالماً آمناً يتضامن فيه الجميع من أجل المصلحة العامة، ومصلحة المولود على وجه الخصوص.

لقد عرف الدينكا تصدعات اجتماعية رئيسية فى تاريخهم الطويل. كان اخرها الحروب التى خاضوها فى القرن التاسع عشر، ضد صيادى - العبيد العرب، والحرب الأهلية الدائرة الآن ضد الشمال. فى مثل هذه الظروف يمكن للنظام الاجتماعى أن يختل بدرجة لايمكن معها مقابلة الحد الأدنى من متطلبات "شينق"، وحينها يتحدث الدينكا عن أن عالمهم قد فسد، وهو المقابل المباشر لأن تكون البلد فى "شينق". ولكن حتى فى مثل هذه الظروف، فإن العيش تحت وطأة الإستبداد أو النظر للعالم بوصفه فاسداً، يمكن أن يكون نسبياً فى إطار تعقد وتعدد مستويات النظام الاجتماعى. من هنا قد تنهار الأمة والقبيلة وكذلك القرية، ولكن مع ذلك تبقى الأسرة والبيت متماسكين. وقد يتم التخلى عن بعض القيم، وتأكيد أخرى - ولكن يتم الاحتفاظ بقدر ما من استمرارية الحياة. فإذا ما كان الطفل الذى يولد فى فترات السلم والنظام، يسمع كلمات الترحيب تُلقى على اذانه واثقة مدوية، فإن اخاه (أواخته) الذى يولد فى أوقات الحرب والخراب سيجد قدراً من "شينق" يسمح بترديد طقوس الترحيب على مسامعه.

والمخاطبون حقيقة هم الحاضرون، وليس الطفل الذى لا يكاد يعى شيئاً من كل هذا. وهو ما يمثل فى الواقع- إسقاطاً للوعى، لأنه إذا ما كان الذين يخاطبون الطفل بهذه الصورة الرمزية، يتمنونه واعياً، فإن الصورة التى ترتسم فى أذهان الدينكا له، تعكس طفلاً واعياً بالأمن الاجتماعى الذى يعدونه به. ويساعد هذا الوعى المُسقط او المُرتجى على صياغة تطلعات ومطالب كل المعنيين بما فى ذلك هذا الطفل عندما يشب عن الطوق. فعلى الرغم من هذا التركيز الرمزى على الطفل، إلا أن المشاركين الفعليين فى هذه العملية هم الكبار، الحاضرون منهم والغائبون. إذ إنهم هم الذين سيساعدون فى تنشئة الطفل، وهم الذين سيهيئون الظروف التى سيترعرع فيها عارفاً بقيم "الشينق". وكذلك هم الذين سيتوقعون من هذا الطفل، بعد أن يكونوا قد اوفوا بالتزاماتهم نحوه وتجاه من حوله، أن يرد لهم هذه الخدمات التى يدين لهم بها كأعضاء فى الأسرة أو الجماعة.

وبما أن الرجال والأطفال غير مسموح لهم بحضور مشهد الوضع، فإن هذه المعانى الرمزية تنطبق على النساء فقط. إذ على الرغم من ان هذه المعانى تتجاوز الظواهر العينية، إلا ان الدينكا يعتقدون أن الخطر الأكبر على الوحدة والانسجام مصدره الحسد عند النساء. ولهذا فعندما يتم هذا الاستدعاء الرمزى لقيم "الشينق" من النساء، فإن المجتمع يخاطب فى الواقع ما يراه مصدراً للشرور الاجتماعية. ذلك أن نساء الدينكا - وبصورة أقل كثيراً-

رجال الدينكا لا يرون أن السبب الحقيقى فى الاختلال هو ظلم النظام الإجتماعى للمرأة، بل حسد النساء.

وينتشر خبر سلامة الوضع سريعاً إلى الرجال والأطفال الذين ينتظرون فى الخارج، برغم أن النساء هن وحدهن اللائى يرددن ويسمعن عبارات الترحيب. ثم تُغسل بعد ذلك الأم وطفلها. ولكن القلق يتواصل إذا لم تخرج المشيمة. الأمر الذى قد يأخذ أياماً، وقد يتسبب فى موت الأم. وعندما تخرج المشيمة، يتم دفنها بعناية بجانب الكوخ: ويُفصل الحبل السرى عن طريق قطعه بشظية حادة من القصب، أو بربطه بقوه بشعرة زرافة - ولا يستخدمون أبداً مدية او الة حادة. لأن الدينكا يقرنون بين الآلات الحادة والحراب، وبين الحراب والحرب والخراب (باستثناء الحراب المقدسة التى ترمز إلى الرُقية والحماية). ويُترك ما تبقى من الحبل السرى ليجف ويخرج فيما بعد.

وتتخذ طقوس الميلاد طابعاً أكثر تفصيلاً، إذا ولدت المرأة توأماً. إن موقف الدينكا من التوائم موقف معقد جداً. بحيث لا يكون من السهولة بمكان القول ما إذا كانوا يرغبون فيهم أم أنهم يتقبلونهم لا غير. فميلاد التوائم مشحون دائما بالاعتبارات الدينية، حتى إذا لم يكن واضحاً ما إذا كانوا ينظرون إليهم باعتبارهم هدية من الإله أم مجرد تجلٍّ لقدراته. فى كل الأحوال، فإن مطالب الإله والأسلاف فيما يتعلق بالتوأم هى من الكثرة، والطقوس والمراسم المرتبطة بميلادهم وحياتهم هى من التفصيل، والتهديد بالشر المترتب على أى خرق لهذه الطقوس والمراسم هو من الخطورة، بحيث يُنظر دائماً للتوائم بوصفهم عبئاً على أسرهم. فلهم تُهب أبقار لا يجوز بعد ذلك التخلى عنها، ولا يجوز للنساء فى سن الولادة الاقتراب من البان هذه الأبقار أو منتجاتها، أو حتى الأوانى التى تُحفظ فيها هذه المنتجات. ولا يمكن إجراء ختان التوائم، وهو الإزالة التقليدية للأسنان الأمامية السفلى، ولا الاحتفال بتدشينهم، إلا فى ظروف خاصة، حتى زواجهم ومراسم دفنهم تتطلب طقوساً خاصة. هذه مجرد أمثلة للعناية الشديدة والاهتمام الذى يجب أن يوجه للتوائم إتقاءً للشر الدائم الذى يتهددهم. وتعطيهم هذه الأمور مجتمعة وضعاً خاصاً، ولكنها تجعل منهم عبئاً كبيراً ايضا. بحيث يكون خيار المرء الأقرب، إذا ما كان له الخيار - هو اجتنابهم. غير أن تلك فكرة لا يمكن أن تخطر ببال أحد من الدينكا بكامل وعيه، لأنها تتضمن مساءلة الترتيب المقدس للأشياء - وهو المجال الوحيد - تقريباً- الذى يتوقف الدينكا أمامه فى تواضع وخشوع.

لم أسمع أبداً بامرأة ولدت ثلاثة توائم، ناهيك عن أربعة أو خمسة. وبافتراض أن ذلك قد حدث فمن المتوقع أن يجدوا نفس المعاملة، بصورة أكثر

تكثيفاً. ولكن يندر فى واقع الأمر أن ينجو كلا التوامين، وهو سبب آخر لأن يكون ميلاد التوائم مصدراً للقلق والخوف أكثر منه مدعاة للفرح. وهو ما يُفسر هبات الأبقار التى تخصص للتوائم، الأمر الذى لا يحدث فى العادة إلا للموتى والآلهة.

ويربط الدينكا بين التوائم والطيور عادة. بل إن الكلمة المستخدمة للإشارة للتوائم فى معظم لهجات الدينكا هى "ديت" (طيور). كذلك فإن كلمة "ماديت" (صيغة المؤنث من "اديت") وهى أحد الأسماء التى تطلق على التوائم، تعنى حرفياً "الرجل الطائر"، وكلمة "أشويل"، وهى اسم آخر، تعنى (الحدأة). ولايقال عن التوائم انهم "يموتون، إنما يقال عنهم انهم "يطيرون"، وهو تعبير لا يستخدم أبداً مع غيرهم. ويُفسر الدينكا هذا الارتباط بين التوائم والطيور على أساس أن الطيور ترمز للولادة المتكررة. ولكن لماذا الطيور من بين كل المخلوقات التى تتكرر الولادة لديها؟ لقد أجاب أحد أبناء الدينكا المتعلمين على هذا السؤال مرة بقوله: إن الطيور ترمز للسلام. ولكن من المؤكد أن هذه خاطرة متعسفة فى هذا السياق.

مما يجدر ذكره هنا أن الدينكا يربطون بين الطيور والقوى الخارقة المتمثلة فى المرض، وخاصة الاختلال العقلى. فهم يصفون الشخص الذى يعانى من اضطرابات من هذا النوع "بأن طيراً قد عُمل له"، مما يعنى أنه قد تعرض لمفعول سحر شرير. ويتضمن العلاج من المرض، وخاصة المرض العقلى، التلويح بدجاجة فى دوائر حول رأس المريض، ثم ذبحها وإلقائها بعيداً - إذ لا يجوز للمريض أو أى من أفراد اسرته أن يتناول منها شيئاً. ويمكن بالتالى ربط هذه المسائل بالضغوط البدنية والنفسية المتصلة برعاية التوائم، وبالمخاطر الروحية المترتبة على الإخفاق فى مقابلة المتطلبات الدينية المتعلقة بهم، وبالخوف المتواصل بأن أحد التوامين - على الأقل - لن يتمكن من العيش. غير أن علاقة التوائم بالاضطرابات العقلية قد تكون أكثر وضوحاً ومباشرة. إذ إن وجود التوائم له أهمية دينية بالاضافة لأنماط سلوكية دينية وطقسية، مثل تصرفات الأشخاص الملهمين دينياً، تعبر فى الغالب عن درجات متفاوتة من الاختلال العقلى. يبدو من ذلك أن هناك صلة بين وجود التوأم فى أسرة ما بوصفه شيئاً غير معتاد، وأن هذا الخروج على ما هو مألوف هو فى الحقيقة حالة دينية وطقسية، وأن الاضطرابات العقلية عادة ماتقترن بتجسدات دينية وطقسية شبيهة، وبين ارتباط الطيور عامة بالاختلال العقلى.

الفصل الرابع

الطفولة المبكرة

نظام التسمية

تكتسب الأسماء الشخصية أهمية كبيرة لدى الدينكا، لأنهم لا يستخدمون اسم العائلة، بل يضيفون ، بدلاً من ذلك، الأسماء الشخصية إلى بعضها البعض لتكوّن السلالة - من هنا كان لاختيار هذه الأسماء نشطب أهمية كبيرة، وإن كان يتم بصورة عفوية وبلا مراسم. وليس هناك وقت محدد لإتمام عملية تسمية الطفل، ولا شخص محدد مكلف. باختيار الاسم، بل يبدأ بعض الأشخاص فى تقديم مقترحات بأسماء، فى العادة بعد عدة أيام من ولادة الطفل: وتتوقف النتيجة على الاستجابة التى يلاقيها أحد الأسماء لدى آذان الجماعة أكثر منه على أى شكل من أشكال الاختيار الرسمى. وتُعطى الأسبقية للأسماء الشائعة فى السلالة - أسماء الأسلاف وأسماء الرموز الإحيائية للعشيرة.

هناك بعض الأسماء التى تكون محددة مسبقاً. فعلى سبيل المثال، يسمى التوائم الأول، بحسب ترتيب الولادة "نقور" و"شان" إن كانا ذكوراً، أو "أنقر" و"أشان" إن كانا إناثاً. أما التوأم الثانى لنفس المرأة، فيعطى أسماء "أشويل" و"ماديت" للذكور، أما إن كان من الإناث فتحفظ الأولى "باشويل" ويصبح "ماديت" "اديت". كذلك يُعطى الأفراد الذين يولدون بعد توائم أسماءً خاصة تبدأ ب: "بول" للذكر و"نيانبول" أو "نابول" للأنثى.

وهناك أيضاً أسماء أخرى محددة مسبقاً بصورة جزئية لارتباطها بأحداث معينة أو ظروف أحاطت بالحمل والولادة. على سبيل المثال، فقد سُميت

"مادينج" لأن ثوراً، يحمل هذا الاسم تم ذبحه فى زواج والدتى مصحوباً بدعاء الناس لكى يكون أول مولود لها من الذكور. ولأننى كنت مولودها الأول فقد سميت باسمه تيمناً به. ومن الأمثلة الأخرى: "مونياك"، الذى يعنى "رجل الجفاف"، سُمى به طفل وُلد فى فترة جفاف شديد ، و"مونيالام" الذى يعنى "مولود بالصلاة" وسُمى به طفل جاء بعد ولادة متعسرة استوجبت قرباناً وصلوات، و"نياباث"، ويعنى "فتاة العدم" وهى مولودة لإمرأة كان أطفالها يموتون باستمرار، مما جعل احتمالات حياتها ضعيفة أو معدومة. هذه الأسماء تنحو فى العادة لأن تصبح ألقاباً، وهو ما يقود أحياناً إلى تكملتها بأسماء الأسلاف، ولكنها غالباً ما تغطى على هذه الأخيرة، الأمر الذى قد يعود إلى حميميتها أو إلى بلاغة عبارتها.

وتتنوع الأسماء عند الدينكا كثيراً، إذ يعبرون بها عن حبهم للأطفال أو الثناء عليهم أو ممازحتهم. ويُعطى الأطفال الذكور أسماءً مستعارة من الثيران، تعود فى الأصل إلى لون الثيران المخصصة لشخصياتهم، إذ يخصص لكل ابن فى العائلة نمط من الألوان أو عدة أنماط، استناداً إلى ترتيب أمه فى سلسلة الزوجات أو ترتيبه هو بين إخوته، فالنمط اللونى للابن الأكبر للزوجة الأولى هو ماجوك أو ميجوك ويتكون من رأس وأكتاف سوداء، وخاصرة بيضاء مع مؤخرة سوداء أو بيضاء. وللابن الأول من الزوجة الثانية، ماريال ويتكون من جذع أبيض أكتاف مخططة بخطوط سوداء. وللابن الأول من الزوجة الثالثة، مانقار، ويتكون من خطوط سوداء وبيضاء. وإذا ولدت بقرة يملكها أحد أفراد الأسرة، عجلاً ذكراً، أو إذا حصلت عليه الأسرة كجزء من نصيبها فى مهر زواج، فإنه يذهب للشخص الذى له نمط ألوان العجل من بين أفراد الأسرة. ويقوم الرجل، عندما يبلغ سن النضج ، بإعلان انتمائه للثور المخصص لشخصيته، ويصبح معروفاً به بلونه المميز وسط الجماعة. ولاعتبارات تتعلق بالاحترام والحميمية يُطلق على الرجل اسم النمط اللونى للثور المخصص لشخصيته والأسماء الأخرى المستقاة منه. ومن أمثلة الصور التى تُستعار من الثيران وتصبح أسماء للرجال: "خاطف اللقاح" للرجل الذى لثوره لون النحل، "الرأس الراقص" لمن كان ثوره فى لون ذؤابة قصب السكر، التى يعتقد الدينكا أنها يمكن أن ترقص إذا غنوا لها، "السابح فوق القصب" للون النمطى لطائر البجع، "النجوم الساطعة" للرجل الذى يكون ثوره داكن اللون ببقع بيضاء، "صائد الحيوانات" للون الأسد، وأسماء أخرى كثيرة تجل

عن الحصر. وتُطلق هذه الأسماء على الأطفال أيضاً، إلا أنه يكون حينئذ على سبيل الممازحة، لأنها لا تشير إلى ثيران يمتلكها هؤلاء الأطفال فى الواقع، بل إلى انتمائهم النظرى لأنماط من الألوان مخصصة لأوضاعهم العائلية، أو إلى الثيران التى سُموا تيمناً بها، أو حتى الأنماط اللونية لثيران أشخاص كبار لهم نفس أسماء هؤلاء الأطفال.

ولا تختلف الألقاب أو أسماء التدليل كثيراً، فهى أيضاً قد تستند إلى الخصائص الجسمانية أو السلوكية للشخص المسمى. فنجد أسماءً مثل "العنيد" "السمين" "ذو الوجه المفلطح" "غائر المؤخرة" مما يمكن اعتباره إهانات مازحة، ويُطلق على الطفل شديد السواد "دينكا" فى مقابل اسم "العربى" على ذى البشرة السمراء. وإذا بقى صبى دون ختان لأطول من الفترة المعتادة فإنهم يسمونه " الأغلف" أو "غير المختون"، والذى قد يلازمه حتى بعد ختانه، ويُطلق على الطفل الذكى المشاغب اسم " الثعلب"، وعلى الشخص طويل القامة بصورة غير معتادة "الرجل الطويل" أو حتى "قصير القامة".

وبينما تُطلق أسماء السخرية المازحة على أشخاص معينين، تستعمل الأسماء العادية وأسماء تدليل الأبناء الأبكار، للإشارة للأبوة والأمومة وعلامة على الاحترام. فإذا ما كان اسم الطفل "اداو" فإن اسم الوالد يصبح "أبو اداو" و اسم الأم " أم أداو" . وتسمى الأم فى هذا المجتمع متعدد الزوجات باسم أكبر أبنائها، غير أن إسم الأب يستند إلى إسم أكبر أبناء زوجته الأولى حتى لو كان أحد أبناء زوجة ثالثة هو الابن الأكبر بين كل أبنائه.

على أن النظام المعتاد للأسماء المتعلقة بالسلالة هو العكس من ذلك. حيث تتم إضافة اسم الرجل إلى اسم والده وهكذا إلى الحد اللازم للتعريف. وقد يكون من الضرورى لتحديد نوع العلاقة المتضمنة، أن يذكر الرجل اسم والده وجده وكذلك اسم مؤسس العشيرة. ويستخدم هذا النظام، من بين أشياء أخرى، كخارطة اجتماعية مرشدة لتجنب زواج الأقارب. إذ يكون بمقدور أى شاب وفتاة أن يتعرفا من خلال مقارنة نسبهما ما إذا كان الزواج بينهما ممكناً أم لا.

وعلامة الوصل بين إسم الشخص واسم أبيه هى "دى" أو " إى" تبعاً للهجة المستعملة وما إذا كان اسم الأب يبدأ بحرف صامت أو متحرك. فإذا كان الشخص هو كول ابن أروب ابن بيونق، يكون الاسم كول دى أروب دى بيونق. فى بعض الأحيان لا تستخدم أى علامة بين الأسماء ولكن إضافة

الأسماء إلى بعضها البعض تعنى فى كل حال علاقة بين ابن وأب.

وتستخدم الأسماء العادية فى الأغراض اليومية المعتادة، ولكن فى الأمور الخاصة كالتى تتعلق بالثناء على شخص ما فى الأغانى تتم الإشارة لأحد الآباء أو الأسلاف باسم ثوره أو بأحد أسماء الثناء الأخرى. فإذا كان الشخص هو دينق ابن كول الذى يسمى ثوره " الأرقط" فقد يطلق عليه ببساطة " دينق عن الأرقط". أحياناً يتم القفز فوق الأسماء، بحيث يصبح اسم دينق ابن كول إبن أروب الملقب "بالأبيض"، هو "دينق عن أروب" أو "دينق عن الأبيض". بهذه الطريقة يتم تخليد السلالة بواسطة أسماء أساسية بينما تسقط أسماء أخرى دون أثر ويطويها النسيان، وتعرف السلالات والعشائر بأسماء مؤسسيها حيث تسبق الإسم اللازمة " با" وهى اختصار لكلمة "بان" صيغة التملك من "باى" التى تعنى العائلة، البيت أو الناس. تبعاً لذلك فإن "باجوك" هى السلالة أو العشيرة التى أسسها "جوك". كذلك قد يعود اسم العشيرة إلى تجربة أسطورية معينة لهذه العشيرة. من ذلك أن "دهينديور" (عشيرة شعب النساء) أسستها امرأة أنجبت ابناً دون الاتصال برجل.

وتلعب الأسماء الشخصية دوراً هاماً فى التنظيم الاجتماعى، حتى أن كثيراً من القرى وحظائر الأبقار والقطاعات وبطون القبائل والقبائل يُشار إليها، أحياناً بأسماء زعمائها. وإذا حدث أن بقيت الزعامة فى سلالة واحدة لاجيال متعاقبة، يمكن أن تكون الإشاره باسم أى من الزعماء المتعاقبين، ولكن درجة تردد وتكرار أى إسم تعتمد بصورة أساسية على مستوى الإحترام الذى يَحظى به صاحب الاسم.

العناية بالرضيع

بينما تضع الولادة الناجحة حداً لمشاعر القلق المصاحبة للحمل والوضع، فإنها تمثل بداية لانشغال جديد بصحة وسلامة الطفل وأمه، تشارك فيه مجموعة كبيرة من الأقارب والأصدقاء والجيران، وبرغم ذلك تعتبر الخبرة ضرورية للعناية بالطفل وأمه التى يُنظر إليها بوصفها مريضة ما بعد الوضع.

وتباشر والدة الأم العناية بها وبطفلها إذا تمت الولادة فى مساكن أسرة الأم من جهة أبيها، ولكن حتى فى الحالات التى يتم فيها الوضع فى بيت الزوجية تأتى أم المرأة فى العادة لتباشر هذه المهمة. أما إذا تعذّر ذلك لسبب

ما فإن واحدة من نساء زوجها الكبيرات هى التى تقوم بهذه المهمة.

ويعكس مشاعر الشفقة والرحمة التى تبديها النساء، يُظهر الرجال بصورة عامة سلوكاً يتميز بالنفور المتأفف عن المرأة التى وضعت حديثاً. فكوخها هو دار حضانة، ولغياب وسائل التطهير والتعطير المناسبة، فهو ليس بالمكان البهيج لزوجين ظلا معزولين عن بعضهما البعض منذ ظهور العلامات المبكرة للولادة. فى الواقع يبدو الوضع غير صحى بالدرجة التى قد تدعو أى مراقب معاصر للإندهاش من أن أيا من أطفال الدينكا تمكن من البقاء على قيد الحياة. فالمكان عبارة عن كوخ صغير مستدير، فى إحدى نواحيه نار مشتعلة للتدفئة فى أيام البرودة، ولكى تطرد بدخانها الذباب والبعوض، وتضاف إليها بعض أوراق الإشجار التى تنبعث منها رائحة طيبة عندما تحترق ولكنها لا تقضى تماماً على الروائح المنبعثة من كوخ الولادة.

ويوضع الرضيع على جلد جاف ولكنه مطلى بالدهن حتى يكون ناعماً، وعلى الرغم من أنه سليل لأكثر الأجناس سواداً فى اللون، إلا أن لونه يميل إلى السمار الفاتح. وتسنده من ظهره وهو يواجه أمه لفائف من الجلد صارت الآن قطعاً من الملابس القطنية (مشربة بالدهن والتى تنبعث منها الروائح) بجانب الطفل الرضيع تجلس أو ترقد أمه وهى تربط حول وسطها حزاماً عريضاً من الجلد لكى يسند البطن المتأثرة، ولكنها لا ترتدى إلا ملابس خفيفة فضفاضة تساعد بدنها المضطرب على الارتخاء. ويمكن أن تكون ملابسها غير المناسبة هى السبب فى ابتعاد الرجال عن كوخها، ولكن حتى الأطفال يميلون لتجنبه تأففاً منه.

مع ذلك يبقى الرضيع مركزاً للاهتمام ومحبة الجميع. فلا تمضى إلا أسابيع قليلة على ميلاده حتى يُحلّى بالخرز والأصداف ليس لتزيينه فقط وإنما رُقية لحمايته من الأرواح الشريرة أيضاً. ويقوم الكبار من الزوار بالدعوة له، ورشه بالمياه أو التفل عليه لمباركته. أو يقومون بقطع "الخيار المقدس" إلى نصفين، وهو طقس يعكس أمنيات الدينكا للطفل بحياة بدنية وروحية طيبة. ويحضر أناس كثيرون لرؤية الرضيع وحده، والضحك فى وجهه، والتحدث عنه، ولكنهم لا يتفوهون بأى ثناء على مظهره كما أنهم لا يقومون بتهنئة الوالدين على ميلاده لأنهم يعتقدون أن ذلك يجلب النحس، حتى لو قيل بنوايا حسنة. فقد يُقال الكثير عن جمال الطفل بعد موته، ولكن ذلك لا يحدث أبداً فى حياته. إذ لا يتم الثناء على أحد إلا بعد أن يبلغ تمام نضجه،

وحتى حينئذ يكون ذلك بتحفظ وفى أضيق نطاق.

ويسود الاعتقاد لدى الدينكا بقابلية الأم ورضيعها للتلوث تلوثاً قاتلاً إذا إختلطا بأى صورة من الصور بأشخاص مصابين بنوع معين من النجاسات فهما يجب أن يتجنبا الزناة والقتلة والعصاة الآخرين الذين لم يقوموا بتطهير أنفسهم عبر طقوس التطهير الصحيحة. ويشمل ذلك الاحتراس من الاتصالات العابرة بهم، مما يتطلب المراعاة الصارمة للعديد من المحرمات والممنوعات. فالأدوات التى تستعملها الأم يجب أن تقتصر عليها وحدها وعليها البقاء داخل المنزل ما أمكن، وإذا اضطرت للخروج فيجب أن ترتدى حذاءً وتحمل معها حربة مقدسة تحميها من الأرواح الشريرة.

بعد الوضع بفترة قصيرة يخضع الرضيع لدورة منتظمة من العناية تُعرف (بالاستحمام) أو (الحمام) الساخن. وهى عملية مفصلة ودقيقة بالنسبة للرضيع. حيث يتم صباح ومساء كل يوم غلى الماء فى إناء ضخم، وفى المكان المعد للاستحمام يُوضع إناءان كبيران أحدهما ملىء بالماء الساخن والآخر يحتوى ماءً بارداً. وتجلس الأم أو المرأة الكبيرة التى تجرى عملية الاستحمام على مقعد من الخشب بقرب الإناءين، وتقوم، مستخدمة مغرفة صغيرة من القرع، بخلط الماء الساخن مع البارد حتى تحصل على درجة حرارة مناسبة للرضيع. ثم تبدأ فى غسل الرضيع الذى تضعه على فخذيها وقد علا صراخه، بينما تصب الأم الماء عليه بواسطة مغرفة القرع الصغيرة. وتحركه المرأة من جنب إلى جنب وتقوم بتدليك وتمرين يديه ومؤخرته وأعضائه التناسلية وفخذيه وأرجليه وحتى أصابع قدميه. بالطبع لا يتوقف الرضيع فى هذه الأثناء عن الصراخ فى رعب شديد، ذلك أمر متوقع لا يُقلق أحداً.

ليست النظافة هى الدافع لهذه الحمامات الساخنة بالنسبة للدينكا، إذ كان يكفى فى تلك الحالة الماء الدافئ أو حتى البارد، الدافع الحقيقى إليها هو اعتقادهم بضرورتها للتجنيب الطفل أن "يتجمد من البرد" (ريل واى) ولكنهم لا يخشون فى الواقع الأثر الحرفى للطقس البارد، ولا يبحثون عن الدفء الذى يترتب على درجات الحرارة. لأنهم يؤدون الحمام الساخن حتى فى أحر المواسم، إذ إن مواعيد الميلاد عندهم غير منظمة. والدفء الذى يعنونه يتعلق بنظرتهم للوضع بوصفه اضطرابا فى الدورة الدمويّة للأم. وما النزيف الذى تعانى منه إلا دليل على تركيز غير طبيعى للدم، يجب إرجاعه مرة أخرى إلى دورته الطبيعية، وهم يؤمنون بأن الماء الساخن يساعد فى ذلك. أضف إلى ذلك

أن المرأة حديثة الوضع تعانى آلاماً فى أعضاء جسمها، والماء الساخن علاج لمعظم الأوجاع البدنية عند الدينكا. وينطبق الشىء نفسه على الرضيع بالإضافة إلى ذلك يسود الاعتقاد بأن الأطفال حديثى الولادة فى حاجة إلى درجات حرارة تماثل تلك التى اعتادوها فى رحم الأم، فى الوقت الذى يتأقلم فيه الرضيع تدريجياً على درجات حرارة الجو. إلى ذلك ينظر إلى الحمامات الساخنة باعتبارها ضرورية للتطور الطبيعى والمكتمل للطفل. فهى تساعد على نموه صحيحاً قوى البنية ومتوازناً فى الهيئة والمظهر. لذلك تجدهم يعزون النمو الأخرق للطفل أو بنيته المعوجة غير المتوازنة، على الأقل جزئياً، للطريقة الخاطئة التى أنجزت بها الحمامات الساخنة. وهذا هو السر فى التركيز والاهتمام بتفاصيل التدليك والتمرين أثناء الحمام.

لكن مهما كان الهدف والقيمة الحقيقية للحمام الساخن، فهو من الأهمية والدلالة بالنسبة للأم ورضيعها، حتى أن الفترة التى تلى الوضع مباشرة، يُطلق عليها "فترة الحمام". وبينما تستمر هذه الفترة بالنسبة للأم لبضعة أسابيع فقط، فإنها تتواصل بالنسبة للطفل لتغطى معظم فترة الرضاعة ولا تفقد جزءًا من أهميتها إلا بعد أن يكمل الطفل حوالى السنة من عمره.

العناية بالطفل

عندما يصبح باستطاعة الأم مباشرة معظم النشاطات المتصلة بالعناية بطفلها، تعود الجدة إلى بيتها. ولكن تظل العناية بالطفل أساساً مسئولية جماعية يحظى فيها الطفل كل الوقت بالاهتمام الشديد لشخص ما، ليس هو بالضرورة أمه دائما.

وتكاد الرضاعة تكون هى المهمة الوحيدة التى تؤديها الأم وحدها. والدينكا يؤمنون بأنه لا يمكن أن يكون هناك بديل حقيقى للرضاعة الطبيعية. فإذا ما ماتت امرأة وتركت رضيعاً، لابد من إيجاد امرأة أخرى لإرضاع الطفل وهى مهمة تصل عندهم إلى درجة إنقاذ حياة الطفل. وبهذه الطريقة تنشأ "قرابة دم" بين الأم المرضعة والطفل، يترتب عليها حاجز يمنع الزواج للقرابة يشمل جيلاً كاملاً من نسل هذه المرضعة.

وليس هناك تنظيم محدد لأوقات وعدد الرضعات، بل تقوم الأم بإرضاع الطفل متى رأت أنه بحاجة للرضاعة، أو عندما يطلب منها ذلك. ولا يستخدم

الدينكا المهدئات التى توضع فى فم الطفل لإسكاته عندما يبكى، لذلك تلجأ الأمهات للرضاعة أيضاً لإسكات الأطفال ولكنهم لا يحبذون الإكثار من الرضاعة للأضرار التى يمكن أن يحدثها فى هذه الحالة لبن الأم على صحة الطفل، ولأن تساهل الأم فى إرضاع طفلها هو فى رأيهم عائق أمام النمو الطبيعى لقدراته على التحمل.

ولبن الأبقار هو المكمل الرئيسى للبن الأم، حيث تزداد الكمية التى يتناولها الطفل منه تدريجياً مع تناقص لبن الأم، ويشكل جزءًا مهماً من غذائه باستثناء فترة الرضاعة الباكرة التى تلى الوضع مباشرة. وحتى فى الأوقات التى يتناول فيها الطفل أغذية أخرى، يتم عادة إضافة اللبن إليها. ومن حين لآخر يُعطى الطفل غذاءً به مواد صلبة لاعتقادهم بفائدتها لنمو وتقوية أسنانه.

وهناك مجموعة من الغذاءات التى يحظر على الأطفال تناولها بغرض الحفاظ على صحتهم، والتى يرى الدينكا أن أكثر ما يهددها هو الأمراض الباطنية. ويجمع الدينكا أمراض الطفولة معاً فيما يُعرف بـ: "ويت"، وهو مصطلح يشير أيضاً إلى بعض الأمراض المزمنة عند الكبار، ولكنه يغطى فى الغالب اضطرابات الجهاز الهضمى، التى تؤدى إلى الإسهالات أو الإمساك، التى تُجمع أيضاً فى "ثيو" (وهى تستخدم أيضاً للدودة - الغينية والأورام التى تسببها لضحاياها). ولكن هناك بالطبع العديد من أمراض الطفولة الأخرى التى تدخل فى "ويت"، من ذلك التهابات الفم والأنف والأذن والعيون التى تنتشر بصورة كبيرة، كذلك إلتهاب اللوزتين والتهابات الغدة النكفية والأمراض المتشابهة. غير أن أكثر أمراض الطفولة خطورة فى نظر الدينكا هو مرض احديداب الظهر، لما يترتب عليه من أثر فادح على المظهر، الذى يحتل مكانة عالية عند الدينكا.

والدينكا يعتبرون الأطفال أبرياء من كل إثم، لذلك فإن الأمراض التى يتعرضون لها لا تعنى ارتكاب جرم أو خطأ أخلاقى من جانبهم. ولكنهم يعزون بعض الحالات المعينة، وخاصة تلك التى يتعرض فيها الطفل لمرض لا يدخل فى أمراض الطفولة الشائعة، أو الحالات التى يتحول فيها مرض يمكن علاجه إلى مرض قاتل أو غير قابل للعلاج، إلى الآثام والذنوب التى ارتكبها بعض الأقرباء من الكبار أو إلى الإصابة بعين شريرة.

حالما يتم التعرف على المرض وتحديد مدى خطورته يُطلب من أحد الخبراء الحضور، أو تسرع الأم القلقة بطفلها إلى بيت أحد هؤلاء حتى بدون أن يكون

الأب حاضراً. والخبراء هم عادة رجال ونساء تعرضوا هم أنفسهم للإصابة بالمرض المعنى وعوفوا منه. وعادة ما تكون إصابتهم بالمرض إصابة حادة تركت، فى معظم الحالات، آثاراً واضحة على أجسادهم. وهم يتقاضون أتعاباً ما حتى إن كانت رمزية. ويستخدم هؤلاء الخبراء عامة علاجات مركبة ومتزامنة، تتضمن عقارات من الأعشاب، وجلسات للعلاج الطبيعى، وقطع "الخيار المقدس" إلى نصفين، والمباركة بالتفل أو الرش بالمياه المقدسة، وكذلك طرد السحرة الأشرار بالصفير أو بأفعال رمزية أخرى، وبالطبع، الصلاة.

وتحرص الدائرة الواسعة من الأقارب والأصدقاء والجيران حرصاً شديداً على إبداء الاهتمام اللازم وتوفير الحماية الضرورية للطفل لكى ينمو نمواً سليماً، جسدياً ونفسياً. وتستخدم الإناث من الأقارب والجيران فى التعامل مع الطفل كلمة "اكوين"، وهى مصطلح غاية فى الرقة يمكن مقارنته بكلمة "حبيبى أو عزيزى" بنفس الطريقة التى تستخدمه بها الأم. وفى العادة يتداول الرجال والنساء الطفل من يد إلى أخرى، وهم يقبلونه ويدفعون به فى الهواء على الإيقاعات الراقصة لثنائهم عليه، ويتهلل وجهه عندما يجعلونه أو يجعلونها ترقص فى أيديهم. ودائماً ما يكون هناك شخص يجالس الطفل، إذا غابت أمه أو كانت مشغولة بغرض ما، لايتقاضى شيئاً فى مقابل ذلك. وفى الأمسيات عندما يجلس الناس خارج الأكواخ وهم يتبادلون الأحاديث بقرب النار المشتعلة، تقوم الأم أو امرأة أخرى بإبعاد البعوض عن الطفل بصورة متواصلة، بينما يرقد على فخذيها أو على جلد بجانبها. وتزداد أهمية تدخين أكواخ النوم لطرد الناموس عنها خاصة عندما يكون هناك أطفال. وعادة ما يتم ذلك فى المساء الباكر. وعندما يحل موعد نوم الطفل يكون الدخان قد تلاشى مخلفاً الروائح العطرية للأوراق المحترقة.

ويستخدم الدينكا كل أنواع الأغانى لتهدئة الأطفال فى أى وقت يبدأ فيه أحدهم بالبكاء. ويمكن أن يؤدى صراخ طفل لأن يستيقظ النائمون فى الكوخ، وأحياناً فى كل القرية، ولكن لا أحد يعترض أو يشكو من ذلك. وقد ينام الطفل، ولكن المغنى يواصل غناءه لأنه يجد فى ذلك متعة وترويحاً. فى الواقع يجد الدينكا فى هذه المسألة ترويحاً وأنساً كبيراً، وليس من الضرورى أن يكون المرء داخل الكوخ حتى يكون طرفاً فيه.

وتساعد الأم فى العناية برضيعها فتاة شابة تسمى "حارسة الرضيع". وهى تحمل الطفل عندما تكون أمه مشغولة بأعمال البيت الأخرى، ولكنها

تساعد أيضاً فى أعمال البيت وخاصة فى الفترة المبكرة التى تعقب الولادة والتى تكون فيها الأم ملازمة للفراش فى أغلب الأحيان. ويمكن اعتبار هذه الفتاة خادمة على نحو ما، ولكنها لا تتقاضى شيئاً مقابل ذلك، إذ إن الخدمات التى تؤديها تكوّن جزءا من أعراف التضامن وسط العشيرة.

وعادة ماتكون "حارسة الرضيع" أختاً للأم او بنتاً لأختها أو أخيها، لأن علاقة المودة والقربى ومشاعر الحب الطبيعية التى تربط بين عشيرة الأم، تعتبر أقوى وأمتن من عُرى التضامن المفروضة السائدة بين عشيرة الأب. وهذه الفتاة هى الأقرب للطفل باستثناء أمه إذ تنضم للأم بعد وقت قصير من الولادة وتبقى حتى فطام الطفل. وتتواصل علاقتها وارتباطها الوثيق بالطفل إلى أن يكبر، حيث يُنتظر منه أن يبدى امتنانه وعرفانه لها بما قدمته له من خدمات فى طفولته.

بالطبع تتداخل العلاقات المتناقضة والمعقدة للدينكا والمتعلقة بالارتباط القوى بالأم وعشيرتها من جانب والمطالبة بعلاقة ولاء قوية للأب وعشيرته من جانب آخر تتداخل هذه العلاقات وتؤثر فى تربية وتنشئة الطفل. لذلك لا تخلو العلاقة مع "حارسة الرضيع" من الاحتكاك والمصادمات التى قد تصل إلى حد سبها من بعض الأطفال الأقل حياء للأمهات الأخريات، بوصفها "دخيلة". غير أن دورها يتمثل فى الإبقاء على جمر العلاقات الأمومية متقداً وسط هذه النار المشتعلة للروابط الأبوية. وهذا يعنى أنه فى الوقت الذى تقوم فيه هى بالدور الأهم والأكبر فى العناية بالطفل، تشاركها دائرة واسعة من عشيرة الأب فى الاهتمام به فى كل مراحل نموه.

ولكن حتى لانقع فى فخاخ المثالية، لابد هنا من التذكير بالتأثير السالب للحسد الذى تتبادله النساء فى تنشئة وتربية أطفال الدينكا. وهو تأثير يمكن فهمه بسهولة إذا أخذنا فى الاعتبار أن الأطفال يعتبرون دليلاً على نجاح الحياة الزوجية. فى الواقع تتصل كثير من مخاوف الإصابة بالسحر والعين الشريرة ببعض أقرب الناس للطفل مثل الزوجات الأخريات والأمهات بالنسب وأمثالهن من الأقارب بالنسب أو الأقارب من جانب واحد. وكما يقول المثل فإن "العين الشريرة لا ترعى قرابة". لذلك قد تكون وسامة وجمال طفل من زوجة أخرى وميزاته الشخصية ومحبوبيته خاصة لدئ أبيه سبباً فى جلب الحسد له ومصدراً يعرضه لشرور السحر. هذه الأمور قد تشكل تهديداً لوحدة وانسجام المجموعة مما يستدعى ضرورة التركيز والتأكيد على التضامن

والتعاضد العشائرى. لذلك تتم بدقه مراقبة تصرفات الأفراد إزاء بعضهم البعض. فإذا ضل طفل طريقة إلى كوخ إحدى الزوجات الأخريات فإن أى تصرف غير لائق معه تتم ملاحظته، يدخل فى ذلك الإخفاق فى إبداء الاحترام والمودة الكافيين أو انحياز الأم إلى طفلها فى شجار أو قتال نشب بين أطفال الزوجات المشتركات، وكان طفلها طرفاً فيه. بل إن عدم الوقوف مع الطرف الآخر يعتبر سبباً كافياً لإثارة الشكوك حول سلوك شخص ما فى هذه الظروف. وإذا ارتكب أحد الأطفال خطأ ما وقامت إحدى الزوجات الأخريات أو ابن أكبر لزوجة أخرى، بضربه، فإن أى رد فعل من جانب الأم بقصد الدفاع عن طفلها يُنظر إليه باعتباره نوعاً من الحسد.

فى أى من هذه الحالات يمكن أن يقوم رب الأسرة بمعاقبة المخطئ أو توجيه نقد علنى ما إليه، وقد يصل الأمر أحياناً إلى درجة مقاطعته. بذلك تصبح توجهات المجموعة فى ضرورة تأكيد التضامن مع العشيرة الأبوية. ونبذ مشاعر الحسد ضدها، جزءًا من تكوين الطفل عند بلوغه مرحلة الإدراك. وفى المقابل فإن نفس الدوافع الخارجية التى عبأت المجموعة العشائرية لتنشئة الطفل فى جو من التضامن والتآزر، تطالبه بأن يسلك سلوكاً يناسب الشخص الذى ينتمى لمثل هذه المجموعة. لذلك يلاقى كل طفل يخرق الأعراف العشائرية التوبيخ الحاسم والعاجل وقد يصل الأمر إلى معاقبته بدنياً.

مع ذلك فإن علاقة أقوى ولكنها خفية بين الأم وطفلها تفوق تلك التى تربطه مع عشيرة الأب الواسعة هى أمر مقبول مفهوم ومتوقع.

وعلى الرغم من أن الأب هو فى واقع الأمر المستفيد الأول من عملية التناسل، إلا أنه وبقية الأقارب من الذكور لا يشاركون إلامشاركة طفيفة فى العناية بالطفل فى المراحل الأولى. وهو ما ينطبق خصوصاً على العائلات الكبيرة متعددة الزوجات. لكن من الطبيعى أن يرغب الأب فى رؤية طفله من حين لآخر، من أجل ذلك قد يقوم بزيارة المكان المخصص للنساء، أو يطلب إحضار الطفل إليه فى القسم الرجالى. لابد من التذكير هنا بأن علاقات التواصل بين الأبوين تحكمها محرمات تحظر العلاقات الجنسية أثناء فترة الرضاعة. ولكن لا يقتصر الدور الهامشى للأب فى العناية المبكرة للطفل على إبقاء الأبوين بعيداً عن بعضهما البعض، بل يعبر على نحو ما عن التمييز الذى سبق أن ذكرت أن الرجال يمارسونه ضد النساء حديثات الولادة وأطفالهن الرضع لأسباب جمالية. لذلك عندما يحمل رجل من الدينكا طفله

الرضيع، فإنه يفعل ذلك بمشاعر التضحية والتنازل. والأسطر التالية تشير إلى أنه ليس من المعتاد أن يحمل الأب طفله لفترة طويلة:-

لقد دعتنى زوجتى،
لكى أحمل طفلنا،
ثم صارت الأشياء مبتلة مع المطر المنهمر،
يا بنى، يا ابن أمى،
إننى لا أنف منك،
أحمل طفلنا،
ثم صارت الأشياء مبتلة مع المطر المنهمر،
أننى لا أنف منك.

ويطلب رجل فى الأسطر التالية من عمه أن يدبر له زوجة تحمل له طفلاً.

عمى، ياعمى، أريد صغيراً يحتضننى،
عمى، يا عمى، أريد صغيراً أغنى فى أذنه،
أهازيج الصغار حتى ينام.
صغيراً يصرخ "نقى نقى"، بينما أمه تعد الطعام،
حينها سأقول لأخت زوجتى،
تعالى وأنظرى ماذا يفعل صغيرنا،
يا أيها الأنداد، سأقول حينئذ لأخت زوجتى،
إن ابن أختك الصغير يصرخ كالصغار.

بالطبع يقوم الأب بتعويض نفسه عن أيام الصحبة المفقودة عندما يشب صغيره الذكر عن الطوق، ويصبح نظيفاً متحكماً فى سلوكه وتصرفاته. حينها يصير دور الأب كرمز للوحدة وتواصل السلالة هو المحور المركزى طوال حياة الابن.

ولا يعنى غياب الأب عن المشاغل اليومية للعناية بالطفل، أن العبء كله يقع على عاتق الأم، إذ تتوافر لها مساعدة كافية فى العناية بالطفل، بحيث يصبح فى مقدورها القيام بعملها المنزلى المعتاد دون عوائق تذكر. إلا إذا كان طفلها

طفلاً شديد المراس لا يقبل سواها إلا القليلين، باستثناء ذلك فإن الأم تقوم بطبخ وإحضار الماء والوقود والعمل فى الحقل بل وتزور الأصدقاء والأقارب فى الفترة التى يكون فيها لون الطفل مازال " ذا سمار فاتح"، يجب على الأم أن تتجنب الأسفار غير الضرورية، أما إذا اضطرت لذلك فتحمل طفلها فوق رأسها راقداً على سلة واسعة.

وعندما يصبح عمر الطفل أكثر من عام بقليل، تحمله الأم على علاّقة من الجلد تُربط حول أكتافها وتتدلى من ظهرها، حيث تحيط رجلا الطفل بخاصرة الأم، وتبرز يداه على جانبى العلاّقة. وببلوغه سن الثالثة يبدأ الكبار بحمله على قاعدة الرقبة، حيث تتدلى رجلاه على جانبى الصدر. وتستقر يداه إما على رأس الشخص الذى يحمله أو يمسك بهما ذلك الشخص بكلتا يديه وتقتصر الطريقتان الأوليتان على النساء، بينما يستخدم الرجال فقط الطريقة الثالثة.

وباقتراب الطفل من مرحلة الفطام تبدأ الأم فى إثنائه عن الرضاعة، وهى قد تفعل ذلك بتجنب إعطائه ثديها، أو قد تبدأ فى السفر بحرية دون انشغال كبير بالعودة فى وقت محدد أو حتى بالعودة فى نفس اليوم. وذلك هو الوقت الذى يجب أن يتعلم فيه الطفل تقبل غياب الأم دون بكاء. ويُعاب الطفل الذكر على وجه الخصوص إذا بكى لغياب أمه، وهذه هى المرحلة التى يبدأ فيها بصورة مؤكدة انتمائه إلى أبيه برغم تواصل إنتمائه إلى أمه بصورة عامة.

وهى أيضاً المرحلة التى يبدأ فيها الأب بالتحدث إلى الأم حول فطام الطفل. وقد تواجهه الأم ببعض المقاومة، التى قد ترجع إلى تعلقها بطفلها، ولكن عادة ما يكون الدافع الأساسى هو حياء النساء من التحدث فى المسائل المتصلة بالجنس، لأن الحديث عن الفطام هو طريقة مباشرة ومكشوفة لطلب معاودة العلاقة الجنسية. ولكن وبما أن كلا من الأب والأم يتحرق لإنجاب طفل آخر، فإن تلك المقاومة لا تدوم طويلاً. وبذلك يضعان حداً للمحرمات، حيث يتم فطام الطفل، ثم يُرسل إلى عشيرته من جهة أمه لقضاء فترة الفطام.

الفصل الخامس

الطفـــولة

الفطام وسط عشيرة الأم

يمكن تحديد الخط الفاصل بين فترة الرضاعة وبداية الطفولة بسهولة من خلال انتقال الطفل من بيت والديه إلى مسكن عشيرة أمه. يعطى هذا الانتقال الفرصة للطفل لكى يتعرف على مجموعة جديدة من القيم والعلاقات تحظى، برغم مجيئها فى سلم الأولويات بعد تلك التى تتصل بعشيرة الأب، بقدر عال من الاحترام، وتعتبر فى بعض جوانبها، أكثر حميمية ومتانة.

والكلمة التى يستعملها الدينكا للإشارة إلى عشيرة الأم هى "نار" وتقوم على العلاقة مع الخال الذى يُشار إليه بنفس الكلمة أيضاً. وهذا يعنى أن مفهوم الدينكا للعلاقة مع عشيرة الأم يتركز حول الخال؛ ذلك أن الأحفاد هم على نحو ما البدائل لأجدادهم، الذين عادة ما يكونون قد رحلوا عن الدنيا عندما يبلغ الأحفاد سن النضج. من هنا فإن العلاقة مع الخال هى التى تحفظ العلاقة مع عشيرة الأم لفترة من الزمان.

ولكن بالرغم من ذلك فإن السبب الحقيقى لإرسال الطفل إلى عشيرة الأم هو وضعه تحت رعاية جديه لأمه. إذا إنهما يمثلان أفضل بديل للأبوين بحكم خبرتهما الطويلة كأبوين أنفسهما. ولكن المسألة لا تقتصر على الرعاية فحسب، إذ إن لها أبعاداً أخرى. ذلك أن حياة الأجداد وحياة الأحفاد تقعان،

وللمفارقة على نقطتين متوازيتين فى دورة الحياة الإنسانية، وهما يصلحان على نحو ما، تماماً لمرافقة بعضهم البعض.

بالنسبة للجدين فإن رؤية خطهما السلالى يتواصل فى الزمان، وقدرتهما على أداء وظائف الأبوة بالمهارات التى إكتسباها عبر خبرة طويلة، والسهولة والمرونة التى يتعاملان بها مع الأطفال، والتى ترجع جزئياً لثقتهما فى أنفسهما مما يجعلهما أقل ميلاً للتشدد، هذه الأمور مجتمعة تجعل منهما أكثر الأقارب، بالنسبة للطفل، رحمة ومودة. وهما يمكن أن يفوقا حتى الأم فى هذه المسألة لأنهما يحبان بصدق يصل إلى حد إفساد الطفل. ويمكن القول لذلك أنهما يمثلان أفضل تعويض للطفل عن مشاعر الحرمان والصدمة التى يحس بها عند أخذه بعيداً عن أبويه، وخاصة أمه.

ويمكن التدليل على الإخلاص المتناهى للجدين وحرصهما على خير ورفاه حفيدهما بتجربة كنت لصيق الصلة بها. فقد مرض أحد الأطفال وكاد أن يموت. لم تُجد مع مرضه كل محاولات العلاج، سواء كانت روحية أو موصوفة. فى أخر الأمر حمل جد ذلك الطفل لأمه حربته المقدسة، وكان رجلا ذا قوى روحية نافذة، ونهض فى منتصف الليل ليصلى حتى الصبح لحفيده، متوسلاً الإله والأرواح والأسلاف السابقين لكى يأخذوه هو، إن كان ذلك ضرورياً، فداءً لحفيده. وكان هذا الرجل قد زوّج ابنته المفضلة إلى الزعيم الأكبر للقبيلة وسط توقعات وآمال كبيرة فى ذلك الزواج. وكانت البنت قد تمت خطبتها فى وقت سابق لرجل أخر دفع مالاً كثيراً مقابل ذلك. عندما ظهر إبن الزعيم، الذى صار فيما بعد زعيماً، ونازعه الخطبة، منافساً له فيها. كان عدد من الناس يرى أن تدخل ابن الزعيم شىء غير لائق، وخاصة أن الخطيبين كانا يمتان لبعضهما البعض بصلة القربى. لذلك كانت هناك معارضة من الأقارب فى كلا الجانبين، ومن الفتاة نفسها. ولكن كل ذلك لم يثن إبن الزعيم عما عزم عليه. حتى أنه يقال أنه قد حمل سلاحاً نارياً وهدد بقتل منافسه. بالنسبة للأب فقد كان يفضل زواج بنته من إبن الزعيم لعدة أسباب: أولها أنه لم يكن يريد صراعاً دموياً حول إبنته. وثانيها أن إبنه هو من زوجته الأولى وأحب زوجاته إليه كان أصغر ذريته، وكان توأماً والإبن الوحيد الذكر الذى بقى على قيد الحياة وسط أخواته. وكان ذلك الزواج سيهيئ لهذا الإبن دفعة هامة فى زعامة السلالة. وهى سلالة برغم تجذرها ووضعها القيادى فى المجتمع، إلا أنه لم تمض إلا خمسة أجيال على قدومها مهاجرة إلى القبيلة.

لذلك سيرفع هذا الزواج كثيراً من مكانتها السياسية والاجتماعية. والصورة المثلى لتحقيق هذه الغايات هى فى إنجاب البنت لمولود ذكر من إبن الزعيم. لذلك قام أقرباؤها عند إحتفالهم بزواجها بذبح ثور مقدس قرباناً، مصحوباً بدعائهم بأن يكون مولودها الأول ابناً ينمو ويترعرع لكى يكون حلقة وصل هامة بين الأسرتين المتزاوجتين. وقد تحقق لهم ما أرادوا وصار الجد شديد التعلق بذلك الحفيد. والآن يرقد ذلك الطفل مريضاً على أعتاب الموت. لذلك لم يعتبر الجد أن موته شخصياً هو ثمن فادح لنجاة حفيده. وقد أُستجيب لدعوته: إذ نجا الطفل، وبعد ست سنوات توفى الجد. بالنسبة للطريقة التى يفكر بها الدينكا كان السبب فى الوفاة واضحاً برغم الفارق الزمانى. ذلك الرجل هو جدى، وكنت أنا هو ذلك الحفيد. ولقد نشأت لا أعلم من هذه المسألة شيئاً. ولم تقم والدتى أبداً بذكرها لى. وعندما كنت فى حوالى العشرين من عمرى رجعت مرة من المدرسة مباشرة بعدما عوفيت من مرض ألمّ بى فيها. وقد وصلت أخبار مرضى إلى أهلى فى البلد - وكان خالى - الابن المفضل- من بين أقربائى الذين زارونى من جهة عشيرة أمى. وقد علق على مرضى وشفائى قائلاً بطريقة الدينكا الشائعة: "مادينق، يا ابن أختى، إن بدنك معافى من كل مرض. لقد دعا أبى لنفسه بالموت، حتى يخلصك أنت من الموت. لذا لن يصيبك مكروه أبداً".

بنفس القدر الذى تكون فيه الأم قريبة من طفلها وحريصة عليه، كذلك تكون الجدة. أما والد الأم فإنه بطرائق عدة أكثر قرباً من الأب ومن والد الأب. هذه العلاقة الحميمة مع والدى الأم تمتد لتشمل كل عشيرتها، تزيد قوتها أو تقل تبعاً لدرجة القرابة مع الشخص المعنى. وعلى العموم فإن مجمل عشيره الأم هى الأكثر مودة وأماناً وهى التى توفر أجواءً أكثر بهجة ودفئاً للعيش فيها، بالمقارنة مع البيت الأبوى الذى تشد أجواءه وتتجاذبها المنافسة على رضا الأب وإهتمامه. وبالطبع لا تخلو عشيرة الأم هى الأخرى من مشاعر الغيرة والحسد، ولكنها لا تطال الطفل أبداً، خاصة فى هذه الفترة المبكرة من حياته. أضف إلى ذلك أن مثل هذه المشاعر تُقهر بصورة أكثر شدة إذا كانت موجهة نحو أبناء البنت، وتوقع العقوبة الشديدة على من يجاهر بها. لذلك يجد الطفل بين عُشيرة أمه العناية والرعاية الودودة واهتمام النساء، وخاصة أم والدته. ويجد عند الكبار من الرجال، وخاصة عند والد أمه، الحظوة والنصيحة الحكيمة، يوفر له أقرباء أمه، الحمايه من نزعات أطفال الدينكا العدوانية، وهو

يجد فوق كل ذلك شيئاً نادر الحدوث عند الدينكا هو الاستثناء من العقاب، فهو يتعلم من الذين يكبرونه سناً من خلال مشاعر الحب المتبادلة وليس بالقسر والإكراه.

وبعكس القواعد المستخدمة فى نظام الأسماء، يلجأ أقرباء الأم لنداء الطفل باسم أمه وليس باسم أبيه. إذ إنهم يجدون متعة كبيرة فى تجاهل الأب أو عدم الاهتمام به مهما كان وضعه الاجتماعى أو أهميته. لذلك تجدهم يرددون جملاً مثل "إنها أمك هى التى تعرفها"، وفى بيت "أمك" فإن اسمها هو الذى تستخدم. وبالرغم من أن هذه التسمية يمكن أن تشكل إهانة بالغة فى البيت الأبوى، حتى بالنسبة للأم نفسها. إلا أنها طريقة محببة للتخاطب مع الطفل وسط عشيرة أمه. ذلك أن الطفل يرمز، من كل الوجوه، لعودة إبنتهم إليهم وهو تعويض أكثر إرضاءً من كل الأبقار التى جاءتهم كمهر لزواجها.

مع ذلك يجب عدم المبالغة فى إعطاء مسألة عدم التركيز على جانب الأب أهمية أكثر مما تستحق. إذ إن الثنائية فى الإنتماء السلالى بين الدينكا هى بما لا يحصى أكثر تعقيداً وتداخلاً من هذا. فحتى الطفل الذى يجد متعة كبيرة فى نسبته إلى عشيرة أمه، يعتز بسلالته الأبوية ولا يتوانى عن الوقوف فى صفها إذا ما صار أى من حقوقها موضعاً للشك. بل إن عشيرته لأمه تنتظر منه هذا السلوك، بوصفه علامة على الولاء للعشيرة الأبوية، وعلى الاعتزاز والتأدب، وكلها صفات لا يجوز المس بها فى الطفل، بخاصة إذا كان ولداً. ذلك أن مستقبل الطفل كله بما فى ذلك ما يمكن أن يفعله لصالح عشيرة أمه سيكون فى إطار العشيرة الأبوية. من هنا كان من الطبيعى أن يهتم جميع المعنيين اهتماماً مباشراً بإعداد الطفل لكى يكون مساهماً فعالاً فى عشيرة أبيه. وقد تُطرح على الطفل أسئلة تتضمن ما يتوقعه الناس منه، ثم تُردد الإجابات التى يتفوه بها بالصورة التى تعكس طموحاته وذكاءه وحكمته وثقته بنفسه. وعلى الرغم من أن هذه الصفات قد تتوافر لدى بعض الأطفال بدرجة ملحوظة، إلا أن السمعة التى يكتسبها طفل معين تنحو للمبالغة فى صفاته، وتؤدى، بوعى أو بلاوعى ، إلى أسطورة من حوله تشكل دافعاً وحافزاً له فى حياته، هذه الأساطير التى تُنسج حول الطفل لا تقتصر على عشيرة الأم، بل تتبعه إلى أوساط العشيرة الأبوية. وعندما يكبر هذا الطفل فإن كل عمل من أعماله يمكن اعتباره إنجازاً، يُفسر بأنه خطوة أخرى لتحقق الأسطورة. غير أنه من الطبيعى أن تكون هذه الأساطير بقدر ما فيها من إيجابيات، مصدراً

للشكوك، وأحياناً سبباً للنزاعات، مع منافسين تمت تهيئتهم بنفس الطريقة وأحياناً بنفس القوة.

من الممكن كذلك أن تكون المبالغة فى عدم التركيز على جانب الأب والأهمية التى تُعطى لجانب الأم أثناء مرحلة الفطام، من الممكن أن تكون وسيلة لتذكير الطفل بكل من الأهمية الفائقة التى يوليها المجتمع للجانب الأول، والروابط الوثيقة مع عشيرة الأم التى يُنتظر منه أن يحترمها ويجلها طوال حياته. وسط هذا التضارب المعقد للمصالح يحظى جانب الأم بالحب والمودة الطبيعيين الصارمين، بينما يحظى جانب الأب بالولاء المطبوع والإخلاص والوفاء.

وبما أن المصالح الأبوية هى التى تشكل الأهداف الأساسية للتناسل، فإنها الأكثر تنظيماً والأعمق بنية والأقوى سيطرة فى السنوات الأخيرة للتكوين الإجتماعى للطفل. وبالطبع يستفيد أقرباء الأم من سنوات الفطام، لذلك وحتى لا يصبح الطفل معزولاً بأكثر مما يجب عن مطالب وتوقعات عشيرته الأبوية. خلال هذه السنوات، يتم تشجيع الزيارات بين الطفل والعشيرة الأبوية وعادة ما تكون زيارات الطفل قصيرة، يُعامل فيها بوصفه ضيفاً أكثر منه عضواً فى العائلة. فى المقابل يُعامل زائرو الطفل باحترام وتكريم كبيرين، فتذبح الذبائح، وتُعد الجعة، ويُجهز الطعام بكميات كبيرة ويستخدم أفضل أنواع القرع وأجملها زخرفاً فى خدمة هؤلاء الضيوف.

باقتراب مرحلة الفطام من نهايتها، يكون الطفل، الذى شارفت سنوات عمره على الست حينها، قد اعتاد وتأقلم على بيته الجديد. وصار جداه لأمه والديه، وصار أخواله وخالاته وأبناؤهم جزءًا مكملاً لأسرته. ومرة أخرى يعانى الطفل من مرارة الانتزاع عندما يعود إلى بيته الأصلى، ولكن علاقته بعشيرة أمه تكون قد قويت وتجذرت بالقدر الذى يجعلها تتواصل وتنمو وتبقى محلاً للاحترام ويقع "الدَين" الحقيقى على الطفل، الذى عادة ما يوفى به بدوافع الحب لهؤلاء الناس. ولكنه إذا أخفق فى الوفاء بدينه، فإن النتائج المترتبة على ذلك تكون إلى الكارثة أقرب. إن الاعتقاد السائد وسط الدينكا هو أن من بين كل الأقارب القادرين روحياً على توجيه اللعنة، يُعتبر الخال – فى الواقع كل أقرباء الأم – هو الأكثر فتكاً. والكلمة التى يُوصف بها الشخص ذو القدرة الروحية على اللعن، عند الدينكا هى أنه "مغبون"، ذلك أن مثل هذه القدرة تكمن، غالباً، فى الغضب الذى يعترى شخصاً مغبوناً، والإحساس بالجرم الذى تثيره فى نفس أُحسن تأديبها . وكلما كان ما يدعو لحسن الظن

بالشخص كبيراً. كان الغبن عظيماً لتجنيبه وإخفاقه. ولا شك أن آيات الحب والمودة التى أحاطت بها عشيرة الأم طفل ابنتهم تستحق أن ترد بكل خير ولكنهم لا يتوقعون ولا يطلبون أكثر من بعض الأشياء المادية المتواضعة، أهمها نصيب معقول فى مهور بنات ابنتهم، وسلالتهن فى بعض الأحيان. ذلك أن أبقار المهر عند الدينكا ليست ثروة مادية فحسب، وإنما هى وسيلة لتبجيل العلاقات الإنسانية، لذلك فإن منعها عن أناس كان لهم ذلك الدور المحورى فى صحة ورفاه الطفل مادياً ونفسياً، خلال تلك السنوات الحاسمة من عمره، لايرُجى منه إلا ذلك الغضب والإحساس بالمرارة واللذان نادراً مايخطئان فى التأثير على وجدان وضمير ذلك الشخص أو أقرب الناس إليه. وما لم يتم إرضاء وتطييب خاطر هؤلاء الأقارب الذين خاب رجاؤهم واستعطافهم لإنقاذ الشخص المصاب، فإن النتيجة قد تكون هى موت ذلك الشخص. فالأقارب الذين يفترض فيهم أن يكونوا الأقرب والأكثر حباً لبعضهم البعض هم الأقدر على قتل بعضهم البعض. يغنى رجل:

كور مالوال لايمس بلسانه أبداً عشيرة أمه،
وأجانق مالوال لا يسىء بكلمة واحدة لعشيرة أمه،
لأن عشيرة الأم عندما تكون غير راضية عن شخص ما،
تتداعى الأشياء، مثل دواخل جبان.

وقد يبدو متناقضاً أن نقول هنا بأن قوة عشيرة الأم تكمن فى رعايتهم الحنونة، بينما الأم التى لا يتطرق شك لحنانها، غير قادرة طقسياً على اللعن. غير أن الفحص المتأنى يدل على أن القدرة الكامنة للأم على اللعن تتحول إلى عشيرة أبيها، لأنه يُسمح للطفل بإبداء مشاعر الحب والمودة لعشيرة أمه ولكن ليس تجاه أمه نفسها. وبذلك يصبح من السهولة بمكان تبين أن مثل هذه المشاعر القوية والمعترف بها، لكنها مكبوته، لابد أن تجد متنفساً لها. ويمثل الأقارب اللصيقون بالأم فى هذه الحالة افضل بديل عنها.

إعادة التكيف مع قيم العشيرة الأبوية

ينصب اهتمام العشيرة الأبوية عند عودة طفلهم من فترة الفطام أول ما ينصب على تعديل التوجهات التى خضع لها عند عشيرة أمه. ولكن ذلك لا يعدو أن يكون تكثيفاً لما سبق أن تعرف عليه الطفل من مدة طويلة – إذ انه

يتعلم، حالما يبدأ بالكلام، أن يردد كل نسب السلالة الأبوية، فى الوقت الذى لا يتجاوز فيه الشخص عدة أجيال فى خط سلالة الأم. ويقوم عدد لا يحصى من الأقارب بسؤال الطفل عُمن يحب من أبويه، وليس أيهم أحب إليه من الآخر. ونادراً ما يكون طفل الدينكا من البراءة بحيث يجيب على هذا السؤال بأنها أمه. لأن مثل هذه الإجابة تعرض صاحبها للتوبيخ والازدراء. حتى الأم نفسها لابد أن تشعر بالخجل والحرج. لذلك فإنه من مصلحتها شخصياً أن تتأكد من أن شيئاً من هذا القبيل لا يحدث.

عندما يعود الطفل من فترة الفطام يكون حينئذ قد بلغ مرحلة الإدراك. وبالتالى يصبح من الضرورى بمكان العمل على توجيهه ذهنياً. ولابد من التذكير هنا بأن قيم العشيرة الأبوية هى فى الواقع قيم ذهنية وليست قيماً قلبية، إذ يفرض المجتمع على المرء أن يظهر تضامناً وولاءً أكبر مما يشعر به بالفعل. لذلك فإن الحصافة والحكمة تقتضى أن يجتهد المرء فى تكييف أهوائه ومشاعره، إذا اراد أن ينتفع بمزايا الانتماء والمماثلة، وأن يتجنب الحرمان الناتج عن الشذوذ والخروج عن الجماعة.

وقد يحدث أحياناً أن يُدعى الطفل باسم أمه لممازحته أو لازدرائه، غير أن العرف هو استخدام اسم الأب. وحتى الأم نفسها تتنازل بكل سرور عن امتياز تعريف الطفل باسم عشيرتها عن طريقها. فى الواقع رأيت أمهات فى حالة من الغضب ببساطة لأن أبناءهن عُرِّفوا بأسماء أمهاتهن. وتقتضى حميمية العلاقة مع الأم والاحترام الواجب فى التعامل مع الأب، تقتضى من الابن أن ينادى أمه باسمها، ولكنها تفرض عليه أن ينادى الأب "بابى". ويشمل ذلك كل أفراد العائلة الاخرين بما فى ذلك الأم نفسها، ليس هناك إستثناء إلا فى الأغانى، التى يسمح الدينكا فيها بكثير من الاستثناءات عن قواعد العرف على كل حال، حيث يمكن للطفل أن ينادى أباه باسمه وأمه بوصفها أماً.

تُطبق قواعد الإدماج فى العشيرة الأبوية بصرامة أكبر مع الأبناء عنها مع البنات، حيث يبدأ تقسيم وتوزيع الأدوار بحسب النوع بعد رجوع الطفل من فترة الفطام مباشرة. فى هذا الإطار يبدأ الجهد التعليمى، الذى هو فى الغالب الأعم مسئولية خاصة بالأسرة، بإعداد الأطفال لاكتساب ومواصلة المهن والمهارات الخاصة بتلك الأسرة. ويتعلم الأولاد من الرجال، بينما تتعلم البنات من النساء. كذلك يرافق الأولاد الرجال فى حظائر القطعان أو فى الأماكن المكشوفة حول النيران، بقرب أو وسط القطعان المربوطة، بينما تبقى البنات مع

أمهاتهن داخل الأكواخ أو فى الأماكن المخصصة لجلوس النساء خارجها حتى اشجار الظل أثناء ساعات النهار تكون مفصولة حسب النوع. وبالطبع لا يمكن منع الأطفال الصغار من الإختلاط بأمهاتهم بصورة كاملة، ولكن اختلاطهم معهن يعرضهم للسخرية والتوبيخ بوصفهم " أبناء أمهاتهم". الشئ نفسه ينطبق على البنت التى تجالس وتختلط بالأولاد، فهى أيضاً تتعرض للتوبيخ والاستهزاء، ولكن ليس بوصفها "ابنة أبيها" مما يمكن أن يكون تقريظاً، ولكن بوصفها "الفتاة الثور" أو "الباحثة عن الرجال". حتى فى ذلك العمر المبكر يسبب الاتهام بالتصرف كالرجال أو الجرى وراءهم، كثيراً من الحرج.

ويتم فصل الأولاد عن النساء لتحصينهم ضد عدوى الغيرة والمشاحنات والعداءات التى تسود مجتمع النساء. وهم يتعلمون أن يبجلوا وينمو فى أنفسهم مشاعر التضامن التى تطلبها وتتوقعها منهم العشيرة بوصفهم مركزاً لوحدة الأسرة وانسجامها وتواصلها. وتتمثل واحدة من الوسائل التى تُرسخ بها هذه القيم فى الأكل معاً.

حيث يأتى كل ابن بطعام من أمه ليتقاسمه مع بقية اخوانه لأبيه. وعلى الرغم من الاعتراف بصورة عامه بالممارسة التى تُسمى "اقور"، حيث تحتفظ المرأة ببعض الأطعمة الخاصة لزوجها أو لابنها، أو لأحد الأقرباء الذكور الآخرين، يتناولونها خلف الأبواب المغلقة، على الرغم من الاعتراف بها بوصفها علامة على المودة ووسيلة إلى قلب الرجل، إلا أنها مستنكرة ومستهجنة. والذى يحدث فى العادة هو الجمع بين هذين المسلكين، حيث تعبر المرأة عن حبها وخصوصية علاقتها بزوجها بإعداد "اقور"، ويعبر الرجل عن مشاعره الجماعية الرجولية بدعوة آخرين او الإنضمام إليهم ليتقاسمه معهم أو بإرساله إليهم، فى نفس الوقت الذى يعبر فيه عن امتنانه وعرفانه لاهتمام المرأة به.

ويمثل القتال دفاعاً عن أفراد الأسرة أو عن شرفها جانباً آخر للتضامن بين الأبناء. وإلى هذا الجانب يعزى الجزء الأكبر من العنف الذى يسود مجتمع الدينكا والذى سبق أن أشرت إليه فى مكان آخر بيد ان الدافع للقتال دفاعاً عن الأسرة هو أيضاً جزء لا يتجزأ من الدافع العام لتنمية شخصية شجاعة ومستقلة فى الطفل، حتى أنه لن يكون من الممكن فصلهما عن بعضهما البعض. فالدينكا يؤمنون بأن المرارات والأضغان لايجوز تربيتها.

لذلك يجب الإفصاح عنها، بين الكبار، والوصول لحلول بشأنها. ولكن نسبة لمحدودية الملكات المنطقية وسط الأطفال، فإنه يُسمح بقدر من العنف المحكوم، بل ويُشجع بين الأقارب أو مع الأغراب. وتوجد عدة أساليب نموذجية لافتعال معارك بين الأطفال، خارج نطاق الأسباب المعتادة للإقتتال فى مجرى الحياة. فمن العادة أن يجلس الأولاد، وهم يرعون حيواناتهم مجموعات فى مكان واحد تحت ظل شجرة ويتناوبون الذهاب لمنع القطعان من الابتعاد. وعندما يكون أحد الأولاد بعيداً، يرسم الآخرون خطة لإثارة معركة إذ يخبرونه عند عودته بأن شخصاً معيناً قد أساء إليه فى غيابه. وعادة ما تكون إساءة موجهة لشرف أو كرامة أسرته أو عضو فى هذه الأسرة. وتكون الخطوة التالية بأن يسأل الولد ذلك الشخص الذى قيل له انه قد أساء إليه، عما إذا كان قد فعل ذلك حقاً. ولابد أن تكون إجابة ذلك الشخص هى "نعم"، لأن الولد المتهم إن أجاب بغير ذلك يتعرض للاتهام بأنه جبان ويصبح موضعاً للسخرية والاستهزاء. ومن ثم تنشب المعركة.

وهناك أساليب مفتعلة أخرى كثيرة لإثارة المعارك. اعرف إحداها من خبرتى الشخصية. فقد كنت فى معسكر الأبقار فى يوم من الأيام برفقة عدد من إخوتى لأبى. وبينما كنا نمارس نوعاً من رياضة الهوكى التى يمارسها أطفال الدينكا، جاء إلىَّ ولد اكبر سناً ونقل إلىَّ أن أخى الصغير قد أهانه ولد فى مثل عمرى. وحسب القصة التى حكاها لى فقد جاء ذلك الولد إلى الجزء الخاص بنا من المعسكر واستولى على ثور أخى وأخذه إلى معسكرهم. كان ذلك تحدياً لا يمكن بحال تسويته بواسطة الكلام. وعلى الرغم من أنه كان وارداً أن ذلك الولد لم يأخذ الثور، إلا انه كان مجبراً على الإجابة "بنعم"، عندما هرعت إليه وسألته فشتمته وتحديته أن ينازلنى. فى هذه الأثناء كان قد تجمع عدد من المحرضين المشاهدين. وكما هى العادة فى مثل هذه الحالات، كانت المعركة محكومة بقواعد معينة. فبدأنا بالصراع، وعندما لم يصرع أى منا الآخر، طُلب منا الانتقال إلى الضرب بالأيدى. والدينكا لايستخدمون الأكف المضمومة فى الضرب، بل يقومون بصفع خصومهم على الوجوه أو الأبدان بالكف المبسوط، يحمون أنفسهم بإحدى اليدين بينما يهاجمون بالأخرى. وتقاتلنا بهذه الطريقة بعضاً من الوقت قبل أن يُطلب إلينا إستخدام أعواد من أفرع الشجر تم إعدادها لهذا الغرض. ولكن بعد وقت قصير رمى خصمى عوده، وقام، فى انتهاك لكل القواعد، بعضى فى فكى. ثم بعد ذلك

فصلنا. ولكن جرحى نزف كثيراً، والتهب بشدة اقتضت إرجاعى إلى البيت. والدينكا يحبون المعارك العادلة، ويكرهون الفرص غير المستحقة. ويعتبرون القتل غدراً أو بنصب الكمائن، فى الحروب القبلية، أمراً منحطاً غير شريف، يؤدى فى العادة إلى نشوب نزاعات مريرة وإلى عقوبات قانونية شديدة تتمثل فى زيادة الديات زيادة كبيرة. وفى أوساط الأطفال يُعتبر العراك مع طفل أصغر سناً، جبنا ونذالة. وإذا تحرش طفل بآخر أصغر منه سناً يقال عنه: أن قد تحاشى موضع سمكة "نقوك" ذات الأشواك الخطيرة ليهاجم سمكة "أيك" عديمة الأشواك. ويتمثل التصرف النموذجى لطفل صغير تحرش به طفل أكبر منه سناً فى الجلوس على مبعدة من الناس والتمتمة، بينما رأسه إلى أسفل، بهذا المقطع:

فى بؤسى أجلس وأبكى،
لأننى لا أخ لى.

والأطفال يرددون هذا المقطع حتى لو كان لهم إخوان - إذ يريدون أن يقولوا أن أحداً لم يدافع عنهم عندما كانوا يظنون أنهم يستحقون الدفاع عنهم.

يمثل العمل جانباً آخر من الجوانب التى يتم فيها التعبير عن قيم العشيرة الأبوية وتقسيم المهام. حيث يرتبط دور الأطفال الذكور كثيراً بتربية الحيوان. كذلك يشير استخدام الأبقار فى الزواج إلى أهميتها الخاصة بالنسبة للأولاد. لذلك تمثل رعاية الأبقار والخراف والماعز مهنة وعملاً بالنسبة للأولاد. وبسبب الصعوبات المتعلقة بهذه المهمة يتكفل الأولاد الأكبر سناً برعاية الأبقار بينما يوكل إلى الأولاد الأصغر سناً رعاية الخراف والماعز. غير أن العمل الأساسى متشابه فى طبيعته. ففى موسم الأمطار تقضى الحيوانات التى لم تُرسل إلى المعسكر، الليل داخل الحظائر. ويستيقظ الأطفال فى الصباح الباكر لإخراجها "لرعى الإفطار"، قبل حلبها، أو لربطها فى الخارج حتى يمكن تنظيف الحظائر. ومن السهل تصور الجهد الضخم المطلوب للتنظيف إذا علمنا أن الحظائر تكون شديدة الاتساخ والتعطن فى الصباح. فلابد من إزالة الروث ونشره فى الخارج لكى يجف ويصير وقوداً، أو نثره فى المزارع المجاورة لكى يتحلل ويخصب الأرض. ولابد من إزالة البول وتجفيف الأرضية برماد الروث المحترق. وتساعد نار ينبعث منها دخان فى التجفيف وتغيير رائحة الحظيرة. وإذا قضت الحيوانات الليل فى الفناء فيجب تنظيف المكان أيضاً.

وبعد فك الحيوانات من رباطها يجب جمع هذه الحبال وتعليقها فى موضعها، وإصلاح ما انقطع أو رث منها. بعد ذلك بمدة قصيرة تُعاد الأبقار المرضعة لحلبها، قبل أن تنضم إلى بقية القطيع للرعى تحت رعاية الأولاد الأكبر سناً. وترعى العجول وخاصة تلك التى ترضع، بعيداً عن أمهاتها، ويشرف عليها ومعها الخراف والماعز، الأولاد الأصغر سناً. فى الحالات التى يرعى فيها العجل مع أمه تُربط حول فمه حلقة مليئة بالأشواك الطويلة. هذه الأشواك تطعن الأم فى ثديها وتمنعها من إرضاع عجلها ولكنها لا تمنع العجل من الرعى والاعتلاف.

أما بالنسبة للخراف والماعز فيُسمح لها بإرضاع صغارها أثناء النهار، ويتم حلب التى ليس لها صغار ترضعها فى المساء، ولهذا السبب لا يُفصل بينها بل ترعى معاً. ويتمثل عمل الرعاة من الأولاد فى التأكد من عدم تفرق الحيوانات وابتعادها أو ضياعها، ومنعها من التعدى على المحاصيل. أما إذا كان الموسم أو مكان الرعى يعرض الحيوانات لهجمات محتملة من الأسود والضباع أو الفهود، فإن الرجال هم الذين يتولون مرافقة القطعان بدلاً من الأطفال.

فى العادة يخرج الأطفال لرعى الحيوانات بعد الإفطار. ويقومون أثناء تجوالهم بعيداً عن البيوت بجمع الأطعمة البرية التى يلاقونها حسب الموسم، ولكنهم يعودون عادة وهم يحسون بالجوع والعطش فى وقت متأخر بعد الظهر. وتُعتبر هذه الممارسة قدرة نبيلة على التحمل تنبئ عن صفات الرجولة، ويتغنى ويفتخر بها حتى الكبار من الرجال. وهى كذلك من الأساليب المبكرة لاختبار فحولة الرجال. فالراعى الشاب يجب ألا تظهر عليه علامات الضعف. لذلك فإنه عند عودته للبيوت آخر النهار يترك الحيوانات لترعى فى أطراف القرية ويواصل عمله فى الدارة. وكما سبقت الإشارة إلى ذلك فى الوصف العام لقرى الدينكا، تشتمل كل دارة على فناء أمام حظيرة الحيوانات. يضم هذا الفناء مساحة واسعة تغطيها ربط الحيوانات، وفى وسطها مواقد من بقايا الأبقار وينبعث الدخان من الأكوام الهرمية التى كُومت منها. وتستخدم هذه المساحة لربط الحيوانات فيها لقضاء الليل أو فترة المساء قبل إدخالها إلى حظيرة الأبقار لقضاء الليل هناك، وذلك بحسب الموسم وأحوال الطقس. أما الخراف والماعز فتقضى الليل داخل الحظيرة باستثناء فترات المواسم التى يقضى فيها الناس وحيواناتهم الليل فى الخارج.

وتُربط العجول فى الفناء الذى يقابل مدخل حظيرة الأبقار مباشرة، وعادة ما يتم إرجاعها من المرعى فى وقت باكر بعد الظهيرة. وباقتراب الأبقار المتلكئ حول القرى تمتلئ الأجواء بأصوات العجول والأبقار وهى تخور وتجأر لبعضها البعض، تتعرف وتشتاق ولكنها تظل معزولة عن بعضها البعض حتى مواعيد الحلب فى وقت لاحق فى المساء.

قبل قيامهم بربط الأبقار يجمع الأولاد، وهم يغنون فى مرح وتنافس، روث الأبقار الذى نُشر فى الخارج لكى يجف منذ الصباح. ويقومون بإيقاد نيران داخنة فى ذلك الروث لطرد وإبعاد الذباب والناموس. ثم بعد ذلك يقومون بربط الأبقار، مراعين فى ذلك ربط كل حيوان فى وتده المخصص له وبحبله المعروف. ويتمتع طفل الدينكا بهذه المقدرة الفائقة على التعرف على مئات الأوتاد والحبال والحيوانات التى تخصها هذه الأوتاد والحبال. وهى مسألة تؤخذ بوصفها أمراً بديهياً لا يستحق أن يوصف حتى بأنه قدرة خاصة، برغم أن الإخفاق فيها يُنظر إليه بأنه بلادة وضعف عقلى. بل إن المهمة تصبح أكبر وأكثر تعقيداً مع الخراف والماعز، إذ إنها أصغر حجماً وأكثر عدداً بصورة عامة، كما أنها تُربط داخل حظائر الأبقار المظلمة.

بانتهاء عملية ربط الحيوانات تبدأ فترة قصيرة من الراحة يجلس الأولاد فيها حول النيران المكتومة المشتعلة فى بقايا الأبقار، فى انتظار مواعيد الحلب. والقاعدة العامة هى أن تقوم النساء والفتيات بالحلب، غير أنه قد تكون هناك حاجة للصبيان لكى يقوموا بالحلب بدلاً من الشبان الذين بلغوا سن النضج والذين لا يسمح لهم بالمشاركة فى الحلب. وأثناء الحلب يُسمح للعجل بالانضمام لأمه وأن يرضع منها ما يكفى لإثارتها لكى تدر. بعدها يتم إبعاده وربطه أمام أمه التى تخفف عنه بلحسه بلسانها، فى الوقت الذى يتم فيه حلبها. ومع وتوقف الدفعة الأولى من اللبن يُسمح للعجل بالرضاعة مرة أخرى من الأم حتى تدر الأم مزيداً من اللبن، فيتم حلبه أيضاً. وإذا كان العجل صغيراً فيسمح له برضاعة الدفعة الثانية من اللبن. أما إذا كان العجل حديث الولادة فيُترك له كل اللبن إذ إن مثل هذا العجل لا يرعى ويعتمد كلية على اللبن الذى يرضعه من أمه. وبعض الأبقار تقوم باحتجاز اللبن فى أى وقت يتم فيه إبعاد العجل عنها، وقد يتطلب الأمر ثلاث حلبات لاستخراج قدر معقول



(فتاة تمسك ببقرة ناشزة من منخاريها فى الوقت الذى يتم فيه حلبها (تفضلت بها حكومة السودان)

من اللبن منها. وبما أن إرضاع العجل الصغير يعتبر أمراً ضرورياً لكى تدر البقرة لبنها، فإن البقرة المرضعة التى تفقد عجلها تُستدرج لكى تتبنى عجلاً آخر بدلاً من المفقود. أما إذا استعصى ذلك فيُصنع لها عجل مزيف من جلد عجلها الميت ويوضع أمامها للحسه أثناء الحلب. فى بعض الحالات التى لايكون فيها للبقرة عجل صغير، أو إذا كان لها ولكنها ترفض رغم ذلك إدرار لبنها، فإنها قد تُستدرج لذلك بأن يقوم شخص بالنفخ فى فرجها. وهناك بعض الأبقار التى ترفض عملية الحلب وتقاوم بعنف محاولات حلبها. وفى هذه الحالة قد يستدعى الأمر ربطها وإمساكها من الأرجل والرأس وأحياناً

من الأنف كذلك، حتى يمكن تطويعها. ويقتضى الحلب جلوس المرء على رجليه تحت البقرة المراد حلبها، بينما يستقر الإناء فوق فخذيه. ويتم إفراغ حلمات الضرع بالضغط عليها، مع الحركة الملازمة إلى أسفل الإبهام والسبابة. وأحياناً يتم إطعام الأطفال الصغار باللبن مباشرة من البقرة، حيث يجلس الطفل بجانب الشخص الذى يقوم بالحلب، ويضع فمه فى مكان مناسب لتلقى تيار اللبن المندفع. ولأن اللبن الخارج من الضرع يكوِّن رغوة، فإن هذا الطفل يشبع سريعاً ويتجشأ بصوت عال ثم يجوع سريعاً بعد ذلك.

بعد الانتهاء من الحلب تُترك العجول لترضع ما تبقى من اللبن. ومن الطبيعى أن تحتفظ كل بقرة ببعض من اللبن لهذه الرضعة الأخيرة لعجلها. ولكن لا تترك العجول لترضع أطول مما يجب، لأن الدينكا يعتقدون أنها تبتلع فى هذه الحالة شعراً كثيراً يختلط مع العشب ليكوِّن أجساماً تشبه الكرات، يرى الدينكا أنها تشكل تهديداً لصحة العجول وتستخرج أحياناً من الأبقار الميتة. وهى كرات شديدة الصلابة، حتى أن أطفال الدينكا يلعبون بها كرة القدم.

بعد إرجاع العجول إلى أوتادها مرة أخرى تتبع فترة راحة ثانية، يتم بعدها إدخال الأبقار إلى حظائرها، إذا لم يكن مقرراً لها قضاء الليل فى الخارج. ويتم عادة إدخال العجول فى وقت أبكر، بنفس الطريقة التى يسبق فيها الأطفال من هم أكبر منهم سناً، فى الذهاب إلى النوم. داخل حظائر الأبقار تنتشر الأوتاد حول موضع النار فى مركز الكوخ، المحاط بعدد من الأعمدة الطويلة المثبتة فى شكل دائرة. وتسند هذه الأعمدة السقف فى الموضع الذى تتلاقى فيه المجموعة الأولى من القوائم مع المجموعة الثانية. هذا الجمع بين القوائم يعطى حظيرة أبقار الدينكا إرتفاعاً إضافياً ويميزها عن الأكواخ العادية التى لا توجد فيها غير مجموعة واحدة من القوائم. وينبعث من موضع النار المكون من كومه مخروطية من الروث المجفف دخان كثيف يتصاعد ليملأ كل الحظيرة. ويقوم الأولاد، وهم يتحسسون طريقهم أحياناً، بربط الأبقار. وفى داخل الدائرة التى تكونها الأعمدة حول موضع النار توجد دكة تستخدم كمكان للنوم لحراسة الأبقار أثناء الليل. ولكن بالنظر إلى حرارة الطقس، والدخان ولسعات الناموس الذى لم يُفلح الدخان فى إبعاده، والشخير ورفس الحيوانات، لا يمكن الحديث فى الواقع عن النوم. أضف إلى كل ذلك الحاجة إلى أن يكون النوم خفيفاً، وإلى الصياح لطرد الحيوانات

القلقة المفترسة، والحاجة الأكثر إلحاحاً، فى البقاء دائماً على استعداد للنهوض وفك رباط حيوان على وشك أن يقطع حبله، أو يشق وتده، أو ينزع هذا الوتد من الأرض. غير أن أولاد الدينكا يعتادون كل هذه الأشياء. بل يعتبرون البقاء فى حالة استعداد حتى أثناء النوم، وبالتالى الاسترخاء والهجوع بأخف أنواع النوم، يعتبرون ذلك جزءا من التكوين العسكرى والدفاعى للرجال. لذلك يستيقظ الولد فى الصباح ليواجه تحديات اليوم التالى دون شكوى أو تذمر. ويمارس الأولاد فى معسكرات الأبقار مهامٌ شبيهة بهذه المهام، ولكن لخطورة الرعى فى المعسكرات البعيدة، لا يسمح للأولاد بمرافقة الأبقار إلى الرعى. فذلك عمل يقوم به الكبار.

فى العادة يرعى كل واحد من الأبناء أبقار أمه الخاصة، أو فرعه فى العائلة، إلا أنه يجب الا يميز ضد أبقار زوجات أبيه. فعلى سبيل المثال يجب الا يتردد فى عمل أى شيىء يطلب منه، سواء كان الطلب بسبب وجوده فى موضع معين، أو لأن أخاه لأبيه المسئول عن هذا العمل لا يستطيع أداءه. فالرعى، على وجه الخصوص، هو عمل جماعى، وسواء تم إنجازه بصورة جماعية أو بالتناوب، فإنه ينتظر من المرء ان يبذل جهداً متساوياً فى رعاية كل القطيع. أحياناً تحاول الأمهات إثناء أبنائهن عن إجهاد أنفسهم ببسط رعايتهم لكى تشمل أبقار زوجات أبيهم، ولكن يُنتظر من الأبناء زجر مثل هؤلاء الأمهات، وتأكيد نظرية الملكية الجماعية: فأبقار إخوانه لأبيه هى أبقار أبيه، وهى بالتالى أبقاره هو أيضاً. وعندما يعتزم الزواج، فلن تكون أبقاره وحده هى التى سيوفر منها الأب مهر الزواج، وإنما من كل القطيع. وتعتمد الدرجة التى بها يوكل عمل من أعمال الأولاد لأحد الأبناء، على عمره، إلا أن المهارة المتصلة برعاية الأبقار هى واحدة من تلك المهارات التى يجب على كل ولد من أولاد الدينكا اكتسابها فى مرحلة مبكرة من عمره، والسعى لإتقانها كلما تقدم فى العمر.

ولا يقتصر عمل الصبيان على الاهتمام بالأبقار والخراف والماعز. إذ إن مجتمع الدينكا لا يعرف خدم المنازل، وبالتالى فإن الأطفال هم الذين يؤدون تلك الخدمات التى يؤديها عادة خدم المنازل، وهذه واحدة من الأشياء التى تميزهم عن الكبار: أنهم هم الذين يجب أن يحلبوا الأبقار للكبار ويقدموا لهم ألبانها. عندما يحس أحد الكبار بالعطش فإنه يرسل الصبى إن لم تكن الفتاة – ليبحث له عن ماء – ويجب أن يكون الصبى على إستعداد وعن طيب خاطر

لتنفيذ اى مشوار أو تكليف يطلبه منه احد الكبار. إذ أن الرفض يعنى تعرضه للضرب، ولا يستطيع أب أو أم أو أى قريب أخر أن يدفعه عنه. فالسن تحظى باحترام يكاد يكون دون استثناءات فى نظر الدينكا، لذلك فإن القيام بمثل هذه الخدمات هو إحدى الوظائف المركزية للشباب الباكر. هذا المغنى يعبر عن إحساسه بأنه قد قام بواجبه كاملاً تجاه أبيه، مشيراً من طرف خفى إلى أن الدور على والده الآن ليفى بواجباته الأبوية نحوه بتزويجه:-

إننى رجل فى حيرة من أمرى،
فأنا لا أدرى لمن أُعطى مجلس أبى،
لكى يذهب إلى جلسة الشورى،
لا أدرى لمن أُعطى مجلس أبى،
انتهت كلماتنا منذ أن كان يرسلنى لأحضر له الماء،
وعندما كان يقول:
"أحضر لى حصيراً من حظيرة الأبقار"
وكنت آتى بها سريعاً أمامه.
أليس ذلك ما يفعله كل ابن بار؟
أما الآن، فلا أحد يعرف ما الذى يربطنى به،
صرت كابن غريب فى أهلى،
بعد أن ملأ أبى صدره بالرفض.
فيا عشيرة أبى، هل أبقى مجرد رجل قبلى.

يختلف التكوين الاجتماعى لفتاة الدينكا إختلافاً كبيراً عنه للفتى. فبينما يُطلب منها هى أيضاً انتماء واضح لأبيها بالمقارنة مع أمها، إلا أن هناك قبولا عاما لكونها أقرب إلى أمها بالمقارنة مع أخيها. إذ إنها تتعلم من أمها كيف تكون زوجة وأماً. وبما أنها ستتزوج وتغادر لكى توسع مصالح سلالة أخرى فإن دورها فى عشيرة أبيها محدود للغاية. ويتركز فى الأساس على جذب مهر زواج يمكن أن يستخدمه إخوانها وأقرباؤها الآخرون مهراً لزواجهم. كما أنها، بزواجها، توسع دائرة الأقارب وتزيد بالتالى مصادر العائلة لقيم العشيرة. مع ذلك يتحدث الدينكا عنها "كعبد" يباع و"غريب" سوف "يغادر" عشيرته لعشيرة أخرى. بالطبع تستخدم هذه الألفاظ استخداماً مجازياً، ولكنها تكشف قدراً من تبعيتها لإخوانها.



(تحمل النساء الأثقال فوق رؤوسهن بينما يحملها الرجال على أكتافهم. الأعشاب فى مقدمة الصورة السفلى تم حرقها لإعداد الأرض للزراعة) (تفضلت بها حكومة السودان)



كذلك لا يثير خرق الفتاة القواعد المتصلة بأولوية الأب الاستياء والامتعاض
الذى يثيره تجاوزها من الابن. فيمكنها، على سبيل المثال، أن تنادى والدتها
"بأمى"، دون أن يؤدى ذلك إلى تصنيفها وازدرائها. كذلك فإن الحاجة للإعلاء
من روح التضامن مع عشيرة الأب أقل إلحاحاً مما هى عليه مع الصبى
فليس من الضرورى بالنسبة للبنات، مثلاً، أن يأكلن فى مجموعة مع بنات
الأب الأخريات، برغم تفضيلهن لذلك فى مرحلة لاحقة من العمر. ولا تتمرن
الفتيات على القتال دفاعاً عن بعضهن البعض، بالطريقة التى يُربى بها
الأولاد، على الرغم من أن هذه المسألة تتصل بعدم تشجيع العنف بين النساء،
أكثر منها تفريطاً فى متطلبات التضامن مع العشيرة الأبوية. وعلى العموم
يتفهم المجتمع أنهن أكثر غيرة ويتجاوز عن ذلك أكثر مما يفعل مع الصبيان.

ومن السهولة أن نتبين أن تبعية الفتاة، التى تتجلى فى استخدام ألفاظ مثل
"عبد"، مهما كان استعمالها مجازياً، تعنى ضمناً أن الفتاة تؤدى أعمالاً أكثر
من الولد. إذ قد يُطلب منها، تبعاً لتوافر العمالة الذكورية أو عدمها، أن تساعد
فى معظم الأعمال المتصلة برعاية الخراف والماعز، بل والأبقار فى بعض
الأحيان. وقد تضطر لمرافقة الخراف والماعز للرعى، وإن كان ذلك لا يتعدى
المراعى المجاورة.

أما فيما يتعلق بالأعمال المنزلية، فبينما نجد أن الدينكا يفصلون وظائف
الذكور إلى تلك التى يؤديها الأبناء وتلك التى يؤديها الكبار، ويرتبونها ترتيباً
تصاعدياً، تبقى وظائف الإناث ثابتة منذ الطفولة وحتى الكبر. فالرجل الذى
يتم تدشينه يجب عليه أن يهجر كل الأعمال التى تعتبر أعمالاً للصبية. فى
المقابل تواصل المرأة أداء نفس المهام دون أن يقلل ذلك من قدرها أو وضعها،
الأمر الذى يشير، على نحو ما، إلى أن وضع النساء مساو لوضع الأطفال فى
مجتمع الدينكا. ويمكن أن يُفهم هذا بوصفه تقليلاً من مكانة النساء، أو قد
يكون ضرورة نشأت من التصاق وارتباط النساء الوثيق بالأطفال، إذ إنهن
يقضين معظم حياتهن فى حمل وتنشئة الأطفال. لكل هذه الأسباب، فإنه ليس
من السهولة تحديد مهام الفتاة تحديداً واضحاً، بالطريقة التى يمكن بها
تحديد مهام الولد. من ناحية أخرى يمكن أن تقود الملاحظة السطحية غير
المتعمقة إلى نتيجة مؤداها أن الأبناء الذكور يبذلون جهداً أكبر فى العمل من
الإناث، غير أن الفحص المتأنى والدقيق سكيشف العكس تماماً. ذلك أن تنشئة
وتأهيل الفتاة يتركز أساساً حول جعلها امرأة وزوجة وأما. وهى أوضاع

تتطلب جهوداً أكبر وأشق من نظيراتها عند الذكور. غير أن الفارق العملى بين
الفتاة والصبى ليس بذلك الاتساع، إذ يبذل صبيان الدينكا جهداً أكبر فى
العمل من الذين يكبرونهم من الرجال.

وتبدأ الفتيات فى عمر مبكر تعلم طرق إعداد الطعام، ويستخدمن فى
البداية آنية صغيرة من الفخار تُصنع خصيصاً لأجلهن، بالرمل بدلاً من
العجين، ويضعنها فوق أحجار الموقد التى يعددنها، ويجلبن فروع الوقود
ويضعنها فى الموقد تحت الأوانى، ولكن من دون نار. وبمرور الزمن تكبر
أوانى الفخار ويحل العجين محل الرمال، وتشتعل النار حيث يتم إعداد
أطعمة حقيقية. ويتكون غذاؤهن المفضل من نوع من العصيدة يسمى "بور"
يُعد من اللبن (عادة لبن الماعز) والدقيق. وترافق الفتيات الصغيرات الفتيات
الأكبر سناً والنساء وهن يحملن الأوانى الصغيرة لإحضار الماء من النهر أو
البركة. ويشاركن فى جمع حطب الوقود ويحملن حزماً تناسب أحجامهن
وسنهن. ومع مرور الزمن، وبينما تظل مهام الإناث ثابتة لا تتغير إلى حد كبير،
إلا أنها تغدو أكثر عدداً وتركيزاً. فتقوم الفتيات بطحن الحبوب وإعداد
الوجبات وحلب الأبقار وتخليص وصناعة الزبدة، وهن يقمن أيضاً بتنظيف
الأكواخ وإعادة ترتيب أماكن النوم وتنظيف الحوش والمساعدة فى الحقل. فى
الواقع تقع معظم الأعمال النسائية على عاتق الفتيات الشابات بوصفهن
خادمات للنساء الأكبر سناً. غير أنه يجب التقليل من هذه الأعباء العملية
الثقيلة عنهن عندما يبلغن سن الزواج، إذ يجب أن يكنّ حينئذ فى أفضل
مظهر ممكن لجذب الرجال، ولا يجوز أن يبدو عليهن التعب والإنهاك. لكن
المعادلة ليست سهلة، إذ لابد لهن، من ناحية أخرى، أن يتركن أطيب الأثر
فيمن يراقبهن فيراهن ربات بيوت ممتازات وطاهيات ماهرات. لذلك تُعطى لهن
الفرصة، فى وجود الضيوف للتدليل على صنعتهن وأدبهن ومهارتهن.

عند تقديم الطعام للرجال، وخاصة فى وجود غرباء يجب أن تُظهر الفتيات،
وكذلك الصبيان، قدراً عالياً من الاحترام والأدب. وفى العادة تقترب الفتاة من
مكان الرجال وقد عدلت هيئتها وثبتت تنورتها فى وضعها الصحيح. وعلى
بعد عدة ياردات تجثو على ركبتيها وتقترب منهم وهى فى ذلك الوضع. ثم
تقوم، وهى جالسة على رجليها بطريقة طقسية، بوضع الطعام أمامهم، ثم
تحبو بعد ذلك إلى الخلف دون أن تدير وجهها عنهم حتى تبتعد بعض الشئ،
قبل أن تنهض لتذهب وهى تثبت تنورتها فى وضعها الصحيح وتمشى بنفس

تلك الهيئة المزهوة والمؤدبة التى جاءت بها إليهم. ولا يعدو أن يكون هذا المشهد إلا جزءاً يسيراً من نظام أكثر تفصيلاً لقواعد الإحترام بين النساء والرجال، يكون التركيز عليها أكثر ما يكون بين الاصهار سواء كانوا فعليين أو محتملين أو حتى متخيلين فقط.

وعلى الرغم من أن أدوار الصبيان والفتيات محددة ومفصولة منذ الطفولة، إلا أن الأطفال ليسوا معزولين عن بعضهم البعض تماماً. فهناك الكثير من الأمور التى يفعلونها معاً، سواء كانت لها أهمية تتصل بالنوع أم لا. وتتمثل القاعدة الأساسية لتكوينهم الاجتماعى فى ضرورة ترقية وإعلاء قيم العشيرة الأبوية، وفى هذا الإطار فإن الاهتمام والتركيز الأكبر والتأديب يجب أن يُوجه لتكييف الولد أكثر مما هو ضرورى للفتاة. ولكن من ناحية أخرى كلما ضعفت تنشئة الفتيات على القيم الأبوية، صار تأمين هذه القيم أكثر صعوبة فى المجتمع عموماً، بوصفهن زوجات وأمهات المستقبل، واقتضى ذلك بالتالى مضاعفة وتكثيف التوجهات الأبوية عند الأولاد والرجال الذين تقع عليهم مسئولية المحافظة على بقاء واستمرارية السلالة. ويعطى هذا نموذجاً للتناقضات التى تجعل قيم العشيرة الأبوية موضوعية بأكثر منها أحاسيس، وقيوداً أكثر منها حباً ومودة.

التكوين الإجتماعى عبر الألعاب

يمارس أطفال الدينكا، مثلهم فى ذلك مثل كل الأطفال، عدداً من الألعاب ذات الطبيعة الترفيهية أساساً، ولكنها ترتبط على نحو مابتنمية وعى وإحساس الطفل بقيم وأعراف الدينكا. وكما هو متوقع فإن قطعان الأبقار والزواج، والأدوار النوعية للجنسين، والقيم المتصلة بالقوة الجسمانية والشجاعة لدى الرجال، هى من أبرز معالم هذه العملية التعليمية. ولكن لا يمكن فهم المحتوى التعليمى لهذه الألعاب إلا فى الإطار العام الذى تدور فيه الميول والاستعدادات العاطفية التى تنميها فى الأطفال، ومن خلال الخلفية الثقافية التى تزدهر فيها مثل هذه الاستعدادات والميول.

إحدى هذه الألعاب هى لعبة يلعبها الأطفال عند الاستحمام فى النهر. يقف فيها الأطفال فى الماء على عمق يغطى الماء فيه اجسادهم حتى مستوى ما تحت الأبط، وهم يكونون دائرة. يقفز أحد الأطفال إلى وسط الدائرة ويغوص

فى الماء بينما يقوم الباقون بالضرب على سطح الماء، وهم يرددون معاً:-

ياعراف ياكاهن ذاك اليوم،
من أين اتى يا ترى؟
ياكاهن أم نياندينق
الهذا السبب يجب أن تموت أمى؟
ارقد فى سلام يا جاموسى الصغير
فالناس يرحلون.

لا تقول هذه الأغنية فى ظاهرها شيئاً كثيراً. قد تتضمن اتهاماً للكاهن بأنه جلب اللعنة على الأم، ولكن ذلك يمكن أن يعنى أن الكاهن اكتشف مصدر الشر وحكم بأن لابد من الموت. ويبدو أن الغوص فى الماء والضرب على السطح يرمز للدفن. ولكن أياً كان التأويل، فإن المسألة الهامة هنا هى مجمل الأثر على طفل الدينكا الذى يخلفه اللحن، والإيقاع، والغموض المتصل بطفل تحت الماء. هذه اللعبة تواجه الطفل بالاحتمال المخيف المتمثل فى موت أمه. وقد يكون فيما سبق أن ذكرته عن الحب والحنان بين طفل الدينكا وأمه ما يكفى لكى نفهم عدم مقدرته على تخيل عالمه بدون أمه. لذلك فإن التنبؤ بموتها أو تأكيده، فى الواقع، حتى مجرد ربط صحتها بذكر الكاهن، الذى تحيط بذكره عادة أخطر الأمراض، لهو صدمة مخيفة لهذا الطفل. ولكن بالرغم من أثرها المخيف، فإن هذه اللعبة تجعل الطفل يعى، بصورة خفية ولكنها مؤكدة، الحقائق المحزنة والمحتومة بفناء المصائر البشرية.

وتُحدث لعبة أخرى يلعبها الأطفال فى الأمسيات أثراً شبيهاً بهذا الأثر وإن كان أقل إثارة لمشاعر الخوف والصدمة. حيث يجلس الأطفال فى دائرة وهم يضربون حجورهم بأيديهم، بينما هم يشدون بصورة جماعية. فى الوسط فتاة - وهى دائماً فتاة- تجلس على أرجلها وتنقز بقوة وتدور، بينما تضرب الأرض بيديها، وتشارك المجموعة غناءها ذا الطبيعة الغامضة. ومع تزايد الإثارة والحماس يزداد هياج الفتاة حتى يكاد أن يكون مساً فيتدخل الكبار لإيقاف اللعب أو لإبعاد الفتاة الذاهلة. مرة أخرى لا تقول كلمات الأغانى الشىء الكثير، ولكن مجمل السياق ينمى فى الطفل إحساساً بمسائل على شاكلة: أهمية إعطاء الكبار من أفراد الأسرة نصيبهم العادل من مهر الزواج أو الاستعداد - فى حالة عدم القيام بذلك - لمواجهة النتائج المتمثلة فى الأخطار الروحية التى تظهر أحياناً فى مس الشيطان الذى يصيب الأقارب من

النساء. وفى نفس الوقت تعد هذه اللعبة النساء إعداداً نفسياً يجعلهن قادرات على استدراج مس أو قابلات له، مما يشكل واحداً من الأساليب التى يفرض بها تأثيرهن المقهور فى العادة، على رجالهن.

وتهتم ألعاب أخرى بمسائل الحياة العادية، حيث يبنى الأطفال الصغار معسكرات الأبقار مستخدمين فى ذلك الأصداف كأبقار، أو يقومون بعمل أشكال من الطين على هيئة الأبقار. بل يقومون بعمل أماكن نار الأبقار ونيران أخرى من الروث الجاف. وعندما يكبرون قليلاً يبدأون فى تقليد أدوار الكبار، فيقومون، باستخدام شرائح قصب السكر لإحداث خدوش مؤقتة على رؤوسهم شبيهة بعلامات التدشين عند الكبار. كما يقومون بتزيين أنفسهم بزينة التدشين، ويؤلفون أغانى التدشين، ويغنون ويرقصون بها بكل فخر واعتزاز الكبار. كما يغنون عن ثيران متخيلة، ويقومون أحياناً بتزيين الغنم بالذوابات والأجراس لتشابه ثيران الذاتية المخصصة لشخصيات الكبار، ويقودونها حول المكان وهم يغنون لها ويتنافسون فى ذلك مع بعضهم البعض. كذلك يلبسون أحياناً نوعاً مصغراً من جلود القطط البرية التى يرتديها الكبار فى العادة للرقص، ويربطون فى أعلى أيديهم الجذور المتضخمة على شكل كرات للنبات البصلى المسمى "اقوربيوك"، مكان الأسورة المصنوعة من العاج التى يرتديها الكبار، آخذين أنفسهم باعتزاز واحترام المدُشنين، تقليداً للكبار. وبينما يسافر الأنداد الكبار إلى أماكن بعيدة لجلب نوع خاص من خشب الأشجار للطبول، ويصطادون الحيوانات البرية لجلود الطبول، يستخدم الأطفال لها الأوانى الفخارية القديمة وتنورات النساء. وفى آخر المساء عندما يجلس الجميع للثرثرة والمؤانسة فى الخارج فى الليالى المقمرة، يمكن سماع الأطفال وهم يشدون بالمقاطع التى تزدرى أولئك الذين يترددون عن المشاركة فى الرقص. وتَواصل الشدو والغناء، ينهمر الأطفال نحو المساحة المكشوفة قرب المساكن ويبدأون رقصهم المسائى. وفى الوقت الذى يذهب فيه الأطفال الصغار مبكرين إلى النوم، لا يحضر الأطفال الأكبر سناً إلا بعد استدعائهم عندما يحين موعد النوم للجميع، وأحياناً يكونون هم آخر من يذهب للنوم.

ولا ينام الناس فى العادة مباشرة بعد ذهابهم للنوم. بل يتنافس الصغار والكبار فى سرد الألغاز والحكايات. وتتمثل واحدة من النماذج الأساسية لألغاز الدينكا فى اللغز الذى يقول:

" خمِّن قرعة اللبن المقلوبة دون أن يندلق لبنها". والإجابة هى ضرع البقرة.

ولغز آخر: " خمِّن رجلين محتدمين يتحديان بعضهما البعض ولا يتقابلان للقتال". وهما السماء والأرض.

فى مجال الحكايا، يحكى شخص ماحجوة، وهو يعلم أن شخصاً آخر سيدفع له مهر زواج مقابل" بحكاية أخرى. ويكون آخر من يحكى حكاية هو آخر من ينام. وتستخدم الحكايا كأحاجى، وأحياناً وسيلة للنوم. ولكن لها، مع ذلك، وظائف تعليمية، وهى تُحكى لكى تُسمع. وتتلخص أهمية هذه الحكايا بوصفها رمزاً لموروث تجربة الدينكا فى عبارتها الافتتاحية: " هناك حدث قديم". والأحاجى تسمى لدى دينكا – نقوك "كور"وهو الأسد نسبة للدور البارز الذى يلعبه الأسد فيها. ولكن التداخل والاتصال بين عالم البشر وعالم الحيوان فى هذه الحكايا، أمر شائع، ويمتد حتى يصل إلى حد تحويل الحيوانات إلى جماد. بالطبع لا يهدف الدينكا بالحكايا إلى قول الحقيقة. فهم لا يقولون "حكى أو "يحكى" قصة، بل "بار" وهى كلمة تصعُب ترجمتها، فهى قريبة من "التخمين ولكنها تتضمن أيضاً معنى البناء، بناء ما يمكن بناؤه من الحقيقة من المعلومات الشحيحة المتوافرة. والحكاية التالية نموذج لذلك:-

"حدث قديم. هطل مطر قليل فى بداية موسم الأمطار. فخرجت انجييك، النملة البنية الصغيرة مع أطفالها كى يستنشقوا الهواء الطلق بعد هطول المطر، لأن الهواء فى الخارج صار لطيفاً بارداً. عندما رجعت انجييك إلى كوخها لتعمل عملاً ما، جاء الطائر الذى يسمى أويك وأكل أطفالها. وبينما كان على وشك أن يأكل الطفل الأخير، رآته انجييك، ولما شاهدت ما فعله صبت ماءً مالحاً فى عيونه. وجرى أويك وهو لا يرى شيئاً وجلس على شجرة اسمها أدهوت. ولكن أدهوت سقطت لأن أويك كان ثقيلاً عليها. وجرحت أدهوت حيواناً يسمى أموك كان تحتها. وجرى أموك هائجاً فى المكان ودخل بيت زوجة الزعيم. وضرب أموك زوجة الزعيم التى كانت تقف فى الباب وحطم أسنانها. وأُحضر أموك للمحكمة لمحاكمته.

وعندما سألته المحكمة لماذا فعل ذلك، أجاب أموك" كيف تقع شجرة كبيرة مثل أدهوت على شخص، ثم يُنتظر من هذا الشخص ألا يجرى". فتحولت المحكمة لأدهوت وسألتها لماذا سقطت على أموك. فقالت الشجرة "كيف يستطيع شخص ألا يسقط إذا جلس فوقه طائر ضخم مثل أويك". فتحولت المحكمة إلى أويك وسألته: " لماذا جلست على أدهوت وأنت تعلم أن لها روحاً أيضاً". فأجاب أويك: " كيف يمكن لشخص أن يرى إذا انهمرت كل هذه المياه

المالحة فوق عيونه؟ لم أكن أعرف أين أجلس". فتحولت المحكمة إلى أنجيك وسألتها لماذا صبت المياه المالحة فى عيون أويك. فأجابت: عندما هطلت الأمطار وحملت الأمطار معها هواءً لطيفاً، كيف يُنتظر من المرء ألا يأخذ أبناءه للخارج يستشنقون الهواء اللطيف؟ وعندما يجد المرء أن أبناءه أكلهم شخص ما، كيف لا يصب ماء مالحاً على عيون الشخص الذى أكلهم؟" "أيها المطر لماذا نزلت"، سألت المحكمة. "عندما تجف محاصيل الناس "أجاب المطر، "كيف يُطلب من أحد ألا يسقيها؟". فسألت المحكمة المحاصيل: "لماذا صرت جافة؟" فأجابت المحاصيل: "إذا كان حيوان ضخم مثل أرو (السلحفاة) يتغوط فوق الناس، كيف يمكن لهم ألا يجفوا ؟" فقالت المحكمة: "أرو، هل المحاصيل هى غابتك لكى تتغوط فيها؟" فأجاب أرو : "عندما يطأ حيوان ضخم مثل أكون، الفيل، شخصاً لم يكن يتوقع ذلك، كيف يمكن ألا يتغوط؟" فسئل أكون: "لماذا وطئت أرو؟" فأجاب الفيل "عندما تقرع الطبول بهذا الصوت العالى الجميل، كيف يمكن لشخص ألا يهرع للرقص. فوجهت المحكمة حديثها للطبول: "لماذا قرعت بهذا الصوت العالى الجميل؟". فأجابت الطبول : "عندما يُضرب المرء بعودى الطبول الاثنين" ثيت. . كيف يمكن لصوته ألا يكون عالياً وجميلاً؟" فسألت المحكمة عودى الطبول: "لماذا تضربان الطبول؟" فقالت الأعواد : "كان ذلك خطأ منا" ماذا يمكن لأحد أن يفعل إذا اكتشف أنه قد أخطأ؟".

وهكذا صدر العفو عن الأعواد.

وتشكل الشجاعة والقوة الجسمانية مواضيع تتكرر كثيراً فى الحكايا. كذلك الحاجة للحنان وتقييد الغيرة التى تتبادلها الزوجات المشتركات وعشائرهن. وتشير الحكاية التالية إلى أن الفضيلة تجلب الخير لصاحبها بينما لا يجلب الشر إلا العقوبة والألم.

كانت هناك أختان، أكول أرتيريت (أكول العنيدة) وأكول أدهينق (أكول الفاضلة) وكانت أكول أرتيريت سيئة الخلق لا تطيع أحداً أبداً. وكانت أكول أدهينق على العكس منها. فى يوم من الأيام سمعتا قرع طبول فى الليل، واقترحت أكول أرتيريت أن يذهبا للرقص، ورفضت نصيحة الكبار وأكول أدهنيق لها بألا تذهب. فذهبتا إلى الرقص وكان الرقص رقصاً مختلطاً بين الناس والأسود. فرقصتا مع اثنين من الأسود: لوال ولوال اللذين كانا أخوين غير شقيقين. كان أحدهما فاسقاً شريراً والآخر هادئ هادئاً ورزيناً وعندما اختارت فتاتا الدينكا شريكيهما فى الرقص اختارت أكول أرتيريت أن ترقص

مع لوال الفاسق. وبينما هما يرقصان صار لوال الفاسق متوحشاً، وعندما ظهر ذنبه وشعره الكثيف، حذره أخوه فى "مايوك" رقصته (مايوك تعجب شاعرى يصاحب إيقاع الشخص):

لوال يا ابن أبى،
يالوال يا ابن أبى،
إياك من فتاة الدينكا
فيجيب لوال الفاسق:
يا لوال يا أخى
لقد تفوق "دمينق"
اكول التى لا تعرف الكلمات،
اكول لا تعرف أن تقول
من أين أتيت؟
سألتهما اليوم
بين الكوخ الأعلى والركيزة

ولاحظت أكول الفاضلة ما يجرى وحذرت أختها.

يا ابنة أبى،
إلى أين يذهب الذنب الطويل.
فأجابت أختها:
أليس الذنب علامة الجمال،
من أجل الذنب تختار الفتاة رجلها،
لقد جاء بشعر أسود،
الرأس كثيف الشعر.

وبعد الرقص اصطحب الرجلان الفتاتين إلى البيوت، وعندما دخلوا الكوخ أخذ لوال الشرير أكول أريتريت وأكلها.

وتؤدى الأساطير التى توضح بعض الحقائق المعينة عن عالم الحيوان، دوراً شبيهاً بالحكايا والأحاجى- والأغنية التالية تقدم نموذجاً لهذه الأساطير: وفيها يلامس المغنى ذو الثور الرمادى اللون (وذلك يفسر إشارته اللاحقة للجمل) عدة أساطير ليست واضحة المعانى، ولكنها تتصل بنمط ألوان ثوره. من بين هذه الأساطير أسطورة انسحاب الإله من العالم نتيجة لإثم ارتكبته امرأة. ثم أرسل الإله طائر البرقش (وهو رمادى اللون) ليقطع الحبل الذى كان

مازال يصل الأرض بالسماء، منهياً بذلك السعادة الكاملة التى سادت من
قبل. وجاعلاً من الإنسان كائناً تعيساً وفانياً. ويخسر قووك، أحد فصائل
الحمام (وهو رمادى أيضاً) والذى كان خطيباً لبنت الإله ودفع فى مقابل ذلك
١٠٠ بقرة، يخسر زوجته ومعها ثروته. وتتحدث أسطورة أخرى عن طائر
الزرزور الذى استعار عيون الفراشة (ولونه درجة من الرمادى) ولكنه لم
يرجعها أبداً، تاركاً الفراشة نصف عمياء. ثم هناك أسطورة أخرى عن القرود
التى يُعتقد أنها انحدرت من أولاد وبنات كانوا "يجمعون" "كاى" (جذور زهرة
الماء) وهى التى صبغت أيديهم بالسواد. فرفضت الفتيات العودة إلى المعسكر
بأيديهن المتسخة، ومن ثم دخلن ومعهن الصبيان إلى الغابة ليكوّنوا جنساً
منفصلاً. ويُذكر الثعلب، (ولونه أيضاً رمادى) والذى تصفه الكثير من
الأساطير باعتباره الحيوان الأذكى القادر على خداع كل الحيوانات الأخرى.
وهناك تفاصيل أخرى، بجانب هذه التى ذكرت، لم أجد لها تفسيراً واضحاً.

يا لذلك الهول القديم، عندما مات المئات،
لا شك سيجد طائراً ويخطف فكه،
يا لهول العاصفة،
ذلك الهول القديم، عندما مزق طائر البرقش*
حبل الاتصال،
فتداعى كل شيء وصار درب الأم
يمشى للفناء،
طائر الزرزور عاود فعله،
ثم تلاشى دون أن تثأر لنفسك،
يا ذكر الفراش، أنت لست رجلاً،
لو كنت فحلاً،
لواصلت الطراد،
ولواصلت القتال من أجل عينيك،
حتى ولو كان الزرزور أقوى،
حتى لو هُزمت.
من قديم، عندما كادت النازلة أن تقضى على كل النساء،
لولا حصافةُ الرجال،

* يسمى أيضا الحسون أو عصفور الدورى (Finch)

لاحترقت الأشياء، لصارت رماداً،
نارٌ لا تطفأ،
ولا ترى،
فهى نار بلا دخان.
القرود ممسوخة،
تلك القرود الممسوخة التى لا تفتأ تصيح "أوى، أوى"
فهى قرود ممسوخة
بناتها مجتمعة فى فرع الشجرة.
بالقرب منها أمها وأبوها.
بنات القرود شعورها منكوشة.
هل رأيتهن؟ إنهن مثل الكلاب.
يا بنات الزمن الماضى، يا من أبيتن العودة إلى معسكرات الناس.
"لن نعود بهذه الأيدى المتسخة"
لقد تركتم خلفكم مباهج الحياة، أيتها القرود،
الفتيات اللائى يزيّن أنفسهن بالرماد الأحمر،
ثم يرقصن رقصات جنسكم،
وإذا سُئلتم "كيف يكون رقصكم؟"
أجبتم أيها القرود :" إننا لا نرقص. . .
ولكن الثعالب لا تتسلق الأشجار أيضاً"
الفتيات اللائى يرقصن بالعقود والحجول والسلاسل
بناتكم يُعرفن بالألوان والخرز.
تقول الحيوانات أن الأرض يحكمها الثعالب،
إن رأسى يزدحم،
حالة ثورى تنظرها القبيلة.
رؤوس العشيرة.
اجتمع القضاة فى المحكمة.
يشبه "مالبثى" "المالبث" القديم لهذه الحمامة الطائرة،
يا لجمال العالم الحقيقى:
العالم الذى يختلط فيه الجميع.
كيف تجرأ ذكر الحمام أن يتزوج بنت الزعيم؟

طائر البرقش هو الذى يكره "دهيينق" الناس الآخرين،
فهو الذى مزق حبل الاتصال،
الرجل الذى تزوج صار معدماً،
فقد بقيت بقراته المائة فى السماء.
وفى المساء، عندما تذهب الشمس صوب المغيب،
يربط الإله أسراب الحمام،
وتصيح حمامة: "ألم يأت السحر؟...
لأذهب وأنفصل عن ذلك الزوج.
أيها العالم. أئتنى بالصبح سريعاً،
لأذهب وأنفصل عن ذلك الزوج.
ويصيح الثعلب "قواك"،
أنت لى مالين – جوك.
المنحنى الأقرن يشبه الأسد،
الناس ينظرون مؤخرات العرب،
هذا هو،
إنه الجمل الذى أفسد مؤخرات العرب،
هذا الضخم ذو الأسنان المعوجة.

ويقلد الأطفال أيضاً أدوار الكبار فى مراسم الزواج والحياة الزوجية. غير أن هذه الأدوار لا تتضمن أى علاقات جسدية، بل تهتم أساساً بالصورة الاجتماعية لعلاقة الزوج بزوجته:

حيث يشارك الرجل فى مسائل الحياة العامة بينما تدير المرأة المنزل وتربى الأطفال، الذين تُستخدم لهم قطع خشبية، أو دُمى مصنوعة من الطين. وأنا لا أعـرف المدى الذى يمكن أن يحـدد به الوضع الأسرى للطفل شكل هذه الألعاب، ولكننا فى قريتنا قمنا بتنظيم اجتماعات عامة، وأيضاً خطباً، واستمعنا لقضايا وقمنا حتى بتعيين أفراد لشغل وظائف عامة، بدءاً من الزعيم الكبير وحتى رؤساء العشائر، مستخدمين فى ذلك أسماء الزعماء الحقيقيين.

هناك ألعاب أخرى مهمتها تنمية روح الاستقلالية والشجاعة فى شخصية الولد. وقد سبق أن ذكرت فى أماكن أخرى أن الدينكا يشجعون أبناءهم على

الاقتتال للتنفيس عن تظلماتهم، بدلاً من اختزانها فى دواخلهم. غير أن الألعاب العنيفة لها، فى الواقع، مرام أبعد من مجرد تدريب الأولاد على مقاتلة بعضهم البعض. فنظراً إلى الطبيعة العنيفة لمجتمع الدينكا، يمثل إكتساب الشجاعة البدنية، والقوة، والمهارات القتالية بالنسبة للولد، إعداداً له على المهام المستقبلية التى تنتظره فى هذا المجتمع. وإلى هذا اليوم، كثيراً مايتم التهديد بالقتال، وليس نادراً أن ينفجر، على الرغم من القانون والنظام الجديدين. فى كل الأحوال مازال التدريب ضرورة ثقافية. وتشتمل التدريبات البدنية على عدة ألعاب رياضية منها "دهيينق" (وهى لعبة مطاردة)، "وير" (سباق)، "لير" (قفز عالى) و"اكيتويل" (نوع من الهوكى الميدانى). والدينكا، لطول قاماتهم وسيقانهم ورشاقة أجسامهم، رياضيون من الطراز الأول، وإذا كان العالم لم يسمع بهم فى هذا المجال حتى الآن، فإن ذلك يرجع لتقليديتهم وعزلتهم والظروف الوطنية المقيدة التى تحيط بهم.

ويظهر العنف أكثر وضوحاً وصراحة فى المصارعة، التى رغم كونها أحدى الألعاب، إلا أنها كذلك قتال منظم تحكمه قيود وقواعد. والهدف من الصراع يكون عادة التعامل مع شخص بصورة تؤدى إلى طرحة على الأرض. ولكن عندما يكون هذا المصارع على الأرض، يُسمح بممارسة حد معين من التعذيب عليه قبل السماح له بالوقوف على أرجله مرة أخرى. فيمكن للذى صرعه أن يجلس فوقه وأن يضغط يديه إلى ركبتيه، وأن يمسح وجهه بالأرض بعنف، وأحياناً يفتح عينى الضحية وينفخ فيهما لتجفيفهما أو يعرضهما لأشعة الشمس المحرقة. ويمكن أن ينعكس الوضع ويجلس الضحية فوق خصمه ويفعل معه ما فعله به، بغير ذلك يُطلب منهما الوقوف، وبدء جولة أخرى. وتكون الهزيمة فى السقوط على الأرض، كما أن الصراخ من وطأة التعذيب يمثل عيباً كبيرا.

أما الأكثر خطورة فهو العراك الذى يُجر إليه أناس ليس لديهم أسباب حقيقية للاقتتال. وقد كنت، وأنا فى حوالى الثامنة من عمرى، طرفاً فى حادثة قد تُلقى بعض الضوء على ما أعنى: فقد ذهبت برفقة اثنين من إخوانى إلى معسكر الأبقار بعد عودتنا مباشرة، فى أول إجازة لنا من المدرسة. وعلى الرغم من أننا لم نكن قد غبنا طويلاً فى المدرسة إلا أن معسكر الأبقار كان مختلفاً شيئاً ما، وكان الأولاد أكثر شغباً وشراسة. فى نفس ذلك المساء دُعى لحفل رقص اقتصر على الأولاد فقط. وبعد عدة رقصات طلب الزعيم، الذى

بدا واضحاً أنه الأصلب، الصمت من الجميع. ثم أعلن أن هناك قادمين جدد يجب التقرير بشأن إلحاقهم بحلقات الأنداد. بعكس حلقات الأنداد لدى الكبار، والتى تُحدد العضوية فيها بحسب المجموعات العمرية التى أدى إجراءات التدشين معاً، بعكس هذه الحلقات، فإن القوة البدنية والشجاعة فى المعارك هى التى تحدد العضوية فى الحلقات الصورية للأطفال. وأراد الزعيم معرفة بأى حلقات الأنداد نريد أن نلتحق. فذكرنا حلقة الأولاد الأكبر سناً وبرغم أن أعضاءها كانوا أكبر منا فى العمر إلا أن الفرق لم يكن كبيراً. فطلب الزعيم من كل واحد منا أن يختار عضواً من أعضاء هذه الحلقة لعراكه، وذكر أن تأهلنا لتلك الحلقة ستحدده نتائج العراك. فى البداية رفضنا اختيار أى من الأولاد، حيث إعلنا استعدادنا لمنازلة أى ولد يرغب فى ذلك، أو من يقع عليه الاختيار منهم. ولكنهم اعتبروا ذلك جبناً. فحددت خيارى، ولداً بعين واحدة، علمت فيما بعد أنه كان من بين الأكثر صلابة، وأنه، فى الواقع، قد فقد عينه تلك فى إحد المعارك. وتصارعنا. فألقى بى على الأرض. ثم تمكنت منه وصرعته. وبعد عدة جولات من المصارعة، صرعنى فيها أكثر مما صرعته، أعطتنا المجموعة أسواطاً من أفرع الأشجار للضرب، وكان ذلك مجالاً كنت الأفضل فيه. فعوضتُ ما خسرته من نقاط. أخيراً تم إيقافنا. وتم الإعلان عن تأهلى وكذلك إخوتى من خلالى، للانضمام للحلقة.

والدينكا يُعلون من شأن الشجاعة أكثر من القوة البدنية، ويعتقدون أن الجبناء إذا ما أُرغموا على القتال، فإنهم يكونون فى العادة أقوياء. وأسوأ مظاهر الهزيمة عندهم هو الصراخ، والطفل الذى يبكى يُقابل بالزجر والتوبيخ حتى من أبويه. ويدخل ذلك فى إطار إعداده لمرحلة لاحقة يُحظر فيها على الرجال البكاء مطلقاً مهما كانت الظروف. أما النساء فيسمح لهن بالبكاء، على أن يكون ذلك، بدءا من أواخر مرحلة الطفولة، لأسباب تتصل بكدر عاطفى، أكثر منها بالآلام الجسدية. والنساء يبكين فى الأحزان ولا يفعل الرجال ذلك. وعندما يقدم رجل من الدينكا على ضرب زوجته، فالأرجح أنها ستبكى فيما بعد، عندما تترك الآلام الجسدية مكانها لنوع آخر من الآلام، يتصل بالمشاعر والأحاسيس النفسية.

ويتعلم الأولاد القتال بالحراب باستخدام أفرع شجر طويلة مسنونة فى أحد طرفيها، لكى تماثل الحراب. فى إحدى هذه الألعاب، يربط الأولاد جذر كبير من نبات "الأميوك" على شكل كرة بخيط طويل، ويقوم أحد الأولاد

بالتطويح به فى شكل دائرة، بينما يقف بقية الأولاد فى دائرة واسعة ويقومون بالتصويب على الكرة عندما تمر بهم. وهى واحدة من الألعاب الشائعة لقضاء نهارات الرعى الطويلة. وتستخدم هذه الأفرع فى المعارك التى تدور بين الأولاد من القطاعات المختلفة. وعلى الرغم من أن هذه المعارك لا تعدو أن تكون لعباً، إلا أنها تتسبب أحياناً فى إصابات خطيرة، يمكن أن تؤدى للموت.

وهكذا يتضح، أن الدينكا برغم افتقارهم لمؤسسات التعليم والتدريب الرسمية، إلا أن عملية النمو نفسها عملية تعليمية. والألعاب ليست لتزجية الوقت فحسب، بل هى وسائل لإعداد وأقلمة الأطفال على نظم وأعراف المجتمع. هذه الوسائل تختلف فى أشكالها باختلاف الأعمار، ولكن جوهرها يُقدم للأطفال فى فترة مبكرة من أعمارهم.

العمليات الجراحية للأطفال

ذكرت فى وقت سابق أن أطفال الدينكا يحدثون فى وجوههم خدوشاً يقلدون بها علامات التدشين، وأن هذه الخدوش عادة ما تزول خلال أيام. لكن هناك أنماط أخرى من الجروح تُحدث فى الأطفال بغرض الزينة. فآذان معظم الأطفال وشفاه بعضهم بها ثقوب لارتداء الحلق. إلا أن أهم العمليات الجراحية التقليدية التى تُجرى للأطفال هما الختان ونزع الأسنان الأمامية السفلى.

والختان ليس ممارسة عامة لدى كل الدينكا. إذ تحتقر بعض قبائل الدينكا الختان وتزدرى المختونين كما يزدريهم هؤلاء. وهو شائع وسط قبائل "نقوك" و"ريك" و"مالوال"، حيث يتم ختان كل طفل ذكر، إلا إذا كان متخلفاً عقلياً، أو مجنوناً، أو يعانى من مرض مزمن، لا يترك مجالاً للتعامل معه حسب النظم والأعراف. أحياناً يقال بأن الدينكا تبنوا مسألة الختان من العرب. حتى لو كان ذلك صحيحاً، فإن الدينكا لا ينظرون إليه كذلك بل يعتبرونه عرفاً محلياً. وبعكس العرب الذين يمارسون الختان لأسباب دينية، يقدم الدينكا لتفسيره دوافع جمالية. فأن تكون غير مختون عندهم يعنى أن تكون قذراً قبيحاً، وإذا لم يتم ختانك حتى حوالى السادسة من عمرك، فإنك تعرض نفسك لسباب مؤلفة له الأغانى الجاهزة.

ويختلف الختان عند الدينكا عنه لدى العرب – الذين يشبه الختان عندهم

مراسيم التدشين عند الدينكا، ويشتمل مراسم مفصلة واحتفالات، يختلف عن
فى أن الختان عند الدينكا يتم بلا مراسيم أو احتفالات فهو مناسبة خاصة
تضطلع بها العائلة وليست المجموعة الكبيرة. ويجرى الجراحة رجل خبير
حيث يقوم بربط جلدة رأس الذكر بقوة بشعرة من ذنب الزرافة، ويقطعها بمدية
حادة، ثم يشذبها من الأطراف لكى تبقى ناعمة ومستوية. وكما هو الحال مع
كل العمليات الجراحية التى يجريها الدينكا، لا يُستخدم أى نوع من التخدير
ولهذا فالختان عملية مؤلمة. ولكن بما أن الهدف الأساسى منها ليس هو
اختبار الشجاعة، فيمكن للأطفال أن يبكوا على الرغم من أن تحملهم لها من
غير صراخ دليل على الشجاعة التى تثير الإعجاب. وبعد فترة أولية يلازم
فيها الطفل المختون السرير، يسمح له بالحركة، ولكنه يجب أن يغطى جرحه
بقطعة خاصة من الجلد مفصلة لتغطى الصلب، حماية للجرح من الذباب.

أما نزع الأسنان فيقتضى إزالة الأسنان الستة الأمامية للفك الأسفل، وهو
عرف يشترك فيه جميع الدينكا من كلا الجنسين. هذا المغنى الدينكاوى يشدد
على أهمية نزع الأسنان بوصفها سمة ثقافية تميز الدينكا عن العرب، إذ إن
العرب يختنون أولادهم أيضاً:–

تقابلت ثلاثة أجناس من البشر
واحتار بعضهم واضطرب
فهناك رجال مختونون
وأخرون بلا ختان،
وهناك رجال لم تُنزع أسنانهم.
فإذا قال أحد العرب:
"إنها كذبة، فأين الحقيقة
لماذا أحد الدينكا مختون
والآخر ليس كذلك؟"
فسأقول له :"الكذبة كذبتك"
ألا ترى رؤوسنا الموسومة،
أسناننا المنزوعة،
نحن الجنس العريق، نحن الدينكا.

ومثلما هو الأمر مع الختان، لا يقدم الدينكا أسباباً لنزع الأسنان، إلا أنه
أكثر جمالاً ويساعد على تشكيل الفم ليكون وسيما. ويقولون أن الأسنان
الأمامية غير المنزوعة للفك الأسفل تدفع الشفة السفلى للأمام، وتجعل الحنك
يبدو قبيحاً منفراً. ويقوم بإجراء العملية خبير يستخدم لذلك حربة صيد
الأسماك. حيث يقوم أولاً بوضع رأس الحربة وسط الأسنان ويضغطها إلى
الأمام وإلى الخلف لخلخلة جذور الأسنان وانتزاعها من اللثة. بعد ذلك يُغرس
رأس الحربة فى الجذور وتُقلع السن بكاملها.

ويمثل انتزاع الأسنان نهاية التجارب الجراحية الأليمة بالنسبة للفتيات، فى
معظم قبائل الدينكا. ولكن فى عدد منها، مازالت هناك عقبة جراحية أخرى فى
انتظار الأولاد وبنات بعض القبائل. إذ تأتى أكثر العمليات الجراحية درامية
وطقسية وأكثرها أهمية مع التدشين فى نهاية فترة الطفولة وبداية النضج.

الفصل السادس

الشباب

التدشين

التدشين حدث حاسم يحدد مكانة الرجل وقدره فى مجتمع الدينكا . وتجرى أحداثه فى العادة فى الأعمار ما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة، حيث يضع نهاية مثيرة لفترة الطفولة.

وتعطى مراسم التدشين أهمية قصوى لقيم الشجاعة والعدوانية والعنف. ولكن مع هذه تأتى متطلبات جديدة على الشخص: إذ عليه أن يبدى قدراً أكبر من ضبط النفس والتحمل والمسؤلية. وتكفى المرء مشاهدة أحد أفراد الدينكا قبل وبعد التدشين لإقناعه بالنتائج الباهرة التى يمكن إحرازها بين يوم وليلة عبر الدراما الطقسية المجتمعية للتكييف النفسانى. مع ذلك، وبسبب قوة الروح الجماعية لديهم وعلو شأنهم الاجتماعى، تظل مسألة التحكم فى الشباب واستثمار طاقاتهم الفوارة، مشكلة لا يتم تجاوزها إلا بعد أن ينتقل هؤلاء الرجال الشبان تماماً إلى مرحلة الرشد، وتدفعهم مزايا ومسئوليات الحياة الأسرية إلى الاستقرار والهدوء.

وتتمثل جاذبية التدشين الأساسية فى الوقار والهيبة اللذين يضفيهما على الرجل. فحتى مراسم التدشين يظل الرجل الشاب ولداً، ولقد رأينا ما يعنيه ذلك فى مجتمع الدينكا . فبالإضافة إلى حلب الأبقار، يؤدى الأولاد الذين لم يتم تدشينهم معظم العمل اليومى المرتبط بتربية الحيوان. ويمكن إرسال أى واحد منهم بأى تكليف فى أى وقت بواسطة أحد الذين تم تدشينهم، حتى لو كان أصغر منه سناً (وهو مايحدث أحياناً، لأن بعض المدشنين المسمين "أنايات" سابقون لأوانهم. ولا يُسمح لغير المدشنين بالغناء إلا فى مناسبات

الأطفال، وتقع عليهم مهمة قيادة ثيران المدشنين بينما يغنى هؤلاء. ولا يُسمح لهم بإقامة علاقات علنية مع البنات. ولا الرقص أو الغزل معهن. وإذا حدث شىء من هذا تُقاطع الفتاة وتزدرى، وقد يجد الولد نفسه ضحية هجوم ينظمه ضده أنداد منافس مُدشن. لا يستطيع غير المدشنين إلا أن يكونوا وكلاء للمدشنين فى العلاقات مع الجنس الآخر. لكل هذه الأسباب يمثل التدشين واحداً من أكبر طموحات شباب الدينكا. وهذا ما تكشف عنه الأسطر التالية من أغانى التدشين:

إننى أكره أن أظل صبياً
لن أبقى بعد الآن ذلك الولد
حتى لو كان التدشين حارقاً كالبنزين
فإننى أفضل أن أموت

* * *

سيرقد أندادى انتظاراً للألم
فى بيت الكركى الراقص،
أليس التدشين هو المنقذ.
الذى يحرر الرجال من العبودية.

بعد انقضاء مرحلة المراهقة، بفترة قصيرة، يبدأ التفكير فى اختيار رجل من كبار السن ليكون "أباً" لمجموعة الأنداد. ولابد لهذا الرجل أن ينتمى لواحدة من السلالات ذات المقام الرفيع، وعلى الرغم من أنه لا يشترط فيه أن يكون زعيماً، إلا أنه لابد أن يكون متصفاً بالقدرة الروحية المقدسة على اللعن والمباركة. وعندما يصل الرأى العام فى المجموعة إلى تفضيل شخص ما، يقوم الزعيم بتعيينه بصورة رسمية.

ويقوم الأب بإعطاء اسم يرمز فى العادة للشجاعة والقوة البدنية لمجموعة الأنداد. اسم على شاكلة "الرجل الأسد" "الجاموس" "النسر العظيم" "التمساح الذى لا يُقهر" و"نحل العسل". وقد استخدم الدينكا أيضاً الاسم "الأتراك" للإشارة إلى القوة الاستعمارية التى مارسها الأتراك فى الماضى، ثم قاموا فيما بعد بإطلاق نفس الاسم على البريطانيين. ويمكن أن تأخذ المجموعة اسمها من اسم ثور يذبحه "أبوها" قرباناً لمباركتها. للإناث أيضاً مجموعات أنداد نظيرة للمجموعات الرجالية، وتُعطى أسماءً على صلة بأسماء مثيلاتها

الرجالية، ولكنها تكون مختلفة عنها دائما. حيث نجد أسماءً مثل "جرو الأسد البنى" و"قناة الرمح اللامعة" وما شابهها.

بعد اختيار الإسم يتم اعتماده رسمياً فى حفل طقسى تجتمع الشريحة العمرية لأول مرة وتشرع فى اكتساب هويتها المتحدة. تتبع ذلك العديد من الأنشطة الاجتماعية والمشاورات مع الأب الروحى لمجموعة الأنداد قبل البدء فى الإجراءات المباشرة المؤدية للتدشين. قبل عام من الموعد المنتظر، تطلب مجموعة الأنداد من أبيها بوصفه زعيماً للبطن القبلية (تُنظم مجموعات الأنداد على أسس تعتمد على البطون القبلية)، ومن الزعيم الكبير أن يسمحا بالتدشين. وقد يحدث أحياناً أن يُعطى إذن مبدئى، يتم سحبه فى وقت لاحق لأسباب تتعلق بانتشار وباء أو لضعف موسم الحصاد أو لعدم توافر الأسماك (وهى غذاء ذو أهمية خاصة فى وجبة المدشنين لأنه لا يُسمح لهم بشرب اللبن أو أكل أى من منتجاته). بعد أخذ الإذن بالمضى قدماً فى الإجراءات تدعو مجموعة الأنداد واحداً من الخبراء القليلين لإجراء العملية. وكثيراً ما يحدث أن يُدعى لإجراء العملية خبير من خارج القبيلة، وخاصة إذا كان عدد من بطون القبائل يقوم بالتدشين فى نفس الوقت. تلى ذلك فترة من الاحتفالات وحلقات الرقص. بعد ذلك يقوم الذين ينتظرون التدشين بخلع كل أشياء الزينة التى يرتدونها والتخلى عن أسلحتهم إلا السياط وحزم قصب الذرة التى ترمز للحراب. والدينكا ينظرون للسير بيدين خاليتين من كل سلاح بوصفه أمراً غير طبيعى، ولكنهم فى نفس الوقت لا يريدون تسليح هؤلاء الشباب الذين يصعب التحكم فيهم بأسلحة خطيرة. وباقتراب الموعد المحدد تزداد الاحتفالات ويحمى إيقاعها، وتُصنع الجعة بكميات وفيرة، وتُذبح حيوانات كثيرة، ويُعد الطعام بكميات كبيرة. ولأن هذه الإحتفالات تقام عادة بعد الحصاد، فليس هناك مشاكل متعلقة بندرة المواد. فى اليوم السابق لعملية التدشين تصل الاحتفالات ذروتها، فتذبح حيوانات كثيرة كقرابين، وتجرى العديد من طقوس التحصين الروحية الأخرى. فى ذلك اليوم لا ينام أحد حتى الصباح التالى، إذ تبلغ الإثارة مداها وتملأ أصوات الطبول وصدى الأغانى الأجواء. ويستمر الرقص طوال الليل ويتواصل لعدة أيام أخرى. فى الصباح الباكر تبدأ العملية: حيث يستلقى المنتظرون على الأرض، بحسب أسبقية الميلاد والسلالة، لكى يتلقوا سبع إلى عشر شلخات عميقة ومنتظمة فى جباههم، فى أشد العمليات إيلاماً وأكثرها دموية فى مجتمع الدينكا. وتُجهز

تحت رأس كل واحد منهم حفرة تتجمع فيها الدماء المنسابة من جروحه،
ولكنها أحياناً تفيض بالدماء إلى خارجها.

تتفجر الدماء من الوريد كالأمطار العاصفة،
فقد تمزق رأس الثور إرباً إربا.

* * *

إحمرت الحفرة التى جهزوها تحت رأسى،
كالغابة ذات الأشجار الحمراء،
وغمرت دمائى الثقوب مثل مياه الربيع.

* * *

نياندينق يابنة كوور،
من فضلك اطردى الكلاب بعيداً،
فهى تلعق الدماء،
ففى صراعى مع ذكر البجع (الخبير)،
أواجه الموت.

مع تقدم العملية يتجمع الناس حول الشبان الذين تم تدشينهم. وتبدأ القريبات من النساء، وعضوات مجموعة الأنداد النظيرة اللائى لم يكن يُسمح بالاتصال بهن، فى الجرى باهتياج وهن يصرخن من الفرح، ويشدو الرجال بالمقطوعات الخاصة التى تمجد بسالتهم، ويقوم الرجال والنساء بالعدو والقفز فى استعرض راقص يُسمى "قوور"، وفى الأزمنة الحديثة ظهر استخدام الأسلحة النارية، التى يملأ ضجيج طلقاتها الأجواء تعبيراً عن الفرحة. ويحاول المُدشنين أنفسهم أن يشاركوا بترديد الأغانى التى يفاخرون فيها بشجاعتهم، ولكنهم لا يلبث أن يُغمى عليهم من أثر النزيف الشديد. ويهتاج الخبير ويتحول إلى شخص متوحش، يقوم أحياناً بتغطية وجهه بالدماء لإلقاء المزيد من الروع فى أنفس الناس. إن المشهد كله يذكر ببيت للمجانين، وبالنسبة لشخص غريب فهو الجنون بعينه ولكنه، بالنسبة للدينكا، "دهيينق"

"دهيينق" الذى لى صدم العربى حتى لم يعد،
يستطيع أن ينظر.
"دهيينق" الذى لى جعل العربى.

يعض على شفته،
"دهيينق" الذى لى أجبر العربى
على إغماض عينيه.
صرخ "إنه الموت"
لا، بل هو فخرى القديم.

فى ذلك اليوم، وبإسم الفرح والابتهاج، يقع الكثير من التخريب والدمار، إذ يتم أحياناً حرق بيوت الآخرين، بنية تعويضهم عنها لاحقاً، وقتل أبقارهم بنفس النوايا، وتقع نساء لا يعرفن السباحة بملابسهن فى انهار عميقة. وتتواصل مع كل ذلك صرخات الفرح التى يطلقها المحتفلون فى دوى يكاد يصم الأذن. هذا الحماس والهياج اللذين يثيرهما تحمل رجل شاب للألم المتصل بالتدشين، يعكس على نحو ما مخاوف وهواجس أقربائه من أنه قد يجلب لهم العار بتهيُّبه عملية التدشين – وهو ما يستدعى قتلهم له إذا حدث. ولكن المناسبة فى مجملها تُطرى وتبالغ فى مدح الذين ينتظرون التدشين، مما يُكسب حتى الجبان ما يكفى من الشجاعة لتحمل الألم. لذلك، وباستثناء بعض الاتهامات العامة فى الأغانى، فإننى لم أسمع أبداً عن رجل أظهر خوفاً من عملية التدشين.

هؤلاء المدشنون حديثاً يجدون أنفسهم فى حالة صراع من نوع ما مع الأجيال السابقة لهم. إذ إن تدشينهم هو خطوة على طريق المساواة مع الذين سبقوهم. ولكن درجة ترقيهم محدودة وبرغم تصاعدها تدريجياً، إلا انها لاتصل إلى مداها إلا بعد أن يتقدم الرجل فى العمر. وعلى الرغم من ذلك فإن كل خطوة فى هذا الاتجاه هى كذلك تقييد أكبر لنفوذ أولياء الأمر ومجموعات الأنداد الوسيطة الأخرى. ولكن مع مشاعر الاستياء والامتعاض هذه تختلط مشاعر الابتهاج والفرح برؤية الابن أو القريب ينمو فى السن والمكانة. وفى المقابل يجمع المدشن ما بين ولعه ورغبته فى درجة أكبر من الحرية، وذلك الخضوع المؤدب الذى يجب أن يتحلى به الرجل الشاب. فالتدشين هو رمز لهذا الصراع والانسجام، وأغنياته هى تعبير عنها. ويُنظر للخبير الذى يجرى العملية، ممثلاً للأجيال السابقة، بمزيج من المودة والعداء. فتصوره هذه الأغانى بإعتباره الطاغية الذى تجب مواجهته بشجاعة وإقدام، إذ إن التدشين نفسه بالنسبة لهم هو نوع من الحرب التى يكسبها الطرفان، ولكن الكبار هم

الذين يضعون قوانيننا، بما يعرضون له الأجيال الصاعدة من الام ترمى لتعليمهم. الأغاني التالية تقدم نماذج لأغانى التدشين:-

إننا نثير حرباً مع دينق ودينق، مع الزعماء
ومع أجوك ميجوك، أبينا،
مجموعة الأنداد الأكبر سناً محصورة كأنها،
سرب من النحل الهارب.
لقد بدأنا الحرب مع الخبير، أبينا من أكاى،
ومع عمنا، فرخ النيل (نوع من الأسماك)،
ثم دوت مدافع دينق.
الخبير بول العظيم فقد عقله،
صار همجياً مثل اللبوة أويك،
يجرى حول المكان فى رقصة متوحشة.

* * *

لقد أخضعت جبهتى لأبى أكاى،
إنه الآن يدشن ثوراً،
حتى لو شحذت المدية حادة كشريحة قصب السكر،
يا صديقى، يا حامل الدرع، لقد تركت نصلها غير ماض،
فاترك بول يواصل ولا تقل "لا"،
فلقد أوقفته بعد
أن جعلت مديته صماء بحواجبى
هل فرغوا من ماقويث الأرقط؟
مازال الخبير يقطع جبهته اليمنى،
لم يصل بعد إلى اليسرى،
ما الأمر؟
هل يسلخون الرجل،
أم لماذا يأخذ كل هذا الوقت.

وتعبر معظم الإشارات التى ترد عن الأب فى هذه الأغنيات إلى ذلك الصراع الذى يدور حول ما إذا كان الوقت قد حان لتدشين الابن. فحجة الأب عادة هى "إنك مازلت طفلاً" "سوف تهرب" أو "ستخاف":

قال أبى: "إنك لن تستلقى على الأرض".

بل ستولى هارباً،
يا أبى، إننى لا أبه لحياتى
وسوف أستلقى تحت ضريح كول "الرجل المخطط"

فالحرب هى أيضاً بين الابن وأبيه، لأن التدشين هو خطوة نحو الاستقلالية وبداية الحياة الأسرية الخاصة بالابن. مع ذلك فإن الأب فرح سعيد لرؤية ابنه يكبر لكى يثبت سلالتهم، فى الوقت الذى يعرف فيه أن المراسم هى إشارة إلى تصدع السيطرة الأبوية.

أما أولئك الذين ليس لفرحتهم حدود ولا تحدها قيود، فهن النساء: الأمهات، والأخوات والقريبات الأخريات. ذلك أن النساء يعتمدن جزئياً على أبنائهن وأخواتهن فى ممارسة نفوذهن. وفى العادة لا تبقى الأخوات طويلاً للاستفادة منهن، غير أن نجاح الأم كزوجة يعتمد اعتماداً كبيراً على نجاحها كأم، حتى أن مكانتها تعلو فى علاقة طردية مباشرة مع عدد وأعمار أبنائها، وخاصة الذكور. فالتدشين هو فى الواقع ترقية لها:-

جفلت النساء من الفرح
وتغنت أمى: "لقد تحمل الألم
ابنى تحمل ألم المدية
ولم أعد أماً لصبى"

تتميز فترة النقاهة التى تتبع التدشين وتستمر لعدة أشهر، بتنوعها وروحها الاحتفالية. حيث يقيم المدشنون بصورة جماعية فى ضيافة السلالات داخل قرى محظورة، بسبب اعتقاد لدى الدينكا يعتبرهم غير أنقياء بصورة ما؛ لذلك يُحظر عليهم الاقتراب من الأبقار، ويجب أن يقتصر غذاؤهم على العصيدة واللحم والسمك، حيث يلتهمون كميات وفيرة منها. وعلى الرغم من تحديد تحركاتهم، إلا أن مسئولياتهم تبقى قليلة، بالمقارنة مع المزايا الكثيرة التى يتمتعون بها. فى الواقع يصل ذلك إلى حد الإفساد. فى هذه الفترة يقومون باستخدام جريد النخل لصناعة غطاءات للرأس رائعة التصميم والألوان، وزخارف يغطون بها أجسادهم العارية تماماً بخلافها. وهم يمثلون بسمتهم الذى تجلله العزة والوقار، وأغانيهم التى تمجد الشجاعة ورقصات التدشين التى يؤدونها يمثلون مصدر جذب كبير لكثير من الرجال والنساء، وبخاصة الفتيات. إذ يقومون فى أحيانهم المسماة "بالبيوت" بإجراء منافسات للرقص، كثيراً ما تنتهى بمعارك وتخريب للممتلكات، مما يُعطى سبباً آخر

لإبقاء الحراب والعصى بعيداً عنهم، والاكتفاء بالسياط وحزم قصب الذرة التى يستمرون فى التسلح بها.

وتتكون رقصات التدشين التى يصاحبها التغنى بأغانى التدشين، من حركات يتم فيها رفع وإلقاء الأرجل مع هزة للبدن تُقلد فيها حركة حصان مشدود اللجام. وتصاحب ذلك ترنيمات فردية تعلو فيها الحناجر بالثناء على الذات. ويقوم المغنى الذى يمثل الحصان وراكبه بإصدار أصوات كأنه يُخضع حصاناً جامحاً. وهو يقوم أحياناً بضرب الحصان باللجام الذى يشده بقوة، مما يجعل صراعه مع الحصان يبدو أكثر ضراوة وحدة. وترمز هذه الحركات إلى القوى القسرية التى اكتسبوها، واعتزازهم بمكانتهم الجديدة كمحاربين، ويمكن أن ترمز كذلك إلى السيطرة التى مارسها عليهم الكبار، ورغبتهم فى المساواة. هذه الرمزية للحصان الذى يركب عليه راكب هى رمزية جديدة، إذ إن الدينكا لم يتملكوا الجياد تاريخياً، بل إن دينكا الجنوب مازالوا لا يملكون خيولاً.

فلقد تملكها الدينكا نقوك بسبب اتصالهم الطويل مع العرب، ولكن حتى الآن يجب النظر إليها بوصفها أمرا يقتصر على الأثرياء وذوى النفوذ. غير أن المهم هنا هو الدلالة، فأياً كان الرمز الذى استخدموه قبل ظهور الخيول، فإن الفكرة هى التعبير عن الصراع والانسجام فى قالب غنائى.

ولا تستخدم الطبول فى رقصات التدشين. بدلاً من ذلك يضرب الراقصون الأرض بحزم القصب التى يحملونها. وفى العادة يزينون أنفسهم بكل أنواع الحجول وأجراس الأسورة التى تُحدث عدداً من الأصوات المتنوعة أثناء الرقص تقترن بصيحات الابتهاج التى تطلقها النساء الراقصات. بصورة عامة يرقص الرجال والنساء معاً – أو بتعبير أدق يرقص كل شخص فى مجموعة من الناس، دون أن يكون له شريك معين. والاستثناء الوحيد هو نوع من رقصة التدشين يسمى "رواث"، يرقص فيها الرجال من كل الأعمار مع النساء الأكبر سناً، حيث يقفز الرجل والمرأة من حول المكان وإحدى رجليهما مقرونة فى رجل الشريك بينما يردد الراقصون:

لقد رمى أبى عصا الحرب نحوى،
لذلك سأقطع رجلى.
لقد رمى أبى عصا الحرب نحوى،
لذلك سأقطع رجلى.

تعيد هذه الأغنية إلى الذاكرة مرة أخرى تناقضات العلاقة بين الأب والابن عند التدشين. حيث يبدو أن قطع الرجل يرمز إلى الإفلات من مجموعة الأولاد والمضى قدماً للانضمام إلى "الرجال المحترمين".

و"رواث" هى الرقصة الوحيدة لدى دينكا نقوك التى تتلامس فيها الأبدان، (المقصود هنا الأرجل)، وهى بهذا المعنى أكثر رقصاتهم إثارة من الناحية الجنسية على الرغم من أن اللائى يشاركن فيها هن نساء انتهت حياتهن الجنسية إذ إنهم يعتبرونها مسألة غير لائقة أن تواصل أم "لسيد محترم" أو "سيدة" الحمل وإنجاب الأطفال والاحتفاظ بحياة جنسية نشطة. من هنا قد تكون هذه الرقصة هى بمثابة تذكار أخير أو مذاق أخير لهذه الأمور.

ويتميز اكتمال التدشين واكتساب المدشنين لوضعهم ومكانتهم الكاملة كراشدين ("لونى" وتعنى "إفراج") بليلة كاملة من الرقص والغناء. وفى الصباح الباكر تقوم مجموعة الأنداد الأكبر منهم سناً، بضربهم ضرباً صورياً ولكنه مؤلم، وتدفعهم وهم مجردون من كل سلاح، إلى نهر عميق، عليهم عبوره سباحة والخروج منه من الناحية الأخرى رجالاً ناضجين.

بالإفراج عنهم كرجال كاملى الرشد، يتغير سلوك كل واحد من أولئك الشبان تغيراً جذرياً، من سلوك الصبى إلى ذلك السلوك الذى يتميز به الرجل المحترم والمسئول، الذى يجب أن يبدو ويتصرف ويقوم بدوره كاملاً، كسيد محترم، وعضو فى جماعة متحدة، لها مهام حيوية محددة عليها أن تقوم بها إزاء مجتمعها الكبير.

المهام الحربية

من بين الرموز التى يتقبلها الرجل بعد الإفراج عنه من مرحلة التدشين، هدايا من الحراب جيدة الصنع. وهى تعتبر أدوات للزينة تُصاغ الأغانى للتحية والثناء على الذين أهدوها. ولكنها ترمز فى الحقيقة إلى الوظيفة الحربية للشباب. ولا تقتصر هذه الوظيفة على النشاط الحربى، على الرغم من أن ذلك هو هدفها الحقيقى، ولكنها تغطى أيضاً تلك الجوانب الثقافية التى تتطلب قوة الشباب وبسالته. وهى قد تكون موجهة نحو البشر أو الحيوانات، ولكنها قد تمتد أيضاً إلى نشاطات أخرى تستثمر القوة البدنية للبناء والإنتاج.

فى الواقع، إن تميز الشباب بالنشاط الحربى لا يعدو أن يكون مسألة مظهرية، لأن كل رجل من رجال الدينكا هو محارب. وعندما تشتعل حرب، فإن المقاتلين المثاليين هم أولئك الرجال الذين يملكون القدرة على القتال، ولديهم الأبناء الذين يحفظون اسمهم إذا ما ماتوا: فهم ليسوا شباباً لم يتزوجوا بعد.

ومن المفترض أن تكون الفترة التى تلى التدشين هى فترة التدريب وليس للقتال الحقيقى بالنسبة للشباب. حيث يُحظر عليهم، بعد التدشين مباشرة، تناول الجعة (وهى الشراب المسكر الوحيد فى مجتمع الدينكا). وليس القصد من ذلك هو الحفاظ عليهم فى حالة بدنية لائقة، فحسب، وإنما كذلك لإبقائهم فى وضع يكونون فيه أكثر قابلية للانضباط. ثم يدخلون الأحراش مع الأب الروحى للمجموعة الذى يدربهم على فنون الحرب وأخلاقياتها. هناك يتعلمون أن عليهم تجنب الاستفزاز، واللجوء إلى الدفاع، وأنهم عندما يخوضون حرباً عادلة فإنه يمكنهم الإطمئنان والاعتماد على مساعدة الأسلاف ومباركة الإله:

إننى أبقى هادئاً ولا أجلب الغيظ لنفسى.
إننى أبقى هادئاً، ولا أستفز القبائل
فالرجل هادئ،
والثور المقدس ساكن،
أما أولئك الذين يوجهون حرابهم نحوى،
فليحذروا لحم أبى،
أولئك الذين يريدون مهاجمة قطعانى،
فليحذروا لحم أبى،
فأنا أبقى هادئاً، ولا أجلب الغيظ على نفسى.

قبل الذهاب إلى الحرب، فإن الوضع الأمثل للمحاربين هو أن يتم تحصينهم بالطقوس الدينية، ومباركتهم بواسطة زعمائهم المقدسين، وأن يكون قوادهم أولئك الخبراء فى فنون القتال الذين وهبوا الامتياز الدينى فى قيادة الحروب. أما الزعيم الأكبر والسلطة العليا فى القبيلة، فهو لا يخرج، إذ إن مكانته تستوجب عليه معارضة العنف، وتجنب منظر الدماء. بالإضافة إلى ذلك فإن الواجب يقتضى حمايته من كل خطر وإبقاءه بعيداً عن أماكنه، عندما تحارب قبيلته حرباً عادلة، فإنه يبقى فى مسكنه يدعو لها بالنصر، أما إذا كانت هى المعتدية فإنه يصلى لخلاصها. إذا كانت الحرب فى داخلها فإنه يسعى لإيقافها يرسم خطا رمزيا، داعياً على الباغين بالخسائر والإصابات، وللأبرياء

بالنجاة أو قلة الخسائر.

ويتم الجانب البدنى من التدريب من خلال العراك المنظم مع مجموعة الأنداد التى تسبق المجموعة التى تم تدشينها مباشرة، ويسمى "بيوك". وهو فى جانب منه عملية تدريب، ولكنه أيضاً تمظهر معترف به لصراع الأجيال وتنافسها. إذ لا يشكل ضرب المدشنين حديثاً عبر النهر إلا بداية للعنف بين مجموعة المحاربين المسيطرة وتلك التى أصبحت على وشك الحلول محلها. لكن الأمر لا يقتصر فقط على نوازع السيطرة بين مجموعتين من المحاربين. إذ إن موضوع الصراع الحقيقى هو الفتيات فى الواقع. فعلى الرغم من أن نساء الدينكا ينتمين إلى حلقات نديدات تناظر مثيلاتها بين الذكور إلا أن اعضاء المجموعات الرجالية يوجهون اهتمامهم إلى الحلقات النسائية الأصغر فى العادة، بسبب النضج المبكر للنساء. فعلى المستوى النظرى يمكن القول بأن المجموعات العمرية المتناظرة بين الذكور والإناث تشتمل أزواجاً وزوجات محتملين، على العكس من ذلك يُنظر لكل حبيبين ممكنين بوصفهما أنداداً. ومجموعات الأنداد المتناظرة وسط الذكور والإناث تكوِّن فيما بينها وحدة للحب المتبادل والزيجات المحتملة التى يفترض الا تخرج عنها. بالإضافة إلى ذلك، كثيراً ما تمارس حلقة الأنداد الأصغر تأثيراً أكبر على الفتيات لما لها من ميزات جمالية. ولأنها الأقرب سناً إلى الفتيات.

تسعى المجموعة الأكبر من خلال عُرف فى الغناء والرقص يسمى "كيت" إلى الإنتقاص من المجموعة الأصغر. وذلك بالتغنى بأحداث مخجلة تورط فيها أعضاء فى المجموعة الصغرى. فى العادة تكون التصرفات الفردية هى موضوع التعويض. وهى لا تعكس الحقائق دائما، حتى عندما تفعل، فإنها تضخم هذه الحقائق أو تحرفها. وإحدى الموضوعات المفضلة لهذه الأغانى، تصور المجموعة الأصغر بوصفهم أطفالاً مازالوا متعلقين بأمهاتهم وكثيراً ما تُشتم الأمهات أيضاً. حتى فى الحالات التى يكون فيها للرجل الأصغر أخ ينتمى للمجموعة الشاتمة فإن هذا العرف مُعترف به ومتجذر، بحيث لن يكون فى وسعه ان يعترض على السباب الذى يوجه لأمه.

فيما يلى نماذج من هذه الأغنيات. الأولى منها موجهة ضد مجموعة الأنداد "كور" النسر العظيم التى تم تدشينها ١٩٤٣. و"الياب" هى المجموعة المغنية التى تنتمى لحلقة الأنداد التى سبقت "كور" مباشرة. فى العادة يُحظر شرب الجعة على حلقة الأنداد فى حفل طقسى بعد التدشين مباشرة، ولا يسمح به

إلا بعد سنوات، فى حفل كبير لشرب الجعة. وتتحدث الأغنية عن أن كو[illegible] أسرفوا فى شرب الجعة حتى أن واحداً منهم "بينق" صار ثملاً للغاية:-

جاءت نساء "نونج" وهن يجرين نحو البركة
وجاءت نساء "نونج" الأخرى يهرولن نحو البركة،
فقد سقط فيها "بينق"
استره يا "باجوك" فالعار يغطيه،
هذا الذى أرى لن يظل فى الكتمان،
هذا الذى شاهده "الياب" لن يظل فى الكتمان،
رآه يجلس ببطن منتفخة كامرأة حامل،
بفعل الجعة،
جلس "بينق" مائلاً على وركه
فأغمضت النساء عيونهن.

فى الأغنية التالية تم ضبط رجل شاب يُدعى "نايونق" وهو يتحدث مع صديقته، وكان هذا الرجل أُصيب بمرض تركه بوجه مشوه وأسنان معوجة:-

قال نايناجيث:
"يا نايونق هلا ابتسمت
فأجاب نايونق
"أبتسم!
بأى أسنان سأفعل ذلك"

وأثناء ترديد هذه الأغانيات، ترقص مجموعة الأنداد الأكبر رقصة المرأة تشبيهاً للمجموعة الأصغر بالنساء. وبسبب الاحترام الذى يجب أن يبديه أعضاء المجموعة الأصغر لسابقيهم لم يكن جائزاً لهم أن يردوا بالرقص أو الغناء، فلم يتبق غير القتال. ولاتنشب المعارك فقط بسبب مثل هذه الأغانى إذ إنها فى الواقع تعبير عام عن الصراع بين مجموعة الأنداد. وهى فى نظر الدينكا مجرد معارك صورية، لا تستخدم فيها إلا العصى، ويُحظر فيها استخدام الحراب. ولكنه كثيراً ما تترتب عليها إصابات خطيرة. قد تؤدى إلى الموت فى بعض الأحيان. ولأن مجموعة الأنداد الأصغر تفتقد الخبرة اللازمة، فإنها تكون فى العادة هى الضحية، ولكن ذلك يدفعها للمزيد من العنف، أكثر منه كابحاً لها عنه.

هذا الميل للعنف له آثار بعيدة تتركز بصفة خاصة على حلقات الأنداد النظيرة للجماعات المعادية، التى تُثار معها المعارك بأساليب عديدة. ففى واحدة من الحالات تعرض عدد من أعضاء إحدى مجموعات الأنداد لرجل من مجموعة نظيرة لأحد البطون المعادية. وكان الرجل يسير مع أخته فى الطريق العام. أوقفت المجموعة الرجل وأخته وطلبت منهما بطريقة لا تليق إلا فى التعامل مع الفتيات، بأن يختارا من بين المجموعة الرجال الذين يروقون لهما. كان الهدف هو إخافته ووصمه بالأنوثة. بالطبع رفض الرجل وكذلك فعلت أخته. فقامت المجموعة بضربهما قبل السماح لهما بمواصلة سيرهما. عندما بلغت هذه الأخبار معسكر العدو، قُرعت فى الحال طبول الحرب، واصطكت الحراب وتسنم أعضاء مجموعته دروعهم وهم يهرعون للهجوم. ولم يتسن احتواء الموقف إلا فى آخر اللحظات. بواسطة الزعماء والشرطة الحكومية حيث تمت معاقبة الذين كادوا أن يتسببوا فى إشعال حرب.

من الأسباب الشائعة أيضاً للصراعات، المزاعم بالتعدى على الحدود الجغرافية المخصصة. والدفاع عنها إذ يحدث أن تتعدى القطعان إلى مراعى الأعداء، أو أن يتسلل الشبان ويقيموا معسكراتهم فى أراضى مناوئين، أو قد ينشب نزاع حول حدود المساحات الرعوية. أى من مثل هذه الحوادث الطفيفة من الممكن أن تتسبب فى إشتعال المعارك بين المنتمين إلى مجموعات تعادى بعضها البعض.

وعلى الرغم من أن النظرة المعتادة للحروب القبلية، وخاصة من وجهة نظر المراقب المعاصر، تقلل من الأثر المدمر لهذه الحروب. إلا أنها بالنسبة لهذه القبائل كوارث محققة، تجد صداها ومكانتها الهامة فى التاريخ الشفاهى للمجموعات التى خاضتها. فيما يتعلق بدينكا نقوك يمكن القول بأن مثل هذه الحروب المدمرة للجانبين قد توقفت تقريباً، برغم بعض المحاولات التحريضية لإشعالها من حين لآخر. إلا أنها مازالت تحدث وسط قبائل الدينكا الأخرى، وبين نقوك والقبائل المجاورة لها. وعندما تشتعل حرب بسبب استفزاز ما، يقوم القادة العسكريون بتخطيط إستراتيجيات لخوضها فى تعاون وثيق مع مقاتليهم الشبان. وفى اليوم السابق للهجوم يبدأ قرع الطبول، حيث يتبع الأصوات الأولى أمر "بالإنصات"، يليه مزيد من قرع الطبول، ثم صمت قاتل، يتبعه ضجيج وصخب. ثم يندفع كل الرجال – ماعدا المرضى والمسنين – مسلحين بالحراب والدروع وعلى رؤوسهم الخوذات إلى أرض المعركة وهم

يهدرون بأغانى الحروب، أو يشدون بالمقاطع التى تمجد مآثرهم الشخصية ولا يجلب الخوف والإحجام على صاحبه فى مثل هذا الوقت إلا العار والخزى الدائم. وهذه هى المواقف التى تظهر فيها فى الواقع مهارات الدينكا، بأرجلهم الطويلة، فى الجرى وقطع المسافات، حيث يطوون المسافات الطويلة فى أوقات قصيرة تثير الدهشة والعجب، ولا تتخلف عنهم نساؤهم اللائى يصرخن بصيحات الحرب المميزة وهن يحملن الأطعمة لخدمة رجالهن. أما الأطفال والضعفاء فيبقون فى المساكن وقد تملكهم الوجل، إذ لا أحد يدرى من سيموت ومن سيعود وبأية حال. وتتحالف البطون أو القبائل ولا يمضى وقت طويل حتى يعم شبح الحرب كل القبيلة، وقد يتجاوزها ليعم البلاد.

فوق أرض المعركة تقف المجموعات المتحاربة وقد فصلت بينها مسافة تسمح بالرمى، وهى تتراشق بالحراب الرفيعة متوسطة الطول وبالعصى ذات الشعب. وفنون الرشق بالحراب وتفاديها هى من الفنون التى يتعلمها الدينكا فى فترة مبكرة من العمر. كما تمثل الحرب مكاناً لاختبار وتقويم التدريبات المبكرة التى يتلقاها الشباب. وقد يحدث أن ينسحب بعض الجبناء، إلا أن عارهم يلازمهم طوال حياتهم. وذلك فى الوقت الذى تجتاح فيه المحاربين المميزين سورات من البسالة والإقدام. وهؤلاء هم الذين يلحقون أكبر عدد من القتلى بالجانب الآخر، دون أن يصيبهم أذى، بل إن بعض الأفراد تتجاوز شجاعتهم الحدود، حتى تكاد أن تكون إنتحاراً. وفى العادة يكون الشجعان والمستميتون هم الأكثر تعرضاً لهجوم الأعداء، ولكنهم أيضاً الذين يوفر لهم رجالهم أفضل الحماية.

ويحتشد الأنداد والأقارب بجانب بعضهم البعض لكى يهبوا إلى نجدة بعضهم البعض فى تلك اللحظات الحرجة، التى يمكن أن يتراجع فيها رفيق قبلى لا تقيده صلة القرابة، لكى ينجو بنفسه وينقذ عنقه. وتحتفظ النساء بمكانهن خلف الرجال المقاتلين مباشرة، يجمعن الحراب المتساقطة ويقمن بإعطائها للرجال مرة أخرى. وإذا حدث أن أُصيب بعض الرجال بطعنات الحراب وسقطوا على الأرض، تقع النساء عليهم لحمايتهم من العدو. إذ تمنع قيم "دهيينق" وأخلاقيات الحرب إيذاء الأشخاص الذين تغطيهم النساء بهذه الصورة. ولكن هناك حالات شاذة يقوم فيها العدو بضرب المرأة بقناة الحربة وإبعادها ثم الإجهاز على الرجل الجريح، إذ لا يعنى للدينكا شيئاً أن يكون الرجل جريحاً غير قادر على الحركة. بل انهم ينظرون لعدم المشاركة فى

تمزيق جسد محارب سقط، والإجهاز عليه، بوصفه أمراً ذا نتائج روحية خطيرة، ذلك أن شبح الرجل المقتول سيلاحق الشخص الذى لم يشارك باعتباره الصديق الوحيد من بين أعداء عديدين. فحتى شبح صديق للعدو يُعتبر خطراً قاتلاً. بعد إنسحاب مجموعة العدو تاركة خلفها القتلى والمحتضرين يجب أن يتوقف القتال لمنع إراقة المزيد من الدماء. وكما ينظر الدينكا لنصب الكمائن بوصفه عملاً جباناً مخزياً، فإنهم لا يقدمون كذلك على قتل فرد من أفراد العدو خارج أرض المعركة، حتى لو كان ذلك الشخص قد قتل لتوه قريباً من الأقرباء فى ميدان الحرب. فأولئك الذين شاءت الظروف أن يكونوا فى الموقع الخاطئ عند اندلاع حرب، يجب أن يجدوا فرصتهم للانضمام إلى مجموعتهم دون أن يصيبهم أذى.

وفى العادة تنتهى المعركة بالاستيلاء على قطعان المواشى التى تخص الأعداء، وتُبعج بعض ثيران الذاتية لاجل لحمها على السفود بطريقة مهينة، ويتم الاحتفاظ ببقية المواشى لتوزيعها لاحقاً. فى زماننا هذا صارت هذه القطعان تُعاد لأهلها وتدفع التعويضات والديات عن القتلى بعد المعركة. يعود المحاربون وهم يحملون قتلاهم وجرحاهم، ويقومون بمعالجة أولئك الذين يمكن مساعدتهم، بل تجرى أحياناً جراحات معقدة وحساسة. ولايجوز الحزن على أولئك الذين ماتوا فى أرض المعركة، ويُطلب حتى من النساء اللائى لا يستطعن أن يقاومن دموعهن الكف عن ذلك. ولكن فى ذلك الصمت الذى يخيم على المكان ويلفه، تنمو بذرة الحروب القادمة. حتى فى الحالات التى يتم فيها التعويض بالأبقار عن القتلى، يظل الثأر من العدو فى حروب قادمة هو العلاج الشرف لمرارات الهزيمة. وفى السنوات التى تلى حرباً ما ولأزمان طويلة بعد ذلك، يظل يتردد صدى تلك المعركة، فتُسرد حوادثها وتُحكى قصص البطولات وشجاعة الرجال بالفخر والإعزاز، وتُكشف مخازى الجبناء المخجلة، بينما يُشدد على ضرورة الثأر والانتقام من العدو. لذلك لن يمضى وقت طويل حتى يقوم قريب لرجل قُتل فى معركة بإثارة حرب جديدة حتى يجد فرصته للثأر لذلك القريب. وهكذا تدور دائرة الحروب وتتجدد لتعطى الدينكا سمعتهم كقبيلة محاربة.

وتكمن جذور هذا الميل للحروب فى مرحلة الشباب والمنحى القتالى الذى تأخذه. فحتى أدوار الشباب البناءة تتضمن على نحو ما أبعاداً مدمرة. إذ إن نشاطاتهم والأعمال التى يقومون بها ذات طابع تنافسى فى العادة، لذلك فهى

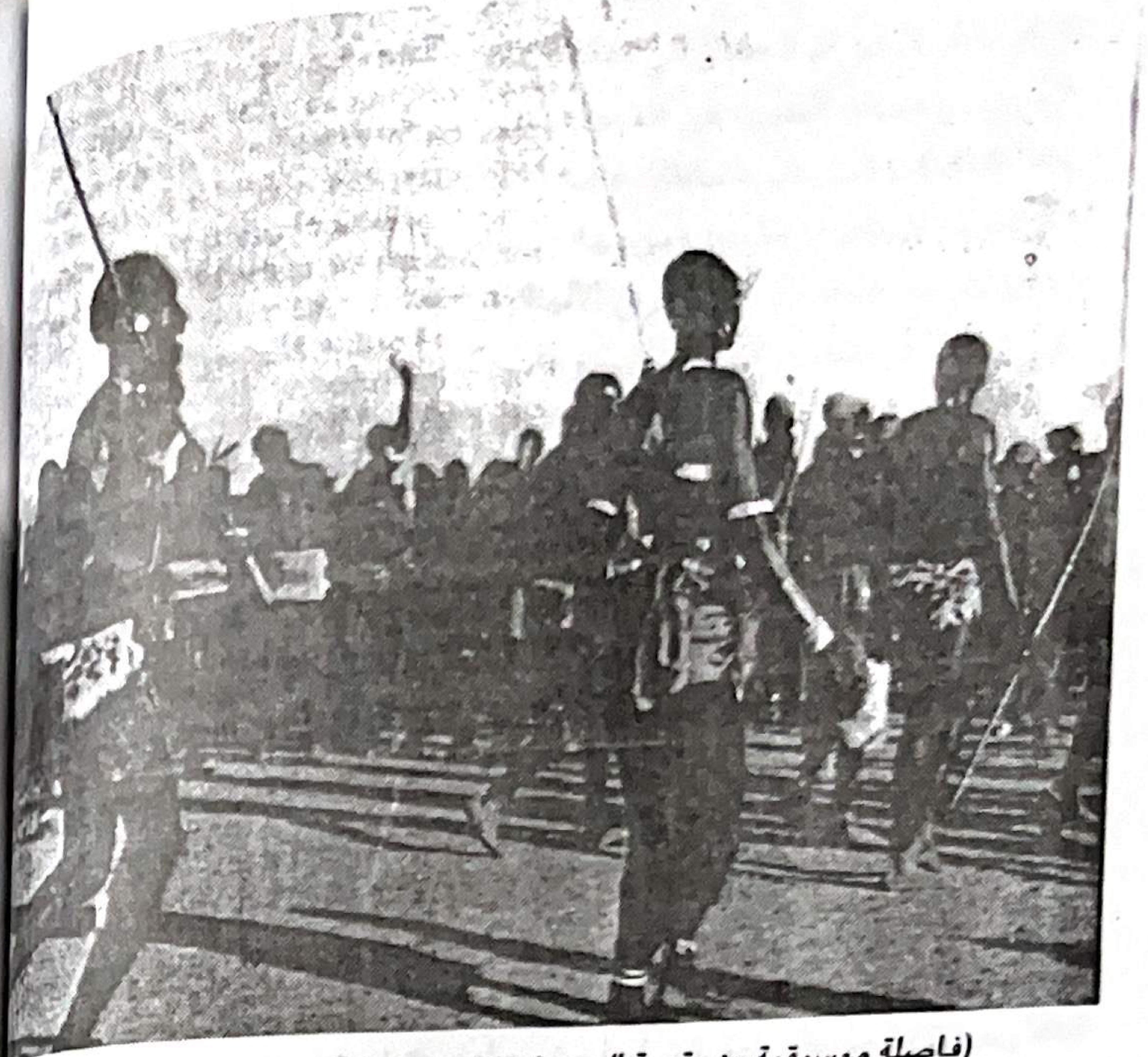
تؤدى طال الزمن أم قصر إلى نشوء الصراعات. ويمكن أن تكون أغانى الحرب ورقصات الحرب هى أفضل مثال يوضح الدرجة التى يمكن أن تكون بها نشاطات الشباب نشاطات متجذرة من خلال مؤسسات اجتماعية وخاضعة لتحكم المجتمع، وموجهة وجهة جمالية صالحة، ومع ذلك يكون تمظهرها بطريقة تصب فى مجرى الاستفزاز والعدوانية. فأغانى الحرب تكون فى العادة عن شجاعة وقوة مجموعات الأنداد. وهى قد تتركز اليوم على العمالة القسرية فى بناء الطرق أو فى مزارع الزعماء وماشابهها من الأعمال، ولكنها ترمز معاً إلى الروح المغامرة لمجموعة الأنداد. كذلك فإنها قد تتناول مغامرات حقيقية مثل مقاتلة الحيوانات المفترسة: الأسود، والأبقار الوحشية وأفراس البحر وأمثالها من الحيوانات. ولكنها فى مجملها تهتم بمعارك وقعت حقاً. أحياناً قد يكون ذلك بطريقة غير مباشرة. فمن المعتاد بالنسبة لمجموعة أنداد أن تقوم باصطياد حيوان يحمل اسم حلقة الأنداد النظيرة فى مجموعة معادية، ثم تؤلف الأغانى عن حرب حقيقية مع العدو تحت ستار هذا الحيوان الذى اصطادته الحلقة. وعادة ما يرمز الثور للقوة والشجاعة والشراسة، وكذلك الأسد والجاموس والحيوانات المماثلة. ودائماً ما يزعم الدينكا أنهم لم يكونوا معتدين يوماً من الأيام، بل مدافعين عن شرفهم ومقاومين للعدوان عليهم، وذلك على الرغم من أن ما يعتبرونه عدواناً يأخذ طابعاً عاطفياً ويتم الوصول إليه سريعاً:

لقد هددنى رجل فى الحدود،
كنت أظن أننا فى سلام،
ابعد عنى ولا تثرنى، فأنا رجل سيئ،
لأننى لو غضبت يوما ما
فسأكون رجلاً سيئاً
ولن يتجاوزنى أحد،
سيتجنبنى جميع الناس
احتراماً.

كذلك يمكن أن يكون سلوك الأفراد فى المعارك موضوعاً لأغنية حرب. فى مقدمة الأغنية يقول الراوى "أتوت": (كيك قتل أهلنا، لذلك فعل أهلنا ما بوسعهم لسبهم فى أغانى الحرب)، هو ما يؤكد مفهوم الدينكا لأغانى الحرب باعتبارها نوعاً من القتال:

يابن الساحرة، لا تبكِ بعد أن كنت السبب،
فقد دارت عليك الدائرة
حتى بلل "مانيانق" نفسه،
وتغوط جنب معسكر أبقارنا،
أيها الساحر ذا العيون الأربعة،
إن بطن هذا الرجل تخرج من مكانها
فهو ينفرط كصغار الجراد.
مات الناس قبل أن يوصوا
وارسل "رياك" خبراً للبلد،
"ابعثوا لى أشياء والدى"
ولكن لم يكن هناك من بقى ليحضر الأشياء،
فبقيت وحدها فى ذلك البلد.
الناس الذين لم يعرفوا معنى الثأر،
طلبوا منى أن أهجر أرض أبى،
أرض آبائى وأجدادى،
لا فلن أتركها أبداً،
بل أفضّل أن أموت.

وتُغنى أغانى الحرب مع رقصات الحرب بطريقة قد تؤدى لإثارة حرب جديدة، إذ تحضرها عادة وحدات متحاربة. والرقص نفسه مركب من عدة رقصات، تمثل الفكرة المشتركة بينها رجلاً يرمز لثور عتيق وامرأة فى دور البقرة المطيعة. ويواجه الرجل المرأة مكوناً بيديه قرون الثور، بينما ترفع المرأة يديها وتضمهما فى الأطراف فى شكل دائرة فوق رأسها. بذلك ترمز قرون الرجل للخطر بينما تبدو قرون المرأة غير مؤذية. وهناك مشهد يلاحق فيه الرجل المرأة المتقهقرة، وهو يرمز لانتصار الثور. فى المساحة المحيطة بدائرة الرقص يدور الرجال فى صف واحد وهم يؤدون رقصة "قوور"، وهى تمثيلية حربية راقصة تؤدى داخل رقصات أخرى، وفى مناسبات أخرى كثيرة. وفيها يقفز الرجال عالياً وهم يتمايلون فى الهواء كأنهم يتهادون طرباً. يقوم رجال آخرون بالقفز فى الهواء ثم يحركون أجسامهم حركات سريعة بمهارة مثيرة للعجب مستخدمين الحراب لتقليد أوضاع الحرب.



(فاصلة موسيقية من رقصة الحرب لدينكا نقوك يؤدى فيها بعض الرجال والنساء رقصة مطاردة خارج محيط حلبة الرقص الرئيسية (الصورة : إم . جى تيبس)

وترقص بطون القبائل معاً على إيقاعات أغانى بعضها البعض. وعند نهاية أغنية إحدى هذه البطون، تنسحب بطن أخرى من حلبة الرقص وهى تغنى مقطعاً غنائياً يخصها يسمى "دور"، وهو نوع خاص من أغنيات الحرب، يقوم فيها قائد تتبعه جوقة مغنين. بإثارة تظاهرة سلمية أو حربية. فتعود حينئذ بطن القبيلة التى انسحبت وهى تغنى "دور" وتجرى فى حلبة الرقص مغطية بغنائها على أصوات جوقة المغنين الأولى. ويبدأ الناس فى الرقص على إيقاعات أغانيهم. ولا يمثل ذلك تمظهراً للعنف والعدوانية، وإنما يمثل جزءا من تكوين الرقصة. أحياناً يتم الاعتراض على أغنية بهيجة بصورة خاصة، أو تُغنى أغنية مثيرة للمشاعر بشكل واضح. حينئذ تبدأ المجموعات المتناوئة فى الترنم بالأغانى التى تسب بعضها البعض. لذلك ولدواعى حفظ الأمن لابد أن

يراقب الزعماء الرقص بحذر شديد منعاً لاندلاع المعارك. ويمكن القول بأن أنظمة الحكم الحديثة قد زادت من درجة التعبير عن العدوانية، إذ أصبح معروفاً أنها قد تتدخل لوقف الاقتتال غير المقيد. أما فى الماضى فقد كانت هناك ضرورة أكبر لممارسة ضبط النفس.

وليس من الضرورى أن ينتظر الغضب الذى تثيره الأغانى حتى أوقات الرقص كى يتفجر. إذ يحدث أن تسمع إحدى البطون عن أغنية حرب تم تاليفها حديثاً فى التشنيع بهم، فتخرج بسلاحها لمهاجمة المجموعة التى ألفت تلك الأغنية. وفى المحاكمة التى تقام للنظر فى هذه القضية، لابد من الاستعانة بقوة كافية من رجال الشرطة تحوطاً لما يمكن أن يحدث من شغب، إذا رغبت المحكمة فى الاستماع لهذه الأغانى من المجموعات نفسها.

غير أن رقصة الحرب يمكن أن تؤدى أيضاً فى نطاق محدود، ولهدف معين. فهى قد تكون مناسبة تريد بها مجموعة أنداد إخلاء سبيلها رسمياً بواسطة الزعيم، بعد أن تكون قد أكملت عملاً كُلفت به. أو قد تتقدم عن طريقها مجموعة أنداد بطلب للزعيم لكى يسمح لها بالانتقال إلى مراع بعيدة فى الموسم الزراعى. وهو أمر تم تقيده فى أيامنا هذه. فبعد فترة من الرّقص، يقوم الزعيم، فى حالة قبوله الطلب، برش المجموعة بالماء المبارك علامة على إخلاء سبيلهم أو الاستجابة لطلبهم. حينئذ يوجه الراقصون رماحهم إلى أعلى ويصيحون: "نقوث" - وهى كلمة تُستعمل عندما يكون الشخص قد طعن عدواً أو حيواناً أو سمكة.

ورقصة الحرب بتنوعاتها المختلفة هى الرقصة النموذجية لدى دينكا نقوك، واسمها "لوور"، وتعنى الطبل. ولابد من طبلين على الأقل لهذه الرقصة. أحدهما كبير والاخر صغير، وهما يُقرعان متزامنين بالتنسيق بين صوتيهما وقرع الطبول هو واحد من المهارات التى يكتسبها كل الدينكا، ولكن ممارستها فى مثل هذه المناسبات، تقتضى قدرات عالية.

هناك نوع خاص من الرقص يلى رقصات الحرب لدى دينكا - نقوك، غير أنه يتميز بخصائص مختلفة تجعله أقرب أن يكون "رقصة الثور" منه إلى رقصة الحرب. والأغانى فى هذه الرقصة ليست عن الحرب او الشجاعة، بل عن الفتيات والأبقار، وهى تكاد تكون مطابقة لأغانى الثيران ولكنها أقصر، وأقل اهتماماً منها بالشاعرية وأكثر تركيزاً على الموسيقى. والرقصة نفسها تلتزم بفكرة الرجل - الثور- المراة البقرة - وعلى الرغم من أن الراقصين

يضربون الأرض بقوة هائلة ووحدة مثيرة للعجب، إلا أن الرموز فى مجملها أكثر مسالمة عنها فى أغانى الحرب، ولا تستخدم فيها الحراب كذلك كما تغيب عنها المعارك الرمزية بين الرجال. مع ذلك قد يصبح السباب المضمن فى الأغانى دافعاً للرد عليه بأغان ومعارك حقيقية.

ونسبة للتنسيق الذى يتم بين نشاطات مجموعة النديدات النسائية ونشاطات نظيرتها الرجالية، فإن الفتيات أيضاً يفخرن بتلك الأعمال الحربية لأزواجهن المحتملين. ويؤلفن كذلك أغنياتهن للحرب، ولكن فى شكل "دور" فقط، والتى يمكن استخدامها لإثارة المشاعر فى التظاهرات السلمية أو الحربية. فى هذه الأغانى ينسبن أدوار نظرائهن من الرجال إلى أنفسهن باستخدامهن للضميرين "أنا" و"نحن" عندما يعنين "هو" و"هم". يلى ذلك أغان تغنيها النساء المتزوجات، تستخدم فيها الزوجات اللائى يغنين عن أزواجهن الضمير "أنا" و"هو" على التوالى، بينما يكون موضوع غنائهن واحداً. هو أزواجهن. وبالطبع تتنافس حلقات النديدات التى تنتمى لقبائل معادية لبعضها البعض، فى تأليف مثل هذه الأغانى، ولكن العواقب لا تنتهى عند هذا الحد. إذ إن المسألة قد تتسبب فى إثارة غضب الرجال. غير أن الصراع الذى يترتب على ذلك لن يكون مع الفتيات المغنيات، ولكن بين مجموعات الذكور الشابة.

وهكذا تتواصل نوازع العنف الطليقة عند الدينكا من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب، وفى الوقت الذى يجهد فيه المجتمع للتحكم فى هذه النوازع واستخدامها بصورة جمالية صحيحة، أو تسخيرها للنشاطات الحربية دفاعاً عن الأرض- إلا أنه لا ينجح فى لجمها تماماً وتبقى مصدراً للعنف والهيجان وتتسبب المعارك العابرة والحروب الخطيرة التى تثيرها فى سقوط قتلى عديدين، وفى عاهات كثيرة يحملها معهم آخرون طوال حياتهم، نتيجة لطعنة حربة فى البدن أو ضربة عصا على الرأس أو ما شاكلها.

الشباب والنشاطات الاقتصادية

إن الحديث عن دور اقتصادى يتضمن إشارة ما إلى الإنتاج والإنتاجية، غير أن مساهمات شباب الدينكا فى هذا المجال تأخذ، بصورة عامة، طابعاً جمالياً وأحياناً تخريبياً. صحيح أن شباب الدينكا يعملون فى مجال الزراعة،

وأن بعضاً منهم قد عُرفوا بجديتهم ومثابرتهم على العمل. وهم يقومون أيضاً بزراعة مزارع الزعماء، وبناء منازلهم، ويساعدون، مثل كل الدينكا، أولئك الذين يقيمون حفلات الجعة واللحم وأنواع الطعام الأخرى. كما أنهم يخرجون للصيد البرى أو لصيد الأسماك فى مجموعات أو فرادى، وخاصة فى معسكرات الأبقار البعيدة عن المساكن، عندما يكونون فى حاجة لموازنة غذائهم من منتجات الألبان. فهم مع حبهم للحوم إلا أنهم لا يميلون أبداً لذبح أبقارهم، إلا فى حالات الضيافة وتقديم القرابين. غير أن كل هذه النشاطات التى سبقت الإشارة إليها ذات طابع محدود، وتميل لأن تكون نوعاً من الرياضة أكثر منها نشاطاً اقتصادياً. وتتركز نشاطات الدينكا فى مرحلة الشباب حول الأبقار، وحول الثيران بالتحديد. فبعد إكمال مراسم التدشين مباشرة، يعلن الرجل التزامه بثوره ويصبح معروفاً به وسط الجماعة، ويأخذ اسماً محوراً مشتقاً من نمط ألوان ذلك الثور. وعلى الرجل بعد ذلك أن يمتنع عن أكل لحم ثوره، وعن أكل أى شئ حيواناً أو نباتاً يشبه ذلك الثور فى اللون أو الشكل. والدينكا يستنكرون، بصفة عامة، بيع أبقارهم ولكن ذلك ينطبق بصفة خاصة على ثور الذاتية. ويرفض كثيرون التخلى عن ثيرانهم حتى لأغراض سامية مثل الزواج. وهذا ماعناه المغنى فى الأغنية التالية:

ثورى "ميجوك" عزيز علىّ
مثل التبغ والغليون،
إذا لم يكن هناك تبغ،
ينطفئ الغليون.
فخطوته وخطوتى سيان.

ويجيء التعبير عن الأنشغال بالثيران فى أغانى الثيران التى تمثل الثيران فكرتها المركزية. وأغنية الثور لابد أن يقوم بتأليفها صاحب الثور نفسه، هذا هو الحال على الأقل وسط دينكا نقوك. ويتم فى العادة تزيين الثور بذؤابات تتدلى من ثقوب فى قرنيه وبجرس كبير يتدلى من رباط حول عنقه. وقد يطلب الرجل من فتاة ما أن تُعد ذؤابات لثوره، أو أن تخضب الرباط الجلدى للجرس، وتُقام الحفلات لتلقى هذه الأغراض، كما تتم الإشارة إلى هذه الفتاة والثناء عليها فى الأغنيات التالية. كذلك تقام الاحتفالات بمناسبة ثقب قرنى الثور، ويُضمن وصف هذه المناسبات فى الأغانى، وتُمثل الطريقة التى يهز بها الثور ذؤابات قرنه مصدراً للفخر والاعتزاز يتم التعبير عنه فى الأغانى

وأحياناً تتضمن هذه الأغاني وصفاً تفصيلياً لظواهر طبيعية تحمل شبهاً ما لخصائص ثور الذاتية.

أحياناً تُستخدم أغاني الثيران لتقرير أمر ما، أو لطلب مساعدة الزعيم، أو أحد كبار السن أو لكسب متعاطف محتمل. ويمكن أن يأخذ الغناء طابع "الالتماس" أو "التسول" وذلك عندما يكون ثور المغني قد مات ويحتاج بديلاً له. في هذه الحالات تتضمن الأغنية، في العادة، ثناء على أفراد الأسرة وعلى الأصدقاء. وهي تختلف عن أغاني الحرب التي يقدم فيها المحاربون الشبان أنفسهم شجعاناً كفحول الثيران وكالجاموس والأسود وما شابهها، في أنها تجمع بين شجاعة وحيوية فحول الثيران وخضوع ووقار ثيران الذاتية. وقد يُسبغ الشرف والعزة في هذه الأغاني على الزعيم والأسلاف والعشيرة والأفراد. والأغنية التالية نموذج مثالي لأغاني الثيران، وموضوعها ثوران أحدهما ثور رمادي يشبهه المغني بالأسد والفيل والبقر الوحشي والجاموس، والآخر بُني داكن يقارنه المغني بفرس البحر:

يا للجمال الرائع، يا للجمال الرائع،
يا من انجبته ملوك الوحش،
إن ترفض الرجال، سيكون مصيرك أن تؤكل(1).
ياملك البرية ذا العيون المخيفة
يامن تلمع عيونه وهو يلتهم الرجال (2)
يثور الغبار عندما ينهض كالأمطار العاصفة،
ويسطع مثل السماء الصافية
إنه يُظهر سنامه
ثوري يستعرض سنامه الرشيق.
والسنام يهتز مثل رقبة مريض بالغدة
وهو يترنح مثل رجل ارتوى خمراً،
فعندما يمشي يواصل السنام اهتزازه
كرجل مسافر على جمل
يا رمادياً لدى جدي "أروب" ابن "أجونق"
لقد تضعضع سنامك.

1- يُنظر للثور في هذا المكان كثور ويتم تحذيره من الأسود إذا كان نافراً ناشزاً.
2- العودة إلى تحوير الثور والنظر إليه كأسد.

يا للزعيم "دينق" ابن "كول دي أروب دي بيونق"
إنه مثل الإله على راس القبيلة.
بينما أغني لظبيتي "ماليث"،
يخور الثور في المساء بقلب جائع،
يخور الثور بقرنيه المقوستين، والأبقار في رباطها،
في معسكر جدي "اجونق"، ابن الإله،
أغني لثور بُني داكن اللون،
قرونه طويلة كأشواك السنط،
وقلب "ماليث" في شجاعة الجاموس،
عندما يرى بقرة تُعشّر، فإنه يكسر وتده.
"مالك" يا ابن "ياك" فأنت نديدي،
يا بياض البيض، يا "ماليك" من عشيرة "جادور"
عندما تنتقل الأبقار للمعسكرات الصيفية،
يرعى "ماليث" أعشاباً في لذة الفتاة الناضجة،
يجذب منظرها الناس ويُدخل الفرح إلى قلوبهم
وعندما يخور، يرتد صدى صوته،
كرعد الأمطار الصباحية،
ثوري "اثينق" داكن كسواد الليل،
يمشي متمهلاً بخطى فتاة تلبس حجولاً معدنية،
و"ماليث" القوي يرفع الفحول من على الأرض،
يتخفى خلف أبقار معسكر النسر العظيم،
ثم يهوي على أحد الفحول،
فيخور هذا كبقرة هاجمها أسد.
تلك الفتاة التي أسموها على جدتي، أم "دينق" ابن "بيونق"،
إنها تشبه نساء الزمن القديم.
أهداني زواجها "ماليث" العظيم بجسمه المنبسط،
مثل وحش هائل،
خذ حذرك أيها الفيل الكبير
فإنك في معركة مع العربي ذي اللون البُني.
أصحيح هو؟ أرأيتني عرفت معنى اليتم؟

فقد تركنى أبى مع بنات أمى،
كم أساءت معاملتى واحدة منهن.
من أجل "ماليث"، تخليتُ عن أعمال الأرض.
فهو لن يضيع إلى الأبد،
مثل المعسكر القديم، مثبتة له الحراب،
ينشده المحاربون بأضواء المشاعل(3)
أختنا وأكبر أخواتنا،
ترفض الدخول فى الزواج
دون ثور بنى اللون، مثل فرس البحر فى النهر(4)
يالها من حيوانات تلك التى اربيها.
فأنا أرعى جاموساً وحيواناً من النهر.
ذا اللون البُنى بظهره اللامع
الذى نظف المرعى من العشب
فهو يقطعه ثم يبتلعه
كما تبتلع الأصلة ضحيتها،
ويجتر الأعشاب الطرية التى تجعل فمه يفوح،
مثل رجل يمضغ بصلاً،
زعيم عشيرة لا يملك شيئاً (5)
يا أم "وور" يا أم "وور" الأرقط،
امرأة لم أر فى حياتى مثلها شجاعة
كيف غامرت ببيع ثور سيد محترم!
يا للمصائب التى جاءت بها الأسواق إلى ديارنا،
يربى الرجل ثور عزه وفخره،
ثم تأتى إمرأة تريده للبيع.

3- كان الناس شديدى التصميم على إعادة إحتلال المعسكر، حتى أنهم هاجموه أثناء الليل وهم يحملون مشاعل تنير دروبهم. وحروب الدينكا تُخاض عادة أثناء النهار. هذا المغنى مصمم على إعادة ثوره تصميم أولئك المحاربين على مهاجمة المعسكر.

4- فى مهر زواجها.

5- زعيم عشيرة يقال أنه لا يملك شيئاً فى البلدة غير البصل. والإشارة هنا إلى بؤس حالة زعماء العشائر وتقلص نفوذهم، بعد أن حولتهم الحكومة إلى جباة ضرائب بدلاً من قادة وزعماء.

لكننى رفضت ذلك مع "ماليث"
وخلصته من أم "داو" بثور أسود.
(مواصلة للأغنية)
فى تلك السنة(6)
ثم افتديته من إثم أتيت به،(7)
فى تلك السنة.
وأبعدت عنه الذبح لذنب "نيانوير" (8)
فى ذلك العام.
أنظف ثورى، كما تُزال القشرة عن النواة.
وسيبقى فى معسكرنا المقدس
سيقول اقرباء لا يحبوننى
"صار (لوال) أسداً متوحشاً"

ويجرى العرض الرسمى لأغانى – الثيران بواحد من أساليب عديدة. ففى أحايين كثيرة تُغنى هذه الأغانى حول معسكرات الأبقار، حيث تُربط آلاف الأبقار فى مساحة دائرية واسعة، تُقام بداخلها مواقد النيران التى يجتمع فيها الرجال، وعلى الأطراف منها أماكن مسورة للفتيات والعائلات وتكون هذه المعسكرات عادة من الاتساع بحيث يمكن أن يغنى بداخلها أشخاص عديدون فى وقت واحد، ولكن من غير أن تتداخل أصواتهم مع بعضها البعض، لبعد المسافة التى تفصل بينهم. وهو ما يُسبغ على الحياة فى معسكرات الأبقار بهجة عظيمة. فهناك دائماً برنامج غنائى، يستمر أحياناً طوال الليل. وفى الصباح عندما تستيقظ الفتيات مبكرات لاستخلاص السمن من الألبان فإنهن يترنمن بأغانيهن المفضلة على إيقاعات الأوانى القرعية المهتزة. وهى الأوقات التى قد يُوقف فيها مغن معجب بفتاة معينة ثوره بقرب موقع هذه الفتاة فى المعسكر، حتى تقوم بنفسها بتسريحه بهدية رمزية أو بإعلان استعدادها على

6- التركيز على تلك السنة هنا وفيما بعد له اهمية خاصة إذ كانت سنة مجاعة تشدد فيها الذين ارتكبت فى حقهم أخطاء أو من كانت لهم استحقاقات عشائرية عند آخرين. والإشارة المتكررة هنا إلى تلك السنة، هى طريقة مؤدبة لشتمهم.

7 – تنبئ النبرة عن ارتكابه لجريمة جنسية يجب عليه أداء تعويض أو غرامة عنها.

8 – عندما يرتكب أحد أعضاء حلقات الأنداد ذكراً أو أنثى، جرماً فى حق حلقته، تذبح الحلقة ثور ذاتيته المفضل "أو فى حالات الفتيات، ثور أقرب أقربانها من جهة الأب، عقاباً على الجرام.

مصادقته، الأمر الذى قد ينتهى بهما إلى الزواج. وحتى فى الحالات التى لا تكون فيها هذه الفتاة هى المقصودة بعينها، فإن فتاة أخرى معجبة قد تأخذ المبادرة وتقوم بإجراء ما يلزم لتسريحه. يتم هذا التسريح لدى بعض القبائل عن طريق قيام الفتاة بدهن الرجل والصبى الذى يقود ثوره (والذى يتوقع منه أن يساعده فى الغناء إذا ما فقد الرجل المُدشن صوته).

كذلك يمكن أن تغنى أغانى الثيران فى الجلسات الترفيهية. ففى بعض الأوقات يجتمع الرجال فى وجود النساء أو من غيرهن، للتنافس كأفراد أو كممثلين لمجموعات. وعندما تُقام مثل هذه المناسبة فى حضور النساء، فهن اللائى يحددن النتيجة. أما فى الحالات الأخرى فإن المستمعين هم الذين يحكمون فيما بين المتنافسين. ويقوم المغنى فى مثل هذه المناسبات، بوضع يديه على شكل قرن وبتحريك رأسه وبدنه حركة شبيهة بحركة الثور. وعلى الرغم من أن أغانى الثيران لا تصحبها إيقاعات الطبول، إلا أنه يُسمع باصطحاب رنين الأجراس والخوار الذى يصدر عن الثيران. لذلك يلجأ المغنى، فى غياب ثور حقيقى، أحياناً، إلى قرع جرس بينما تصدر عن رفيق له أصوات تمثل خوار الثور. ويصاحب كل ذلك الشدو العالى المتكرر الذى يطلق الذين يتم الثناء عليهم أو على أقربائهم.

وتشارك النساء الشباب من الرجال فى انشغالهم بالأبقار، ويعبرن عن ذلك فى أغانيهن، التى تكون فى العادة نوعاً من أنواع أغانى الثيران، يتركز الاهتمام فيها على ثيران الزوج أو الشركاء فى الرقص أو المحبين. وفى هذه الأغانى تتنقل المرأة فى الإشارة إلى زوجها بين الضميرين "أنا" و"هو". وهو تعكس بالتالى هويتها. وتقدم الأغنية التالية نموذجاً لهذه الأغانى:

الثور ذو القرون المتشعبة،
القرون التى تتدلى حتى الأرض،
القرون التى تطفح مثل قدر يغلى.
كم أحب الظلال السوداء لثور أبى الأرقط،
احبها كما أحب زعيمنا،
أحبها كما أحب زعيمنا الذى يمسك زمام أرضنا.
حبيبى "مجوك"، عندما لا تغشى الكوارث أرضنا،
يشير الناس إلى معسكرنا بسببك،
ولكن حتى لو ازدراك الناس،

بسبب هذه القرون، فسوف أحبك،

وكثيراً ماتقوم المغنية بالثناء على زوجها – معبرة عن نفسها – فى ترفع مدهش. وفى العادة يكون هذا الثناء مضخماً ومبالغاً فيه، لدرجة لا يكون فيها ممكناً إلا فى أغنية. والمقاطع التالية من أغنية لنساء زعيم دينكا نقوك وهو "دينق مجوك". وعلى الرغم من أن ثناءهن عليه مدفوع بنفوذه وقوته، إلا أن تضخيماً شبيهاً بهذا هو أمر شائع فى أوساط الدينكا.

ايها الثور المخطط(9)، سوف ترعى مع الفحول
وسوف يجلس ابوك(10) مع قادة السودان
فهو الخبير بأحوال الجنوب
وهو صاحب الكلمات القوية.
لا يجرؤ أحد على تجاهله فى أرض "كول".
ألم يسافر اسمى (11) هناك بعيداً إلى أرض العرب؟
وإلى الأرض التى تغرب فيها الشمس؟
لم اعرف فى حياتى شيئاً فاق الرجل المشرق
لا لم أعرفه فى بلاد "لوال"

وكما هو واضح من هذا النموذج فقد تهتم أغانى النساء – مثلها فى ذلك مثل أغانى الرجال – بأى شىء يهم المغنية، ولكنها تختلف عن أغانى الثيران فى أنها لاتُغنى من أجل الثيران، بل تُغنى فى مناسبات الرقص النسائية، التى تكوّن فيها الراقصات حلقة، بينما تقوم صاحبة الأغنية، أو – فى حالة غيابها - إحدى قريباتها بقيادة المجموعة. وفى الوقت الذى تتغنى فيه المجموعة وتصفق (وهى الموسيقى المصاحبة الوحيدة)، تدخل أخريات الحلقة ويبدأن فى القفز على إيقاعات الأغنية. يصاحب ذلك الصرخات العالية التى يطلقها بعض الناس، وخصوصاً أولئك الذين ذُكرت أسماء أقرباء لهم، بحيث يكون مستحيلاً فى بعض الأحيان، تبين كلمات الأغنية. هذه الصرخات الحادة هى تعبير عن الفرحة، وذلك على الرغم من أنها قد تبدو لأذن الغريب مثل صراخ

9- ثور زوجها
10- الزعيم "دنيق مجوك"
11- تعنى زوجها

امرأة فى حالة الحزن والجزع.

غير أن أكثر الجوانب إثارة للانتباه فى اشتغال الشباب بتربية الأبقار، هو حبهم الشديد لمعسكرات الأبقار التى تتيح لهم، بجانب المراعى الوافرة لمواشيهم، الفرصة للابتعاد عن المشاركة فى النشاطات الاقتصادية اليومية. لذلك فإن الشهرة التى اكتسبها الدينكا بوصفهم قبائل من الرّحل، ترجع فى الأساس إلى أن الشباب ينتقلون من مكان لآخر تبعاً لتوافر المراعى المناسبة، وأحياناً لمجرد رغبتهم فى الابتعاد عن سيطرة الكبار فى التجمعات السكنية. وفى الحالات التى يتقرر فيها انتقال المعسكر وهو قرار يتخذه قائد المعسكر المسمى "الفحل الأرقط لمعسكر الأبقار"، يستقيظ الناس فى وقت مبكر جداً، ويقومون بحلب أبقارهم ولف الحبال حول أعناقها لكى تحملها معها، وفى حالة ثيران الذاتية، ربط القلائد والأجراس. ويحمل الأطفال والنساء الأوانى القرعية للبن والسمن. وبينما يقوم بعض الرجال بالمساعدة فى توجيه القطعان يتقدم آخرون المجموعة لاختيار المواقع المناسبة وإعداد الأوتاد: ويحمل الرجال العجول الصغيرة كالأطفال على أكتافهم، بينما تحمل الأمهات أطفالهن الرّضع على ظهورهن.

أحياناً يترك الرجال الشبان، عند اعتزامهم التوجه إلى أماكن بعيدة، معظم أبقار الألبان خلفهم فى التجمعات السكنية، لكى تمد قاطنيها بالغذاء فى موسم اليباس عندما تجف ضروع أكثر الأبقار. وهو ما يستوجب منهم تحمل الجوع ونقص الغذاء فى ترحالهم البعيد. وتشكل المصاعب والمشاق التى تقترن بالرعى فى أماكن بعيدة مواضيع لأغانى الثيران، يتم التغنى فيها بأشخاص بأسمائهم والثناء على تميزهم، بينما توجه كلمات اللوم والاستهجان لمجهولين على ضعفهم وتقاعسهم، وهو ما يفعله المغنى بفخر وتبجح. إذ إنه ما من مشقة أو صعوبة تواجه المرء فى معسكر الأبقار، إلا كانت فى المقابل مصدراً للعزة والفخار. وعندما يقوم بعض الدينكا بزيارة المعسكر، عادة فى الأمسيات، فإنهم يحسون أجواءه المتفوقة من مسافة بعيدة حين يقع نظرهم على منارته المنبعثة من نيران روث البهائم، وهى تعانق السماء محددة موقع المعسكر. ومع الاقتراب أكثر فأكثر من المعسكر تترامى إلى مسامعهم أغانى الرجال، ورقصات الأطفال، وأصوات الحيوانات، ورنين الأجراس والحكايا والنكات والضحكات العالية، التى تعكس جميعها الفرق الشاسع بين الحياة المرحة البهيجة فى معسكر الأبقار وتلك المكبوتة المقهورة

فى البيوت السكنية. ومع دخولهم للمعسكر فلن يكون غريباً أن يصرخ الأطفال، الذين عادة ما يكونون أول من لاحظ وصولهم، مرددين فى وجوههم: "احضروا معهم الذباب إلى المعسكر" وهو ما سوف يردد الأطفال صداه عبر المعسكر بأكمله فى المقابل فإن الزوار من المعسكرات إلى القرى هم ضيوف متميزون، كثيراً ما يكونون أصحاء فخورين بأنفسهم.

وتستند عملية إقامة معسكرات الأبقار إلى عرف يسمى عند الدينكا "توك" (التى تعنى حرفياً الاستلقاء)، يقوم الرجال الشبان تبعا له بإعفاء أنفسهم من العمل فى الزراعة، وينتقلون إلى المعسكرات الصيفية، حيث يرتوون من الألبان المكملة باللحوم، ثم يقومون بعد ذلك، كما يمكن أن تدل على ذلك الكلمة التى تشير إلى العرف، بالاستلقاء واكتناز الشحم مع أقل حركة ممكنة. فى هذه الفترة يقومون بتأليف الأغانى حول المسائل التى تهمهم بصورة خاصة، عادة ما تكون مشاكل ضاغطة. وأنا أسمى هذه الأغانى "الأغانى المسهلة (من الإسهال)، لأن لها دوراً تطهيرياً، وفى الواقع يطلق عليها الدينكا "واك" والتى تعنى "غسيل". فى هذه الأغانى يعترف الرجال الشبان أحياناً برغبتهم فى اجتناب العمل بالقرى ويلهجون بالثناء على أولئك الذين جعلوا مغادرتهم لها أمراً ممكناً. على سبيل المثال، يثنى رجل على زوجة أبيه وزوجة أخيه الأكبر على إرسالهما له للاستلقاء. وما هذا الإدعاء باخفاء أو رمى معزقته إلا محاولة للتستر على الحقيقة المخجلة نوعا ما بأن المغنى لايريد فى الواقع أن يعمل:

"نياناث" من عشيرة "بابونق أخفت معزقتى،
رمت بها بعيداً،
"نياناث" أطلقت الأبقار من أجلى،
فهى تعتنى بى.
و"اقوروت" زوجة أبى،
رمت بعيداً بمعزقتى.

وهذا رجل آخر كان يُفترض أن يهجر أفعال الشباب، ولكن زوجته أرسلته للراحة فهو يغنى لها هذه المقاطع:

غبات "إيان أجاك" إنائى القرعى،

واطلقت الأبقار . . .
ثم وضعت قراعها بعيداً
فالمرأة تحبنى
إنها تحبنى.
جعلتنى أعبر الأرض نحو معسكر الأبقار،
"أيان" تريدنى فى قلب الأشياء،
فهى ترعانى كطفل فطيم.
هل سمعت ما يقوله الناس:
إنهم يسألون: "لماذا لايترك (بار) الذهاب إلى المعسكر مع الشباب؟"
فأقول لهم "الفحل الأسود يكتنز اللحم"
لو أن البطون تشكر أباها.
لشكرتنى بطنى منذ زمن بعيد،
ولشكرت "كول" بطنه.
سأستمع لكلام الناس.
ثم أستلقى فوق الأرض
وأرقد مثل فحل أسود ضخم

وتتحدث معظم هذه الأغانى " التطهيرية" عن الزواج. فقد يثنى رجل على زوجة المستقبل وأقربائها، ويدعو أقرباءه لمساندته والوقوف معه، أو قد يبث لوعته وحزنه عليها إذا فشلت محاولاته. وقد يكون عدم القدرة على الزواج سبباً فى تأليف أغنية، حتى إذا لم يكن فى ذهن المغنى فتاة معينة وقتها. هؤلاء الشباب يمارسون تأثيراً عظيماً فى الأسابيع الأولى لعودتهم من المعسكرات. إذ يجدهم الناس وسيمين وجذابين نتيجة لسمنتهم وثقل أوزانهم. ذلك أن إكتساب الوزن يجعل من الدينكا، الذين عادة ما يكونون غاية فى النحافة والطول أكثر جمالاً ووسامة. لذا تجدهم يجذبون إليهم، اهتماماً كبيراً عندما يجوبون المكان فى مجموعات ويقدمون أغنياتهم مصحوبة بالرقصات والولائم، احتفالاً بالمناسبة. ولا تستخدم الآلات الموسيقية فى هذه المناسبات، بل تكوِّن المجموعة حلقة كبيرة، ويتوسط صاحب الأغنية الحلقة لقيادة المجموعة فى الغناء والرقص. حيث يرفع الراقصون رجلاً واحدة إلى أعلى وينزلون بها إلى الأرض مصحوبة بهز البدن بصورة مشابهة لرقصة التدشين،

ولكن بتمهل، إذ إن ثقل أوزان الراقصين يحول بينهم وبين الحركة السريعة القوية. وتكون حفلات الرقص الأولى فى بيوت أولئك الذين تخاطبهم الأغانى، ولكنها قد تتواصل فى أى مكان آخر.

بهذا الإسترسال الزائد والاستغراق فى جماليات أغانى الأبقار وإيقاعات الرقص، يعوض شباب الدينكا، فى الواقع، أنفسهم عن اعتمادهم الاقتصادى على كبارهم. لذلك تقل النزاعات بينهم وبين هؤلاء الكبار، وإن كانت تحدث أحياناً. إذ إن أشتغالهم الجمالى بالأبقار يجعلهم يحسون بأنهم أغنياء، وتنتفى بذلك إلى حد كبير أسباب التنافس بينهم وبين آبائهم.

الحب والغزل

بما أن الزواج هو هدف كل فرد فى المجتمع، وبالنظر لمكانة الأسرة باعتبارها تحقيقاً للحياة تحتل القيم المتصلة بالعلاقة بين الرجل والمرأة، لدى الدينكا، وضعاً مركزياً. ويكاد يكون لكل فعل يأتى به أحد الدينكا دوافع حسية جنسية. وهذا هو ما يعطى النساء هذا الوضع المزدوج فى نظر الدينكا: فهن من جانب تابعات للرجال ولكنهن من جانب آخر، يمثلن دون شك الهدف الرئيسى لمساعى هؤلاء الرجال فى الحياة. هذه الأغنية التى سبقت الإشارة إليها توضح هذه المسألة:

المرأة هى الإله،
فعندما تدهن رأسك بيديها،
تنام كأنك أصلة.
إنها دائماً تكوِّن نفسها،
ومن أجلها يصطاد الرجل الحيوان،
ومن أجلها يرعى الرجل الأبقار.

تمثل حلقات الرقص واحدة من المناسبات الكثيرة التى تجمع بين الأولاد والفتيات. حيث يقوم الراقصون، بالإضافة إلى عمليات التجميل الأخرى التى سبقت الإشارة إليها، بدهن أجسامهم بالزيت، ورسم التشكيلات على جلودهم، مستخدمين فى ذلك الرماد الأحمر الداكن والخفيف أو الأبيض.

ويقف الرجال والنساء قبل الرقص مباشرة فى مجموعات من اثنين أو ثلاثة أفراد أو أكثر فى كل مجموعة وهم يفعلون كل ما فى وسعهم للفت انتباه الآخرين إليهم. فيقف الرجال وهم يغنون، وينفجرون ضاحكين لغير سبب ظاهر، أو يتبادلون مع بعضهم البعض جملاً خاصة يُطلق عليها "نيال روت" يتوج بها الأصدقاء والحميمون قهقهاتهم العالية. ولا تهم فى هذه الحالات الكلمات المستعملة، برغم أنها قد تكون مناسبة للمقام ، وأحياناً، تمثل قذفاً مكشوفاً. ويُفترض أن تترك هذه الإهانات العامه لدى الفتيات انطباعاً بسرعة البديهة وحدة اللسان، وهو ما يُنتظر منه أن يجعل صاحبه أكثر جاذبية لديهن. كذلك تخشى الفتيات أن عدم الاستجابة لإعجاب مثل هذا الرجل من الممكن أن يتسبب فى إشاعته لفضائح مفتراة عنهن. بالطبع ينتظر من الفتيات أن يكن أكثر رزانة، وهو ما قد ينتهى بهن إلى الوقوف فى حالة من الحرج - إن لم تكن العصبية - وهن يضممن ويعدن ضم تنوراتهن حول أوساطهن. وأحياناً يقمن بأداء رقصات استعراضية نسائية قبل بداية الرقص الجماعى. وعندما يبدأ الرقص الجماعى لا يترك الرجال، وبدرجة أقل النساء، وسيلة أو فرصة للاستعراض إلا اغتنموها، وهو ما يعتبره الدينكا جزءًا أساسياً فى فن الرقص الجماعى.

وعلى الرغم من أن البعض قد يكونون شركاء رقص منتظمين، إلا أنه بوسع الفتيات أن يخترن رفقاءهن فى الرقص من المناسبة نفسها، وهو ما قد يؤدى لأن يكون لرجل ما عدة رفيقات، بينما لا تكون لآخر أية رفيقة. وذلك ما يعرف "لزوم الأرض"، ويُعتبر، كما يشير لذلك المصطلح، إهانة ومذلة. ويؤدى، أحياناً، إلى أن تختار الفتيات شخصاً ما لينقذه من هذه الإهانات. ولكن على العموم تكون فتيات الدينكا أمينات وصادقات فى اختيار رفقائهن.

بعد انتهاء الرقص يسير الرجال والنساء، الذين يكونون، بسبب عنفوان رقصات الدينكا، وحرارة الجو، قد أفرزوا عرقاً كثيراً، يسيرون نحو النهر لحمام سريع منفصل. بعده يلتقى الجنسان مرة أخرى حتى يرافق الرجال الفتيات فى الطريق إلى منازلهن. ولكن الرجال لا يسيرون كل المسافة إلى منازل الفتيات، بل يقطع الرجل منهم مسافة طويلة مع الفتاة، قبل أن يستأنف رحلته نحو منزله هو، عادة بعد أن يكون قد اتفق معها على موعد آخر للقاء.

وعادة ما تتضمن مناسبات مثل الزواج، وثقب قرون الثيران، وتسليم الهدايا الخاصة، حلقات الرقص والغزل. وتكون اللقاءات الترفيهية بين الرجال

والنساء فى مثل هذه المناسبات، عادة، بين المنتمين لحلقات الأنداد المتناظرة. فيأكلون معاً وينغمسون فى بحر النكات والهزل، وبحلول المساء يجلسون فى مكان منفصل عن الكبار، حيث يتنافس الرجال بأغانى ثيرانهم، بينما تفصل الفتيات فى النتائج، ويخترن من يعجبن به من الرجال. وبوقوع هذا الاختيار تصبح العلاقة، وإن بقيت جماعية، أكثر حميمية واتصالاً. هنا أيضاً يمكن أن يتم اختيار رجل واحد من فتاتين أو أكثر، وبغض النظر عن المبادئ التى تحكم تعدد النساء، تصبح الأمور فى هذه الحالة عسيرة. وقد ينتهى الأمر بهذا الرجل دون أن يتمكن من تعميق علاقته بأى من الفتيات، لكن يتم على كل حال الاتفاق على مواعيد مستقبلية.

وعلى الرغم من كل الأحاديث الحميمة فى تلك الجمهرة، يتنامى، فى العادة حوار يشترك فيه الجميع، يتعلق بما إذا كانت الفتيات سينمن وحدهن أم مع الرجال. وهو ماقد لا يعنى أكثر من انتقال الأحاديث إلى الفراش مع حميمية أكبر. والأرجح هو أن ترفض الفتيات، اقتسام فراشهن مع الرجال، ويقبلن فقط بالاتفاق على تفاصيل زيارات هؤلاء الرفاق المختارين لهن فى المستقبل.

وليست هناك أى قيود على الكيفية التى يمكن أن يلتقى بها رجل وامرأة، أو - إذا تجاوبا مع بعضهما البعض- على الطريقة التى يحددون بها لقاءاتهما المستقبلية. حتى أيام الأسواق التى أصبحت مؤسسات معترفا بها حديثاً، صارت مناسبات للمطارحات الغرامية، يعد لها الرجال والنساء الشبان أنفسهم وأزياءهم. وقد هيأت هذه الممارسة الجديدة مقرونة مع الحريات القديمة، التى تتيح الالتقاء والتحدث مع أى فتاة فى أى وقت وفى أى مكان، هيأت لشباب الدينكا إمكانية تمديد فرص اللقاء بصورة واسعة. وعلى الرغم من أن المبادرة تظل دائماً من جانب الرجل، إلا أن الفتاة قد تطلب منه هدية، وبينما يلجأ الدينكا لسؤال أقربائهم وأصدقائهم وزعمائهم وكل من لهم به صلة فى أوقات الحاجة، إلا أن طلب الهدية يُعتبر دعوة وتأكيداً أو ترسيخاً لعلاقة ما. فإذا ما صدرت من جانب فتاة لا تمت بصلة القربى لرجل، فإنها لا تدع مجالاً للشك فى نواياها الحقيقية. ولسبب ما صار التبغ يُعتبر بصورة عامة، رمزاً للدعوة إلى علاقة حميمة، سواء كان من طلبه رجلا أو امرأة. ويكاد يكون جميع الدينكا، رجالاً ونساء ممن يدخنون الغليون، بينما يمضغ كبار السن، أو يستنشقون التبغ. ولكن ليس من الضرورى أن يكون المرء مدخناً لكى يطلب تبغاً أو يطلبه منه شخص ما.

على أى حال، مهما كان أسلوب الشروع فى العلاقة، فإن النتيجة تبقى واحدة. فاللقاء الناجح ينتهى بتحديد مواعيد جديدة للالتقاء. والرجل هو من يقوم دائماً بالزيارة. فليست هناك من فتاة يمكن أن تدعو رجلاً بصراحة لزيارتها بعد اللقاء الأول، وقد لا تفعل ذلك حتى بعد اللقاء الثانى والثالث. إذ لن يتعدى حديثها، فى حالة إعجابها بالرجل، أن تقول له - وهى تبين مشاعرها بصورة خفية: "ليس هناك من يرد الضيوف، بإمكانك المجئ". وفى اليوم المرسوم يأخذ الرجل حرابه ويسافر إليها مهما كانت المسافة، ومهما كانت حالة الطقس. وكلما كانت مشاق الطريق كثيرة، كان ذلك دليلاً على صدق نواياه، وكانت النتيجة المرجوة أفضل. لذلك تجد كثيراً من الرجال الشبان يقطعون المسافات البعيدة فى ظلام الليالى المطرة، عندما يكون الدرب الضيق مرئياً مع ومضات البرق الخاطفة فقط، بينما يجعله زئير الأسود والفهود وصرخات الضباع والكلاب المتوحشة أكثر خطورة ووحشة. عند الوصول. وإذا كان الناس لم يخلدوا للنوم بعد، وسمحت لهم حالة الطقس بالجلوس فى الخارج فإن الرجل يتوقف على بعد حوالى المائة ياردة ويتأكد من رؤية الناس له. وفى الحالات التى لا يراه فيها أحد أو إذا كان الناس داخل الأكواخ، فإنه يسعل أو يصدر أصواتاً أخرى، قائلاً: "هناك رجل يقف هنا". وهى جملة تواضع الناس على أنها تعنى أن الزائر يقصد فتاة، وهى المصدر للكلمة "كوت" التى تطلق على زيارات الحب (وتعنى حرفياً يسجل زيارة). وفى العادة لا تجيب الفتاة التى يقصدها الرجل بل يُرسل إليه صبى أو فتاة أخرى، تبعاً لوقت الزيارة فى الليل وأمن المكان، وهو الذى يحمل الرسالة المنتظرة. أحياناً عندما تكون الفتاة قد قررت عدم رؤيته لسبب أو لآخر، فإنه يُطلب من الشخص الذى يقابله أن يقول له أنها مريضة، أو مسافرة أو غير موجودة. ولكن عادة تذهب إليه الفتاة بنفسها وتقدم له ما رأت أنها أسباب مناسبة فى تلك الظروف.

ويمكن أن يُرد أحد المحبين بسبب تضارب الزيارات، وهو ما قد يحدث بسبب كياسة الفتاة ورغبتها فى أن يكون لها محبون عديدون، كما يمكن أن يكون ذلك بسبب عدم الدقة فى تحديد المواعيد. وإذا رغبت الفتاة فى إبقاء الخطيب، فقد تسأله أن ينتظر حتى تقوم هى بإبعاد الزوار الآخرين، معتذرة فى أحايين كثيرة بالجملة المبهمة: "إن جسمى ثقيل". والتى قد تعنى أى شىء بدءًا من المرض حتى الحيض.

وفى الحالات التى يتم فيها قبول الزيارة يجلس المحبان فى مكان بعيد عن بيتها. وهما يجلسان عادة على الأرض، ولكن الفتاة قد تُحضر معها أحياناً شيئاً يفترشانه ليجلسا فوقه. وهو الأرجح إذا كانا سيقضيان الليل داخل كوخ، سواء كان ذلك للضرورة، كما فى حالات الطقس السيىء، أم لأنهما يرغبان فى حميمية أكثر: وتقتضى الحالة الأولى أحاديث فى أوضاع الجلوس، بينما تعنى الأخيرة النوم معاً من غير أن يؤدى ذلك لاتصال جنسى بالضرورة. وهذه المرحلة الأخيرة هى التى يسميها الدينكا "الينق" (أى المحادثة).

واللغة التى يستخدمها الدينكا فى المطارحات الغرامية تنحو نحو التعبيرات الفلسفية التى تكاد تصل إلى حد الشاعرية، وتمتلئ بالأمثال والحكايا الرمزية. فقد يجلس أو يستلقى شاب وفتاة، وهما مستيقظان طوال الليل، ويتلذذان بتبادل استعراض مهاراتهما فى الحديث، حتى لو لم تكن هناك ابعاد جسدية اطلاقاً أو قليلة. وقد يكفى المظهر الجسدى للرجل لجذب فتاة، غير أن المهارات الكلامية تظل ملكة لها شعبية كبيرة. وبالطبع فإن الرجال يتميزون على غيرهم فى هذه الخاصية، وهناك طلب شديد عليهم كرفاق فى الحب. والمطارحات الغرامية لدى الدينكا تكاد تكون مسألة جماعية بنفس القدر الذى تكون فيه فردية. لذلك نجد أن الأصدقاء والأقارب يسجلون الزيارات بصفة جماعية أو فردية ويتحدثون نيابة عن رجلهم سواء كان موجوداً أم غائبا. بل إن مجرد زيارة صديق أو قريب لذلك المحب تعنى تمثيلاً لمصالحه، وليس من الضرورة أن يدور الحديث حوله، رغم أنه يكون كذلك فى هذه او تلك من لحظات الزيارة.

وبصفة عامة يدل اشتراك المجموعة فى هذه المسائل على الجدية والرغبة فى الزواج. فهى تُظهر للفتاة علاقات الرجل وضماناته الاجتماعية. كذلك فإن مساعدة الأقارب والأصدقاء تمثل حماية للمرء فى مواجهة المنافسين له الذين قد يبارونه أو قد يلجأون لإشانة سمعته بالنميمة أو الأغانى، فى مجتمع الدينكا الذى يترك الفتيات لكى يتنافس عليهن الأزواج بصورة علنية. لذلك كلما اتسعت دائرة المعارف والأصدقاء قلت فرص النميمة أو آثارها على الشخص المعنى.

وسواء ذهب الرجل لزيارة صديقته بصحبة أقاربه وأصدقائه أم ذهب هؤلاء بدونه، فإنه يتم إعلام الفتاة، ويُطلب منها دعوة صديقاتها بما فى ذلك قريباتها

لحضور الزيارة. ويترتب على ذلك لقاء غرامي جماعي يمكن أن يتم في الخارج ولكنه يعقد في العادة داخل أحد الأكواخ. ونتيجة لهذا التلطف الإضافي الذي تهيأ، فإنه لا يُطلب من الفتيات الاختيار، بدلاً من ذلك، وفي حالة غياب الرجل، يهتم أقرب أقربائه أو أصدقائه بصديقته وقد يشاركها حصيرها إذا ماقررت المجموعة أن تستلقي، بينما ينهمك الباقون مع الفتيات الأخريات اللائي يكونون قد أقاموا معهن بعض العلاقات في سياق المحادثة التي دارت حتى ذلك الوقت. وعلى الرغم من المداعبات والمعابثات التي تحدث في مثل هذه المناسبات، إلا أن الغرض منها لا يتضمن العلاقات الجسدية. ومع ذلك فإن علاقات حميمة قد تتولد عنها، يمكن أن تفضي فيما بعد إلى زيجات إضافية. أما الغرض المباشر للزيارة فيظل هو كسب الفتاة لرجلهم. وفي معظم الأحيان تتظاهر الفتاة برفض الرجل، حتى لو كان هو الرجل الذي أحبته بحق، أو مالت اليه – وهما مدلولان، لا يملك الدينكا لهما كلمات منفصلة. في المرحلة الأخيرة تُطرح المسألة بصورة مكشوفة للنقاش بواسطة ممثلي حلقات أنداد الجانبين. وحتى في الحالات التي يكون معروفاً فيها أن الفتاة في حالة حب مع الرجل يظل هذا الاجتماع أمراً ضرورياً. حيث يقوم الرجال بصفة رسمية بطلب محبة الفتاة، وتقوم الفتيات المصاحبات، لهاباعتبار أن قرارها يعتمد نظرياً، على رأي مجموعتها، بالموافقة رسمياً بعد بعض النقاش وتبادل الآراء. وقد تقوم فتاة ليس لديها رغبة في رجل ما، بدافع التأدب والتلطف، بدعوة فتيات معجبات بهذا الرجل وعلى استعداد لذلك للوقوف معه في دعواه. وفي المقابل لن تقوم فتاة لديها رغبة في رجل معين بدعوة فتيات تعلم أنهن سيعترضن على الرجل الذي تحبه. ولكن في كل الأحوال إذا لم تكن الفتاة تهتم بالرجل بحق، ما كان لمثل هذا الاجتماع أن ينعقد بداية. من هنا فإن هذه الحوارات والمداولات الجماعية، هي في الواقع مسألة مراسمية، في حالات الحب المتبادل – أو على الأقل في الحالات التي لا يكون فيها اعتراض حقيقي من جانب الفتاة. وحالما يقبل الأنداد، تعلن الفتاة موافقتها، أحياناً ببعض التحفظ الذي يستدعي المزيد من الإلحاح عليها من جانب مجموعتها. ولكن لا يعدو أن يكون كل هذا تظاهراً بغير الحقيقة في معظم الحالات، إذ إن الأرجح هو أن فتاة الدينكا سوف تستجيب لدعوته

الغرامية كما انها سوف تقبل به زوجاً، وذلك ما لم تكن شديدة النفور منه، أو مستغرقة في حب اخر غيره.

ونسبة لاعتزاز الدينكا بأنفسهم وحساسيتهم المفرطة، مصحوبة بحرية التعبير الواسعة، التي تتيحها لهم الأغاني، فإن رفض أحدهم يستدعي أقسى انواع السباب:–

لا أدري ماذا حدث لي،
لم خدعتني الفتاة في البداية،
ثم عادت وقالت "لم احبك أبداً
لو جئتَ لزيارة مساكننا،
فانت لم تأت لزيارتي،
فقط ستجعلني أدعو أمي".
هل من الممكن أن التقط حرابي لأزور أمك؟
ما مصير المديح الذي مدحتك به كطفلة،
"حبيبتي وفتاتي، اغسلي هذا الإناء لي،
حبيبة قلبي ستجلب الأبقار".
هل أبداً جاءت بقرة وحدها
ودخلت كوخ الأبقار
في غياب فتاة تتحدث إلى رجل،
عندما تتكلم الفتاة بمثل هذه الكلمات القاسية،
ينتهي الحب نهاية مريرة.
وأظل واقفاً، مندهشاً،
يا لها من كلمات قالتها هذه الفتاة!
حتى لو فكرت في دعوة أمك،
فإن أمك لم تشاجر أمي يوماً،
ولم يشاجر أبوك أبي يوماً،
فهم لم يتقابلوا في اماكن الشرب،
حتى تستفزهم النكات
ياللكلمات المقذعة، رددتها الفتاة

لأن قلبها ممتلئ كراهية مثل عشيرتنا

"باجوك"

لا، بل إن باجوك ممتلئة غيرة منها.

وعلى الرغم من أن التهذيب والتأدب مع الرجال فضيلة فى حد ذاته، إلا أن الخشية من إشانة السمعة فى الأغانى، تمثل عاملاً آخر فى الطريقة التى تستجيب بها الفتاة لصداقات الرجال. من هنا فإن المعادلة جد دقيقة بالنسبة لفتاة وصلت علاقتها مراحل حميمية مع أكثر من رجل واحد، إذ إنها تصبح معرضة للحكم عليها بالإباحية مما يؤدى إلى إزدرائها والتشنيع بها فى الأغانى:

"نيانكير" يابنت الأحمر الأنقط،
ماهذه الإباحية التي جمعت،
ليتك تكبرين عانساً .
مزق الرجال أسفلك.

وهذا هو ما يؤكد ويقوى قيم الانضباط الجنسى فى علاقات الحب. كذلك يدلل استخدام الدينكا لكلمة "المحادثة" لتلك المرحلة فى علاقة الحب، عندما يتشارك الرجل وفتاته فراشاً واحداً، إلا أن التركيز هو على العلاقة الكلامية، وذلك برغم أن المعانى التى أحاطت باستعمالها تتضمن أكثر من مجرد الكلام. وهذا هو السبب فى اعتراض الأقارب، عادة، على مشاركة بنتهم للفراش مع رجل برغم الاعتراف بهذه الممارسة فى الحالات العادية، كجزء مقبول من علاقة الصداقة الحميمية، وذلك إذا ما كانت نوايا الرجل غير شريفة، أو إذا كان شديد الفقر بحيث لا يستطيع دفع المهر الذى يتوقعونه لفتاتهم، أو فيما عدا ذلك لأى اعتراض آخر عليه كمنافس فى الزواج بها. وفى المقاطع التالية قصة رجل اعترض أقارب الفتاة على علاقته الغرامية معها وقاموا بضربه ليلاً عندما كان نائما مع الفتاة فى أحد الأكواخ. لن اعد باننى لن ازور ارضكم ابداً ساواصل المشاركة فى الرقص لن اعد بانني لن ازور ارضكم ابدا اما عن مغازلة الفتيات فلم أعُد ادرى ساقبال فتيات من قبائل أخرى ولكننى لن

اغازلهن مرة أخرى فانا رجل لقن درسا.

وإذا حاول رجل أن يستغل فرصة وجوده لمحاولة فتاة على الفراش لمحاولة اجبارها على ممارسة الجنس معه فإن الفتاة قد تصرخ لطلب النجدة أو أن تقوم بالدفاع عن نفسها. وفى القصيدة التالية ذهب المغنى (دينق) خطيب (اكوك) للنوم معها فى كوخ ولصحبتها قريبتها (اجوك) وعندما حاول (دينق) اجبار (اكول) على ممارسة الجنس لمساعدتها وقامت الاخيرة بالضغط على خصيته مما الحق به اذى جسيماً:-

كنا ثلاثة فى الكوخ،
"اجوك" اكول" وشخصى.
فقد قبلونى داخل الكوخ،
كانت لى حرابى،
وكانت لى عصاى.
فذهبت ورقدت فى سكون،
استلقيت فى سكون.
وعندما حضر القلب الشرير،
خاطبنى :" لماذا ترقد قرب الأكل؟
منذ قديم الزمان، ينام رجال الدينكا فى الأكواخ المشتركة،
ولكنهم يتحركون،
فتحرك أنت"
ولكن عندما بدات الحركة،
أجوك أروب
"يا أجوك الذى لأمى الحق،
ياأجوك الذى لأمى الحقنى"
أجوك أروب
وقبضتنى فى موضع اكرهه حتى اليوم،
أمسكت بخصيتى،
ثم جذبتنى كجوز الهند،

وعصرتنى كثمر ناضج،
كما لو كنت شاة تحلب،
حلبتنى أجوك مثل البقرة.

ويمكن أن تقوم الفتاة نفسها بتأليف أغنية عن مثل هذه الحادثة. وقد كسر المغنى فى الأغنية التالية سناً فى معركة مع رجل تخطى حدوده.

فى عشيرة أبى،
فى عشيرة أبى، "أجاك"
لم يتركونى أذهب للمعسكر،
لكى أصبح شخصاً يبحث عن رجل.
لا، فأنا لا أحس نفسى وضيعاً،
أثار ذلك المجهول عراكا بيننا.
ولما عرضت عليه بقرة لإرضائه،
دفع البقرة جانباً،
وأراد الفتاة الخفية.
صارت أرضنا مكاناً يجب أن تحرس فيه أفخاذك،
كما يفعل رجل يحرس حبوباً من الطيور.
أولئك الرجال الشبان يهاجمون أفخاذنا،
يعتدون علينا ويكسرون أسناننا،
ونحن متورطون فى على أكواخنا الصغيرة
فهم يمنعوننا النوم.

ولكن برغم كل هذه القيود والتحفظات لا يبدى الدينكا اعتراضاً شديداً إلا على العلاقات الجنسية التى تفضى إلى الحمل قبل الزواج، وخاصة إذا لم يكن الجانبان قد دخلا فى علاقة خطوبة رسمية. وترجع أسباب هذا الاعتراض الشديد إلى أن الحمل والتجاوزات الخطيرة الأخرى مثل الفرار مع العشيقة والاختطاف تؤذى وتضر بفرص الفتاة فى الزواج والحياة الأسرية المستقرة. ولكنها فى المقابل قد تُتخذ، أحياناً، وسيلة من المحبين

الشباب لكى يجعلوا ارتباطاً يعترض عليه أو يعرقله من هم أكبر منهم سناً ممكناً. وما هو جدير بالذكر هنا أنه فى الوقت الذى ينخرط فيه شباب الدينكا فى مطارحات غرامية مكثفة سعياً وراء علاقات حب تربط بين ذكوره وإناثه، إلا أن موافقة الكبار هى الإجراء الوحيد الذى يعتمده العرف، وهذا هو ما جعل مشاورة الجهات المعنية بالأمر مباشرة مسألة تتعلق بالاعتبارات العملية وليس بمتطلبات العرف الاجتماعى. يمكن القول، تبعاً لذلك، بأن هناك هوة بين دور الشباب وتطلعاته وبين دور الكبار فى مجتمع الدينكا. ولكننا نكون بذلك قد وصلنا إلى نقطة تقاطع تتشابك فيها الأدوار بصورة شديدة وتتقيد أو على الأقل تتكيف بالدور المتفوق للكبار، بحيث يكون من المناسب أن يتم تناول هذه المسألة متصلاً بمرحلة الرجولة.

الفصل السابع

سن البلوغ

الزواج

على الرغم من أن التدشين يمثل خطوة حاسمة فى التراتب العمرى، إلا أن الزواج هو الوضع الاجتماعى الضرورى لكى يكون المرء رجلاً متملكاً لحقوق قانونية كاملة. فهو البداية للاستقلال عن الأسرة وللشروع فى تأسيس سلالة جديدة. صحيح أن علاقات الغزل والحب وسط شباب الدينكا ليست مرتبطة دائما وموجهة نحو الزواج - بل يُنظر إليه كأمر معيب أن يتسرع الرجل فى إعلان نواياه للزواج كوسيلة لكسب ود فتاة - ولكن مع ذلك يظل الزواج هو حلم كل دينكاوى.

هناك أسباب عديدة لكى يكون للزواج هذا الوضع المتميز فى مجتمع الدينكا. أحد هذه الأسباب هو الرغبة فى تأسيس علاقة رجل - امرأة معتمدة اجتماعياً:-

يسألنى الناس، "هل تكره النساء؟"
يا إلهى، إننى أعشقهن،
كيف لى أن أكره هذه الكائنات النبيلة
هذا الشىء الجميل المسمى "المرأة"؟
من الذى سيلمس أمامك،
ثم يسألك :" أهناك خطأ ما"
وبمكر أُجيب:

"نعم ذاتى، فلى شكوكى".

* * *

يا لأيام الزواج السعيدة،
عندما يتجاذب الكبار الحديث عن أشياء صغيرة،
ثم تمسك المرأة بزوجها،
وتقول: "يا أبا هذا وهذا"،
عندها سأجيب: "نعم ، نعم،
أجيب وأنا أضع حرابى بعيداً،
أضعها بعيداً بعد رحلة بعيدة
"أكير" إننى إفعل ذلك بلا كلمات.

ومن بين الدوافع للزواج الرغبة فى خدمات الزوجة. وهو ما يُنظر إليه أحياناً للتخفيف عن الأم المسنة:-

لا تخف عنى الحقيقة يا أبى.
فالمسألة ليست أننى صرت كبيراً،
بل هى تعاسة "الويل ياك"
فهى تعافر بالمطحن وبالمدق،
وتجرجر بدنها الأحدب لإحضار الماء من النهر،
ثم تأتى لتعد الطعام،
بينا لا تفعل ذلك نديداتها..

والزواج يعنى ضمناً خسارة فى الأبقار التى تذهب كمهر للزواج ولكنه أيضاً وسيلة لاكتساب الأبقار واستثمار فى إنتظار الذرية من الإناث. لذلك تجد أن الناس يساعدون العريس على إكمال زواجه على أمل أن يلد بناتاً يتزوجن ويعوضنهم أو يعوضن أبناءهم بأبقار أكثر مما دفعوا هم لأبيهن. والمغنى الذى ينظر لزواجه بوصفه اصطياداً لفيل ولبناته المستقبليات باعتبارهن أسنان هذا الفيل، يحذر بصورة مجازية أقرباءه غير المتعاونين بألا يتوقعوا نصيباً فى مهور بناته إن لم يساعدوه الآن:-

لا يجوز أن نترك ابن رجل وحده
ليصارع الناس وحيداً،

كفحل الجاموس الأسود..
الآن أبى قد مات،
وأنا أعمى عن الحق.
أرجوكم قولوا لى فى الحال.
أخبرونى بالحقيقة...
حتى أقف فى وجه الفيل
لأخوض معركتى وحيداً مع الفيل
لكنه إن سقط يوما ما،
فانسوا الناب،
لاتسألوا عن سن الفيل.

ويتقدم إنجاب الذرية كل أهداف الزواج الأخرى، وهو بوصفه وسيلة لقيم أخرى يتخلل كل مسارات النظام الاجتماعى. ويخلق شبكة من القيم والمؤسسات يتوجها الهدف الأسمى فى الخلود عبر الأبناء، وخاصة الذكور. وبنفس القدر الذى يأخذ فيه الخلود وضعه كمفهوم سلالى يتصل بالتالى بمصالح المجموعة، كذلك الزواج وكل ما يترتب عليه، فهو ذو وجهة جماعية مثلما تحركه دوافع فردية. وهنا تبرز ثنائية حادة بين الأدوار المتتالية للشباب المقدم على الزواج وكبارهم الذين يشرفون على إجراءاته. إذ يهتم الشاب وأنداده بكسب مودة الفتاة وحبها، بينما تقع على الكبار مهمة إقناع أولياء أمورها وضمان موافقتهم، والاحتفال بالزواج وفق المراسم المعهودة. ولا ينفصل هذان الدوران عن بعضهما البعض تماماً، بل يتطابقان أحياناً، ويكملان بعضهما البعض دائماً.

والخطوة الأولى التى يقوم بها الكبار هى "مشاهدة" الفتاة. وهو ما يعنى، فى العادة، أن الرجل، بعد فترة من الصداقة مع الفتاة، قرر الاقتران بها وطلب مشورة أقاربه. وتكون هذه العملية فى أحايين كثيرة موضوعاً لأغانى تطهيرية، يطلب فيها الرجال الشبان من كبارهم تفويضهم للبحث عن عرائس، أو الموافقة على زيجات اقترحوها عليهم. وبينما يشجع بعض الآباء أبناءهم على الزواج يسوق آخرون كثيرون اعذاراً يمكن ان تؤدى إلى تأجيل زواج أبنائهم حتى يبلغوا أعماراً لا يمكن معها تأخيره أكثر من ذلك. وأكثر هذه الأعذار شيوعاً هو قلة الأبقار والحاجة لجمع ثروة إضافية.

بعد أن تقرر الأسرة أن الوقت فعلاً قد حان لكى يتزوج ابنهم، يبادر

الأقارب للذهاب لمشاهدة الفتاة. وعادة ما يُترك اختيار الزوجة الأولى لابن الزوجة الأولى للأب، أو لواحد من أعمامه الكبار، ولكن يمكن لأى عضو فى الأسرة أن يقدم اقتراحاته بخصوص أية زوجة. فى الوقت نفسه يجب عمل ما يمكن للحد من تأثير والدة الشاب الراغب فى الزواج وأخواته، كجزء من المساعى العامة لكبح مشاعر الغيرة لديهن.

ولكن أيًا كان المبادر باقتراح الزوجة، فإنه لابد من موافقة الأعضاء المهمين فى الأسرة وعلى رأسهم الأب. وتقع المسئولية فى العادة على الأب الحقيقى لمتابعة الإجراءات، ولكن قد يتم تفويض قريب آخر- عادة أحد الأعمام- ليصبح أباً للعريس ويُكلف بالإعداد للزواج. وقد يكون الأب ميتاً، ولكن العم يباشر هذه المسئولية باعتبارها وسيلة للتعبير عن عرى التضامن الأسرى وتقويتها.

ويمكن أن يكون لاعتراض الابن على اقتراح معين ما يستحقه من الوزن إذا كان الاقتراح مقدماً من أشخاص آخرين ليس من بينهم أبوه أو أعضاء الأسرة الأساسيون الآخرون. ذلك أن موافقة الابن هى مسألة توفيقية وليست شرطاً قانونياً. من هنا فإن بوسع الأب أن يمضى فى تكملة إجراءات الزواج مهما كان موقف ابنه، أو قد يختار أن يمتنع عن الإيفاء بالمتطلبات المالية للزواج. وبما أن الابن لا يملك ثروة مستقلة فإن قراراً مثل هذا يمثل كارثة لا يجلبها على نفسه إلا أحمق سفيه. ويندر أن يغير الأب موقفه حول فتاة يرغب أن يقترن بها ابنه، الأبناء هم الذين يوائمون مواقفهم بصورة تكاد تكون دائمة، إما بدوافع البر بالأب، أو خضوعاً لمشيئته.

طوال فترة المشاورات يقوم الأقارب بتحرى واستقصاء أى علاقة يمكن أن تكون حاجزاً أمام هذه الزيجة: ذلك أن علاقات الدم تكاد تكون حاجزاً كاملاً، كذلك تحظر الألفة الزوجية الاقتران بين دائرة واسعة من النسباء، وتخلق صلة الرضاعة حاجزاً يمنع الزواج بين الطفل والمرأة التى أرضعته ونسلها، كذلك تحظر الندية العمرية وعهود الصداقة الخاصة التزاوج بين أبناء الأنداد أو نسل الأصدقاء إلا بعد إجراء مراسم طقسية معينة. ويحرم تماماً التزاوج بين المجموعات المتصارعة.

تجلب مخالفة هذه القواعد اللعنة على المرأة وعلى الأبناء، وتتسبب فى مرض جلدى يسمى "أكييث" أو قد تؤدى للموت. وتحل اللعنة نتيجة لأى اتصال جنسى بين المحظورين وليس بسبب الزواج فقط. غير أنه فى حالة

الاعتراف بها أو تشخيصها بواسطة الكهنة، يصبح ممكناً دفعها عبر طقس يُقطع فيه خروف إلى نصفين ترميزاً لفسخ العلاقة بين مرتكبيها وقت فعلها، ولا يعطى ذلك مبرراً لارتكابها مستقبلاً.

على مستوى المواقف الاجتماعية بأحكامها المسبقة، فى مقابل المتطلبات القانونية، يمكن أن يعترض الأقارب على الزواج لأسباب تتعلق بالسحر الأسود أو العين الشريرة، أو بأمراض قاتلة مثل داء الجذام والسل (التى يعتبرها الدينكا أمراضاً وراثية). كذلك يُنظر للزواج من غير الدينكا باحتقار شديد، برغم ندرة حدوثه. ولكنه إذ حدث فإنه يُعتبر زواجا من مرتبة وضيعة.

بمجرد موافقة الأسرة على المقترح، يتم إبلاغ أقارب الفتاة، الذين عادة ما يكونون قد سمعوا إشاعات فى هذه الصدد، بزيارة مرتقبة تنوى الأسرة القيام بها إليهم. وبعد تحديد موعد الزيارة يقوم الأقارب بالإعداد لاستقبال "الرسل" كما يسمى الدينكا هؤلاء الزوار الأوائل. فى اليوم المحدد يقوم أقارب الرجل بتزيين عدد من الثيران بالذؤابات والأجراس ثم تقاد هذه الثيران، بالإضافة إلى عدد من الأبقار، بواسطة رجال شبان فى صحبة متحدثين كبار إلى مكان إقامة العروس. ويصل الرجال الشبان وهم يغنون أغانى الثيران وأناشيد الحرب، حيث تستقبلهم النساء وهن يغنين وحدهن أو فى مصاحبة الرجال. ويتراكض الجميع هنا وهناك وهم يقفزون ويهبطون فى ذلك الرقص التمثيلى المسمى "قوور". وبالطبع يكون قد تم إعداد الجعة وذبح الذبائح وتجهيز كميات كبيرة من الطعام. أحياناً لا يتعدى عدد الزوار بضعة أشخاص، إلا أن الاحتفال البذخى يُعتبر جزءاً مكملاً لشرف المناسبة. ويتم ربط الأبقار والاعتناء الشديد بها كعلامة على الاحترام، بغض النظر عمّا ينوى الأقارب فعله إزاء طلب الزوار.

بعد ذلك يبدأ الاجتماع الذى يجلس فيه الكبار من كلا الجانبين لمناقشة المسألة. ويُعتبر هذا الاجتماع مناسبة مهيبة، تتطلب، مثلها فى ذلك مثل كل مفاوضات الزواج، قدرات عالية فى الخطابة والإقناع. ويبدأ المتحدث باسم الزوار المفاوضات ذاكراً شيئاً من قبيل "إننى أحمل أكذوبة فى قلبى". إذا كانت هناك ممارسة مستحيلة بالنسبة للدينكا، فهى "الكذب" ومثله الأخطاء فى الحكم، ولكن فى كلتا الحالتين لا يكون المرء كذاباً بالمعنى الوضيع لهذه الكلمة. لقد أراد أقارب الرجل عندما وصفوا هدفهم بأنه "أكذوبة" ترك مجال لفشل مسعاهم. ويُعتبر هذا الخط التفاوضى إستراتيجية فى التواضع تعكس،

من جانب، أخلاقاً عالية، وتتيح، فى نفس الوقت، طريقة حاذقة لكبح التطلعات المادية لعشيرة العروس فى مهر عال. ليس هناك الكثير الذى يُقال بعد ذلك وما لم يكن أقرباء العروس مصممين على معارضة الفكرة، فإنهم على الأرجح سيقولون شيئاً مثل: "ليس لدينا ما نقوله الآن، والضيوف لا يُردون، يمكنك أن تتقدم بالكلمات التى يحملها قلبك، وسنراقب نحن". والفكرة هى أن يُظهر الزوار جديتهم من خلال القيمة المادية التى سيدفعونها للخطوبة، ويمكن بناءً عليها تقدير الجملة الكلية للأبقار التى سيقومون بدفعها فى الزواج. بجانب ذلك يمكن أن يتدخل المنافسون فى أية لحظة، لذا فإنه من الأفضل عدم الالتزام بشىء حتى تصبح العلاقات فى وضع أكثر استقراراً.

قد يكون هناك اعتراض على مجمل الفكرة. إذ يمكن أن يكون أقارب الفتاة على علم بحاجز يمنع هذا الزواج ولا يكون أقارب الرجل على علم به، أو أنهم قد يكونون مضمرين لعداء قديم نسيه الآخرون أو قللوا من شأنه، أو قد يعترضون على الزواج لأسباب تتعلق بالعين الشريرة أو أمراض فتاكة فى جانب الرجل، وجميعها أسباب مستنكرة بدرجة تجعل من الأفضل الإيحاء بها، ولا يتم التصريح بها إلا نادراً، وما لم يكن اعتراض الأقارب اعتراضاً جاداً، يقوم أحد كبارهم المهمين بقبول الأبقار والاحتفاظ بها حتى اتخاذ القرار النهائى. والدينكا يرون أن المرء يجب ألا يجزع فى مثل هذه المواقف، فالمثابرة تمثل، بالنسبة لهم، جزءاً من العلاقة سواء مع الفتاة أو مع أقاربها. ولا تشكل الإعتراضات الثانوية هاجساً كبيراً، غير أنه لابد من "تجاوزها" بالأحاديث الدبلوماسية وهدايا الترضية.

وتكون الخطوة التى تلى قبول العرض بالتفاوض حول الزواج هى دفع أبقار الخطوبة، والتى يُترك تحديد عددها فى العادة لأقرباء الرجل. وبذلك تكتمل الخطوبة ويُعتبر الرجل والمرأة بعدها متزوجين، ويُشار إليهما كزوج وزوجة، وإلى عشيرتيهما كنسباء. ذلك أن الخطوبة، لدى الدينكا هى مرحلة فى الزواج، وليست مجرد موافقة على الزواج. وتترتب عليها حقوق وواجبات لا تتساوى مع تلك الخاصة بالزواج، ولكنها تحتسبُ زواجاً مكتملاً. فهى لا تبيح العلاقات الجنسية بين الزوجين، ولكنها تسمح باختلاط حر وخاص لا يصبح جرماً إذا ما تجاوز حدوده وأدى إلى اتصال جنسى أو حتى حمل. وإذا طارح شخص ثالث فتاة مخطوبة، فإن ذلك يمثل جرماً، على الأقل وسط دينكا نقوك، وإذا وصل ذلك إلى حد الاتصال الجنسى بها، فإنه يكون قد

"زنى"، مما يستدعى التعويض، وفى أيامنا هذه، السجن. كما أن الأطفال الذين يولدون نتيجة لهذه العلاقة هم أبناء "البقر" أى "الزوج".

فى الحالات التى يظهر فيها منافسون أخرون، تحفظ أبقار المتنافسين بصورة منفصلة لدى أقارب مختلفين. وفى كل مرة يزيد فيها أحد المتنافسين أبقاره، يجب إخطار الآخرين، وإعطاؤهم الفرصة الكافية لزيادة أبقارهم. غير أن مخالطة ومطارحة الفتاة تظل مفتوحة لأول المتقدمين فقط. ويظل محتفظاً بحقوقه كخطيب منفرد حتى هزيمته وخروجه من المنافسة، أما الآخرون فيبقون فى مرتبة الفريق الثالث.

وباستثناء حالات التنافس التى تتحدد فيها قيمة المهر بنتيجة المنافسة، فإن الخطوة الهامة التالية فى المراسم هى "إحصاء تكلفة الزواج" والتى يتم فيها الاتفاق على المهر. فى هذه المناسبة يشارك عامة الناس بحماس فى الوساطة بين الجانبين، وفى الاحتفالات والرقصات التى تقام احتفاءً بها. إذ إنها المناسبة التى تشهد أكثر الاحتفالات وحلقات الرقص والولائم من بين مراسم الزواج كافة. وعلى الرغم من أن ممثلى الجانبين يستمرون فى إظهار أجل ايات الاحترام لبعضهم البعض، إلا أن هذه المرحلة هى أيضاً من بين أكثر الجوانب التجارية فى حياة الدينكا: فبينما تسعى عشيرة الفتاة إلى الحصول على أكبر المكاسب، يحاول الجانب الآخر دفع أقل ما هو ممكن، هذا بينما تتواصل وساطات العامة لإيجاد نقطة الاتفاق الحرجة بين الجانبين (التى عادة ما يتم التوصل إليها بفعل الإجهاد أكثر منه بالاقتناع). وتشكل الرزانة والظرف واللباقة التى تدار بها هذه المفاوضات التجارية إضافة وليس انتقاصاً من واجب الاحترام والكياسة الذى ينتظره الدينكا ويطلبونه من أناس تربطهم علاقة النسب.

فى بعض الأحيان يُقام إحتفال بعد انتهاء مراسم "احصاء تكلفة الزواج" يُرمز به إلى رضاء الجانبين واتفاقهم، إلا أنه لا يدخل فى المستلزمات القانونية للزواج. فى هذا الاحتفال يتوقف الغناء والرقص الجماعى فى لحظة ما ليبدأ العروسان فى الغناء بالتناوب كأنهما فى أداء ثنائى، ولكن بكلمات مستقلة لا علاقة لها بمناسبة الزواج. ثم تقوم العروس بدهن العريس بعد ذلك، بينما يحل محلهما فى الغناء "وصيفة الشرف" و"أفضل الرجال" فى أداء ثنائى أيضاً.

والخطوة التالية هى دفع المهر الذى اتفق عليه، سواء قسط منه أو بأكمله.

ويتبع ذلك الوضعية العكسية التى تقارب ثلث المهر المتفق عليه، والتى يجب أن تدفعها عشيرة العروس إلى عشيرة العريس من أبقارهم الخاصة.

وتكون المرحلة الأخيرة هى "زفاف العروس إلى عريسها"، والتى قد تتبع دفع المهر بفترة قصيرة، إلا أنه من المعتاد أن تمضى عدة أشهر وأحياناً عدة سنين قبل أن تقوم العشيرة بزفاف الفتاة. فى هذه المناسبة تنتقل العروس بصحبة عدد من قريباتها إلى بيت الزوجية حيث تُقدم القرابين لأرواح الأسلاف مقرونة بذبائح أكثر لأغراض الاحتفال الذى يُقام بهذه المناسبة وذلك هو الوقت - أو بعده بقليل - الذى يُجرى فيه طقس "غسل فم العروس" حتى تتمكن من تناول الطعام فى بيت أقرباء زوجها.

وكما هو واضح من هذا العرض، فإن الكبار من الرجال هم الذين يقومون بالكثير من مراسم الزواج، بينما يقتصر دور الشباب على تمتين العلاقات البينية. هذا الفصل بين الأدوار كثيراً ما يعنى ضمنياً أن ما يفعله الكبار قد يتعارض مع نوايا المعنيين من الشباب . ولكى يتمكن هؤلاء الشباب من فرض إرادتهم، أو فى الحالات الأخرى، نقض ترتيبات توصل إليها الكبار، فإنهم كثيراً ما يلجأون إلى مخططات ضغط، مثل فرار العشيقين أو الحمل غير القانونى. وعلى الرغم من أن هذه المخططات قد تنجح فى إقامة الرابطة المرجوة، إلا أنها فى كثير من الأحايين تنتهى بانهيار وفسخ هذه الرابطة. وهناك حالات عديدة انتهى فيها شباب هربوا معاً وأنجبوا أطفالاً، إلى الانفصال عن بعضهم البعض، وحرمان احدهم، عادة الأب، من هؤلاء الأطفال.

لا أصدق يا "أجوك"

يا أجوك، يا من اخترتك وأنت طفلة مربوطة فى فوطة،
يا أجوك، يا من اخترتك قبل أن تعرفى الرقص،
يا أجوك، يا من اخترتك وأنت لم تكونى بعد جميلة القبيلة،
ثم عندما كبرت أخذك رجل آخر،

يا للتعاسة! يالها من طريقة لمعاملة رجل!
طعننى الإله بحربة والآن تطعننى "مارينق"
جعلتنى ابنة "كات أتيم" شخصاً تعيساً،
سأظل أبكى وأبكى لأجل "أجوك" ذات اللون الأسمر،

* * *
ما الذى أخذ أطفالى بعيداً عنى
ياطائر القبيلة "أوان"
ما الذى طار بأبنائى عبر البلاد.

غير أن هذا التحيز الشديد للقيم الأبوية، والذى يعطى الأطفال إلى زوج أمهم، يهزم أحياناً أهدافه نفسها، إذ برغم أن البنات اللائى يذهبن إلى أزواج أمهاتهن القانونيين يبقين وفيات لهم، يبحث معظم الأبناء الذكور، عندما يصيرون كباراً، عن آبائهم المعروفين وينضمون إليهم. وهو أمر مسموح به فى العادة. ولا يتنامى الاعتراض إلا إذا سعت فتاة إلى ترك أبيها بالتبنى، إذ إنها فى ذلك الوقت تكون قد صارت فتاة جاهزة لجذب مهر الزواج. وهو ما يكشف أمراً يدعو للاستغراب : هو أن القيمة النفعية للأبناء الذكور هى الأدنى برغم تفوقهم الظاهر. لكن هذه المسائل تتعدى موضوع الزواج إلى الأسرة.

الأســـــرة

باكتمال عملية زفاف الفتاة لزوجها يبدأ ظهور الفارق الشاسع بين رومانسية الحياة الغرامية من قبل، وأوضاع حياة المرأة المتزوجة. فبوصفها "زوجة ضيفة" تكون مركزاً للاهتمام الودود من جانب أنداد زوجها أو أبنائه، إن كان رجلاً كبيراً. حيث يتم تجريدها من حليها والممتلكات الأخرى التى تحصلت عليها من أسرتها، ولكن سريعاً ما يتم تزيينها بالخرز والملابس وأدوات التجميل الأخرى. هكذا يكون حالها فى الأسابيع الأولى لقدومها، ضيفة تُقدم لها الخدمات ولا تخدم هى أحداً، ولكن لن يمضى وقت طويل قبل أن تتسلم معظم الأعباء المنزلية، وتبدأ تدريجياً فى مواءمة نفسها مع الأوضاع المعتادة لامرأة متزوجة.

وأولى وأهم خطوات هذا الاندماج هى إنجاب طفل، إذ إن الأطفال يقدمون للأزواج هدفاً مشتركاً، ويمثلون ضماناً وكذلك تحقيقاً لمؤسسة الزواج - فالأطفال عندالدينكا هم مركز حب واهتمام الأسرة.

فى الأمسيات،
نجلس حول النار لنتحدث،

ومن بين زوجتى وبينى،
ينهض الصغير ليتمشى،
فتصيح زوجتى فى فزع،
"يا ابن أبى،
تعال إلى جنبى
سيقع الطفل فى النار"

وكلما طال عمر الزواج، وكثر وكبر الأبناء تعمقت وترسخت المودة بين الزوجين.

ويفرض تعدد الزوجات، وخاصة فى الأسر الكبيرة، الكثير من التعقيد على حياة هذه الأسر، إذ إنه يوفر تربة صالحة للغيرة والشقاق. وذلك برغم أن الأطفال يكونون مركزاً تدور حوله العلاقة بين الزوجين، فى الواقع يمكن أن يكون تعدد الزوجات عامل وحدة بنفس القدر الذى يمكن أن يكون فيه عامل شقاق. إذ إنه كلما زادت الأسباب المؤدية للتفرقة عظُمت الحاجة للوحدة والإئتلاف. خاصة أن التنافس على حب ومودة الزوج يعطيه وسيلة، برغم أن حسن استغلالها يتوقف على شخصيته ومقدراته، إلا أنه يمكن أن يوجهها لبناء وحدة وتضامن الأسرة من حوله. هذا وعلى الرغم من أن حقوق وواجبات الزوجية ليست متساوية إلا أنها متبادلة. فعلى الزوج أن يعتنى بزوجته ويبنى لها كوخاً، ويساعدها فى الإعتناء بحقلها، ويمدها بالأبقار للَّبن ويعطيها، فوق كل هذا، أطفالها. وعليها من جانبها أن تظهر له إخلاصها ووفاءها، وأن تحبه وتحترمه، وأن تعتنى عناية خاصة بصحته وغذائه، وأن تحب أطفاله، وتحترم أبناءه، وتبدى التجلة والتوقير لزوجاته الكبيرات. وفى الوقت الذى تكون فيه له وحده فيما يتصل بالعلاقة الجنسية، يجب عليها أن تفتح بيتها وقلبها لكل أبناء عشيرته وأصدقائه، تحقيقاً للمثل الذى يردده الدينكا: "الزوجة زوجة الجميع، إلا فى فراشها".

ولكن برغم هذه العلاقة التبادلية، إلا أن العقوبات أكثر ما تكون بعداً عن التساوى فى حالة إخفاق الزوج أو الزوجة فى مقابلة المتطلبات المنتظرة منهما. إذ تقتصر العقوبة الأساسية للرجل، بصفة عامة، على صورته كرجل. بالطبع يمكن أن تكون شكاوى زوجته، التى عبرت بأدب وفى إطار من السرية، مرشداً مفيداً له فى السلوك الذى اختاره، ولكن هذه الشكاوى غير ذات فائدة كمانع

لهذا السلوك. يمكنها أيضاً التحدث مع الذين يكبرونه، ولكن ذلك يعنى أنها قد ذهبت بالمسألة بعيداً، وقد لا تعود الأمور فى بيتها أبداً كما كانت عليه من قبل. فلا يبقى أمام المرأة الحصيفة، التى لا تسعى لخراب بيتها، إلا الصبر واحتمال الوضع أو استخدام ذلك النوع من فنون الإقناع النسائية، التى تستدرج الرجل إلى الالتزام برغباتها، وتترك له المجال فى نفس الوقت، للإحساس بأنه "السيد" بلا منازع ومن الممكن أن يكون أكثر ما يدعم هذا الاعتقاد لديه، لجوءها إلى عدله. غنى عن القول أن هناك "نساء ثيران" أولئك اللائى يتحكمن فى أزواجهن، ولكنهن استثناء. وتكتسب مثل هؤلاء النساء سمعة تصفهن بأنهن نساء فحلات"، بينما يُوصف أزواجهن، تلقائياً بأنهم" بقرات".

فى المقابل، وفى تعارض تام مع الوضع عند إخفاق الرجل، تواجه المرأة التى تنتهك أعراف الزوجية والأمومة عقوبات تتصاعد من العظة والتوبيخ إلى الضرب. إلا أن أكثر هذه العقوبات خطورة يتمثل فى الإعراض عن طعامها، والذى يعنى أيضاً هجر فراشها. وهذا يعنى حرمانها من الأطفال، وهو أمر لا يزيد عنه فى السوء إلا تطليقها.

وتعى نساء الدينكا هذا وغيره من أشكال التمييز ضدهن، ولكنهن عودن أنفسهن على قبولها باعتبارها جزءًا من وضعهن كنساء. مع ذلك فليس بمستغرب أن نجد امرأة تؤكد تساويها مع الرجال بقولها: "إن لى أعضاء امرأة، ولكن قلبى قلب رجل"، إذ يتطابق مفهوما القلب والعقل فى فكر الدينكا. هذه الصياغة تتضمن، على نحو ما، قبولاً بمنطق التمييز ضد المرأة. غير أن بعض النساء لا يقبلن هذا المنطق. لذلك نجد أنهن، فى الوقت الذى لايثُرن فيه على النظام الاجتماعى. إلا أنهن يسلكن طرقاً تقليدية من أجل إسماع أصواتهن. وعلى الرغم من أن الدينكا لا ينظرون إليها بوصفها ثورة على هذا النظام، إلا أنها فى الواقع أساليب تعبر عن الاحتجاج والمخالفة. على سبيل المثال تُصاب النساء بالمس، وفى هذه الحالة من اللاوعى والهذيان، يتفوهن بشكاويهن ويُقدمن طلبات تُنسب إلى أرواح الأسلاف. وعادة ما تتخذ الطلبات شكل هبات وقرابين من الأبقار. ولكن فى المقابل فإن المرأة التى تكثر إصابتها بالمس تكتسب سمعة تصفها بالابتذال، وتواجه خطر تجاهلها. لذلك نجد من النادر أن تصاب بهذا المس الزوجات، اللائى يكن فى العادة فى وضع متميز، أو فيما عداهن، أولئك المقربات من أزواجهن.

وهناك طريقة أخرى تلجأ إليها الزوجات الصغيرات، وغير المقربات منهن عادة، تتمثل فى عدم الإخلاص لبيت الزوجية. بصفة عامة تكون زوجات الدينكا عادة شديدات الإخلاص لأزواجهن، يشهد على ذلك ندرة حالات الاعتراف بالزنى، على الرغم من أنه يتم الإعتراف بها جميعاً تقريباً، لما يحمله الإخفاق فى الاعتراف بها من تهديد روحى ثقيل بالمرض والموت. والمغنية فى المقاطع التالية تُعبر عن الدرجة التى يمكن أن تذهب إليها امرأة فى عدم الإخلاص كأسلوب للاحتجاج على الظلم الواقع عليها، على الرغم من انفتاحها غير المعتاد بالنسبة لامرأة من الدينكا، والذى يعود إلى التطور الذى اكتسبته من حياتها فى المدينة:-

الموت لكل الناس،
الموت لكل أهل بلادنا.
فى تلهفهم على الحكم على الناس،
يهجمون على حالة شخص،
دون أن يعرفوا أسبابها
ما أسوأ زواج المرأة
عندما تكون عروساً،
يلاحقها كل الإعجاب،
وعندما تعيش،
وتنجب ابناً،
لكى يترعرع بين الرجال،
تلقى جانباً
حينئذ تخرج من كوخها،
لتبحث عن رجل آخر.
بالنسبة لها أمر حسن،
ولكنه للدينكا شر:
إنها امرأة تبحث عن الرجال.

عندما تصل الأمور إلى هذا الحد لا يعود من الممكن قصر التعامل معها فى نطاق الأسرة. ولكن فى الوقت الذى يكون فيه بوسع الزوج مقاضاة الغرباء بتهمة انتهاك حقوقه فى زوجته، نادراً ما تتمكن هى من إقحام العالم

الخارجى فى شئونها. إذ إن الزنى كجرم يعترف به القانون لا يرتكبه إلا رجل آخر ضد زوج المرأة غير المخلصة، ولا يكون أبداً جرماً لامرأة ضد حقوق زوجة الرجل المعنى. ويترتب على ذلك أن الذكر المشارك فى عملية الزنى هو الذى تقع عليه العقوبة، ويجب أن يدفع التعويض المقرر عن الزنى. ويُفسر الدينكا ذلك بأن الرجال عادة هم الذين يبادرون فى هذه المسائل، بينما تكون النساء فى الغالب ضحية لعدوانية الرجال الجنسية. ولكنهم يعترفون أيضاً بأن للنساء أساليبهن الخفية، وأحياناً المباشرة، لاستدراج الرجال. بعض الرجال ينقمون بشدة على هذا الوضع الذى يحملهم وحدهم النتائج القانونية المترتبة على الزنى، بينما تترك الشريكة الراغبة، وأحياناً المتسببة فى هذه المسألة، حرة لا يمسها سوء، بل وينتفع زوجها من الجُرم الذى حدث. وكثيراً ما يتم التصريح بهذه المشاعر – بطريق المبالغة – فى الأغانى. وتورد المقاطع التالية حكاية المغنى الذى اتهم وأُدين بتهمة الزنى، التى كانت، لو صدقنا ما يقوله، بمبادرة من المرأة عندما كانا يعبران النهر فوق قارب. وتسرد الأغنية فقط الوقائع التى حدثت فى القارب، ولاتتعداها إلى ما حصل بعد عبور النهر:-



(رجلان شابان يجدفان قاربا طويلاً (تفضلت بها حكومة السودان)

رأيت امرأة يصحبها رجلان،
قسماً بثور أبى البنى، يصحبها رجلان
كانا يسحبانها ناحية "التوك"
لما حاذيتهما،
نقلوا المرأة " لقاربى":
"من فضلك أنقلها عبر النهر،
إذ يبدو أنك ستعبره"
حسبت أنى أنقل أمًا لفتاة.
فواصلت التجديف.
ثم بدأت المرأة تبتسم،
وتعجبت، لأن المرأة نظرت فى عيونى،
وامتلأ وجهها بالبسمات،
تعجبت لأننا لم نذكر شيئاً قد يُبسط،
شيئاً قد يبعث على الضحك، حتى تستلقى على الأرض،
وتكشف عن نفسها،
وتفرد ساقيها،
وتُلقى بالتنورة على بعد.
ورقدت الظبية مكشوفة،
الظبية التى تدمى قلب الرجل،
لكنى لم أقبل.
ربطت على قلبى بقوة.
وواصلت التجديف.
رقدت هناك بساقين مفتوحتين
لكنى لم أقبل،
ربطت على قلبى بقوة،
وواصلت التجذيف.
ثم تجرأت وأمسكت بقرن القمر المحنى،
مسكت قرنى – قرنى قرن الجاموس.
ولما قلتُ: " ألا ترين أن المطر سيأتى؟"
ظلت تمسك قرنى.
أمسكت قرنى – قرنى قرن الجاموس.

أمسكت بالجاموس من قرنه.
ثم قالت: " من فضلك لا ترفضنى،
يا ابن عشيرة " إليك"
حاول، حتى أجد النوم، فى الليل
وأثناء اليوم.
لن أذكر شيئاً أبداً،
حاول،
لم أر رجلاً لثلاث سنين
لا يشاركنى رجل نومى.
حاول،
يا "نيب" يا كركى ذا عُرف، يا ابن الثعبان،
حاول
فقلت لها: " هل نحن تماسيح لنرقد فوق النهر،
هل نحن أسماك لنرقد فى الماء؟
هل صرنا سمكاً وضفادع؟"
وواصلت التجديف.
حتى عبرت نهر "لول".
فأنا رجل . . يجدف قاربه.
حتى يغطيه العرق بكامله.

على الرغم من أن الرجل يتحمل المسئولية القانونية، إلا أن قيم الدينكا تُلقى بالمسئولية الأخلاقية على المرأة وتعتبرها الأكثر فساداً. ولا يعنى تعويض زوجها أو إرضاؤه من جانب الزانى، بأن علاقتهما فى إطار الأسرة ستكون علاقة ودودة. بل غالباً ما يدفعه غضبه إلى التخلص من الأبقار التى حصل عليها كتعويض عن الواقعة فى زيجة جديدة، وهو فى كل الأحوال يمتنع عن شرب ألبان مثل هذه الأبقار أو أكل لحومها، أو تناول أى طعام تم الحصول عليه من ثمن بيعها.

وتظل العشيرة الأبوية للزوجة متابعة ومهتمة بشئونها طوال حياتها الزوجية، وهى تهرع للوقوف بجانبها كلما اقتضت الحاجة ذلك. وفى الحالات التى تخطئ فيها فى حق زوجها تسعى عشيرة الزوجة الأبوية لإرضائه بدفعية من الأبقار تسمى "أويك". فأما إذا كانت هى الشاكية فعادة ما تعتبر العشيرة

تلك مسألة أسرية. ولكن فى الحالات التى تتعرض فيها حقوق الزوجة لانتهاكات خطيرة، فإن عشيرتها تتدخل وقد ترفع الأمر إلى القضاء. فى بعض الحالات القصوى يمكن أن تنتهى النزاعات بين زوج وزوجته بالطلاق، سواء جاءت المبادرة من الرجل أو المرأة أو أقاربها. غير أن الطلاق، عند الدينكا هو أمر بغيض ونادر الحدوث بصورة عامة. وهو يمثل حتى من النواحى الاقتصادية فعلاً لا يرغب أحد فيه لما تطرحه شروط إرجاع مهر الزواج من تحديات وتعقيدات. فعندما يكون الزوج هو المخطئ لا يكون من حقه طلب إرجاع المهر إلا بعد زواج المرأة من جديد، وبعد أن يكون زوجها الجديد قادراً على تعويض الزوج السابق – وهو أمر غاية فى الصعوبة لأن الأبقار تكون قد تكاثرت حتى ذلك الوقت. أما فى الحالات التى يكون فيها الخطأ من جانب الزوجة أو أقربائها، فينتظر منهم أن يقوموا فى الحال بإرجاع ذات الأبقار التى دُفعت لهم، إذا كان ذلك ممكناً. وإذا كانت هذه الأبقار قد دخلت زيجات أخرى أو تم توزيعها بصورة ما فيجب اقتفاء أثرها وإرجاعها. هنا من الممكن أن تنهار زيجات أخرى، أحياناً، لأن الأبقار المخصصة لها قد تم سحبها من غير أن يتم استبدالها بغيرها. الحالة الوحيدة التى يمكن فيها قبول بديل لأبقار المهر ذاتها هى أن تكون تلك الأبقار قد غادرت البلاد إلى بلد آخر. ولكن حتى فى داخل القبيلة الواحدة فإن الحديث عن إرجاع الأبقار الأصلية هو مجرد مقولة، يصعب تنفيذها فى الواقع. لكل ذلك فإن من الأفضل دائماً تجنب موضوع الطلاق. وذلك هو ما يدفع حتى زوج المرأة الزانية لأن يقنع عادة بالتعويض، الذى تختلف قيمته من منطقة إلى أخرى، وتتأثر بما إذا كان قد ترتب عليه حمل أم لا. أما إذا كان للزيجة الحالية أطفال، فلا يجوز الطلاق، إلا فى الحالات القصوى التى يتكرر فيها هروب الزوجة مع رجل آخر.

وسأقتبس من الأغنية التالية بالتفصيل، لأنها تلقى الضوء على العديد من جوانب الطلاق عند الدينكا. من ذلك صلته بالذرية، وتداعياته العاطفية، والوصمة الاجتماعية المرتبطة به. وتورد الأغنية أن "أقوروت" تم طلاقها لأسباب تتعلق بتحميلها للمسئولية الأخلاقية عن موت أحد أبنائها. وهى تنكر، فى الأغنية هذا الاتهام، ولكنها تستطرد بأنها لابد أن تكون مسئولة على نحو ما، لأنها تأتى من عشيرة عادية بينما لا يموت الناس فى عشيرة زوجها إلا بفعل الكبر:-

أحوالنا مضطربة، أنا، ورجل البيت "ريالكول"
كاننا عصفور يطارده الصقر فى منزلنا
الشر الذى بهتونى به لم يحدث.
فى عشيرة "كول" لا يقتلُ الرجال إلا العُمر الطويل
حيرى تقف "أقوروت دى بيونق"،
حيرى تقف بنت ابن "الأبيض".
فتصرفات هذا الرجل الأعسر من "جوك أنجويك"
تبلبل الجميع،
حتى العرب ذوى الألوان السمراء،
سألنى العرب: "لماذا تركت بيتك؟
ما ذنبك اطفالك الأبناء؟"
مسألة بنت الرجل الأعسر شىء مؤلم،
حتى لأصدقاء عشيرة "أروب دى بيونق" العرب،
"دينق دى رحمة" يسير هنا وهناك
العربى يقطع المكان جيئة وذهاباً.
يا أحسرتاه، فليس هناك أمر حسن لا يئول إلى فساد،
يسرى الخبر الآن بطلاق بنت بيونق.
ثم يأتى سؤال الناس: "أى بنات بيونق"
إنها التى لها غطى أبناء النبلاء السهول بالأبقار.
لم أتشاجر أبداً مع اهل البيت.
بل بهتونى فى صمتى وسلامى
ثم يأتى سؤال الناس: " يا بنت بيونق،
ماذا فعلت ببيتك؟"
سرقة، ليست أنا التى تسرق.
بنت بيونق تملك نفسها،
يا أهلى، ولم يغوينى يوماً رجل.
ولم اقف أمام القاضى بزنى،
أبعدونى من بيتى بلا ذنب.
فمشيت كضبع فاجأه الصبح.
بهترنى بأنى أخفى مرضا،

لكن الأمراض لا تعزّى للاصحاء.
يا أبنة معسكر "ميلانق" اتركى المنزل،
فالزيجة قد فشلت.
لا تسعى لطمأنتى، "يا ماريال باديك"،
فأنا كمن يحترق على اللهب،
تحرقنى كلمات الناس فى البلد،
يا "بنق دى بييك" محبوسة أنا فى شرك.
وقد حرق اللهب وجهى.
ولكن شجارى مع "لويث" لن يجعلنى أترك مكان الطهو بلا أكل.
"أوين" يا بنت"ريال" من فضلك أوقدى لى النار.
يابنت عشيرة "أقوينق دى كول"،
فنحن دماء "مونيادهانق دى كول دى جوك"
نحن لا نيتم أنفسنا، يا بنت" بيونق دى أكول"
إنتهى كل الذى بينى وبين فحل "أجاك"
قفز الرجل من فوقى كالجاموس.
فى عشيرة "كول"، ذوى الشعور الكثيفة،
لا يموت الرجال الشجعان!
إنها أنا التى جاءت بالموت ليزور أسرة "بار"
ولكنى لا أعلم بالذنب الذى جنيت.
ياأمى، يا بنت "أجينق"، يا بنت الفهد الأرقط،
فى عشيرتنا، عشيرة "بيونق دى ألور" نموت مثل كل الناس،
فنحن ضحايا الموت القدماء
يموت الناس فى عشيرتنا، العظيمة عشيرة "الور دى موني دهانق" مثل كل الناس،
فنحن ضحايا الموت القدماء.

فى الحالات التى يتم فيها الطلاق يذهب الأبناء مع أبيهم، باعتباره المرجع الرئيسى للذرية. ولكن نسبة للعلاقة العاطفية الوثيقة التى تربط عادة بين الأم وأطفالها، يخلق هذا الانفصال منظومة معقدة من العلاقات المتداخلة تصبح فيها أسبقية الحقوق الأبوية إلى حد كبير، ذات طبيعة تملكية. ذلك أن العوامل

نفسها التى تعطى الأب حقوقاً أكبر فى الأبناء، تعمل ضده إلى درجة تصل إلى حد النزاع مع هؤلاء الأبناء. فى هذه الحالة فإن الدينكا بكل التأكيد يضعون الطفل فى صف أمه، فى منظرمة تعدد الزوجات المعقدة، وذلك حتى عندما يعملون على تطهيره من الأثر المفتت لمشاعر الغيرة الفعلية أو الكامنة لدى أمه. فى هذه الأجواء من التحالف والمنافسة، يتلخص دور الطفل فى تأكيد هويته والتمسك بتلك الحقوق التى تخصه، ومن ثم تخص أمه وبالعكس فيجب عليه أن يصارع من أجل أن تُحصص له الأبقار، ومن أجل أن يتزوج فى آخر الأمر. إذ إن مواجهة الأب فى أمور تتعلق بتأكيد حقوق المرء هو أمر مقبول ومتوقع من الأبناء، وخاصة الذكور، ويلقى التشجيع من الدينكا. فى الواقع يتم تقويم شخصية الابن كرجل ناضج استناداً إلى درجة جده واحترامه لأبيه واستعداده وقدرته على معارضته متى ما أضيرت حقوق البنوة، أو متى ما رأى أن أباه أخطأ فى تعامله مع آخرين. والاستثناء الوحيد هو ما إذا كان هذا النزاع مع أمه، إذ إن هناك خطراً كبيراً، من هذه الحالة، بوصمه " كابن أمه". وفى الأغنية التالية تتضح دقة المعادلة بين المواجهة بالنقد وإظهار الاحترام الواجب فى علاقة الأب – الابن، إذ يشكو رجل شاب مات أبوه، لكبير يدعوه "الأب الكبير" من عمه الذى تولى أمره بعد وفاة أبيه ويشير إليه "بأبى":–

أيها الأب الكبير "مجاك"
أنت كبيرنا
نحن أيتام العشيرة
إن رأيت أنى مخطىء
فألق بى فى السجن،
أن يكُن عمى هو المخطىء
فترفق به، كلمه فى رفق.
فالكبار لايوبخون،
كن معه هينا.
أبى يفكر وحده فى الليالى،
وعندما يرد كلمة ابنه،
تظل دواخلى تبكى.

وكما حدث فى هذه الحالة، فإن مثل هذه الأغانى تلقى استجابة إيجابية وسريعة.

ولكن مع ذلك تبقى الشروط لنزاع محتمل بين الأب والابن عديدة ومتشعبة داخل النظام الاجتماعى، بحيث تشكل حزمة من الإيجابيات والسلبيات المقبولة من هذا المجتمع. أكثر هذه الأسباب شيوعاً وبداهة هو مبدأ الخلود عبر الذرية. فكما أن الأب هو حام للابن، فإنه أيضاً عائق أمام وضعية هذا الابن (التى تعتمد إلى حد كبير على الأب). ومن جانبه فإن الأب يحس بتهديد الابن، الذى لن يكتفى بتولى دور الأب فى إدامة السلالة، فحسب، بل سيتعدى ذلك إلى وراثة زوجات الأب الأصغر سناً ومواصلة التناسل معهن. وعلى الرغم من أن هذه الاعتبارات لا يجوز أن تمس الحقوق الجنسية الخالصة للأب وحده أثناء حياته، إلا أنها تكون مصدراً للشكوك والتوترات والصراعات المكشوفة أحياناً. إذ إن كل الآباء، تقريباً، الذين لهم زوجات صغيرات فى سنهن وأبناء كبار، يضمرون بعضاً من الشكوك ومشاعر الغيرة. ومع تقدم العمر يزداد الخوف بأن هؤلاء الزوجات الصغيرات سيصبحن أكثر قابلية للانجذاب إلى الأبناء الأكثر شباباً. وبرغم أن زنى الأبناء أمر نادر الحدوث ويمثل جرماً خطيراً، إلا أنه يحدث من وقت لآخر.

هذا التهديد بالعداء والتنازع هو الأساس الذى قامت عليه قواعد التجنب بين الآباء والأبناء. فلا يجوز أن تجلس الأم أو أى من زوجات الأب على فراش ابن وصل سن البلوغ. وتصبح هذه القاعدة أكثر تشدداً مع زوجات الأب صغيرات السن. وبينما يمكن للابن أن يدخل كوخ أمه أو أكواخ زوجات أبيه الكبيرات، وأن يحادثهن بحرية تامة ، فإن عليه أن يتجنب زيارة أكواخ زوجات أبيه الصغيرات، وأن يمتنع عن التبسم فى وجوههن بصورة مغازلة، أو إدارة أحاديث طويلة معهن، بل إن الأفضل هو الابتعاد ما أمكن عن مخالطتهن. فى هذا النسيج الإجتماعى تباشر الأمهات المتقدمات والأخوات دور الحارس لمصالح الابن فى الظروف التى تقتضى ذلك. فهن لا يتوانين عن تحذيره ولفت انتباهه إذا غدت الأمور محفوفة بالمخاطر. بالطبع هناك دائماً خطر الشائعات والأقاويل الملفقة من جانب زوجات تملكتهن مشاعر الغيرة أو الحسد، ويأملن فى إيذاء ضراتهن واكتساب مكانة أو فضل لدى أزواجهن - وهو ما يدعو للمزيد من الحيطة والحذر. بخصوص الأب، يجب على الأبناء تجنب فراشه، كما يجب عليه هو أن يتجنب فرشهم. ولا يجوز لهم أن يتناولوا الطعام معه من

نفس الإناء، كما يفعل الدينكا عادة، ولا أن يبقوا فى صحبته طويلاً، وإذا فعلوا ذلك، فيجب أن يتحلى الابن بقدر عال من تمالك النفس، وأن يظل مستمعاً أكثر منه متحدثاً. هذه الأجواء التى يسودها الوقار والتمسك بالمراسم يمكن أن تترك عند المراقب العابر انطباعاً بتوتر العلاقات . أما بالنسبة للدينكا فإنها دليل على الاحترام، وتهدف إلى تقليل التوترات والصراعات إلى الحد الأدنى، إن لم تزلها كاملاً. وبرغم أن مثل هذه التوترات والصراعات يتم تجنبها، فى العادة، وإذا حدثت، يتم إيجاد الحلول المناسبة لها، إلا أن النزاعات بين الأب والابن، بخلاف تلك التى تكون بين الأم والإبن، يمكن أن تؤدى، فى حالات نادرة، إلى فصم عرى العلاقة طقسياً. ومع ذلك فإن الأب الذى يتمنى أن ينبذ مثل هذا الابن من أسرته ومن العشيرة الكبيرة سيمنى دائماً بخيبة الأمل. ذلك أن طقس فصم عرى العلاقة لا ينكر العلاقة العشائرية، وهو بالتأكيد لا ينبذ المرء من عشيرته. فذلك جزء من تشعب وتمدد الأسرة لدى الدينكا.

فبالإضافة إلى الأسرة الممتدة التى يمكن أن يقوم فيها أحد الأعمام بأداء دور الأب حتى فى حالات العلاقة الودودة مع الأب، تظل دائرة عشيرة الأم جنة يمكن أن يلجأ إليها الابن فى أى وقت يتعرض فيه، للنبذ من عشيرته الأبوية. هذا ويتمثل تمديد قيم الأسرة لتعم العشيرة ودوائر المجتمع الأخرى، فى الاستخدام الواسع لمصطلحات العشيرة للإشارة إلى سلسلة ممتدة من الأقارب وغير الأقارب. فتجد أن كلمات مثل "جد" وخالة" و"أخت" كثيراً ما تستعمل لعلاقات الدم والنسب، ليس فقط للتعبير عن الاحترام بالطريقة المعروفة لدى كل الناس، ولكن أيضاً كعلاقه مؤسسية محددة لها حقوقها ومسئولياتها المتعارف عليها. وهو ما ينطبق حتى على غير الأقارب، ويصل استخدامه إلى المدى الذى تصبح فيه القبيلة، التى يُشار إليها بنفس مصطلح الأسرة، امتداداً متخيلاً للأسرة، يحتل فيه الزعيم الأكبر محل أب الجميع.

الملكية والاقتصاد

يضطلع كبار السن بإدارة الثروات والموارد الإنتاجية وإليهم تؤول ملكيتها. وبرغم مشاركتهم للشباب شيئاً من حبهم للأبقار، إلا أنهم لا يشاركونهم

هوسهم بها، حتى وإن كانوا يوافقونهم عليه. وكبار السن هم الذين يتم من خلالهم امتلاك المواشى. وهم الذين يقدمونها كقرابين ويذبحونها ويبيعونها ويبادلون بها، ويدفعونها فى الزيجات، ويعطونها بأساليب أخرى كثيرة. وهم الذين يمتلكون الأرض، ويزرعون الحقول، ويجمعون المحاصيل وينظمون استهلاكها.

وباستثناء وسائل عفى عليها الزمن مثل الغزوات، أو ممارسات محدثة مثل العمل فى المدن، فإن الطريقة المعتادة لاكتساب الأبقار هى مهور الزواج. كما تمثل الديات والتعويضات الأخرى مصادر الثروة، ولكنها إجراءات علاجية طارئة، فى مقابل مهر الزواج الذى لا يدخل فى هذا الإطار. كذلك يتم تبادل الأبقار عن طريق الهدايا فى الصداقات وعن طريق عروض التجارة. تتضح من كل هذا أنه، باستثناءات قليلة، فإن الطرق المعتادة للحصول على المواشى تمر من خلال مؤسسات العشيرة والصداقة والمؤسسات المشابهة لهما. هذا وكثيراً ما تتماثل طرائق الحصول مع أساليب التصريف، وخاصة فيما يتصل بالواجبات الاجتماعية تجاه رفاق العشيرة والأصدقاء. لذلك نجد أن الرجل يتمسك، فى العادة، ببعض الأبقار ذات الأصول الجيدة، بينما تظل باقى الأبقار فى حالة دائمة من التبدل، فما يكاد الرجل يتلقى بعضاً منها كمهر، حتى يدفعها فى زيجة جديدة، ولا يحصل عليها كمساعدة من أحد الأقرباء أو الأصدقاء إلا ليعيدها إليه عرفاناً على صنيعه، فى يوم ما. ويعبر الدينكا عن هذا الوضع بقولهم: " ما تعطيه فهو متداول، وما استهلك فقد فنى". وكذلك الأبقار "ملك للجيمع"، لذا يجب إنفاقها فى صالح المجموعة. من هنا فإن من حق رجل جائع قانوناً أن يأخذ أقرب شاة أو خروف أو بقرة، هو يضمر التعويض عنها مستقبلاً، بواسطته أو بواسطة أحد أقاربه القادرين، ونفس الشىء يستطيع أن يفعله رجل تحت ضغط الحاجة لحيوان يقدمه قرباناً فى حالات المرض الطارئة أو حتى لأغراض الضيافة.

غير أن الفخر بالثراء وعدم الالتفات لحاجات الآخرين هو دعوة صريحة للعنات المقدسة، التى يمكن أن تؤدى إلى زوال هذه الثروة، ولا يرد الفخر بالغنى إلا فى الأغانى، وحتى فى هذه فإنه يقتصر غالباً على أغانى الشباب والزوجات. وقد قامت إحدى أسلاف الأمهات للمغنى فى الأغنية التالية، بدلق اللبن فى النهر عندما أحست بأن لها منه الكثير بسبب ثرائها الواسع، مما أغضب عليها الإله وجعله يحرم ذريتها من الأبقار. ولم ينقذهم إلا تعامل جده

النبيل مع الأبقار، والذى أعاد إلى الأسرة ثراءها. ولعله يجدر أن نشير إلى أن هذه الأغنية غير معتادة فى اتجاهها لانتقاد أحد الأسلاف. إذ إن المعتاد عند الدينكا هو مدح الأسلاف مهما كان ماضيهم. ولكن يجب أيضاً ملاحظة أن المغنى يوازن النقد بالمديح فى أغنيته:-

استمتعت "ادوت" "بثروات سلفى "كوينق أنقوك"
ثم فكرت بصلف،
فكرة لم يرضاها الإله.
فكلمات السذج لايرضَها الإله.
دلقت جدتى اللبن فى النهر،
ولبن الغنم يفوح كثيراً.
لذلك ليس لدينا روث الغنم.
إلى ان دعا جدى إليه أبى "رينق"
واجلسه بجانبه.
ثم مسح على رأسه
وترك له هذى الكلمات
"ابنى (رينق)، إليك هذه الأبقار،
فالأبقار ثراء الرجل.

وفى الوقت الذى يجب أن تخدم فيه الأبقار المصلحة العامة، فإن التحكم فيها عادة لا يخضع لهذه الشراكة الواسعة، بل يقتصر على قلة قليلة. يستند الحق فى ممارسة مثل هذا التحكم على وضع المرء فى التراتبية القيمية العشائرية. ولأن كبار السن من الذكور هم المسئولون دائماً عن دفع مهور الزواج فإنهم يتمتعون بوضع مركزى فى إدارة شئون الأبقار. ولكن المسألة يمكن أن تتحول إلى لغز الدجاجة والبيضة فيما يتصل بأيهما كانت الأسبق: المسئولية عن التسديد أم سيطرة الذكور. فى العادة يقوم عميد الأسرة بتخصيص الأبقار تبعاً للبيوت وللأسبقيات. ثم يقوم كل بيت بعد ذلك بإعادة توزيع هذه الأبقار بين أعضائه، بافتراض أن حاجات الأفراد يمكن إشباعها بواسطة أى فرد يكون بإستطاعته القيام بذلك. ويترك الرجل دائماً، باسمه، قطيعاً من المواشى ملكاً للأسرة بأكملها. غير أنه ليس بوسع الزوجات أو الأبناء التصرف فى الأبقار دون موافقة الأسرة، وفى مجرى الأحداث العادية، يجب على الأب، أيضاً، استشارتهم قبل التصرف فى الأبقار المخصصة لهم.

كما أنه ليس بوسع الرجل أن يتصرف فى أبقار مخصصة للإله وأرواح الأسلاف، إلا لأهداف سامية معينة، مثل الزيجات الخاصة. ويشكل الخروج على هذه القاعدة فى اعتقادهم، جرماً دينياً كبيراً، قد يتسبب فى الموت.

والدينكا ، برغم سمعتهم الأساسية كرعاة أبقار، إلا أنهم مزارعون أيضاً مع فارق أن الأبقار مجللة بالفخر لان احيازتها مرتبطة بوضع المرء، بينما يمكن أن يقوم كل شخص بالزراعة مما يجعلها أقل وجاهة. هذا المغنى يصلى من أجلهما معاً:-

يا خالقى،
يا خالقى الذى خلقتنى فى رحم أمى،
لا تتركنى أواجه أمراً سيئاً،
أرنى الطريق إلى الأبقار،
حتى أحصد محاصيلى،
وأرعى قطعانى.

ولا تنطبق المقولة التى تتردد عن الحياة شبه البدوية لقبائل الدينكا، إلا إذا قصد بها أن الشباب يصطحبون الأبقار إلى معسكرات مؤقتة بحثاً عن مراع أفضل. باستثناء ذلك فإنهم يسكنون قرى ثابتة، حيث يقيم بصورة دائمة كبار السن من الرجال والنساء، وأيضا الأصغر سناً، عندما لا يكونون بعيدين مع العدد الأكبر من الأبقار فى رحلات الرعى عبر المسافات الطويلة.

ويقتصر التحكم فى الأرض، من ناحية نظرية، على الزعيم، استناداً على حق تملك أصيل. ذلك أن قادة الدينكا، إبان هجراتهم، كانوا أفراداً ينتمون لعشائر مسيطرة، أسسست سلالاتها مؤسسة الزعامة، وظلت ممسكة بها بعد ذلك. وتقول الأسطورة، إن لم تكن حقيقة، أن زعيم القبيلة قام بتوزيع الأرض بين اتباعه الأصليين وكوّن بتلك الطريقة البطون والأقسام. ثم قام رؤساء الأقسام بإعادة توزيع أراضيهم بين مجموعات داخلية، وهكذا، تبعاً للتفصيل السائد لمجتمعاتهم. لذلك تجد أن نرارى هؤلاء المحتلين الأصليين يمتلكون حقوقاً متنوعة فى هذه الأرض إلى الآن. ومن ثم لا يكون بوسع القادمين لاحقاً الحصول على حقوق فى الأرض إلا بالارتباط مع هذه السلالات. غير أن ذلك لا يشكل دلالة ذات أهمية فى الوقت الحاضر. إذ يحق لكل فرد من الدينكا

الآن أن يستوطن ويزرع قطعة أرض، فى حدود البطن القبلية التى ينتمى إليها، بشرط ألا يكون قد تم تنظيف هذه الأرض بواسطة شخص آخر، وإلا تكون بالقرب من منطقة سكنية أو زراعية بحيث تكوّن جزءا من تلك المنطقة.

لكن كما هو الحال فى أى مكان تخوّل فيه حقوق متنوعة فى الأرض لتسلسل هرمى من المؤسسات الاجتماعية والسياسية - مثلما هو حاصل لدى الدينكا - فإن طبيعة هذه الحقوق والمطالب تصبح ملتبسة وغير واضحة. فالشخص الذى ينتمى للمجموعة حر نسبياً فى حيازة أرض خاضعة للتوزيع الحيازى، ولكن الزعيم هو الذى يخصص الأراضى للقادمين الجدد. وباستثناء حالات الحرب، فهو الذى يقوم بالدفاع عنها أمام مزاعم الغرباء، وهو الذى يمتلك السلطة الكلية، بفضل سلطاته المقدسة، للسيطرة على العوامل المدمرة مثل المطر والطيور والجراد. لذلك نجد أنه على الرغم من أنه لا يوجد أحد من الدينكا يمكنه أن يأكل من حصاده الجديد قبل إرضاء الإله وأرواح الأسلاف من خلال "مراسم للشكر" تسمى "قربان الأرض"، إلا أن أكثر هذه الاحتفالات تفصيلاً وتركيزاً يتم فى بيت الزعيم.

إلا أن سيطرة الزعيم على الأرض تقتصر، فى الغالب، على الحد الأدنى فيما يختص بالمنتمين لقبيلته. إذ يجعل توافر الأرض بما يكفى كل فرد دون احتكاك، يجعل تحصيص بين ابناء القبيلة الواحدة أمراً غير ضرورى. بالطبع تحدث أحياناً نزاعات حول الحدود، إلا أنها تكون فى الغالب نزاعات طفيفة يقوم بحلها الرؤساء المحليون. غير أن النزاعات الأكثر خطورة والتى تستوجب تدخل الزعيم، هى تلك النزاعات التى تنشب بين الأقسام المختلفة حول أراضى الرعى.

وفى الوقت الذى يحظر فيه قانون الدينكا بيع الأرض، إلا أن الفرد يستطيع أن يهدى جزءًا من أرضه السكنية أو الزراعية لفرد آخر فى القبيلة. بينما يتطلب تغير السكن من أحد الأقسام إلى قسم آخر موافقة رؤساء الأقسام المعنية، وكذلك موافقة الزعيم الأكبر.

فى العادة تقوم الأسرة الصغيرة بالعمل على أرضها، وتبنى أكواخها وحظائر أبقارها، لكنها تستطيع إن ارادت، استئجار أشخاص يساعدونها فى قطع القصب لبناء السقف، أو الأعواد لاستخدامها كقوائم، بل وفى القيام بإكمال البناء. ويمكن أن يتم الإيفاء بحقوقهم بالدفع لهم، أو بدعوة الأصدقاء لوليمة من الجعة والطعام. والاستثناء فى هذا المجال هو العمل فى بيت

الزعيم، الذى تقوم حلقات الأنداد المنتمية للبطون المختلفة ببناء الأكواخ له ولكن حتى فى هذه الحالة يقدم الزعيم لهم حيواناً لذبحه احتفاءاً بهذا العمل.

وتقع أرض الدينكا، وخاصة أراضى "نقوك" فى السهول الطينية الوسطى، التى تعتبر أخصب أراضى القطر. ومن بين المحاصيل التى يزرعها الدينكا: الذرة الشامى، الفول السودانى، السمسم ، اللوبيا، البامية والتبغ؛ والغذاء الرئيسى هو الذرة، الذى يقوم نقوك بحصاده مرتين فى السنة حيث يبذر المحصول الأول فى الأيام المبكرة للأمطار ويتم حصاده فى سبتمبر، بينما ينمو المحصول الثانى من أعقاب السيقان التى قُطفت فى الحصاد الأول ويتم حصاده فى شهر نوفمبر أو بعد ذلك بقليل. ويتمثل العمل الزراعى فى تنظيف الحقول أثناء موسم الجفاف، وبذر البذور مع بداية موسم الأمطار، وإزالة الحشائش على الأقل مرتين فى العام وحراسة المحاصيل من الطيور والحيوانات ، ثم الحصاد ودرس الحبوب. وتتطلب هذه النشاطات عملاً شاقاً، حيث يستيقظ الرجال والنساء فى الصباح الباكر للذهاب إلى الحقول - التى كثيراً ما تبعد عن المساكن - ولا يعودون إلا فى المساء، أو يقضون الليل أحياناً فى المساكن القريبة منها. وتمتلئ الأجواء، أثناء ساعات العمل، بأصوات الغناء الصادرة من أناس يغنون على إيقاع المعاول، كل منهم فى حقله الخاص. وباستثناء الشباب الذين يتغيبون كثيراً، يشارك الجميع فى معظم الأعمال، مع بعض التوزيع للعمل على أساس النوع والسن. فعند بذر البذور يقوم الرجال بإعداد الحفر، بينما يتبعهم النساء والأطفال لدفن البذور. ويتشارك الرجال والنساء فى إزالة الحشائش، إلا أن العبء الأكبر يقع على الرجال. بينما تنجز النساء معظم أعمال الحصاد وكل أعمال درس الحبوب، على الرغم من أنهن يقتطعن جزءا من الوقت للأعمال المنزلية، حيث يرجعن فى العادة، باكراً لإرضاع الأطفال، وإعداد الطعام أو -وفيما عدا ذلك - لأداء الأعمال المنزلية الأخرى. وعادة ما يكون لرب الأسرة المتعددة الزوجات حقل مستقل به منفصل عن حقول زوجاته مع مساعدته لهن أيضاً فى حقولهن. ويُنتظر من الأبناء كذلك المساعدة فى العمل الزراعى ولكنهم فى سبيل تأكيد التضامن الأسرى، يساعدون، فى العادة، زوجات آبائهم من دون أمهاتهم. بالإضافة إلى ذلك فإن بإمكان إى شخص أن يحصل على ما يريد من مساعدة بإقامة وليمة يدعو إليها جيرانه وأصدقاءه. ويمكن أن يضاف إلى ذلك المساعدة المجانية التى يقدمها له أقرباء الدم أو النسب. كما تتوافر له خدمات

أى من حلقات الأنداد التى قد يرغب فى طلب ذلك منها. هذا وتتوافر للزعيم كذلك مساعدة بعض الرجال الذين يحضرون محكمته أثناء موسم الزراعة.

ومن النشاطات الأخرى المتعلقة بالأرض، صيد الأسماك والحيوانات، وهى نشاطات يمارسها الأفراد والجماعات، وخاصة صيد السمك الذى تمارسه كل الجموعات العمرية. والدينكا ليسوا صائدى سمك ماهرين، إلا أنهم مغرمون بالسمك كمكمل لوجباتهم الغذائية. ويستمر صيد السمك معظم أيام السنة، برغم تنظيم الصيد الجماعى. حيث تصبح الأنهار والبرك مفتوحة بصورة رسمية فى شهر نوفمبر، عندما تنساب الأسماك مع مياه الفيضانات إلى الأنهار الرئيسية، وفى شهرى فبراير ومارس عندما تبدأ مناسيب المياه فى الانخفاض كاشفة عن الأسماك فى قيعان الأنهار. ويستخدم الدينكا كأدوات لصيد الأسماك بالاضافة إلى السنارات والشباك والشراك، الحراب فى العديد من الأوضاع والظروف. كذلك يمارس الدينكا صيد الحيوانات الذى يقتضى التيقظ والذى يمارسه فى الغالب الشباب، إلا أن الكبار أيضاً يمارسونه فى بعض الأحايين. وهم يصطادون بمساعدة الكلاب، وينشطون فيه خاصة أثناء موسم الجفاف الشديد، عندما تخرج الحيوانات من الغابات والسهول الجافة للشرب من الأنهار بالقرب من القرى، أو فى المواسم الشديدة الأمطار، عندما تخرج الحيوانات أيضاً إلى المساحات الجافة قرب المساكن. وتخضع لحوم الصيد، مثلها فى ذلك مثل لحوم القرابين والولائم، دائما لقواعد التوزيع المقررة بناءً على النسل والسن . من ذلك أن ينال أول شخص يطعن بحربته فيلاً السن اليمنى فى العادة، بينما ينال الشخص الثانى السن اليسرى، وذلك بغض النظر عما إذا كانت الجراح التى سبباها قد أدت إلى موت الحيوان أم لا. كما أن هناك نشاطات أخرى متعلقة بالأرض تتمثل فى جمع الثمار البرية والعسل. حيث يمكن للشخص أن يربى خلية نحل أو أن يعلم أى أشجار يمكن أن يغشاها النحل، لكى يضمن ملكيته للعسل المنتج فيها فيما بعد.

وتتأثر النشاطات الاقتصادية للدينكا كثيراً بالفصول الأربعة التى يعتمدها الدينكا ، والتى لا تتماثل مع الفصول الأربعة كما يعرفها الغرب، إذ إنها تسمح ببعض التداخل بين الشهور. والفصول هى:- "كير" ويستمر من شهر مايو إلى بدايات شهر يوليو، و"رويل" من يوليو إلى أكتوبر وهما يكونان معاً موسم

المطر. ثم "روت" ويستمر من نوفمبر إلى فبراير، و"ماى" من فبراير إلى مايو واللذان يكونان موسم الجفاف. وتهبط الأمطار الباكرة فى "كير"، حيث تُزرع الحقول التى تم تنظيفها، فى وقت سابق، كما تبدأ فى هذا الموسم أيضاً العودة التدريجية للأبقار إلى معسكرات قريبة من القرى، بينما تظل الأبقار فى القرى لتوفير احتياجات ساكنيها من الألبان. وفى شهر يوليو يتكاثر البعوض بصورة كبيرة تستدعى إرجاع الأبقار وحمايتها فى حظائر الأبقار ليلاً. وهو أيضاً شهر الأمطار الغزيرة والإقامة الدائمة فى القرى. ويتركز فى هذا الموسم معظم العمل الزراعى بما فى ذلك الحصاد. يلى ذلك نهاية موسم الأمطار التى يسميها الدينكا "انياويك"، وهى الفترة التى تصبح فيها المحاصيل ناضجة وتبدأ الأبقار فى الرعى بعيداً عن القرى ولكن يتم إحضارها أثناء حصاد المحصول الثانى. وهى الفترة التى يجب فيها حراسة الحقول من المواشى التى تشتهى كثيراً مذاق هذا الحصاد الثانى. وكثيراً ما تحدث النزاعات فى هذه الفترة بين مالكى الحقول ومالكى الأبقار بسبب الخراب الذى تلحقه القطعان بالحقول. و"رويل" هو أيضاً الموسم الذى يذهب فيه عدد مختار من الشبان إلى فترة الراحة، تاركين العمل الزراعى لتقوم به النساء والرجال الاكبر سناً.

ويتميز "روت" الذى هو أبرد المواسم برياحه الشمالية التى تهب فى شهر نوفمبر. فى هذه الفترة يبدأ الرجال الأصغر سناً فى جمع الأخشاب والأغصان اللينة لإصلاح البيوت، وقطع القصب، قبل حرقه، لبناء السقوف، بينما يبقى الرجال الاكبر سناً فى القرى لإكمال أعمال الحصاد. وفى الآونة الأخيرة أدخلت الحكومة بناء الطرق بواسطة مجموعات الأنداد الشابة، الذى يتم أيضاً أثناء هذا الموسم. ومع بدء انهاك المراعى تؤخذ الأبقار للرعى فى مجموعات صغيرة فى أماكن أبعد بطول الامتدادات العليا لمجارى المياه. وهذه هى الفترة التى ينتقل فيها "نقوك" شمالاً إلى الأراضى المرتفعة، حيث تقل الفيضانات حتى بالمقارنة مع الأراضى الرئيسية، وينتقل "تويك" و"مالوال"، اللذان تتعرض أراضيهما للفيضانات الشديدة إلى أرض "نقوك". وفيما بعد عندما يعود "تويك ومالوال" جنوباً ويتبعهم "نقوك" ينتقل العرب البقارة، الذين تكون أراضيهم قد أصبحت شديدة الجفاف إلى أرض نقوك. وهذا هو ما أعطى لأرض "نقوك" قيمة خاصة لدى كل من الدينكا الجنوبيين والعرب، وقاد كثيراً إلى نزاعات قبلية فوق هذه الأرض، جعلت مهمة إدارتها مسألة شديدة

الدقة والصعوبة لزعيم "نقوك" الأكبر.

وفى "ماى" يبدأ استخدام معسكرات الأبقار الرئيسية فى "توك"، والتى كان قد بدأ الرعى فيها فى "روت"، وذلك بعد أن تكون الأعشاب بجانب القرى قد أوشكت على النفاد. وهذا الموسم هو أحد فترات السنة، حيث تقل مصادر المياه مما يستدعى حفر الآبار بقرب المجمعات السكنية الدائمة. وهو أيضاً موسم الأمراض، الذى ينتظر الدينكا بفارغ الصبر نهايته والانتقال إلى بركات الأمطار الباكرة فى "كير".



(التجديف بالقوارب وصيد الأسماك بالحراب حول قطيع من افراس البحر

(تصوير ت.آر. اتش. اوين)

يعطى بلوغ مرحلة النضج الحق للشخص فى أن يشارك فى المسائل العامة للقبيلة كفرد وكعضو فى جماعة الأنداد. وحلقات الأنداد هى تكوينات دائمة، توسع، طوال الحياة، من دوائر الارتباط، بما توفره من إضافات أو بدائل للروابط العشائرية. غير أن الروح الجماعية لهذه الحلقات تبدأ فى الخمود مع زواج أعضائها واستقرارهم كأرباب للأسر. بينما يضع الزواج نهاية كاملة لحلقات النديدات من النساء. ولكن على الرغم من أن حلقات الرجال تستمر لفترات طويلة إلا أنها توشك أن تختفى عندما يبلغ أعضاؤها مراحل الكبر. ولكن الرجال يواصلون المشاركة فى الحياة العامة، وحضور محكمة الزعيم كمدعين أو كمدافعين، والمشاركة فى محاكمة رفاقهم فى القبيلة، وبخلاف ذلك، الاشتراك فى قرارات ومداولات مجلس كبار السن.

وقد تغيرت مفاهيم ومؤسسات وممارسات الدينكا للسلطة وتغيراتها القانونية بصورة كبيرة، أولاً كنتيجة لاضطرابات القرن التاسع عشر، التى صاحبت الحكم التركي - المصرى والدولة المهدية، عندما " فسد العالم" بالنسبة للدينكا، ولاحقاً كنتيجة للإدارة الاستعمارية الإنجليزية المصرية. ولن يكون سهلاً رسم خط فاصل بين ما هو تحول طبيعى وبين ما حدث نتيجة لانهيار النظام، فى ظل ظروف الفوضى التى سادت فى القرن التاسع عشر أو بين ماهو محلى وما هو مزروع بواسطة قوى غريبة. فى كل الأحوال، لم تكن الأوضاع متماثلة على نطاق أرض الدينكا: فقد ظهر بعض الزعماء نتيجة لفورات الاضطراب، وقام المستعمرون بإبعاد آخرين، بينما ظلت بعض الأسر قائمة بمهامها القيادية الدينية والزمنية، فى فترات الحرب والسلم، فى العهود السابقة والأزمنة الحديثة. ويصدق هذا على وجه الخصوص بالنسبة لنقوك، الذين لم يتم تأكيد إدارتهم الأهلية من قبل الحكومات المتعاقبة فحسب، بل تم دعمها أيضاً بالتأثير العربى عليها، بتشديده المعروف على التراتبية والهرمية.

وقد عمل النظام السياسى للدينكا، تقليدياً، عن طريق السلالات، حيث بقيت كل مجموعة سلالية وحدة مستقلة بذاتها. غير أن هذا النظام تمركز فى مجمله حول الزعيم الأكبر، ومساعديه من الزعماء وكبار السن. ويعتبر الدينكا

القيادة السياسية أمراً مقدساً يتقصونه عبر الأساطير الدينية، التى يتم باستمرار إعادة سردها لتقوية وتأكيد البنيات الحالية. وكثيراً ما يكون التركيز الذى تحظى به هذه الأساطير، وخاصة فى الأغانى، مبالغاً فيه. وقد تبدو المعتقدات الدينية المتضمنة فيها قد عفى عليها الزمن إلا أنها تفسر، بالنسبة للدينكا، الأسباب التى أضحت بها الأشياء إلى ما هى عليه، وتعطى استقراراً وثباتاً للنظام الإجتماعى القائم.

ومن الأمثلة على هذه الأساطير، تلك المتعلقة ب: "جوك" الذى أسس سلالة "باجوك"، والتى تورد كيف أن "نقوك" إبان هجرتهم نحو الغرب قد واجهوا نهراً لا يمكن عبوره. فقام "جوك" بتقديم ابنته "أكاى" قرباناً لهذا النهر. وكان أن حملتها روح الماء بعيداً، وفى مقابل ذلك فصلت المياه إلى جزئين حتى يتمكن الناس من العبور فوق أرض ثابتة.

وهناك أسطورة أكثر حداثة وسط "نقوك" تتحدث عن الكيفية التى انقذ بها قائد آخر، هو أروب هذه القبيلة من وضع ما حينما قرر التضحية بابنه فداء لها. إلا أن الوقائع المتعلقة بهذه المسألة تبدو غامضة غير جلية. مما يُذكر أن حاكماً رغب، أثناء حكم دولة المهدية، فى اختبار التزام "أروب" بقبيلته، حتى يَبُت فى مسألة الاعتراف به من الحكومة المركزية. فكان أن تحدى ذلك الحاكم القائد أروب فى أن يتخلى عن ابنه، وهو مافعله أروب وسط معارضة شديدة من القبيلة. والبعض يقول أن الابن قُتل، بينما يذكر آخرون أنه أُخذ بعيداً. والمعروف أن الخليفة عبدالله الذى خلف المهدى قد احتفظ بأقارب للزعماء من كل أنحاء القطر كرهائن يضمن بهم ولاء هؤلاء الزعماء. والمقاطع التالية تورد هذه التضحية:

سئل الكبار عن ذلك الماضى البعيد،
فاسأل أباك عن ذلك الماضى البعيد،
عندما فسدت الأرض ولم تتماسك،
وعندما لم تتماسك،
قال أروب: " نضحى بالطفل"
لكن موت الطفل أغضب القبيلة،

رفع الجميع الأيدى وصاحوا،
"إن يُقتل الطفل تفسد القبيلة"
ولكن جدى الأكبر أعطى الأذن.
وفى أغنية أخرى يرد هذا الحوار بين أحفاد "أروب":

قائد المجموعة:-
أنتما، يادينق مجوك ويادينق ماكواى،أنتما الأكبر سناً، وفيكما سر القبيلة.
لماذا كان قتل الابن؟
الجوقة:-
كان قرباناً وتضحية.
قائد المجموعة:
وهل حياة الإنسان رخيصة بهذا القدر حتى تقدم قرباناً؟
أتوسل إليكم، أعطونى سبباً أفضل.
لماذا كان قتل الابن؟
الجوقة:-
كان قرباناً وتضحية.
وينسب أحد الرجال الشبان معجزة حتى لجدى الزعيم كول:
فى زمن ماض،
سمعت أن الجياد كانت تطير.
لكن فى الزمن الحالى،
لم تعد الجياد تطير.
لأن الأرض امتلأت اثاما،
نعم، ميوم، ياثور أبى، الإثم شىء خطر.
فى زمن ماض.
سمعت أن الزعيم كول دى أروب دى بيونق
فتن طيور الكركى ذوات العرف حتى أمسكها
لكن فى الزمن الحالى

ليس بوسع أحد أن يفتن طيور الكركى ذوات العرف حتى يمسكها
لأن الارض امتلأت آثاماً.
نعم، ميوم، ياثور أبى، الإثم شىء خطر.
حتى إذا صلى الناس صباحاً ومساء.
فليس لأحد تلك الروح القوية
الا إذا أيقظنا أسلافنا من قبورهم.

ويُنظر للزعيم بوصفه الأب الذى يلم شمل الأعضاء الأحياء لمجموعته، كما يجمع بين هؤلاء والأموات من أسلافهم. ويرمز لهذا القبول المقدس مقروناً مع مشيئة القبيلة برفع الزعيم بواسطة ممثلين للجماعة، وذلك فى المراسم التى تقام احتفالاً بتنصيبه. ولكن من الطبيعى أن تنشب نزاعات حول السلطة داخل الأسر الحاكمه شبيهة بتلك الاحتكاكات المعتادة وسط الأسر المتعددة الزوجات. غير أن شدة هذه النزاعات السياسية تعتمد كثيراً على الأهمية التى تحظى بها المواقع المتنازع عليها. ويمكن أن تنشب هذه النزاعات بين الأب وابنه، أو بين الأخوان أو بين أعضاء آخرين من السلالة. وبينما يميز حق البكورية لصالح الابن الأكبر للزوجة الأقدم، إلا ان الأوضاع قد تكون على درجة من التعقيد تسمح بعدم التقيد بهذه القاعدة والاختيار من بين آخرين. لذا نجد فى سيرة أنساب أسر قائدة حالات ترجع إلى أزمان بعيدة، فيها أختيار ابناء لم يكونوا الأكبر ولا أبناء للزوجات الأقدم على آخرين، كانوا هم الأكبر والأحق. أحياناً قد تخرج القيادة تماماً عن الأسرة المعنية: مثال ذلك عندما يموت أحد الزعماء ويترك أبناءً صغاراً لاتسمح سنهم بخلافته فى الزعامة. فيقوم أخوه أو ابن عمه أو عمه بخلافته، ويرسخ هذا من نفوذه بصورة تقفل الطريق أمام أبناء الزعيم الميت عندما يكبرون، ثم يبدأ فى التمهيد لكى يحل أبناؤه مكانه. وطبيعى أن ينشب النزاع والتنافس، بعد وفاته، بين أبنائه وأبناء سابقه. مما يؤدى إلى تعقيدات وتغييرات فى الوضع تفسح المجال أمام الناس ليختاروا من بينهم. من هنا فإن حق البكورية لايشكل ضماناً للقيادة الرشيدة، كما أنه لا يفرض الزعامة على الناس. فالمؤسسة القائمة على حق البكورية لا تفعل أكثر من تضييق دائرة الاختيار وهى دائرة معدة بحق للقيادة، ومدربة عليها، ويؤمن الناس باستحقاقها لها.

يقودنا هذا لمفاهيم الدينكا عما يجب أن يتميز به القائد الحقيقى. وزعيم الدينكا ليس حاكماً بالمعنى المتعارف عليه فى الغرب، بل هو قائد روحى تعبر كلماته عن النور المقدس والحكمة، وتمثل نقطة للالتقاء والتوافق والمصالحة وحتى يكون فى وضع يمكنه من التوفيق بين الرجال يجب أن يكون الزعيم مثالاً للنقاء والنزاهة، أو كما يقول الدينكا يجب أن يكون "رجل بقلب بارد"، فى مقابل الرجل العجول ذى الطبع الحاد. ولطبيعة المجتمع الأسرية، فإن معظم المشاكل الاجتماعية التى تثور فيه إما، أن تكون بين أفراد الأسرة الواحدة أو بين الأسر المختلفة. فى الحالة الأولى فإنها تتصل بالأفراد بينما تكون فى الحالة الثانية، غالباً، بين مجموعات يمثلها فى العادة أفراد محددون. وفى حالات الكوارث مثل فشل موسم الحصاد أو انتشار وباء، تتلخص مهمة الزعيم فى التوسط بين عالم المحسوسات وعالم الأرواح لتصحيح الخطأ وإعادة التوازن والوحدة اللذين يُعتقد أن اختلالهما هو الذى أدى إلى هذه الكوارث. وحتى يكون بوسعه إنجاز هذا العمل، يجب عليه أن يعبىء إلى جانبه عون أسلافه والآلهة المقدسة، إذ إن هؤلاء هم الحماة الحقيقيون للقبيلة كلها. ولكن مهام الزعيم تتعدى هذه المهام الروحية. فباعتباره الأب الروحى للقبيلة، فإنه هو الذى يخطط للناس كمجموعات وكأفراد. وما فكرة التضحية المستمرة التى تزخر بها قصص الأسر القائدة، إلا شاهد على المسئوليات الكبيرة التى تفرضها مكانته عليه. أضف إلى ذلك أنه هو الذى يتطلع إليه المحتاجون لمساعدتهم والأخذ بيدهم. لكل ذلك وحتى يتمكن من مقابلة هذه المسئوليات، فلابد أن يتمتع الزعيم بكل القيم المادية والروحية اللازمة لأداء واجبه، ومن هنا فإنه يجب أن يكون أثرى أثرياء القبيلة وأكثرهم كرماً وسخاء، دون أن يحابى أحداً.

وذلك هو ما يستوجب عليه، عند تصريف واجباته، وفى توافق تام مع الغايات النهائية لمجتمع الدينكا، أن يشدد ويؤكد على قيم الإقناع أكثر منه على القسر والإكراه. ومن اللافت للنظر هنا أن كلمة "لوك" (التى تعنى يُقنع) تستعمل أيضاً "للحكمة" أو "المحاكمة". هذا ويتجه التقاضى بين الدينكا إلى إقامة الصلح بين المتنازعين أكثر من اهتمامه بتحديد الجانب المخطىء من المحق. وما لم يتوصل الناس إلى تحقيق الصلح فإن النزاع لا يكون قد حُل

بطريقة صحيحة. من أجل ذلك يتم فحص كل التفاصيل والاستماع لكل زعيم أو كبير يرغب فى الإدلاء بشىء، ومواصلة حوار الإقناع العام حتى يتم كشف الخطأ أو الجرم موضع النظر وتوضيحه للجهة المخطئة، وموافقة كل الأطراف على ذلك. فى الحالات التى يسمح فيها الطقس، تعقد المحكمة أو اللقاء فى ظل إحدى الأشجار وتكون المشاركة فيه مفتوحة للجميع. حيث يأتى إليه كثيرون ليسوا أطرافاً مباشرين فيه لمشاهدته والمشاركة فيه. وكثيراً ما يحدث أن يضطر الناس إلى الجلوس تحت أشعة الشمس الحارقة، عندما تمتلئ كل الأماكن تحت ظل الشجرة. وتدار الكلمة فى هذا الاجتماع بواسطة مؤسسة يُطلق عليها اسم "اقاملونق" (وتعنى حرفياً الذى يقبل الكلام). يقوم هذا الرجل الذى تُعينه المحكمة لهذا الغرض المحدد، بالجلوس فى وسط الاجتماع، ويردد بصوت حاد الكلمة الأخيرة أو جزءا من الجملة الأخيرة – وأحياناً كل الجملة – التى قالها متحدث. وليس بوسع أى شخص أن يتحدث من غير انتباه وترديد "اقاملونق"، وبينما لا يردد إلا القليلون منهم جملاً بأكملها، يقوم "اقاملونق" أحياناً بإعادة صياغة الفكرة بطريقة أفضل وأكثر إقناعاً، وقد يرفض ترديد جملة ما لأنها يمكن أن تقدح فى الأهداف العامة.

بعد التوصل إلى تسوية نهائية، يقام، فى حالات كثيرة، احتفال بهذا الصلح سواء كان ذلك أمام الزعيم أو فى مكان خاص. حينها فقط يمكن الحديث عن أن المسألة قد حُلت وعن عودة الانسجام والتوازن مرة أخرى.

ولا تشارك النساء فى المحاكمات إلا كمتقاضيات أو كشاهدات. فى العادة فإن الرجال هم الذين يقومون بالمقاضاة. بينما تحضر المرأة التى تضررت، فى قضايا الجنس، المحاكمة كشاهدة مهتمة أكثر منها متقاضية. غير أن بعض النساء يقمن بأدوار هامة كمتقاضيات، إما لغياب الرجل فى أسرهن، أو لتميزهن بشخصيات قوية ومهارات خطابية عالية.

وتدعم السلطات الروحية للموت والحياة عبر المباركة واللعن نفوذ زعيم الدينكا وسط أتباعه. وبرغم أن هذه السلطات المقدسة والروحية تتركز فى الزعماء، إلا أن أعضاء السلالات القائدة يشاركون فيها أيضاً. بينما لا يتمتع العامة بقوى مماثلة، الأمر الذى قاد إلى الإشارة إليهم بسخرية، أحياناً، بوصفهم "ميكار أقيير" والتى تعنى: فحول الثيران السوداء ذات القرون

المنفرجة"، (إذ إن الفحل ذا القرون المنفرجة يجد مشقة كبيرة فى مقاتلة فحول الثيران التى تملك القرون الحادة المصوبة إلى أعلى).

ويمكن أن تكون السلطة الروحية للزعيم أمراً رهيباً، غير أن الدينكا يعلمون أن الزعيم، لا يجوز أن يخطئ ويقوم بإثارة القوى المقدسة دون وجه حق. ذلك أن سوء استغلال مثل هذه القوى يجعلها غير مؤثرة. وهذا هو ما يجعل العقوبات الدينية للزعيم أقل إثارة للرهبة مما قد يبدو من الوهلة الأولى. لذلك يظل الاقناع هو وسيلته الرئيسية.

ويتعارض منصب الزعيم على وجه الخصوص مع الإكراه المادى - فمن الناحية النظرية يُفترض الا يشاهد الزعيم حتى منظر الدماء. غير أنه فى الحالات التى تتعرض فيها قبيلته للعدوان، ويصبح استعمال القوة أمراً ضرورياً لرده، فإنه يُنتظر من الزعيم مباركة المحاربين والدعاء لهم بالنصر، بينما يكون هو فى مكان بعيد عن أرض المعركة. أما فى الحالات التى ينشب فيها هذا القتال بين أفراد قبيلته نفسها، فإنه قد يرسم خطاً رمزياً، ويضع عليه حربته المقدسة، ثم يدعو على المجموعة التى تتجاوزه مخالفة أوامره بالتوقف عن القتال. يدعو عليها بالتعرض للإصابات الجسيمة والخذلان.

وقد يبدو متناقضاً، بالنظر إلى التأكيد على مقدرات الزعيم فى الإقناع، أن تكون الحراب هى الرموز لسلطته. ولكن لأن الحراب يُدعى بها لإحلال اللعنة فإنها رمز لإكراه ضرورى ولكنه مُهيمَن عليه. وترتبط سلطة الحربة بسلطة الإله "رينق"، الذى يعنى حرفياً اللحم. وهو الإله الذى يستمد منه الزعيم الأكبر لنقوك لقبه، ويستمد منه كل زعماء الدينكا سلطاتهم ونفوذهم. فى ساعات الليل، عندما يكون الجميع نياماً، يقال أن سادة حربة صيد السمك "يدعون الكلمة" ويصلون من أجل النور المقدس. والدينكا يؤمنون بأن "رينق" يتبدى لهم أحياناً فى شكل نور. كذلك يسود الاعتقاد بأن الحراب الرمزية لزعيم نقوك الأكبر تلتمع بقوة أثناء الليل عندما تريد توجيه انتباه الزعيم لأمر ما. ويمكن أن يصاحب هذا اللمعان تبدى المعلومة المراد إيصالها، أو قد تظهر الحقيقة المقدسة فى وقت لاحق. مع ذلك ففى الوقت الذى يمثل فيه رينق مصدراً للنور المقدس، وبالتالى للدعوة الحكيمة المقنعة، فإنه مصدر أيضاً للعنة المقدسة وللموت. لذلك فإن الكشف من خلال الحراب هو رمز للحق الذى يستبطن

الحجة وكذلك المقدرة على تحطيم الشر وعملائه من البشر.

ولقد كان هذا التشديد على أهمية الإقناع فى مجتمع الدينكا، وامتداداته المقدسة والزمنية، هو الذى دفع ببعض الدارسين إلى أن يخلصوا لافتقاد هذا المجتمع إلى الجانب الإكراهى الضرورى فى المفهوم الغربى للقانون. إلا أن القانون، بوصفه مفهوماً معيارياً تنشده، بصورة عامة، كل المجتمعات، لأغراض النظام فى داخلها، يجب أن يتم النظر إليه فى سياقه المحدد. إذ على الرغم من التشابه الأساسى بين كل النظم القانونية، إلا أن كل قانون يتميز بسياساته الاجتماعية الخاصة التى يرمى إلى خدمتها. وهو يتبنى فى هذا الإطار وسائل وطرق تميزه من النظم الأخرى، ولكنه يظل محتفظاً بتلك المبادئ الأساسية العامة التى تتصف بها كل الأنظمة القانونية.

ومن المعالم البارزة واللافتة للنظر فى قانون الدينكا، الأثر المحدود للزعيم فى الأوقات السابقة لظهور النظم الحكومية الحديثة وشيوع الالتجاء إلى العون الذاتى من خلال العنف. ولكن ليس من السهولة القول ما إذا كانت هذه العوامل هى معالم طبيعية للنظام القانونى للدينكا، أم أنها لازمة صاحبت لجوء الشباب المتزايد لاستخدام العنف. من جانب أخر فإن الأوضاع المضدلربة للقرن التاسع عشر لا يمكن أن تكون قد مرت من غير أن تؤثر على النظام القانونى. لذلك فإنه بينما يشيع فى أدبيات الدينكا الحديث عن الأيام "التى عاش فيها الناس بقوة سواعدهم" إلا أنه يبدو أكثر توافقاً مع مثالية نظريتهم القانونية، النظر إلى ذلك بوصفه شرا لازم "العالم الفاسد" أكثر منه تطورا طبيعيا للنظام القانونى لمجتمعهم.

الفصل الثامن

الشيخوخه

المفارقة فى الشيخوخه

يوقر الدينكا الشيخوخة ويعشقون الشباب. فالأول يعنى لديهم المعرفة والحكمة بينما يمتلىء الثانى بالحيوية والتيقظ. فهما يكملان بعضهما البعض، إلا أن أحدهما يستند إلى آمال مستقبلية بينما ينهمك الآخر فى ذكريات عن الماضى. وحتى يعوض الشباب عن حرمانهم الاقتصادى فإنهم يلجأون إلى الاستغراق الزائد فى الجماليات، وفى المقابل يعوض كبار السن عن فقدانهم للحيوية، التوقير الشديد والشعور بالأهمية الذى يجدونه، حتى عندما تنتقل مقاليد الأمور بشكل فعلى إلى الجيل الأصغر سناً. والأغانى التالية توضح هذا التجاذب المزودج بين الأمام والوراء فى حياة الدينكا:

إنهم يقولون أن مانقار أكثر من أن يستحقه رجل شاب،
فهو يناسب رجلا أكبر سناً،
لكننى لن أتركه.
ألست بنفسى ذلك الرجل الكبير؟
ألم أربه بنفسى؟
الم يكن الرجل المسن رجلاً شاباً؟
ألن يصير الرجل الشاب يوماً ما، كبير السن؟
فى الشتاء القادم سيتناقل الناس الشائعات ويتمنون الأمنيات.

"هذه الثيران أفضل أن تكون لرجل شاب".
أين كان هذا الرجل الشاب فى أيام الصيف،
عندما اشتريتها من السوق
لم يغب منهم أحد، فتاة أو رجل شاب،
فقد كانوا جميعهم فى السوق.

وعلى الرغم من أن قيم النظام ومثله تتمركز حولهم، إلا أن كبار السن يقضون ما تبقى من حياتهم يجترون ذكريات شبابهم ويجدون متعة كبيرة فى سرد تجاربهم وتمجيد ماضيهم إلى درجة التحريف لتبرز صورة إيجابية عن أنفسهم. ويدخل هذا فى إطار السعى لرسم نموذج مثال عن الذات، ولكنه يعمل أيضاً كوسيلة للإلهاء عن المخاوف المتصلة باقتراب النهاية، التى هى رحلة تدريجية نحو السفح. وهى رحلة مثلت فيها مرحلة الرجولة، عندما كان بوسع الرجل الاستمتاع بملذات الحياة العريضة، السعة والانبساط. وكانت قمتها سهلاً مديداً. أما تجاوز الجبل نزولاً نحو السفح فهو يمثل الإحباط والتدهور:-

جميل أن تترعرع فى العمر،
نعم يا ثورى، اقانى،
جميل أن تترعرع فى العمر،
لكن الكِبَرَ أمر سيئ
نعم، يا ثورى، ماكير،
لكن الكِبَر أمر سيئ.
فهو يقود الرجل نحو الضعة.

وكما هو معتاد فى الأغانى، هناك ميل للمبالغة، إذ إن الضعة كلمة أقوى بكثير من أن تعبر عن مكانة كبير السن عند الدينكا.

فى هذه المرحلة من العمر يكون الرجل قد تجاوز مخاوفه المتصلة بتعدى الأبناء على سلطاته وأخذها منه، إذ إنهم سيكونون أنفسهم قد تزوجوا وأسسوا أسرهم الخاصة بهم وانتقلوا. أيضاً ستكون أمهات الأبناء الكبار، فى الغالب الأعم، قد وصلن إلى سن لم يعدن يمارسن فيها نشاطاً جنسياً، مما يعنى أن تأثير الأبناء عليهم، والذى يمكن أن يكون موجهاً ضدهم، من خلال هؤلاء الأمهات، سيكون قد تلاشى أو فقد قنوات توصيله. وفى كل

الأحوال فإن هؤلاء الأمهات أنفسهن سيكن بعيدات عن أبنائهن المتزوجين، وخاصة الذكور منهم - والذين تفرض قواعد الاجتناب بين أقارب النسب تجنب علاقات وثيقة معهم. ولكن عادة ما يلجأ الرجل كبير السن الذى توقفت علاقاته الجنسية مع زوجته أو زوجاته الكبيرات، عادة ما يلجأ إلى التزوج بامرأة أصغر. وذلك حتى فى الحالات التى يكون فيها على ارتباط عاطفى وثيق مع زوجته الكبيرة، بل قد تدفعه هى نفسها إلى مثل هذا الزواج. إذ سيعود عليها ذلك بفوائد تتمثل فى خدمات هذه الزوجة لها، بالإضافة إلى أنها ستكون راغبة فى وجود أطفال يشيعون الحيوية حول المكان. ذلك أنها بينما تساعد فى رعاية والاعتناء بأحفادها، إلا أن هؤلاء يجيئون ويذهبون، فى الوقت الذى يعود فيه أبناء الزوجة الصغيرة بعد فترة الفطام ويبقون فى المنزل.

وتتميز الحياة الأسرية لكبار السن من الأزواج، أو لرجل مسن وامرأة شابة، بالإخلاص والود لبعضهما البعض فباستثناء الحالات التى يمارس فيها الرجل مهامُ عامة، أو يكون شخصاً بارزاً فى المجتمع، بحيث يظل وقتاً طويلاً بصحبة آخرين، فإن مثل هذين الزوجين، عادة، ما ينسحبان عن الحياة العامة ويهيئان لأنفسهما حياة هادئة ومستقرة. وإذا كان كلاهما كبير السن، فإن حياتهما الطويلة التى قضياها معاً، تكون سبباً فى ودهما المتبادل ودليلاً عليه. هذا بالإضافة إلى إنجازهما المشترك المتمثل فى تربية أبنائهما لكى يصيروا رجالاً ونساء. وفى الحالات التى تكون فيها الزوجة امرأة شابة، فإن زواجها هو التزام منها بالإخلاص لرجل فى وقت الحاجة. ويشكل التصدى لهذه الحاجة تحدياً بالنسبة لها، ومصدراً لشكره وعرفانه. ولكنه لا يظل مستقبلاً لأفضالها فقط: إذ إن الرجال ينخرطون فى الحياة العامة أكثر من النساء. لذلك فإن اعتزال الرجل لهذه الحياة وتوجيه اهتمامه لشئون زوجته المحدودة، يمثل امتيازاً نادراً، إليه يعود الفضل فى جزء من اخلاص ومودة الزوجة. هذه الاعتبارات المتداخلة والاعتماد المتبادل تدعم حياة زوجية سعيدة، فى حين أن المراقب العابر قد لا يلاحظ غير غياب التوازن عن تلك الزيجة. وكثيراً ما يقيم مثل هؤلاء الزوجين بعيداً عن حظيرة الأبقار، التى عادة ما تقترن بالرجال. مما ينحو لدعم الملاحظة بأنه: كلما كبر المرء كلما رجع إلى أوضاع النساء والأطفال. إلا أن هناك سبباً مباشراً لذلك، يتمثل فى أن ارتباط كبار السن بالأرض والزراعة أكبر من ارتباطهم بالأبقار. ولكن ذلك لا يعنى تخليهم الكامل

عن الأبقار. فهم لا يباشرون الإشراف على رعاية الأبقار، فحسب، بل يظلون متمسكين بملكيتها وحقوق التصرف فيها. وهذا هو الوقت الذى يمكن أن تصل فيه التوترات مع الأبناء نقاطاً حرجة، حيث يستغل بعض الأبناء كبر سن آبائهم ويهربون بالأبقار إلى المعسكرات وأماكن السكنى البعيدة. وهؤلاء هم الأبناء السفهاء، الذين يحتاج الآباء فى مواجهتهم لمساعدة وعون الزعماء. غير أن الأسلوب الذى يحكم تفكير الدينكا يتيح لمثل هؤلاء الآباء نفوذاً يمكنهم من ممارسته حتى وهم فى فراشهم، إذ إن هؤلاء الأبناء سينتهون، آخر الأمر، إلى كارثة. وإذا قيض لهم أن ينجوا من هذه اللعنة فإنهم، فى نهاية المطاف، سيعودون مرة أخرى إلى حظيرة الأسرة.

النصح مع التراضى

ولا يجب النظر إلى القاعدة التى تفرض على الابن الاستمرار فى إظهار عاطفة البنوة لأبيه، باعتبارها حكماً باستمرار نفوذ الأب بوصفه صاحب القرار الرئيسى فى شئون الأسرة. إذ إن تولى الابن لمسئوليات الأب عادة ما يكون قد بدأ قبل فترة طويلة من اكتماله الفعلى بوفاة الأب أو بلوغه الهرم. بل إن كثيراً من الآباء يبدأون بحكمة وبعد نظر فى إعداد أبنائهم لتولى هذه المسئولية منذ تدشينهم. لكن هناك آخرين يقاومون حتى اللحظة الأخيرة. بالطبع يعلم الدينكا أنه بعد مرحلة معينة من العمر، يفقد كبار السن صلتهم بواقع الحياة المتغير، ولكن ذلك لا يقلل من شأنهم، لأن النظام الاجتماعى بكامله موجه لبقائهم فى مركز الاهتمام. لحل هذه المعادلة الدقيقة يلجأ الدينكا لاستخدام القاعدة التى حاولت أن أُعبر عنها بعنوان هذا الجزء: "النصح مع التراضى".

ويتلخص جوهر قاعدة "النصح مع التراضى" فى وجوب استشارة كبير السن والاستماع إليه حتى إذا لم يتم الامتثال لرأيه، أو تم الاعتراض عليه بصراحة، كما يحدث أحياناً، إذ يمكن أن يمتعض كبير السن من المعارضة، ولكن من الممكن إقناعه أيضاً وهو فى كل الأحوال سيُقدِّر الإستماع لرأيه. كما أن حكمة معارفه المتراكمة كثيراً ما يكون لها صدى مفرح، حتى إذا جانبت الحقيقة أحياناً. إلا أنه مهما يكن مقدار الحقيقة الذى يتضمنه حديثه، فإنه يحمل معه وزن ثقل سنه والاحترام الواجب تجاهه.

ويتلازم مع واجب الاستماع لكبير السن فى المنزل أهمية مشاركته كمتقاض أو كعضو فى محكمة الزعيم. وكثيراً ما يقود صبى صغير أو امرأة، رجلاً طاعناً فى السن، أحياناً أعمى أو قريباً من الهرم، إلى محكمة الزعيم للمرافعة فى قضية بقرة. وليست الفكرة هى أنه سيكون أفضل من يترافع فى هذه الحالة، بل أنه سيتم الاستماع إليه. حتى فى الحالات التى تتراكم فيها قضايا هامة، فإن قضيته ستكون أول ما يُنظر فيه. وكثيراً ما يحدث أثناء قضايا ذات أهمية بالغة، أن يرتفع صوت أحد المشاركين فى المحكمة قائلاً :- "أيها الناس استمعوا لكلمات رجل كبير السن". وسيكون هناك القليلون من الدينكا، إن وجدوا، الذين سيعترضون على مثل هذا الرجاء ويواصلون تقديم قضاياهم أو يدفعون بقضية رجل أصغر سناً. إلى ذلك فإن هناك قدر من المحاباة عند الحكم لصالح رجل مسن. لكن فى الحالات التى تصبح فيها مطالب كبير السن غير معقولة فإن الدينكا لا يترددون عن قول ذلك أمامه. وهو ما يتقبله كبار السن بروح سمحة، ما التزم قائلوه بالاحترام الواجب. ذلك أن عدم الاحترام يعمى عيون الدينكا عن الحقيقة بنفس القدر الذى يفتحها عليها الاحترام.

ولا يغيب عن وعى الدينكا، بمن فى ذلك كبار السن، الوضع المتميز لكبير السن فى المجتمع، كما أنهم لا يسعون لإساءة استعماله. لذلك فإن الحالات التى يتم فيها إحضار رجل كبير إلى محكمة الزعيم، عادة ما يكون السبب فيها: أن المجرم كان مسيئاً بصورة تجاوزت كل حد، أو أن الزعيم لم يبد اهتماماً كافياً، أو أن المحكمة كانت مكتظة جداً، أو أن القضية مستعجلة. هذا ويثير وضع وحالة الرجل المسن مشاعر وأحاسيس الحماية لدى الدينكا. لذلك فإنه إذا ما كانت حاجته للبقرة المتنازع عليها (إذا أخذنا واحداً من مجالات النزاع) بالدرجة التى تمس أمنه الاجتماعى، وجب على أحد أقاربه أن يسد هذه الحاجة. وإذا لم يكن له قريب قادر على ذلك، فيجب أن يضطلع بذلك الزعيم. هذه الاعتبارات معاً تدعم العدل لصالح الرجل المسن، بدلاً من ارتكاب ظلامة بالحكم ضده.

وكما يحظى كبير السن بالأسبقية فى الاستماع إليه كمتقاض، فإن الشئ نفسه يحدث بوضفه عضواً فى المحكمة أو الاجتماع العام. وأذكُر كيف أن عضواً طاعناً فى السن لسلالة باجوك كان يدافع، فى قضية خلافة الزعيم دينق مجوك، لصالح القاعدة التى تقول بأن خلافة الزعيم يجب أن تكون لابنه،

إذا كانت سنه تسمح بذلك. وقد سرد الرجل المسن النسب الكامل لباجوك، ذاكراً كل زعيم وابنه الذى خلفه. ونسبة لعدم وجود خلاف يذكر حول هذه النقطة، ولطول تعداده الذى لم يكن ضرورياً، فقد ارتفعت بعض الأصوات محتجة على ذلك. ولكن الغالبية العظمى من الحاضرين ردوا فى صوت واحد: "دعوا الرجل المسن يتحدث". وكان مما ذكره بعد ذلك: "إننى لن اغفل ذكر اى واحد منهم، بل سأذكرهم جميعاً واحدا، واحداً ويجب الا يقاطعنى أحد". ولم يرتفع اى صوت بعد ذلك ضده.

غير أن تعامل الدينكا مع كبارهم ليس محكوماً كلياً بدوافع تطوعية، إذ إنهم يؤمنون بأن كبار السن يأتون بعد الأسلاف مباشرة فى قدراتهم على اللعن. وهو ما يعتقدونه أمراً مهلكاً. لذا يجب تقديم واجب الاحترام لهم، حتى من منطلق الاعتبارات الأنانية الذاتية. ويكمن الحل فى السعى للاستفادة من حكمتهم، أو على الأقل إعطائهم الشعور بالأهمية، حتى إذا لم تكن أفكارهم تستحق ذلك. ومع الزمن تتنامى صلاحية هذه القاعدة، بينما تتناقص فاعليتها، وذلك مع تقدم العمر بكبير السن - إلى أن يصل مرحلة يصبح فيها الاستماع إليه مسألة تتصل بالمودة ورحابة الصدر. حينها يكون الرجل قد شارف الهرم. ولكن نادراً ما يتم بلوغ هذه المرحلة، إذ إن القليلين هم الذين يعيشون حتى يبلغوا هذا العمر. ولكنهم عندما يفعلون، فإنهم يجدون رعاية مكثفة دون أن يكون بإمكانهم فرض وجهات نظر مفارقة لأزمانها. من هنا فإن مبدأ الاعتماد المتبادل بين الأنواع والأعمار مع تكريس مصالح كبير السن، وعرفانه المكافئ، تتفاعل جميعاً لتحقق قدراً معقولاً من الوحدة والانسجام، حتى عندما يكون هناك شعور بعدم المبالاة بكبير السن، أو بالنفور منه - كما يمكن أن يحدث فى حالات نادرة.

الحاجة والمكافأة

ويكوِّن الجهد الذى يبذله الدينكا لأجل كبار السن جزءا من التوقعات التى يعبر عنها المثل: "من ولدته هو الذى سيكون خلاصك". فالتناسل يعنى ضمناً الامتنان من جانب الولد تدعمه قوى اللعن لدى الأب. غير أن عاطفة البنوة لا تقتصر على أن تكون تبادلاً أو تسديداً لدين سبق، بقدر ما هى تضمين للعلاقة التى تربط الآباء بالأبناء. فالرعاية الجيدة للأبوين جزء من مُثل النظام

الإجتماعى لدى الدينكا. لذلك فهى ترفع من شأن الأبناء فى المجتمع، كما أن دوافعها ذاتية، إن لم يكن مرغوباً فيها من غير قيود ارتباط.

كما أن مطالب كبار السن لا تشكل فى ذاتها أمراً صعباً. ذلك أن حاجات الأب، الذى يُنتظر منه أن يظل ربًا للأسرة ومسيطراً على مصادرها حتى موته، هى حاجات عاطفية أكثر منها مادية، يعبر عن ذلك مطالبته بالسيطرة المستمرة أكثر من مطالبته بالفوائد المادية التى يمكن أن تعود عليه. ولقد رأينا فيما سبق أن الأبناء يكتسبون النفوذ فى الأسرة على دفعات صغيرة، ويزاولون السيطرة الفعلية ببلوغ الأب مرحلة الكبر. إلا أن هذه عملية دقيقة تتطلب أقصى درجات الحكمة. وباستثناء الآباء الذين يشغلون مناصب عامة والذين يستأثرون عادة بالسلطة ويظلون فى مواقعهم، يلجأ معظم الآباء من تلقاء أنفسهم لإشراك أبنائهم، بل ويقومون بإسناد مواقع ومهام أساسية لهم، بشرط الا يشكل ذلك تقويضاً أو تهديداً لنفوذ الأب، بوصفه الرئيس الأعلى الذى يملك القرار النهائى والحاسم. ولا يمثل هذا إلا جانباً من حاجة أوسع لإعطائه الشعور ليس بالسيطرة، فحسب، بل باستحقاقه لها أيضاً. يدخل فى ذلك استشارته فى كل الأمور، والاستماع إليه بعناية، و الثناء عليه بما يستحقه إن كان محقاً، ليس بطريقة مبتذلة رخيصة، ولكن فى حكمة ووقار. ومعارضته عندما يكون مخطئاً، ولكن فى احترام واعتراف بمكانته. لذلك فإن رعاية الابن لأبيه المسن هى فى الواقع تقييد للتطلعات الذاتية للابن أكثر منها مطالبة لعون إيجابى منه.

وفيما يتصل بالعلاقات مع دائرة العشيرة الواسعة، تتلخص حاجات ومطالب الرجل المسن فى العناية الخاصة بالواجبات والحقوق العشائرية، ويتمثل ذلك عادة فى احترام حقه فى مهور الزواج وأموال النسب. ولكن المجتمع يحترم ويسارع إلى أداء حقوق، يتم فى العادة عرقلتها والتباطؤ فيها، إذا كانت تخص لرجلاً مسناً. لأن غضب هذا الرجل، فى حالة عدم الإيفاء بها، يُعتبر أمراً معيباً لمنازعه، ويمكن أن تكون له آثار روحية خطيرة. ولكن المسألة لا تقتصر على الآثار الروحية فحسب، بل يتدخل الزعيم أيضاً ويفرض عقوبات وضعية للتذكير، مثل دفعيات الترضية المضاعفة، وفى هذه الأيام، عقوبات جنائية أيضاً: وهى معالجات كثيراً ما يتم تنفيذها فى الحال ومن دون التباطؤ الذى يصاحب الإجراءات المعتادة.

هناك بالطبع مسنون تكون حاجاتهم المادية أساسية. فقد يكون الأب رجلاً

فقيراً بينما يتمتع أبنه بثراء معقول. ويتمثل أحد أسباب هذا الاحتمال في الدفعية المعاكسة التي يتلقاها الزوج من نسبائه بهدف التأسيس لحياة الزوجين الشابين. أيضاً قد يصبح الرجل بلا أبقار كافية لتزويج أبنائه، وقد تموت أبقاره، بينما تتضاعف أبقار الابن، كما يمكن أن يستمر الابن في تلقى أنصبة فى مهور أخواته من النسب، فى الوقت الذى تتضاءل فيه مصادر ثروات الأب. ولكن مثل هذه الحاجة المادية الأساسية للأب هى الأكثر خطورة فى نظر الدينكا، إذ أن أبا رجل قادر يجب ألا يكون أبداً محتاجاً. فذلك أمر مشين لابد من معالجته سريعاً، وبمساعدة الزعيم إذا اقتضت الأمور. وفى الحالات التى يكون فيها الأبناء أنفسهم غير قادرين على مد يد العون، يمكن أن يطلب الزعيم ذلك من أى قريب آخر، حتى لو كان من الأقارب البعيدين. أما بخلاف ذلك، فإن على الزعيم نفسه أن يتحمل مسئولية الأمن الاجتماعى لهذا الرجل المسن.

وتقوم الزوجة، التى عادة ما تكون أصغر سناً من الزوج حتى إذا كانت زوجته الأولى، وأحياناً تكون فى سن ابنته، تقوم هذه الزوجة بقضاء الاحتياجات اليومية المباشرة لزوجها وتوفر الرعاية اللازمة له. كذلك هناك تقليد يترك الرجال المسنين جداً تحت رعاية الأطفال، الذين يوفرون لهم حاجاتهم البسيطة مثل ماء الشرب، والنار وفروع الأشجار الصغيرة ومعدات الجلوس. ويقوم الأطفال فى كل الأحوال تقريباً بقيادة العُمى من الرجال.

فى المقابل فإن اعتماد الأم المسنة، المادى والعاطفى، على أبنائها يزيد كثيراً عن اعتماد الأب. وكلما كانت عزلة الزوجة عن زوجها كبيرة انفصلت عن مصادرها المعيشية، وزاد اعتمادها على أبنائها. هنا يعمل منطق العلاقات الاجتماعية للدينكا فى صالحها، حيث توفر لها روابطها العاطفة القوية مع أبنائها ضماناً اجتماعياً يتمثل فى الاهتمام المستمر لأبنائها بأوضاعها المعيشية. هناك بالطبع قواعد الاجتناب التى تعوق الاتصال الحر للأبوين مع النسباء، غير أن رعاية الأم لأحفادها تتيح لها روابط أقوى مع أبنائها مما هو متاح للأب. وفى كل الأحوال فإن المسألة غاية فى البساطة: فالأم هى الأكثر حاجة بالمقارنة مع الأب، والأبناء لا يخذلون أمهاتهم أبداً.

وتبدو الأمور أكثر تعقيداً فى حالات الأسر المتعددة العائلات حيث يقف الاحتراس المتشدد ضد مشاعر الغيرة حجر عثرة أمام أى إظهار جزئى للمودة، بما فى ذلك تقديم العون المادى. وقد تشجع بعض الأمهات أبناءهن

على تقديم الهدايا لضراتهن أكثر من أنفسهن. فإذا عمل هذا النظام بطريقة جيدة، فإن تبادل الهدايا لأمهات النسب، قد يؤدى إلى إرضاء وتغطية حاجات كل الأمهات. ولكن الأمر لايسير بهذه الطريقة دائما. فهناك من الأبناء من تكون حساسيته عالية لهذه المُثل، لذلك فهو يعمل بها، بينما هناك آخرون يهتمون بامهاتهم فقط. لذلك يتم اللجوء أحياناً، إلى خليط مركب من كل هذا، حيث يتكفل الأبناء بحاجات أمهاتهم بطريقة خفية. ولا يقتصر ذلك على الأمهات وأمهات النسب فحسب. فحتى فى الحالات التى لا تكون فيها حاجة الأب ملحة، إلا أن نفوذه المادى والعاطفى، يفرض على الابن إعطاء ما كسبه للأب بدلاً من الأم، بل إن الأمهات أنفسهن قد يكن أول من يوجه الأبناء للالتزام بهذه الأعراف والتقاليد.

وهكذا يتضح أنه بقدر ما تكون الأسرة لدى الدينكا نظاماً متشابكاً يحفز المثل المتصلة بالعلاقات الإنسانية ويعترف فى نفس الوقت بالعصبية، فإن مقابلة حاجات الأبوين هى كذلك خليط معقد من الواجب والرغبة. كما أن المكانة النسبية للأب والأم فى هذا الإطار هى جزء من تعقيدات العلاقة بين الأب والأم التى تتجاذب فيها القوى وتُحيِّد بعضها بعضاً عن طريق تخصيص النفوذ المادى لأحدهما بينما يحوز الآخر النفوذ العاطفى. وفى العادة يقابل كلاهما ما يستحقه من التقدير، بما يؤدى إلى إخماد بؤر التوتر والنزاع، ولا يترك اثراً يقود إلى ان يكون الأبناء ممزقين.

سنوات الوحدة

تقلل المكانة المركزية للمسنين فى مجتمع الدينكا كثيراً من غربتهم عن هذا المجتمع. وحتى الآن لا يتيح لهم متوسط العمر المتوقع العيش حتى مرحلة الهرم المحرجة، بل يموتون فى العادة قبل ذلك. ولكنك قد تجد بعضاً منهم يعيشون حتى أعمار متقدمة، قد تزيد، بتقديرات تقريبية، عن المائة عام. وهؤلاء الذين يصلون هذا العمر ينتمون إلى فئات عمرية متلاشية، ويكونون شهوداً على ذهاب معظم أندادهم وظهور العديد من حلقات الأنداد الجديدة. كذلك يصحب هذا التغييرَ البشرىَّ تحول اجتماعى عميق وواسع، بحيث يصبح هؤلاء المسنون، برغم التخلف الظاهر للنظام الاجتماعى، أكثر قدماً منه، حتى وإن ظلوا اعمدة مثله وقيمه الاجتماعية.

ويلجأ المسنون من الدينكا فى العادة لتقويم الحاضر بالمقارنة مع تلك الأيام الماضية الجميلة. وكثيراً ما يعبرون عن نظرة ترى أن الأجيال الحالية ضلت طريق المثل التى وضعها الأسلاف، وأن الأسلاف سيغضبون فى حالة عودتهم، ولكن حتى فى قبورهم فإنهم يراقبون الأحوال، ويجب إلا يتم التقليل من قدرتهم على رؤية الأشياء. ثم، كما لو أن غياب الأسلاف يحد من قدرتهم على تبين الأوضاع، يهدد المسنون كثيراً بإطلاعهم على أحوال التحول التى حدثت بعدهم. ورد فعل الأسلاف مهاب ومروع بدرجة لا يكون معها موجهاً نحو الأفراد، بل هو موجه دائماً نحو المجموعة، بهدف تصحيح مسارها.

وتكون الام التحول أكثر ماتكون قسوة ومرارة عندما تمس فرداً مسناً. لذلك كثيراً ما تسمع رجلاً مسناً وهو يغمغم لنفسه فى حنق لأن ابناً عاقاً قد أنكر له وضعاً، أن أو قريباً ناشزاً انتهك له حقاً عشائرياً، أو لهذا السبب أو ذاك مُست نزاهته وشرفه وكرامته. ويتحدث المسنون المتبرمون بصوت عال مع أنفسهم، موجهين حديثهم لأسلافهم وللإله، يشكون ذهاب أندادهم، الذين تركوهم وحدهم فى حالة من الوحدة بين "الأطفال". ويتمنون بصوت مسموع أخذهم حتى ينضموا للأموات من أندادهم. غير أن الرغبة، فى الحياة والخوف من الموت لا يفارقهم تماماً. فقد عُرف عن بعض المسنين أنهم يتحولون فى دعائهم سريعاً ويسألون فى اللحظة التالية البقاء لكى يكونوا مرشدين للصغار. لذلك فإن معظم هذه الدعوات المسموعة للموت، هى فى الواقع محاولات للتأثير على تصرفات وسلوك الأحياء.

مثل هؤلاء المسنين، وخاصة إذا جاءوا من خلفيات متواضعة لا تستوجب احتراماً زائداً، يتعرضون لمخاطر النظر إليهم باعتبارهم أغبياء، ويصبحون موضعاً للتندر وخاصة من جانب الأطفال. وعلى الرغم من تعدد الأسباب التى قادت إلى التقليد الذى لا يسمح بترك زعماء الدينكا يموتون موتاً طبيعياً، بل يتم دفنهم أحياء عندما يصيرون فى عمر متقدم يكونون فيه غير قادرين على التصرف أو عندما يحسون أن أجلهم قد دنا، على الرغم من تعدد أسباب ذلك، إلا أن واحداً منها قد يكون السعى لتجنيبهم الضعة المترتبة على الهرم والشيخوخة.

الفصل التاسع

المـــوت

الدين وعناصر الموت والحياة

سبق أن عرفّنا القارئ فى الأجزاء الفائتة من هذا الكتاب بمفاهيم الدينكا عن الحياة والموت والخلود. وسأقدم هنا تفاصيل تتعلق بالعناصر المسئولة عن الحياة والموت، ما يمكن عمله لإيقاف الموت، وماذا يحدث بعد الموت. وهى أسئلة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين عند الدينكا. والدينكا أناس غاية فى التدين. بل هم فى نظر بعض المراقبين أكثر فئات الشعب السودانى تديناً، غير أن الدين عند الدينكا ليس مسألة تتصل بالروح فى عالم آخر، بل هو متجذر فى مطالب الدينكا المتمثلة فى حياة آمنة فى هذه الدنيا، والمشاركة المستمرة بعد الموت.

ووفقاً للتراتبية الأسطورية للدينكا، فإن الرب هو الأكثر تسامياً وعلواً، بينما تحتل أرواح مقدسة أخرى مواقع أقرب للإنسان، وهى التى يُشار إليها برموز شائعة فى البيئة المحيطة. أما الأكثر قرباً للإنسان فهم الأموات، الذين يقدم نسلهم البرهان على وجودهم الروحى وقربهم ووجودهم المادى. وهذا الاعتقاد فى نظام متشابك من آلهة مقدسة متعددة هو الذى أدى إلى طمس الطبيعة الواحدية لديانة الدينكا. ذلك أن الدينكا يؤمنون بأن الرب واحد ولا يستطيعون تخيله متعدداً.

غير أن الدينكا يولون الاهتمام الأكبر، فى حياتهم العملية، لأسلافهم وأرواح العشيرة ("ييث" والمفرد منها "ياث") والأرواح الطليقة ("جاك" والمفرد

"جوك")، أكثر من اهتمامهم بالرب. وهناك ثنائية أخلاقية ووظيفية هامة بين هذه الفئات الروحية. إذ إن أرواح الأسلاف وأرواح العشيرة منحازة وتوفر الحماية، بينما تكون الأرواح الطليقة حرة، وفى الغالب الأعم، مدمرة. مع ذلك فإن هذا الدمار الذى يمكن أن تلحقه "جوك" ليس سلبياً على الدوام: إذ يمكن أن يكون لجوءا لشر ضرورى من أجل فرض أو إعادة فرض أو تأكيد فضيلة. لذلك عندما يتم إغضاب أحد الأسلاف أو إحدى أرواح العشيرة، فإنهما يطلبان من "جاك" معاقبة الشخص الآثم. ومن ثم فإن الحظ هو هدية من "بيث"، بينما تأتى النكبات من "جاك"، سواء كان ذلك بمبادرة منهم أو بالاتفاق مع "بيث" وإذا ما تمكن شخص ما من التعافى من مصيبة، فهذا لأنه قد تم إرضاء "بيث" الذين قاموا بدورهم بالإيعاز لجاك بتعليق العقوبة. أو إذا كان "جاك هم الذين بادروا بذلك، فإن بيث هم الذين دفعوهم لإيقاف الأذى".

وتعمل "جاك" كذلك كقوة شرطة لأى شخص يستطيع بنجاح استقطاب دعم ومساعدة الأرواح. حيث يستطيع شخص شرير أن يسلك الطريق المباشر للحصول على مساندة "جاك"، وذلك باسترضائها، وهو نوع من الرشوة تقبله "جاك" دون تردد، لطبيعتها الفاسدة أصلاً. أما الطريقة الصحيحة فتبدأ باستعانة الشخص المظلوم، بأسلافه أو بـ"بيت"، أو حتى مباشرة بالرب، الذى يمرر حكمه بعد النظر فى الحيثيات المتعلقة بالمظالم والحقوق، ويطلب من واحد من "جاك" . (أى جوك) تنفيذ الحكم المقرر. ولكن "جاك" لا يتصرفون فقط عندما يُطلب منهم ذلك، إذ تُعزى كل أنواع الآلام وصنوف العذابات غير المبررة إلى خبثهم، على الرغم من أن قابلية الإنسان للخطيئة وقدريته كثيراً ما تُرجع تسلسل الأسباب إلى جرم إنسان ما، حتى وإن كان مجرد خطأ.

غير أن الحقيقة المتضمنة فى أن الأرواح الطيبة نفسها قد تستخدم بلا مبرر الأرواح الشريرة، تعنى أن هناك الكثير من التشابك، الذى تقوم فيه الأرواح بإيذاء الناس سواء كان ذلك مبرراً أم كان لمجرد نزوة عابرة. كذلك يمكن الاستعانة بإحدى الأرواح للتوسط بين رجل وروح أخرى، طيبة كانت أم شريرة. وفى العادة تكون للأرواح خصائص محددة ظهرت للناس عبر خبراتهم الطويلة. حيث عرف بعض منها بتسببه لأنواع معينة من الآلام أو الأمراض. وتُعرف أخرى بما تحبه وما لا تحبه من أشياء. لذلك فإنها عندما "تقع" على رجل ما وتسيطر عليه، فإنه يمكن التعرف عليها بالسلوك المنحرف الذى تفرضه عليه. هذا، ويمكن تقصى العلاقة بين عشيرة ما وروح معينة إلى

حادثة أسطورية فى تاريخ هذه العشيرة. ففى هذه الأساطير يحاول الدينكا خلق علاقة حماية من حطام تجربة مدمرة. إذ يتم مزج الجوانب الطيبة والشريرة لهذه التجربة فى صورة إيجابية، كما تتم مصالحة الفاعل والضحية فى التجربة كأقارب، لا يجوز لأحد منهما إثارة عداء الآخر، بل يجب عليهما التعاون ومساندة بعضهما البعض.

بناء على ماسبق فإننا نجد، فى القصة التى سبق أن أوردتها عن الكيفية التى ضحى بها جوك بابنته أكاى، وضعاً هدد فيه النهر، مصحوباً بقواه الهادرة، الدينكا بكارثة محققة. ومن ثم لجأ الدينكا إلى البديل الأخف، وإن كان لايقل فظاعة، والمتمثل فى القربان البشرى. وكانت النتيجة تقديس "أكاى"، التى صارت الأن، برغم كونها أنثى، أعظم قوة من فرادى الأسلاف. وصار النهر الذى تسكنه مكاناً مقدساً يجب تعظيمه. حيث تُقدم لها فى كل عام الهدايا والقرابين. كما صار يحظر على نساء عشيرة باجوك، سواء من انتمين إليها بسلالة ابائهن أو الزوجات، عبور هذا النهر ليلاً، إجلالاً له واحتراماً.

ومن الأمثلة الأخرى على الكيفية التى يتم بها التوفيق، عن طريق الطقس والترميز، بين العناصر المتصارعة لتجربة سيئة: الاعتراف لرجل عانى مرضاً خطيراً، كثيراً ما يكون مرضاً معوقاً أو مشوهاً، بامتلاك قوة روحية غير متوارثة لعلاج الأمراض المماثلة، وذلك بعد شفائه من ذلك المرض. كذلك قد يكتسب رجل، أباد وباء ما، كل قطيعة وتركه فقيراً معدماً، القدرة على تطهير الأبقار من الأوبئة المشابهة. لكن مع ذلك لا يدرك كل من تعرض لتجربة مماثلة نفس النتائج، إذ يعتمد ذلك على الأثر الذى تركته ذكرى هذه التجربة على الشخص وعلى الجماعة التى ينتمى إليها. ولكن فى كل الأحوال لابد من إجلال هذه الذكرى بالطقوس المناسبة والقرابين والهدايا من الحيوانات والأشياء الأخرى. ذلك أن التوانى عن ذلك قد يؤدى إلى الإصابة بأذى تسببه هذه القوى التى تعرضت للإهمال.

هذا ويجب توقير الذكرى ، حتى فى الحالات التى لا تكون فيها الضحية من البشر. وينطبق ذلك على وجه الخصوص على الحالات التى تقع المسئولية فيها على عاتق البشر مع ضحية جليلة القدر. والأغنية التالية تحكى عن طائر غريب يُعتقد أن له قوى روحية، ولكنه قُتل على يد أشخاص ينتمون إلى عشيرة "بول وييل". وقد قدّست العشيرة فيما بعد ذكرى ذلك الطائر بوصفه الروح الحامية لها:-

يا عشيرة بول، يا عشيرة بول،
لست طائراً من عالمكم،
بل طائر من عالم السموات،
أرسلنى إليكم أبى.
"اذهب وتفقد عشيرة بول العظيم،
تفقدهم ثم عد إلى البيت"

وستُظهر هذه القصة التى حدثت لى شخصياً، بصورة أكثر وضوحاً أهمية التجربة فى ديانة الدينكا وكذلك المساعى التى تجرى للفوز على القوى المدمرة، ومصالحة الفضيلة مع الشر. ففى أحد الأيام عندما كنت صغيراً جداً، ذهبت والدتى لمعاينة حقولنا الزراعية البعيدة. وبما أنها كانت ستقضى الليل هناك، فقد تركتنى مع ابنة خالى وإحدى زوجات أبى. كما كانت هناك نساء أخريات شاركننا الكوخ. فى تلك الليلة جاء أسد للمكان. وتمكن من نزع الباب والإطلال إلى داخل الكوخ، موقظاً جميع من كانوا فيه. وقد كنت صغيراً جداً على أن ينتابنى الخوف، أما النساء فكن من الحكمة بحيث أنهن لم يصرخن، كان هناك رجالٌ عديدون فى حظيرة الأبقار على مسافة حوالى مائة ياردة من كوخنا ذاك، إلا أن النساء كن يعلمن خطورة الصراخ أو إظهار الخوف، فالأسود تهاجم الجبناء أو للدفاع عن أنفسها.

ومن ثم ظلت النساء يصدرن أصواتاً بالحراب لإشعار الأسد بأنهن مسلحات، كما طفقن ينادين أنفسهن بأسماء رجالية لإيهام الأسد بأنهن رجال. وقد استمر ذلك الوضع لوقت طويل جداً قضاه الأسد فى التجول قريباً من المكان والعودة إليه مرة أخرى. فى أخر الأمر اقترب أحد العرب، الذى كان مسافراً على الطريق، وهو يغنى بصوت عال. فلما أحس الأسد باقترابه قفز إلى داخل الحقل الذى تغطيه سيقان الذرة والذرة الشامية الطويلة، خلف الكوخ. فانتهزت النساء هذه السانحة وصحن للعربى وطلبن منه الاقتراب من الباب. وبعد أن استمع العربى للقضية تلفت يمنة ويساراً، ولكنه لم ير شيئاً، مما جعله يخلص إلى أن الأمر يتعلق برجل مغازل فواصل سيره. وما أن ابتعد حتى عاد الأسد مرة أخرى. وتواصل الفصل حتى قرب الصبح، عندما اقترب سرب من الفهود يتبعه صغاره، وهو يحدث جلبة عالية. والمعروف عن الأسود أنها تخاف الفهود عندما تكون فى مجموعات. لذلك ابتعد الأسد مع اقتراب سرب الفهود، تاركاً القرية للسرب الذى احتلها ما تبقى من الليل.

عندما عادت والدتى فى اليوم التالى وسمعت القصة، قالت من غير انزعاج "لا يدخل أسد كوخى، وحتى لو فعل فإنه لن يؤذى احداً، فبين سلالتنا والأسود عهد بألا نؤذى بعضنا". ثم طفقت تحكى كيف أن أسداً قد التهم جدها عندما كان نائماً وحده فى حظيرة أبقاره، وكيف جاء الناس فى اليوم التالى ليجدوا ذلك المشهد الفظيع، حيث تناثرت العظام واللحم والدهن فى المكان. فكان أن أسرع أفراد أسرته المباشرون ودخلوا غابة مجاورة يبحثون عن الأسد دون أن يطلبوا مساعدة أحد. فوجدوا الأسد وقتلوه. وفى وقت لاحق، وكما لو أنهم كانوا يسوون ثاراً بشرياً، أجروا طقوس الكفارة مع عالم الأسود وقبلوا أن يكونوا أقارب لايؤذى بعضهم بعضاً أبداً. ويبدو أنه قد تم الالتزام بذلك العهد حتى ذلك الحين.

ورغبة الدينكا فى تحويل الشر إلى فضيلة عبر الترميز، هى التى جعلت من الثعابين – التى توصف وسط نقوك بأنها "أشياء سيئة" (كا راك) – أحياناً كثيرة رمزاً لأرواح العشيرة يستحق الاحترام والحماية مثل الأقارب. ومازلت أتذكر الكيفية التى كان يربت بها جدى لأمى بيديه العاريتين على الثعابين الخطيرة كالأفعى النافثه، ويعطيها السمن لتلعقه، ثم يستدرجها لتتسلق فى وعاء ما، قبل أن يأخذها بعيداً عن المنزل وهو يردد فى مسمعها: "أنه لا يفعل ذلك للتخلص منها ولكن يدفعه خوفه من أن تطأها الأبقار أو أن يؤذيها البشر عن غير قصد. وقد حدث فى مرة من المرات أن قتل أخى، وهو مسيحى، أفعى نافثة بالقرب من كوخ والدتى. وكانت عشيرة أمى تتخذ من هذه الأفعى شعاراً لها. فى ذلك اليوم مرضت كل أخواتى مرضاً حاداً، وبأعراض متماثلة. وقد رؤى أن السبب فى ذلك يعود إلى لعنة الثعبان "المغدور"، ولكن للتأكد من ذلك تمت الاستعانة بأحد الكهان، والذى أوصى بتقديم قرابين وهدايا من الحيوانات لإرضاء ومصالحة روح الثعبان. وقد عوفيت الفتيات فجأة، بعد تنفيذ تلك الطلبات مباشرة.

وتورد الأغنية التالية قصة الشجرة المقدسة فى بيت الزعيم، والتى بدأت فى الذبول والموت، فيما ارتبط ذلك بانتشار الأوبئة. وفى الأغنية يدعو المغنون، وهم حزانى على موت المحاربين بأن تذهب الشجرة وحدها، لأنه لم يعد هناك رجال يمكن التخلى عنهم:–

يا زعيماً تعلقت القبيلة على أفرعه،
لا تكدر نفسك،

لأننى سأبقى، فأنا لم أُحوّل قلبى،
برغم أننى أعرف أن الشجرة دمرتنا.
أيتها الشجرة المتفرعة، ألم تذهبى مع الجموع الأولى؟
فلم تعد هناك أجيال يمكن التخلى عنها
خليتك ترحلين وحدك.
تذهبين بوصفك شجرة
لكى تنبت غابة جديدة مكانك.

وقد كانت أهمية التجربة فى ديانة الدينكا هى موضوع دراسة قام بها الدكتور قودفرى لينهارت (Godfrey Lienhardt)، الذى أوضح أن الدينكا يسقطون ذكرى التجربة عن ذهن الشخص المتذكر لكى تكوّن صورة تؤثر فى هذا الشخص من خارجه بصورة عكسية. من هنا فإن ما يسميه الغربيون "ذكريات" التجربة ويعتبرونها ذاتية وداخلية متصلة بالشخص المتذكر - وهم يقيدونها لذلك بهذا الشخص - ينظر إليها الدينكا بوصفها منفصلة ومستقلة عن الشخص المتذكر، وجزءا من المصادر الخارجية التى انبعثت عنها. وهى تظل بذلك تؤثر فى هذا الشخص، كما تفعل المصادر الخارجية نفسها. وإلى هذه الصورة المُسقطة يُعزى جوهر مقدس يرى الشخص المتذكر أنه يمتلك القدرة على تقديم المطالب أو منح النعم. إلا أنه يجب ألا نبالغ فى هذا التمييز بين ما هو خارجى وما هو داخلى. إذ برغم أن الصورة تأخذ مظهراً خارجياً، لكن انبثاقها من داخل تجربة شخصية، والتأثير الذى تمارسه على هذا الشخص، يظهران الوحدة بينه كموضوع وبين الصورة كذات. فى الواقع تتداخل وتمتزج هويات الذات والموضوع حتى تصل نقطة معينة لا يكون بعدها التمييز بينهما ممكنا، عندئذ تصبح الأمور مجرد مسميات. من هنا قد يتحدث الغربيون عن "الوعى"، بينما يتحدث الدينكا عن الروح، ولكنهما فى الأساس شىء واحد. إلا أن هذا التصور يساعد على تقريب ديانة الدينكا ومفهومها عن الرب للإنسان، ويجعل منهما جزءا من جوهره، حتى إذا بدا أنهما منفصلان.

فى الواقع يتجاوز توحيد التجربة الذات المجربة ليحتضن الإنسانية بأجمعها والمحيط الذى تعيش فيه. وتصبح للحجارة والأشجار و الثعابين والحيوانات والرياح والطقس والأمواج والزبد والطبول، وكل شىء يقابله الإنسان فى حياته، تصبح لها جميعاً أهمية روحية. وهذا هو السبب الذى

جعل الدينكا يرمزون للأرواح بأى من الكائنات الطبيعية المعروفة لديهم. حيث يصبح الناس اقارب لهذه الكائنات لا يجوز لهم أبداً إيذاؤها. وتصبح آلام هذه الكائنات هى آلام الإنسان، يمكن أن يؤدى التسبب فيها بغير وجه حق إلى معاناة الإنسان وموته. هذه العلاقة التى تربط بين البشر وأحد الرموز الروحية قد تستوجب عدم حرق أشجار معينة، وتجنب قتل حيوانات معينة وعدم كسر عظام معينة، وعدم تعريض قرابين حيوانية معينة للنار، وعدم قتل أسماك معينة، وعدم حرق أعشاب معينة، باختصار عدم التعامل مع أى من هذه المواضيع بصورة لا تليق بالاحترام الواجب إزاء قادة ملهمين روحياً. وهى قاعدة لا يترتب على التخلى عنها إلا الشر والفساد.

وتعكس التجارب الفردية، فى العادة، قوة الآلهة الأقل مرتبة، إذ لا تقتصر قدرة الرب على اية معالم محددة فى التجربة الإنسانية، بل تحيط بكل مناحى الحياة. وبهذا فإن الرب هو توحيد للتنوع اللامتناهى. فى إطار هذا النظام الأسطورى المتعدد والموحد فى نفس الوقت، يبدو كما لو أن الدينكا يساوون، أحياناً، بين الآلهة المقدسة والرب، وهو أمر لا يتسق ويستدعى إلى الذهن مفهوم التثليث فى المسيحية.

ويؤمن الدينكا بأن الإنسانية فى مجملها تخضع للسلطة العليا للرب الواحد، فالرب هو الذى يخلق الحياة الإنسانية وهو الذى ينهيها. ولكنهم فى نفس الوقت يعترفون بأن للشعوب المختلفة آلهة مختلفة، وبالتالى أديانها المختلفة أحياناً. ومن ثم فهم يقولون أن العربى له إله وللأوروبى إله، بل إن كل إنسان قد يكون له إلهه، وإن كان ذلك يرتبط فى كل الأحوال تقريباً بالأسرة. أحياناً يتم التعبير عن هذه العلاقة بين الرب فى شموليته وأى فرد إنسانى بمصطلحات شخصية من مثل "رب أبى" أو "رب آبائى السابقين" أو ببساطة "جدى" أو "أبى الأول". ولا أذكر أى مناسبة تمت فيها الإشارة بصورة "الرب أبى"، إذ يبدو أن العلاقة مع الرب تخصص دائماً بنسبته إلى آخر، وهو ما يعكس الدور المركزى للنسب، والحاجة إلى سلف واحد على الأقل فوق الأب. والنتيجة المترتبة على هذا التفصيل للأرواح الأقل مرتبة، هى اعتقاد الدينكا بأن آلهة الدينكا المقصورين عليهم لا يملكون قدرات تذكر على العرب أو الأوروبيين أو حتى - بدرجة أقل - على المتعلمين من الدينكا. وفى المقابل لا تملك الآلهة الخالصة للأوروبيين والعرب القوة على الدينكا. غير أن رب الجميع يملك القدرة على الجميع.

وبما أن هذا الرب الشامل هو الأكثر تسامياً وتعالياً فى تراتب القرب من التجربة الإنسانية، بالمقارنة مع الآلهة الأصغر والأسلاف (الذين يُنظر إليهم أيضاً كخالقين صغار)، فإنه الأقل امكانتة للتصور بالنسبة للإنسان والأقل قابلية للرمز إليه بالكائنات الطبيعية، والأكثر استعصاء على فهم الإنسان وإحاطته به.

الأسباب الروحية للمرض وعلاجه

يُفسر الدينكا المصدر الأصلى للمرض والموت بتلك الأسطورة التى أشرت إليها فيما سبق، والتى يعتقدون فيها أن الرب كانت له فى وقت ما علاقة مادية بعالمنا هذا. وذلك عندما كانت الحياة كاملة. وتبعاً لمقولات متعددة انقطعت هذه العلاقة مع الرب نتيجة لإثم ارتكبته إمرأة : فكان أن ترك الرب الغاضب الإنسان وحكم عليه بأن يعانى من الآلام والبؤس. لهذا فإن إحدى الموضوعات المتكررة فى ديانة الدينكا استجداء الرب لإعادة العالم إلى ما كان عليه من وحدة وصلاح. وهى دعوة تصبح الحاجة إليها أكثر إلحاحا عندما يعانى الإنسان عذابات المرض والموت:-

اترك بيتك فى السماء وتعال اعمل معنا فى بيوتنا،
واجعل أرضنا نظيفة كما كان البيت الأصلى لدينق.

* * *

أيا دينق هلا أحضرت حبل طائر البرقش.
حتى نجتمع فى محيط واحد،
نحن والقمر والإله.
أعطنا حبل طائر البرقش
حتى نجتمع فى مكان واحد مع القمر.

ويعبر الدينكا، فى مواجهة مصاعب الحياة الساحقة، عن قلة حيلتهم وحيرتهم إزاء إخفاق الإله عن إعادة الوحدة للعالم:

دينق العظيم قريب، والبعض يقولون بعيد،

ايها المقدس!
الخالق قريب، والبعض يقولون "إنه لم يصلنا"،
الا تسمع، أيها المقدس؟
فحل المطر الأسود أطلق من حظيرة القمر،
الا تسمع، أيها المقدس؟

ويبدو ظاهرياً أن هناك تناقضاً بين وحدة التجربة التى تناولناها فيما سبق، والتقسيم الوارد فى هذه الأسطورة، إلا أن تفسير ذلك يكمن فى مساعى الدينكا مع جهلهم بالغيب، الذى يأخذ طابعاً حقيقياً فى عالمهم مثل المعروف. فالإنسان يجاهد لكى يكتشف الحقيقة الكاملة، ولكنه عندما يدرك بعقله أو بتجربته حدود معرفته، فلابد له من التخفيف عن ذهنه بإيجاد منطق ما، حتى عندما لا يتوافر له الأساس. وقد فعل الدينكا ذلك بإسناد المعرفة الكاملة والقدرة إلى ذات متعالية أطلقوا عليها "نهياليك "(وتعنى الرب).

ولا تزيل هذه المسألة كل شكوك الدينكا، إلا أن السؤال الذى يقول: " هل الرب موجود؟" لايخطر أبداً ببال الدينكا التقليديين. وهو سؤال يطرحه من حين لآخر اولئك الذين احتكوا بالفكر الغربى. حيث تتمثل الإجابة الفورية فى سؤال مضاد: " ومن الذى خلقك؟" . قد يحتج أحدهم بأنه لا يكفى أن نطلق أسم الرب، إذ يتبقى ان نعرف من هو وأين هو الآن. وقد حل الدينكا هذه المسألة المستعصية بأسطورة العالم المنفصم. حيث كان الرب مع الإنسان ولكنه مضى وللأبد. هذا الوعى باللغز المتعلق بالرب والحاجة الملحة لإجابة له، هو الذى أدى إلى دمج السؤال المتضمن فى لعبة الألغاز "خمِّن السيدين المحترمين الذين يتحديان بعضهما ولكنهما لا يتواجهان (الأرض والسماء) مع أسطورة العالم المقسوم". ومن خلال هذا الوعي والاعتراض، لا يلجأ الدينكاوى (التقليدى) أبداً إلى التكهن بالغيب، معترفاً ضمناً بأنه لا يمكن معرفته.

ولكن على الرغم من انفصال الرب وتساميه، إلا أنه ليس معزولاً تماماً عن إدراك الإنسان، إذ يجد الإنسان شاهداً عليه فى كل ظواهر الطبيعة التى لا يجد لها تفسيراً. من بين هذه الظواهر التى ترتبط عند الدينكا بالرب: الرعد والبرق والمطر، وترتبط كلها بالإله دينق، أقرب الآلهه إلى الرب. فالرعد هو الصوت الغاضب للرب، والبرق هو الهراوة المتألقة التى يضرب بها شرور هذا العالم. ولا يعرف الدينكا عن النظام الشمسى إلا القدر الذى يدلهم فيه على

الزمن وعلى تعاقب الفصول. ويعرفون عن الشمس أنها تسافر من الشرق إلى الغرب، وتعود إلى الشرق مرة أخرى فى ظلام الليل، ويجب ألا يراها أحد وهى عائدة إلى الشرق. إذ أن رؤية عودتها، التى يزعم البعض من حين لآخر أنهم قد شاهدوها، هى كشف محقق غالباً ما يقود إلى الموت، إذا لم يتم استرضاء الآلهة. وبما أن الرب يكمِّل الأبوين بخلق كل واحد من الأبناء فإن إنجاب الأطفال يُعتبر هدية من الرب، وقد يختار أن يجعل امرأة عقيما، أو قد يغيِّر موقفه عن ذلك إذا تم استرضاؤه عبر الطقوس المناسبة.

على مستوى الحياة الإنسانية، هناك ممارسات شريرة ضد الحياة، قد تكون مكتسبة بصورة فردية أو متوارثة. ومن الأمثلة النموذجية لهذه الممارسات: العين الشريرة "بييث"، والأدوية الشريرة "وال"، التى تحتوى الصرات السحرية على قوتها الشريرة، وتختلف عن الأعشاب الطبية التى يستخدمها أفراد مأذونون روحياً. هناك أيضاً "ويل" وهى ممارسة أكثر شمولاً مصممة لإحداث الموت أو إلحاق كارثة بمن تُوجه ضده. وقد يلجأ ضحية حقيقى فى هذه الحالة إلى تسخير هذه الممارسات المختلفة لمعاقبة شخص آثم، إلا أن المجتمع ينفر منها ويستنكرها لما تلحقه من ضرر بضحايا أبرياء، ولأنها مجافية للاستقامة والصلاح. هذا وتُعتبر الكثير من هذه الممارسات، وخاصة إستعمال الصرات السحرية، ممارسات دخيلة لا تنتمى فى الأصل لمجتمع الدينكا.

ويؤمن الدينكا بأن كل إنسان يمتلك بوصفه إنساناً القوة المشروعة على مباركة أو لعن من يستحق ذلك. إلا أن هذه القوة الكامنة تتباين تبعاً لوضع الفرد وطبيعة العلاقة المتضمنة، خاصة فيما يتعلق بالنسب والسن. لذلك يجب على المرء أن يجهد نفسه للحفاظ على الوحدة والانسجام بين ذاته والعالم الخارجى، مسترشداً بحادثات الحياة على قراءة التنافر الكونى. وتتمثل الوسيلة الأمثل لتحقيق الانسجام فى مواءمة مطالب المرء ورغباته مع الأرواح والناس الآخرين، وهو ما يخفق أحياناً كثيرة. فى تلك الحالة فإنه يتم اللجوء للكهانة ويُحدد السبب حالاً أو فى آخر الأمر، ثم يُعاد الانسجام مرة أخرى عبر الطقوس والاحتفالات كما أوصى بها الكاهن.

ويلجأ الشخص الذى تعرض للإصابة بمرض، أو حلت به كارثة ما، إلى فحص عميق لدواخله، أو دواخل قريب له، على أمل كشف الإثم الذى تسبب فى هذا التنافر. وإذا أصيب رجل بمرض أو تعرض لإصابة ما، فإنه غالباً ما

ينسب ذلك إلى الآلهة. كذلك تحس المرأة التى مارست الزنى بذنبها الاما بدنية لا تزول إلا باعترافها. كما ينظر الرجل الذى يحلف كاذباً إلى مرضه أو مرض قريب له، كعقوبة على فعله الآثم، ولا يزول سيف الموت المصلت على رقبته إلا باعترافه المتبوع بطقوس التطهر. ويُنظر لإساءة معاملة كبير فى السن أو رفيق فى العشيرة باعتباره السبب المباشر للمعاناة البدنية. كما يتحمل الرجل الذى ارتكب جريمة قتل سرية المسئولية الثقيلة عما يحدث فى أسرته من حالات موت، مهما كانت طبيعتها. وهو يخشى أيضاً على حياته ذاتها، مالم يعترف، وتتم إزالة الشر بالتعويض عن رفيق العشيرة المقتول، وإتباع ذلك بالتطهر الطقسى.

وحتى عندما يكون السبب المادى لإصابة ما واضحاً ومعروفاً كأن يسقط رجل من شجرة وتكسر يده، فإن الدينكا كثيراً ما ينظرون لما بعد الفكرة الإتكالية المتضمنة في مفهوم "الحادث"، وينسبون المصيبة لقوى فوق الطبيعة. وبالطبع فإن الاحتمال الغالب ان يجدُّ المرء فى بحثه عن إثم يمكن أن يكون قد تسبب فى انتقام الآلهه، جرماً ما عالقاً بضميره أو ضمير احد اقاربه.

ومن المسلم به أن الأرواح تمتلك الحق الكامل فى أن تتوقع من الناس الخضوع لرغباتها. ومن المفترض انها ستحمى الإنسان من الشر عندما يتم إرضاء توقعاتها المشروعة، إلا انه لا يمكن دائماً التنبؤ بسلوكها. كما أنه ليس من السهولة دائماً تفسير قسوتها وشدتها ، أو كسب رضائها ومودتها. وبما أن التجربة الحياتية للدينكا قد كشفت عن طبيعة إنسانية منقسمة للرب، فإنه قد يتجلى فى حالة تجمع بين الشدة واللطف. وبين القسوة والرحمة. لذلك يجد الدينكا أنفسهم مجبرين أحياناً على القول بأن "الرب ليس له قلب" أو أن "عيون الرب لا تعرف الدموع"، يعنون بذلك افتقاده للتعاطف والتفهم. ولا تجد مثل هذه الأحكام المتطرفة مجالاً إلا عند حدوث كارثة لم يستطع الناس أن يجدوا لها مبرراً، أو عندما ترفض الآلهة فى عناد المصالحة وقبول الترضيات أو المساعدة فى ظروف تم التوسل إليها للمساعدة فيها. ومن ثم فإن الدينكا هم، فى الواقع، اناس خاضعون، يعيشون فى عالم لا يستطيعون السيطرة عليه ويتبعون رغبة رب لا يفهمونه تماماً.

وتهتم الأسرة والمجموعة العشائرية اهتماماً كبيراً بصحة أفرادها. والمثل الشائع لدي الدينكا يقول: "أيها المرض أمسك بى حتى أرى ناسى". فعندما يتعرض شخص ما للإصابة بالمرض يجتمع أقاربه وأصدقاؤه ويتكدسون من

حوله يصلون من أجله أو يراقبونه فى صمت. وعندما يهمون بذبح حيوان فداء وتضحية تلتف مجموعة من الناس حول المكان ويبتهلون إلى الأرواح المقدسة، حيث يتحدث واحد منهم فى كل مرة بينما يردد الباقون حديثه من بعده كجوقة. وبخلاف التراتيل الدينية ليس للدينكا صلوات محددة، بل يتحدث كل شخص بطريقة شبيهة بتلك التى يتم بها إقناع إنسان آخر، فيما عدا، أنها أكثر وقاراً وطقسية. ويرمز لاهتمام الجماعة بصحة المريض بتوزيع أجزاء الحيوان المذبوح كتضحية، على دائرة واسعة من الأقارب، وبناء على قواعد صارمة متوارثة منذ القدم بهذه الطريقة ووفقا لرمزية الدينكا، يتم جمع الناس معاً كما تجمع الأجزاء المختلفة للعجل المذبوح.

ويستخدم الدينكا قدراً عالياً من الرمزية لمعاقبة شخص، بحق أو بغير مبرر، أو لإزالة الأثر الذى ترتب على لعنة غير محققة، وهى رمزية يبدو أنها ترتكز على افتراض يقوم على أن ما يُراد يحدث فى الواقع. فقد يصنع ساحر من الطين هيئة إنسان لكى ترمز إلى الشخص الذى يريد أن يعاقبه ويقوم بثقب قلبه أو عيونه أو أى عضو آخر يريد إتلافه. كما يتم، فى حالة التطبيب، التلويح بدجاجة حول رأس المريض، ثم تذبح فداءً، ويلقى بها بعيداً، رمزاً للمرض الذى ذهب معها. كذلك قد يتم الابتهال إلى الخيار المقدس ثم يقطع نصفين ويرمى بهما فى الهواء. ويُعتقد أن النصف الذى يسقط مقلوباً هو الذى يحتوى السحر الخبيث ويرمى به بعيداً، ويدلك بالنصف الآخر، أو بكلا النصفين إذا سقطا بصورة صحيحة، على رأس وصدر المريض ويوضع بجانبه.

ولكن الرمزية قد تصبح أكثر إثارة. على سبيل المثال، عندما كنت فى المدرسة الابتدائية، قام الحاكم العام للسودان بزيارة منطقتنا لحضور اجتماع قبلى مشترك بين الزعماء والإداريين من جنوب وشمال السودان. وقد تم التخطيط، بمناسبة ذلك الاجتماع، لإقامة احتفالات تشتمل على رقصات قبلية ونشاطات رياضية واستعراضات أخرى. وقبل بدء الاحتفالات كنت أسير بجانب النهر عندما حضر إلى هناك الحاكم العام وموظفون بريطانيون آخرون وأبى ومدير المدرسة وجمهرة من المرافقين. فاستدعونى إليهم. وكانت لى محادثة قصيرة معهم أجبت فيها على أسئلة من شاكلة: "كيف حالك؟" "ما اسمك". وبما أن اللغة الإنجليزية كانت شيئاً حديثاً بيننا، فقد ترك ذلك أثراً طيباً لدى السامعين، وانتشر الخبر سريعاً، بأن ابن الزعيم دينق تحدث مع

الحاكم العام باللغة الإنجليزية، وكان أن تم وضعى على رأس الطابور فى الاستعراض المدرسى الذى أعقب تلك المقابلة، وعُهد إلىّ بالتقدم أمام التلاميذ لتحية الحاكم العام بمقاطع من الأناشيد بالإنجليزية والعربية ولغة الدينكا. بعد الاحتفالات بأيام قليلة أُصبت بآلام حادة فى المعدة لم يستطع المساعد الصحى معالجتها. وكان أبى قد رحل، فقامت والدتى وعمى باختيار كاهن معروف كان أيضاً ساحراً قادراً على أن يأسر العقل وعلى المعالجة. وقد كنت متردداً، إذ كان قد تم ادخالى حديثاً إلى المسيحية، إلا اننى كنت أيضاً فى حالة يرثى لها. وجاء الساحر. وكان رجلاً ممتلئاً قصيراً وذا مظهر معوج، ويبدو عليه انه وُلد مشوهاً من كل النواحى تقريباً: رأسه وجذعه وأرجله وحتى بشرته وعيونه كانت جاحظة ومحمرة. وكانت كهانته أن أدانى فى الاستعراض المدرسى هو الذى جلب علىّ حسد ساحر آخر، زج فى بطنى ثعبانا من نوع الكوبرا السوداء. وطلب حملاً أسود ينقل إليه الثعبان. أُحضر الحمل، وبدأت العملية بدهنه لأسفل بطنى بالزيت، فى الوقت الذى أمسك فيه الحاضرون بالحمل فوق الجزء الأعلى من بطنى، بينما كان الساحر يضغط بعينيه على الجزء الأسفل من بطنى، ويدلكه كانه يعصر الثعبان فى بطن الحمل. فى هذه الأثناء كان الحمل يصارع ويقاوم، إلا أن عدة أشخاص امسكوا به فى مكانه. بعد مضى بعض الوقت ودون أسباب ظاهرة نزف الحمل من أنفه ومات. وقال الساحر أن الثعبان قد انتقل، وأننى سأكون على أحسن حال فى اليوم التالى، وقد كان الرجل محقاً. فقد عوفيت تماماً فى اليوم التالى.

ولا أدرى إذا كان هؤلاء المعالجون يعلمون أن تقنياتهم قد تؤثر فى المريض، على الرغم من أنهم لا يفعلون ذلك الذى يزعمون انهم يفعلونه. ولكننى أعلم أن بعضاً منهم يعرفون أن مزاعمهم كاذبة، ولكنهم يأملون فى أن يكونوا محظوظين ويتعافى المريض. وبالطبع هناك المحتالون، ولكنهم قلة، لأنه فى غالب الحالات لا ينال المعالجون أتعابهم إلا بعد نجاح العلاج، وفى كل الأحوال يؤدى الإخفاق المتكرر إلى فقدان العملاء.

وقد كانت لى تجربة مع رجل لابد انه كان حالة خاصة. فقد زعم القدرة على إزالة اللوز والزوائد الأخرى من الأطفال. وتنقل بطول أرض الدينكا من تويج إلى نقوك مدعياً نجاحات عظيمة. فى أحد الأيام استدعته النساء ليمارس العلاج فى أسرتنا. وصادف أن كنت فى إجازة، فقادنى خليط من الفضول

وشغف دارس للقانون فى عامه الأول يريد تسخير القانون لمحاربة الاحتيال، قادنى هذا الخليط إلى الإهتمام بعملياته. وبعد أن أتم معالجته للطفل الأول، وأخرج من فمه قطعة لحم غير دامية، زعم أنه امتصها من عنق الطفل، أظهرت دهشتى وحدثته عن فضولى، وسألته إن كان يقبل أن أغسل يدى وابحث فى فمه قبل أن يبدأ فى معالجة الطفل الثانى. فاستشاط غضباً، وقال انه لم يحدث أن أهانه أحد بهذه الطريقة، وقرر أنه لن يتعامل مع أسرتنا ابداً، ثم ذهب إلى والدى وأخبره بسلوكى غير المؤدب. وضحك أبى وترك المسألة تمضى. وقد هددت الرجل بفتح بلاغ جنائى ضده، إلا أن أبى طلب منى أن انسى ذلك.

ولا يقتصر عمل الكهان دائماً على العلاج فحسب، بل يفرضون أحياناً تصحيح خطأ لا يمكن أن يتم العلاج بدونه. فعندما يكتشف الكاهن أن إثماً ارتكبه الشخص المريض أو رفيق له فى العشيرة، هو علة الداء، فإنه ينصح بالاعتراف بهذا الإثم كخطوة أولى نحو معالجة الوضع. وفى العادة لا يتم استدعاء الكاهن لتشخيص أسباب المرض أو المس الشيطانى إلا عندما يخفق المريض نفسه فى ذلك. أحياناً تفصح القوة الكامنه خلف المرض عن نفسها من خلال فم المريض. أما الكاهن فإنه يكتشف أسباب المرض بالاستغراق فى حالة شبيهة بالغيبوبة الروحية أو يجعل المريض أو قريبا له أو كليهما يدخلان فى مثل هذه الحالة. ويظهر الدينكا مهارات نفسانية مدهشة فى مثل هذه الظروف، حيث يتقمص الكهنة شخصيات متعددة، يلعب بعض منها أدوار قوى روحية غير مرئية بينما تؤدى أخرى دور الوسطاء فى التعامل مع البشر. ويقومون بإسقاط أصواتهم لكى تبدو كأنها صادرة من داخل الحوائط التى يُعتقد أن بعض الأرواح تتخذها مساكن. ولقد رأيت كاهناً يمشى فى مساحة واسعة من لهب النيران وكان يتغنى أثناء ذلك بالتراتيل الدينية فى حالة من الغيبوبة الروحية، ثم خرج من النار دون حروق أو أذى، مثل هذه البراهين العملية تؤثر تأثيراً عميقاً على المرضى، وتقوى من ثقتهم فى القدرات الإعجازية والعلاجية للكهنة.

وكنت حتى الآن قد قدمت الدينكا بوصفهم اناسا يعتمدون فى الحفاظ على صحتهم البدنية والنفسية على القوى الخارقة، إلا ان هذا يجب ألا يعنى أن تعاملهم فى مسائل الصحة يفتقد كل مقاربة علمية. فبالإضافة إلى استعمال الأعشاب الطبية، يحذق بعض الخبراء الجراحة، ويملكون مهارات فائقة على

إجراء عمليات جراحية غاية فى الدقة. وحتى فى الحالات التى ينطلقون فيها من اعتبارات دينية صريحة، يظل أثر التداخلات بين الحالة النفسية والصحة البدنية واضحاً. هذا ولا تتم فى كل الحالات معالجة المرض أو الشرور الأخرى بنجاح. فى مثل هذه الحالات يلجأ الدينكا لإجابة سهلة تتمثل فى رفض الآلهة لمحاولات استرضائهم، أو فى إخفاق الكاهن فى التعرف على السبب الحقيقى. ويبدو انه عندما يكون المرض العضوى من النوع الذى لا يستجيب للمعالجات النفسية، أو عندما تكون حالة المريض بالغة السوء، فإن الاحتمال الأكبر هو الا تؤدى المعالجة النفسية للكاهن إلى نتائج إيجابية. فى هذه الحالات، يعترف بعض من الكهنة الأمناء للأقرباء بأنهم لا يستطيعون عمل شىء وأن الرجل يجب أن يموت.

الموت والخلود

لا تعدُ ديانة الدينكا بجنة قادمة، كما أنها لا تُعدّ الدينكا للموت المحتوم. فكما أنه لا مناص من الموت، كذلك يجب أن يواجهه الناس بشجاعة، ويقدر ما يُصنع منهم اناس خالدون، فإن الموت نهاية تغيم تصورات الدينكا عمّا بعدها، ويتبدى الخوف من المجهول جلياً بيناً.

وتتميز أجواء الموت فى مجتمع الدينكا بالخشوع والوقار، وينظر إليها بوصفها أجواءً ملوثة روحياً. ويسودها الحزن والمهابة وسط الأقارب والغرباء على السواء ويبدو أن الدينكا لايفرقون بين الغيبوبة والموت الحقيقى. فقد نسبوا الموت لأناس استعادوا فيما بعد وعيهم، بعضهم بعد أن وضعوا فى القبر. غير أن المسنين من الرجال والنساء يُعتبرون خبراء فى التعرف على علامات الموت. حيث يتم إبعاد الأطفال، حالما تظهر العلامات الأولى للموت، وتبدأ النساء فى البكاء، ويربط الرجال أوساطهم وهم يبكون فى دواخلهم ويستعدون لحفر القبر، كما يبتعد الغرباء أو يشاركون بتثاقل فى الحفر (الذى يُترك عادة للأقارب)، لأن مجرد فكرة الموت تثير قدراً من الفزع والإحباط حتى انهم يخافونها بوصفها معدية.

وهم يقومون بوضع جثمان الميت على جانبه الأيمن قبل تصلب أعضائه، ويثنون الأعضاء الطرفية، ويضعون الأيدى تحت رأس الميت كما لو كان نائماً. وفى الحالات التى لا يتم فيها اكتشاف الموت إلا بعد تصلب الجسم، فإنهم

يقطعون العضلات ويثنون الأعضاء إلى أوضاعها المناسبة ثم يغسلون الجثمان بعد ذلك، ويدهنونه بالدهن، ويضعونه فوق قطعة من الجلد فى انتظار دفنه. فى العادة يدُفن رب الأسرة الذكر فى مأوى الأبقار أمام حظيرة الأبقار فى الحالات الأخرى يتم دفن الذكور بقرب الكوخ على الجانب الأيمن بينما تدفن الإناث من ناحية اليسار. والقبر نفسه حفرة مستديرة يبلغ قطرها حوالى الثلاثة أقدام وعمقها خمسة أقدام. ويتم إعداد مكان خاص فى قاعها للجثمان. مع بدء الدفن يتعالى صراخ النساء ويبلغ أوجه ويزداد هياجهن. ثم يُوضع الجثمان فى مواجهة الشرق حيث تشرق الشمس وتبدأ الحياة. بعد ذلك يُملأ القبر بالتراب، وتكسر فوقه آنية القرع التى استخدمها الميت فى فترة مرضه، وترمى قطعة الجلد التى رقد عليها الجثمان قبل الدفن.

ويختلف موقف الدينكا من الموت بصورة تبعث على الدهشة عن المثل التى تحكم العلاقات الإنسانية لديهم. إذ ينظرون لمن غيب الموت واحداً منهم بوصفهم غير طاهرين وخطرين روحياً، يجب عليهم تجنب الآخرين كما يجب على الآخرين تجنبهم. ويحرم عليهم الأكل أو الشرب فى بيوت الآخرين أو الاختلاط بهم فى المناسبات العامة. ولا يؤدى خروج أقارب الشخص الميت عن هذه القواعد إلا إلى كارثة. وقد كنت شاهداً على واحدة من هذه الانتهاكات. فقد كنا يوماً نصطاد السمك فى جمهرة من الناس. وكان النهر شديد البطء ومليئاً بالأسماك حتى أنه كان يمكن رؤية بعضها على سطح الماء. وكنت أستخدم للصيد حربة ذات سنان معكوسة. وفى لحظة من اللحظات نزعت إحدى أخواتى الحربة من يدى لتطعن بها سمكة كبيرة ظهرت على السطح فى نفس اللحظة قفزت امرأة تستخدم شركاً نسائياً خاصاً على السمكة، وكان أن تلقت طعنة الحربة. واخترقت الحربة صدرها مارة من خلال الضلوع وكادت أن تصيب قلبها. وحاولت المرأة إخراج الحربة ألا أنها لم تتمكن من ذلك، لأن الحربة ذات الأسنان المعكوسة تخترق الأجسام بسهولة ، إلا أن انتزاعها يشكل صعوبة كبيرة، إذ تستقر أسنانها المتجهة إلى الخارج فى اللحم وتثبت النصل فى مكانه وسقطت المرأة وهى تتأوه من الألم واليأس. وحُملت إلى الشاطئ والحربة مغروزة فى صدرها، حيث تم بعد ذلك إخراجها بعملية جراحية شديدة الصعوبة. وهربنا نحن مخافة الانتقام، وكنت على وجه الخصوص فزعاً، لأن حربتى هى التى أحدثت الجرح، كذلك كان والدنا غائباً عن القبيلة، وهو أمر زاد كثيراً من مخاوفنا. فيما بعد، تم إخطارنا بأن

الضحية هى امرأة كان والدنا قد دفع مهر زواجها لأحد أقاربه البعيدين، وهى بالتالى "زوجتنا" وليس هناك أدنى احتمال فى أى نوع من أنواع الثأر. وتم فى الحال إجراء مراسم الكفارة. فى بحر ذلك المساء سمعت تفسيراً لما حدث يرجعه إلى انتهاكها حرمة التواصل الاجتماعى بين أقارب شخص مات والعالم الخارجى. وكان أحد أفراد أسرتها قد مات لتوه، وما كان يجب أن تظهر على الملأ، ناهيك عن خروجها لصيد السمك، الذى يمثل لدى الدينكا نوعاً من الرياضة.

ويدل المظهر الخارجى على أولئك الذين يعيشون حالة حداد. حيث تقوم النساء بقطع تنوراتهن الجلدية، ولا يدهنهن، بل يتركنهن جافات دون خرف يزين أطرافهن. ويقمن بتغطية أجسادهن بالرماد والطين. ويترك الرجال والنساء إرتداء أدوات الزينة أو صبغ شعورهم بالألوان الحمراء أو الشقراء، كما يفعل فى العادة الشباب من الرجال والنساء. وتستمر فترة الحداد لأشهر عدة وأحيانا لسنة كاملة، يقوم الناس فى نهايتها بالتطهر طقسياً، قبل أن يواصلوا سيرتهم العادية مرة أخرى.

وبرغم الارتباط المستمر بين الموتى والأحياء، إلا أنه يتم، وفى مفارقة واضحة، فصلهم من خلال طقس رسمى(كوول)، يقام بعد ثلاثة أو أربعة أيام عقب الوفاة، تبعاً لطبيعة الشخص المتوفى. ومما يثير الاهتمام هنا أن النساء على الرغم من تبعيتهن، يحظين بفترة أطول من الرجال. فى هذا الحفل الطقسى يتم ذبح حمل ودجاجة فى منتصف الليل على مبعدة من الفناء. ولا يأكل الأقارب شيئاً من لحومهما، ولكن يجوز لغير الأقارب الأكل منها. حيث تركز الفكرة على المحاربة الرمزية للمرض الذى قتل الرجل، وإبعاده عن الأحياء.

تختلف القواعد والممارسات المطبقة فى حالة وفاة الزعيم عن تلك المطبقة على الأفراد العاديين. وقد سبق وأبرزت أهمية الزعيم فى الصلاح والرفاه الروحى لمجتمعه، وكيف يُتوقع منه تقليدياً ألا ينتظر لدفنه حدوث الوفاة الحقيقية، بل أن يطلب دفنه حياً عندما يكون على حافة الموت. وقد أثارت هذه المسألة جدلاً واسعاً بين الأنثروبولوجيين. إذ يعتقد بعضهم أن المسألة برمتها مسألة أسطورية وليست حقيقية. وسواء كانت أسطورية أم حقيقية، فإن الدينكا يؤمنون بأن هذا التقليد ظل معمولاً به حتى منعه البريطانيون بعد دخولهم السودان. والمأثور هو أن جدى الأكبر تم دفنه بهذه الطريقة. وتبعاً

للقصة فإن التعليق الذى أدلى به عندما كان يُكال التراب على قبره هو "راقبوا عيونى". هذا الاحتمال ليس مستبعداً كما يبدو للوهلة الأولى، إذا أخذنا فى الاعتبار الطريقة التى يتم بها تصميم قبر الزعيم، والتى تترك مساحة خالية من التراب للجنه الأرضى. وقد قيل أن جدى أيضاً كان سيُدفن حياً، لو لم يتدخل مندوبو الحكومة لوقف ذلك.

وليس هناك تعليل واضح لهذا التقليد. إذ يدفع الدينكا بأن حياة الزعيم تتضمن طاقاته الروحية وقدراته على حماية القبيلة. وبالتالى فإن موته يعنى تلاشى هذه الطاقات والقدرات، ولا يتبقى ما يمكن تمريره إلى خلفه؛ وتحل بذلك الكارثة. من هنا فإن الهدف هو جعله يرقد فى القبر حيث يظل حياً فى ذاكرة أتباعه ويأخذ خليفته ما بقى حياً لم يضعفه الموت. وكما سبق ان اشرت فقد يكون واحد من الإعتبارات الممكنة الحيلولة بين الزعيم والمرض الشديد او الهرم اللذين قد يمنعانه من الحكم الفعلى. خاصة أن الزعماء، الذين ينعمون بأوضاع مميزة وبحماية القبيلة، عادة ما يعيشون فترات تزيد كثيراً عن الأفراد العاديين. لذلك فإن المخاطر المتصلة بكبر السن هى مخاطر حقيقية فى حالتهم. إلا أنه مهما كانت تبريرات الدفن على قيد الحياة، وسواء كان حقيقياً أم مجرد اعتقاد، فهو يعطى الموت بعداً مختلفاً.

وتتخذ مراسم دفن زعيم الدينكا أشكالاً معقدة تبعث على الحيرة. فهى تجمع الحزن على الكارثة التى حلت بموت الزعيم مع الأمل فى تنصيب زعيم جديد مع اعتقاد خفى بأن الزعيم برغم موته، مازال حياً. ولا يتحدث الدينكا عن دفن الزعيم، بل عن "رفع عرشه"(ثوك)، وهو تعبير تسنده الطريقة التى يتم بها إعداد قبره. ويجب ألا يبكى الناس على موت الزعيم. وبالطبع هناك من يبكونه، وخاصة أفراد أسرته، ولكنهم يوبخون ويُبَكتون، وعادة ما يسود السكون سريعاً وقبل انتهاء مراسم الدفن. ولا يمارس الدينكا الغناء وقرع الطبول والرقص كجزء من طقوس الدفن إلا عند وفاة أحد زعمائهم الدينكا. حيث يترنمون بأغانى الحرب والرقص العادية بالإضافة إلى التراتيل الدينية المخصصة للموت وتنصيب الزعماء. والترتيلة التالية تستخدم فى مراسم الدفن وحفلات التنصيب. وقد تغنت بها المجموعة لأول مرة فى حفل تنصيب كولديت رجل الباجوك قبل حوالى ثلاثة عشر جيلاً مضت، فى ظروف لم يكن من بينها مراسم دفن: فعندما كان الجيل الأصغر يقود هجرة نقوك إلى المنطقة التى يقطنونها الآن، طلبت كيك، وهى حلقة أنداد كولديت، من الزعيم

(دونقبيك) إعطاءهم ابنه كولديت ليقودهم كزعيم لهم، بعد أن فقدوا زعيمهم، شقيق كولديت. وقد رفض دونقبيك فى البداية، دافعاً بأن كولديت حاد الطباع، واقترح عليهم ابناً آخر من أبنائه. ولما ألحت حلقة الأنداد فى طلب كولديت، قام دونقبيك، بعد التشاور مع ابنه، بإعطائه حربته المقدسة وسمح له بقيادة القبيلة. فحملت كيك، كولديت على سرير على طول المسافة إلى موطنهم الجديد وهم يغنون:-

"أيا كيك هذى ومضة ضوء تنير طريقك،
فقد شرفنا دونقبيك بكول
ليت كول يمنحكم حياة أبينا بولابيك.
فى أرض بولابيك،
لم يكن لدينا زعيم يفتح طريقنا،
ولا زعيم يرتب كلامنا.
أيا كيك هذى ومضة ضوء تضىء طريقك.

وبعض تراتيل التنصيب ترجع إلى أزمان قديمة، حتى أنه لم يعد من الممكن تبين معانيها. وقد استطعت أن أخلص إلى بعض المعانى للمقاطع التالية، إلا أن هناك أغانى أخرى كثيرة لم أتمكن من فك معانيها، ولسوء الحظ لم أستطع تحقيقها فى وقت الكتابة:-

يقول بعض الناس :"زعيمنا لم يعد زعيماً".
والرجل الذى ليس له زعيم يمكنه أن يترك البلد،
فأنا سأصطحب زعيمى إلى الشمس،
لأنه ذاهب بنفسه إلى الأرواح فى الاعالى،
فهو يبقى زعيمنا،
الأب، ابن زعيمنا،
إنك ذاهب للأرواح فى السماء،
وستجلس فى وسطها هناك فى الاعالى:

فى الوقت الذى تُردد فيه هذه التراتيل الدينية، يتم حفر القبر، بعد أن يقوم

الوصى بتحديد مكانه على الأرض. وتشارك كل القبيلة فى الحفر موزعة إلى مجموعات من بطون القبيلة، تغنى وتعمل معاً. وعلى الرغم من وجود بطون قبلية خاصة مؤهلة طقسياً للقيام بمراسيم التنصيب، إلا أن الجميع يشاركون فى ذلك. بينما تتجنب البطون التى تقوم بالتنصيب العمل فى حفر القبر، ويشارك الجميع أيضاً فى مراسم التنصيب وطقوسه، إلا أن البطون الرئيسية، وخاصة تلك التى تمثل العامة من بينها لابد أن تشارك بصورة فعالة وإلا صار التنصيب غير مكتمل.

ويتم تصميم قبر الزعيم بشكل مختلف عن قبور الأفراد العاديين. فبعد المرحلة الأولى التى يتم فيها الحفر بالطريقة المعتادة، تضيق الحفرة ويتواصل الحفر. ثم يُهيأ مكان ليرقد عليه الجثمان، وتُقام من فوقه مظلة تمنع التراب من الانهيال عليه. ويُوضع الجثمان فوق قطعة من الجلد ويُغطى بأخرى.

وبعد اكتمال إعداد القبر يلتف الجميع حوله فى انتظار إنزال الجثمان. وفى الوقت الذى يتم فيه ذلك يرفع المجتمعون أيديهم إلى السماء ويصيحون: "نقوث". وهى الكلمة التى يستخدمها الشخص عندما يضرب بسلاحه فى الحرب أو فى الصيد، ويستخدمها أيضا المحاربون او اى تجمع رجالى، عندما ينثر الزعيم الماء المبارك على أعضائه. ويعنى استخدام هذه الكلمة النجاح والأمل فى تجاوز العدو. اما فى إطار الدفن فإنها دعوة لمباركة الرب، وبيان عملى يؤمل النجاح فى الحصول عليها، وتأكيد على أنه، برغم المأساة فإن البلد سيحمى حدوده من الأعداء. بعد ذلك يساعد الجميع، باستثناء أولئك المنوعين طقسياً، فى كيل التراب على القبر، وهم ينظرون بعيداً عنه. وفى الوقت الذى يتم فيه وضع الجثمان فى القبر، حتى وقبل أن يكتمل ملؤه بالتراب، يهرع الناس إلى الوصى ويمسكون به ثم يرفعونه نحو السماء. وبعد اكتمال الدفن ومراسم التنصيب، تراعى القبيلة كلها صوما عاماً، لا يأكل فيه أحد أو يقوم بإعداد طعام، تمتنع النساء عن إطعام أطفالهن، وتمنع الأبقار عن إرضاع عجولها، كما تُحبس القطعان عن الرعى، وتُطفأ كل النيران. فى اليوم التالى يبدأ ذبح الحيوانات، ويشرع الناس فى أيام من احتفالات الحداد. وطقوس دفن الزعيم هى مراسم عالية التكلفة، حيث تُذبح الكثير من العجول والثيران على نطاق القبيلة، الغرض الأساسى لبعضها هو مصالحة الزعيم واسترضاء الرب، بينما تُذبح أخرى لتوفير اللحوم لاحتفالات تنصيب الزعيم الجديد.

فى العادة يكون خلف الزعيم معروفاً منذ مدة، لذلك يُنتظر منه أن يتعلم من والده ترتيلة دينية سرية لا يعرفها إلا الزعيم، الذى يتغنى بها فى أوقات الشدة والحاجة لمساعدة الآلهة. وقد قمتُ بتسجيل هذه الترتيلة من أحد الأبناء الصغار للزعيم كول، والذى سمع والده ينشدها وقام بحفظها عن ظهر قلب. وكان موت والدنا دينق مجوك قد دفع إلى الزعامة جيلاً لم يكن قد تم تدريبه على الموروثات بصورة ملائمة. حيث لم يكن وريثه على علم بهذه الأنشودة الدينية، مما يشكل طعناً أساسياً فى مؤهلاته للزعامة، وهو أمر كان لابد من معالجته سراً. لذلك قمت بتسجيل الأنشودة للوريث، لكى يحفظها أثناء الليل مستخدماً فى ذلك سماعات الأذن. والأنشودة نفسها منظومة بلغة للدينكا بالغة القدم حتى انها لاتكاد تكون مفهومة. ولكننى بعد أن استمعت إليها مرات عديدة، واستوضحت بعضاً من تعبيراتها، أحياناً بلا جدوى، استطعت أن أجمع بعضاً من المعانى التى اقدمها هنا مترجمة. بعض الأسماء المذكورة فيها تخص أرواحاً، أو قد يكونون أسلافاً تعود أزمانهم إلى ما قبل النسب المعروف للأسرة الحاكمة، والتى تحصى على الأقل خمسة عشر جيلاً معروفاً. ولا يهم الدينكا هنا تماسك الأنشودة أو انسجامها، إذ تورثها عتاقتها وتقادم عهدها منطقاً عميقاً لا يستوجب الفهم والاستيعاب. وقد قال عمنا الذى تدارسها معنا: بأنها تساوى فى الأهمية الحراب المقدسة للزعيم. وبما أنها أنشودة سرية، فإننى أترجمها هنا فى مهابة وتردد، ولكننى افعل ذلك لأنقذها من الضياع الذى يهدد أدبنا الشفاهى الآن:-

أيا أرمجوك، أنت خال كل الناس،
أيا جوك لقد أرسلتك إلى قاع الشمس،
فمن قديم الأزمان وأنا أنعم بالسلام،
محمىٌ من أخطار لا أراها.
ماذا عن كلمات كوول، سليل بولابيك،
لا تراوغنى، لأن بلدنا ستنهار،
فاجعل كلمات أخرى تصحيح أخطاء الماضى،
وأمسك ثعبان السمك من عينيه وسلمه لكول.
حتى لو حطم الزعيم.
فهناك ضوء حان،
هناك الشمس،

هناك القمر،
هناك الصخر،
هناك دينق.
قرنق، أبونا الأصيل،
اجلب السلام،
وأنت يا دوبر،
وأنت يا أجوول،
وأنت يا كور.
وأنت يا أيابيك،
فأنا لا أعرف زعيماً كالإعصار،
مثل ابن الرب والأم.
جئت ليرضى سيدى،
فقد كان كلامه.
أبى، دع البكاء،
فبلدنا يحفظه النيل
تحميه أيابيك.
أرسلوا زعيماً،
الزعيم العظيم أيالديت،
وسيحزن أبناء قرنق دائماً.

ولا تستغرق فترة الحداد على الزعيم السنة المعتادة فى هذه الأحوال، بل شهراً واحداً، يحلق الناس بعده شعورهم ويستأنفون حياتهم العادية. ثم يتم بعد ذلك توريث الممتلكات والزوجات.

ولا تظهر فى العادة، مشاكل مرتبطة بالمواريث عند وفاة الأفراد العاديين، لأنهم يقومون بتوزيع معظم ما اكتسبوه على زوجاتهم وأبنائهم، أثناء حياتهم. إذ يُنتظر من الرجل المسن أن يوصى، فى لحظاته الأخيرة، بالطريقة التى يريد أن تُدار بها أسرته، والترتيبات الأساسية والتغييرات التى يرغب فى إجرائها. وتُسمى هذه الممارسة "شين"، وهى ممارسة مهابة وموقرة، حتى أن الأقارب يلتفون حول الرجل المحتضر لالتقاط كل كلمة ينطق بها. أحياناً يُقال للرجل أنه يحتضر ويُدفع لكى يتكلم. ولكن مع ذلك يموت البعض دون أن يتركوا وصاياهم، إما بسبب الطريقة والظروف التى أحاطت بموتهم أو لأنهم ببساطة،

رفضوا الكلام فى تلك اللحظات. وعادة ما يسود الإرتباك بعد الموت، وكلما زادت أهمية الشخص المتوفى كان حجم الارتباك أكبر. غير أنه حتى فى الحالات التى يترك فيها الشخص وصيته يظهر الخلط والبلبلة إزاء الطريقة التى يجب تأويل كلماته بها. حيث يقدم الأشخاص الذين يهمهم الأمر تفاسير واستنتاجات تناسب أغراضهم الخاصة. ويتم استجواب الذين حضروا الوفاة ويعاد استجوابهم على أمل استخراج معلومة مفيدة أو الوصول إلى الحقيقة الموضوعية.

غير أنه مهما كانت قيمة الميراث ومهما كانت التعقيدات المتعلقة بها، فإن أصغر أبناء الأم وأكبر أبناء الأب عادة ما ينالان امتيازاً خاصاً. إذ يرث الابن الأصغر للأم من أمه بعد موتها كل الممتلكات التى آلت إليها. ومن ثم فإن كل الأبقار التى خُصصت لها فى مهور زواج بناتها تتحول إليه وتواصل ازديادها مع كل زواج جديد. كما أن الابن الأكبر للأب، إذا كان راشداً، هو الوصى والمتصرف فى ممتلكات أبيه. فعليه أن يتأكد من أن وصية أبيه الأخيرة قد تم تنفيذها، وأن أموره قد تمت تسويتها، كما يجب عليه أن يساعد فى رفع أى ظلم قد يكون وقع على إخوانه من جراء توزيع أبيه لممتلكاته أثناء حياته. والابن الأكبر هو كذلك الذى يرث حقول والده، وفناء الدار المقامة عليه مزارات أرواح العشيرة والأسلاف، حيث تُقدم القرابين الهامة. ويرث أيضاً الأشياء ذات القيمة الطقسية وموروثات الأسرة. وكما سبق أن أشرنا يرث الابن الأكبر، من خلال حق البكورية، أباه فى أى منصب إدارى أو روحى كان قد شغله. مجمل القول أن الابن الأكبر "يخطو فى حذاء" والده. وليست هذه مجرد مصادفة لغوية، إذ أنه يرث عند الدينكا، فى الواقع، أحذية أبيه.

لذلك يمكن القول أن الدينكا وديانتهم ينظرون للموت كنهاية مفزعة، لا يخفف من مرارتها إلا الخلود عبر الذرية. وكثيراً ما يقولون عند وفاة شخص أن "الرب جاء به وهو الذى أخذه"، كما توصف مصيبة الموت أحياناً بأنها "الفرار بعيداً". غير أنه لا يساورهم أبداً الإحساس بأن الميت قد رحل إلى عالم أفضل. فالحياة التى تهم الدينكا هى الحياة على هذه الأرض، من أجل هذه الحياة يصلى الدينكا للرب وللآلهة الأخرى، وفى إطارها يستمر الموتى، حتى لو وجدوا فى أماكن أخرى. وهم يحزنون لوفاة الرجل، ولكنهم يلتفتون لأبنائه ويقولون لهم "إن أباكم لم يمت طالما أنجبكم" و"طالما أنكم بقيتم، اربطوا على قلوبكم لكى تحافظوا على سيرة أبيكم". وتظهر وجوه شبه لم يكن قد تم

التصريح بها من قبل، من مثل : " إنه يشبه أباه تماماً " و" إن أباه يتمثل فيه" ولا تحتفظ مثل هذه التقديرات بسيرة الأب وذكراه حية فحسب، بل تشجع بالإضافة إلى ذلك، الأبناء لكي يرتقوا إلى مستوى هذه السيرة. من الممكن أن يُوجه النقد بمخالفة بعض صفات الأب، وهو يُوجه أحياناً، ولكن دائماً في إطار تصحيح وتوجيه مسار الابن نحو الخلود الأمثل عبر الذرية، النعمة الوحيدة المنقذة من حتف الموت لدى الدينكا.

الفصل العاشر

التغـــيير

التاريـــخ

كانت للدينكا اتصالاتهم مع العرب قبل وقت طويل من الفترة الاستعمارية، غير أن الكراهية التى تولدت عن حملات الرقيق حالت دون حدوث تلاقح ثقافى مثمر بينهما، ودفعت بالدينكا إلى رفض أساليب العرب. هذا فى الوقت الذى اقامت فيه الأسر القائدة فى كل من دينكا نقوك وعرب البقارة علاقات دبلوماسية مستمرة قائمة على الصداقة وحسن الجوار. وقد حدث فى هذا الإطار قدر محدد من التأثير الثقافى المتبادل، وخاصة فى المجال السياسى. وعندما جاءت الإدارة التركية – المصرية اشتغلت بجمع الضرائب، كما سمحت بممارسة الرق وأنواع الاستغلال الأخرى إلا انها، فيما عدا ذلك، تركت "الأهالى" لحالهم ولم تتعرض لهم بشىء. ولم تقدم هذه الإدارة أبداً نموذجاً للتغيير، ولم تكن حتى مهتمة به، بيد أنها سرَّعت من وتائر تمثُّل المفاهيم والممارسات السياسية للعرب. ولكن فى الوقت الذى استوعبت فيه كل ثقافة ذلك الذى تبنته من الثقافة الأخرى، بقيت كل واحدة منهما متميزة ومنفصلة عن الأخرى. وفيما بعد حارب الدينكا الحكم التركى المصرى، إلا أن الدولة المهدية التى جاءت بعده جلبت معها المزيد من القمع والبطش إلى ارض الدينكا.

بحلول الحكم البريطانى تم جمع هذه الكتل البشرية فى الوحدة الفضفاضة للدولة الحديثة، ولكن باستثناء ذلك، تم الاحتفاظ بها منفصلة ومستقلة. وكانت للدينكا، الذين خرجوا لتوهم من عالم "افسدته" غارات تجار الرقيق المخربة، ذكريات يحتفظون بها وظلامات يتعهدونها بالرعاية. وكانت

تكفى لاخافتنا وإسكاتنا كأطفال جُمل من مثل: " ها هى الجمال جاءت". فقد كانت تثير فينا هذه التعابير توقعات بأن العرب سيلقون القبض على الأسرى ثم يدسونهم فى الجراب الواسع على جنبات جمالهم. ولم يتوان الحاكم الأجنبى فى استخدام هذه الذكريات والظلامات فى سياسته القائمة على مبدأ فرق تسد. ولكنه عمل على عدم تجديد الصراعات، مما سمح باستئناف الصلات بلا صراع هذه المرة. وقد أدى ذلك إلى التخفيف من المخاوف وذكريات حملات الرق، وتيسير التلاقح الثقافى المتبادل. ثم لأسباب متعددة اعتبرها البريطانيون ضرورية لحماية الجنوب، ولكنها لا تخلو من السعى لخلق شقاقات تساعدهم على الاستمرار فى الحكم، قامت الإدارة الاستعمارية بإعلان "سياسة الجنوب" وأوقفت بذلك التأثير الثقافى المتبادل. وقد خططت هذه السياسة لتطوير الجنوب وفق خصوصيته المحلية بخطوات شديدة البطء. ولكنها أتاحت أيضاً وسيلة للسيطرة على الدينكا، الذين شكلوا باعتزازهم بأنفسهم ومركزيتهم الثقافية تهديداً لنظام الحكم، إذ كلما أمكن إبقاؤهم لفترة أطول فى هوة التخلف كان ذلك أفضل وأكثر أماناً. كما أعطى مفهوم البدائى النبيل" دفعة جديدة لسياسات الحفظ والصيانة. وعلى الرغم من تصنيف بعض قبائل الجنوب بوصفها غير مؤذية تحظى بقدر أكبر من المنافع الحديثة بالمقارنة مع الآخرين، إلا أن الجنوب بكامله ظل متحفاً طبيعياً. وتراوحت استقراءات مستقبله السياسى على المدى البعيد بين ضمه إلى يوغندا والاستقلال الكامل. ولم تكن الوحدة مع الشمال واحدة من التصورات التى تم تدارسها فى البداية.

ثم تسارعت الأحداث وتجاوزت الخطط البريطانية. إذ لم تتضمن تحليلات البريطانيين المستقبلية احتمال تفضيل مصر والشمال لسودان موحد مع مصر أو الاستقلال الكامل. وبدأت سيطرة بريطانيا واهتمامها بالسودان يتناقصان سريعاً، وشعر بذلك الإداريون البريطانيون فى السودان. وكان تخوفهم أن يضطروا بعد فترة قصيرة لترك جنوب السودان مختلفا ثقافياً، وتابعا عددياً، ومتخلفا اقتصادياً. ومن ثم فقد قرروا أن السبيل الوحيد الذى يستطيع به الجنوبيون الثبات والمقاومة إذا ما وجدوا أنفسهم موحدين مع العرب فى سودان مستقل، هو التنمية المتسارعة وفق السمات العربية. وعندما بات الاستقلال وشيكاً، صار واضحاً بالنسبة للبريطانيين أنه إذا كان للمظالم الماضية فى حق الجنوب أن تصحح فلابد أن يتم ذلك سريعاً أو أنه لن يحدث

أبداً. لذلك تم التخلى عن سياسة التطور المنفصل فى عام ١٩٤٧ واستُبدلت بسياسة تكاملية. ولم تكن هذه السياسة ترمى، كما يبدو، للوحدة، بل كانت تقوم على تكهن بهذه الوحدة. وتكثفت، فى ظل هذه السياسة، الاتصالات مع الشمال، بينما واصل البريطانيون إشرافهم وعملوا على الا يتعرض أحد للسيطرة ولا ينتابه الشعور بالسيطرة عليه من الآخر. بعد ذلك تقارب الجنوبيون مع الشماليين فى نضالهم المشترك لتخليص بلادهم من النفوذ الاستعمارى. وصار بإمكان أفراد الدينكا العاديين الذهاب إلى المدن، فى الشمال وتعرضوا للتأثير العربى بصورة أكبر. وكان الذهاب إلى بلاد العرب، قبل ذلك، عارا كبيرا يستدعى أغنيات التحقير والسباب. وبرغم أن الهجرة إلى الشمال مازالت تعتبر مسألة غير نبيلة، إلا أنها أصبحت تلاقى قبولاً أكثر وتزلف، أحياناً، على شرفها الأغانى، بوصفها مغامرة اقتصادية تقوم بها أقسام من المجتمع ظلت مقهورة تقليدياً.

وما حدث بعد ذلك حدث بسرعة تجعل من المستحيل معرفة من الذى قرر ماذا. فقد صار التكهن حقيقة: خرج البريطانيون، وصار السودان بدءًا من الأول من يناير ١٩٥٦ دولة مستقلة فى ظل نظام حكم موحد. ويعتقد الجنوبيون أنهم كانوا الثمن الذى دفعه البريطانيون للحفاظ على مصالحهم مع العرب، وخاصة قناة السويس، غير أنه من المحتمل أيضاً أن المشاعر القومية اجتاحت البريطانيين وزلزلت مواقع أقدامهم لدرجة جعلتهم غير قادرين على حماية الجنوب. مع ذلك رحب الجنوبيون بالاستقلال بناءً على الوعد الذى قطعه الشماليون لهم بأن دعوة الجنوبين للفيدرالية ستجد الاعتبار الكافى. غير أن هذا الاعتبار لم ينتج عنه شئ حتى الآن.

إلى ذلك جعلت إجراءات السودنة فى ١٩٥٥ بعضاً من الجنود الجنوبيين يتشككون فى وعود الشمال. فتمردوا فى تلك السنة مشعلين الحرب الأهلية التى ظلت مستمرة حتى اليوم. ولم يشارك الدينكا فى هذه الحرب فى البداية. وكانت الأصوات ترتفع فى الشمال مرددة أن الدينكا هم "الناس الطيبون" هؤلاء لم يفهموا شيئاً، فقد اعتبر الدينكا العصيان سابقاً لأوانه وسيئ التخطيط. وظل العديد من الجنوبيين يعملون لسنوات طويلة، من داخل النظام، داعين لنظام فيدرالى فى إطار السودان الموحد، لكن بلا جدوى. بل على العكس، إذ شهدت فترة ما بعد الاستعمار سياسة الاستيعاب الثقافى من خلال تعريب وأسلمة الجنوب. ولم يعد الاتصال بين الثقافات، الذى كان

البريطانيون قد أعاقوه، مسموحاً به فحسب، بل صار مطلوباً. وتبدلت الحكومات وجاءت الديموقراطية وذهبت. ولم يعد ممكناً حتى الاستماع إلى الجنوبيين. وانضم آخرون كثيرون إلى لغة العنف، من بينهم الدينكا، الذين دخلوا الحرب الأهلية، وتم تكوين الأنيانيا، جيش الثورة الجنوبية. وفر مئات الألوف من اللاجئين إلى الدول المجاورة: إلى الكونغو ويوغندا وكينيا وأثيوبيا وجمهورية أفريقيا الوسطى. وقد جلبت مذلة الحياة فى المنفى الفجيعة ومشاعر العزلة لأولئك الناس الذين ترعرعوا وهم ينظرون لأنفسهم ولبلادهم بوصفها القمة التى لا يعلو عليها أحد. الأغنية التالية صاغها أحد شباب الدينكا وهو فى المنفى:-

السادة المحترمون يطحنون حبوبهم فى أرض الكونغو(١)،
أما الدنقلاوى(٢)، العربى فقد بقى فى بيته.
قد بقى فى بلدنا.
تركنا قطعاننا مربوطة فى معسكرات الأبقار،
وتبعنا دينق نهيال.
السادة المحترمون يتسولون فى أرض الكونغو،
أما الدنقلاوى، العربى، فقد بقى فى بيته.
تركنا قطعاننا مربوطة فى معسكرات الأبقار،
وتبعنا دينق نهيال.
عندما بلغنا أرض الكونغو،
قال الكونغو: "الدينكا ماتاتا"
فالتفت وسألت نقور ماكير،
"ماذا تعنى ماتاتا"؟
أجابنى نقور ماكير:
"إنه يقول نحن سيئون"
ففسد الدم فى قلبى.
فى أرض الكونغو، فسد الدم فى قلبى.
وفكرت فى أنقور، ابنة وول أياليير.
أتمنى لو أننى أجدها لكى أراها.

١- فى العادة تقوم النساء بطحن الحبوب.

٢- قبيلة فى شمال السودان، وتستخدم هنا للإشارة لكل الشماليين.

وفى الأغنية التالية يعبر المغنون عن تصميمهم على القتال من أجل قضيتهم، مهما طال الزمن.

وليم(٣) الثار واجب الإنسان
أيا دينق نهيال.
الثار، الثار.
ثار الجنوبيين مع الشمال.
ثارنا لن يخمد،
جيش دينق نهيال وموروويل
يسمى الأنيانيا.
فى بحر الغزال، سنضرب،
ضد الشماليين – العرب.
سنسير عبر بحر الغزال،
وسنثار لشرور الماضى.
وإذا نجحنا فى ثارنا،
سيباركنا الرب،
باركنا،
نحن الدينكا.
ثارنا، ثارنا.

ومن سخرية الأقدار، أن الجنوبيين قد فروا إلى الشمال هرباً من الموت، بعد أن صار الجنوب مكاناً غير آمن بسبب المعارك التى تدور فيه، وحالة هؤلاء اللاجئين لا تقل فظاعة عن اللاجئين فى أى مكان آخر. فى الواقع، كثيراً ما تكون أوضاعهم أسوأ، لأنه لا يتوافر لهم وضع اللاجئ، وبالتالى التعاطف، الذى يجده اللاجئون فى البلدان الأجنبية مع ذلك لابد أنه سيترتب عن هذا التداخل الحزين شكل من أشكال التوحد. أما بالنسبة للجنوبيين أنفسهم فقد اكتملت دورة من دورات الحياة: إذ تستدعى الحرب الأهلية ذكريات غارات الرق وفظائعها، وعلى الرغم من أن نتيجة هذا الصراع لا يمكن التنبؤ بها الآن، إلا أن موقف الجنوبيين رافض للاستيعاب فى الشمال عن طريق القوة وقد تعلم جنوبيون كثيرون أو يتعلمون، اللغة العربية، وتحول كثيرون إلى

٣- دينق نهيال، قائد دينكاوى تم اغتياله لاحقاً.

الإسلام، بيد أن كثيرين أيضاً تركوا أو فى طريقهم لترك الإسلام، بدافع الاحتجاج السياسى أكثر منه لفقدان الإيمان بالإسلام. وعاد كثيرون ممن اتخذوا لانفسهم أسماء عربية – إسلامية، لأسماء الدينكا التى كانوا قد هجروها من قبل. ومنذ بداية الحركة السياسية الجنوبية ضد الشمال كان المسلمون من بين أبرز قادة الجنوب، وهناك أيضاً مسلمون بين المتطرفين فى الجناح العسكرى للحركة الجنوبية الأنيانيا. ومهما يكن الأمر، ألم يكن رواد العداء للسيطرة الغربية فى أفريقيا هم الأفارقة الأكثر تغريباً، الذين درسوا غالباً فى الغرب؟ قد لا يكون التشبيه دقيقاً، وقد يكون غير مقبول، إلا انه يجب أن يقدم لنا بعض المحاذير والموجهات.



(تجاوب الجنوبيين مع إعلان الحكومة للحكم الذاتى. فى المقدمة ملوحاً للجماهير السيد جوزيف قرنق، من أبناء الجنوب ووزير وزارة شئون الجنوب التى انشئت حديثاً (تفضلت بها حكومة السودان)

لقد بدأ الشماليون يدركون هذا الوضع. وكانت آخر الخطوات فى اتجاه التسوية قد اتُخذت، عندما أعلنت الحكومة العسكرية الحكم الذاتى للجنوب وقد تم إنشاء وزارة لشئون الجنوب عُين عليها وزير من أبناء الجنوب، يمكنها أن تقترح السياسات، ولكنها تضطلع فى الغالب بتنسيق البرامج والنشاطات المتعلقة بالجنوب. كما تم تعيين اشخاص فى مناصب قيادية وصاحب ذلك إجراء حركة تنقلات إلى جنوب السودان، كذلك عاد بعض اللاجئين بناء على الوعد بالحكم الذاتى. إلا انه إجمالاً لم تُتخذ حتى الآن إجراءات لتطبيق الحكم الذاتى، ويعود ذلك جزئياً إلى أن معظم الإداريين لا يعرفون على وجه الدقة ماذا يعنى الحكم الذاتى، إذ لم يتم حتى الآن الإفصاح عن تفاصيله. وقد دعت الحكومة لمشاركة الجنوبيين، وأعلنت عفواً عاماً عن المقيمين منهم فى الخارج الذين ينضمون لجهود الحكومة، ويساعدون فى تشكيل مفهوم الحكم الذاتى، ويشاركون فى إجراءات تنفيذه. كذلك قررت الحكومة السير على طريق الاشتراكية على نطاق القطر، كما أعلنت وزارة شئون الجنوب أن التنمية وفق المبادئ الاشتراكية شرط ضرورى للحكم الذاتى فى الجنوب. وبرغم أن الحكومة عبرت عن نيتها فى الاستمرار قدماً فى البناء حتى إذا قام الثائرون بتخريب ماتم بناؤه، إلا أن خطط التنمية مازالت رهينة مطالب الحكومة بالسلام قبل التنمية، ومطالب الثائرين بالتسوية السياسية قبل وقف العمليات العسكرية، وبينما رحب الجنوبيون فى البداية بإعلان الحكم الذاتى بحماس شديد وأعربوا عن مساندتهم للحكومة، إلا أن مرور الزمن دون تغيير يذكر أعاد مرة أخرى الشكوك وعدم الثقة. وبدأت أصوات كثيرة تعرب عن تذمرها داخل القطر، بينما أبدى العسكريون الجنوبيون فى الخارج فرحة غريبة بالفشل الظاهر للشمال فى تنفيذ وعده بالحكم الذاتى فى ظل الوحدة، والذى كان قد بدأ يشق صفوف الجنوبيين، وقد تداخلت كل هذه العوامل فى كلا الجانبين وأرجعت القطر مرة أخرى إلى فترات الاستقطاب والتطرف، فعاد العنف بين الحكومة والثوار وبصورة أكثر كثافة. بذلك تظل مشكلة الجنوب هى المشكلة الكبرى التى تواجه السودان وتدمر اقتصاده وتكلفه أرواحاً غالية قدر البعض عددها بأكثر من مليون حتى الآن.

يشير المنظور التاريخى للمسار الثقافى للدينكا إلى أن تطور واستمرار ثقافة الدينكا اعتمد بصورة كبيرة على الأوضاع السياسية السائدة فى بلادهم. وترتب على ذلك أن المناحى الثقافية التى تم اختيارها للتغيير المخطط، ودرجة هذا التغيير، استندت، فى الأساس، على المصالح الحكومية التى يُراد خدمتها، وكان التأثير التحديثى الأول فى هذا هو التأثير البريطانى، الذى كان هدفه الرئيسى هو بسط النظام بعد سنوات من الاضطرابات والفساد والتحلل فى ظل الحكم التركى المصرى والدولة المهدية. وكان يُنتظر أن يتم ذلك بأقل التكاليف وبأقل عدد من الإداريين ووفق النظام القبلى التقليدى، لذلك لجأت الحكومة فى الحالات التى لم يتعاون فيها الزعماء التقليديون أو عندما كان هؤلاء الزعماء قليلى التأهيل، لجأت الحكومة إلى تعيين زعماء من جانبها بصورة مستقلة عن الزعامة التقليدية. ولم يكن ذلك هو الوضع وسط دينكا نقوك، إلا أنه مع ذلك تم استبدال نظام السلطة الموزعة بتركيزها فى يد الزعيم. حيث احتفظ زعماء الأقسام بمهام إدارية، لكن نزعت منهم سلطاتهم القضائية والتنفيذية، وصار رؤساء العشائر، الذين كانوا فيما قبل اعلى مرتبة ومسئولين عن عشائرهم، جامعين للضرائب يعينهم الزعيم: وهو تحول قلل من مكانتهم واقتضى اختيار أناس يملكون القدرة على اداء هذه المهمة الجديدة. وأصبح رؤساء العشائر الآن هدفاً لكثير من اغانى التحقير المكشوفة. وبينما ظلت السلطات التقليدية، بما فى ذلك صغار الزعماء على كل المستويات، تمارس بعض أشكال النفوذ الظاهرى، حيث تمر عبرها معظم المسائل التى تُرفع للسلطات العليا، إلا ان ذلك لم يعدُ أن يكون تضييعاً للوقت، لأنه كان لابد فى آخر الأمر من الاستئناس برأى الزعيم الأكبر فى معظم هذه القضايا.

وقد تضافرت عوامل الأهمية المبدئية للزعامة لدى نقوك، والانفتاح ما قبل الاستعمارى على الممارسات السياسية العربية بتاكيدها على التراتبية الاجتماعية، وتركيز الإدارت الاستعمارية والوطنية المختلفة على مؤسسة الزعيم، تضافرت هذه العوامل معاً لتجعل من بنية السلطة لدى نقوك أكثر هرمية من قبائل الدينكا الأخرى، بل من كل زعماء الجنوب الآخرين. ويرجع الفضل للتأثير الذى مارسته قيادة تقليدية ولكنها مبدعة فى جعل النظام السياسى لنقوك نظاماً فعالاً وقادراً على التاقلم مع الظروف الجديدة. فقد تخلى دينكا نقوك عن "العيش بقوة سواعدهم" وصاروا مسئولين أمام سلطات زعيمهم أكثر من أى قبيلة أخرى من قبائل الدينكا. غير ان الزعامة فقدت شيئاً من قداستها الدينية، وحل محل الإجلال والتوقير الذى كان يجده الزعيم بوصفه قائداً زمنياً وروحياً، حل محله الخوف من العقوبة الزمنية. وقد ظلت هذه معرضة ومفتوحة للنقد بقدر تنامى الخوف منها، كما استمر الزعيم وكبار السن فى ممارسة الإقناع ولكن بدرجة أقل مما كانوا قد درجوا عليه فى المجتمع التقليدى.

فى الحالات التى تم فيها تعيين زعيم لم يمارس أسلافه الزعامة تقليدياً، وهو ما حدث فى العديد من قبائل الدينكا، صار المفهوم العلمانى الحديث للسلطة، وبالتالى غياب الهيبة التقليدية الواجبة تجاه زعيم روحى، أكثر وضوحاً وبروزاً، ولكن غالباً ما صاحب مثل هذا التعيين وترتب عليه نشوء قدر من النفوذ الروحى التقليدى. بل إن اقارب الشخص الذى تم تعيينه قد يَدعون، من خلال الأغانى، بعضاً من التميز السلالى، لإعطاء نفوذهم المكتسب حديثاً قدراً من الصلاحية والمشروعية التقليدية. ويمكن التدليل على عداء الناس للسلطة العلمانية الحديثة بما يطلقه الدينكا على الحكومة، حتى تلك التى يمثلها الزعيم، إذ يسمونها "جور" وتعنى (الأجنبى).

وفى المحاكم صار الإغراء كبيراً بالنسبة للزعيم وكبار السن لكى يعْتبروا أنفسهم حكّاماً ينفذون القانون، وقد يلجأون سريعاً للإكراه والقسر. وكان رد فعل الدينكا تجاه الشرطة والجلد والسجن مشوباً بالغضب والموجدة، حيث صار يُنظر للتعرض لهذه المذلات بوصفها سبباً للشكوى. وحتى وقت قريب كان الاحتمال الأكبر أن يتعرض رجل شرطة أُرسل للاستيلاء على بقرة، للضرب بالعصا على رأسه. اما اليوم فقد صارت العقوبات الحكومية مقبولة بعد أن إتضح أنه لا سبيل لتفاديها، شئ يبعث علِى الخوف ومع ذلك يجب مواجهته بشجاعة وبغير الخجل المعتاد لدى المحكومين فى المجتمعات الغربية - ما لم يكن الجرم نفسه مخجلا بالمقاييس التقليدية. والأغنية التالية مقتبسة بطولها لأنها تغطى الجوانب المختلفة لتحولات السلطة فى مجتمع الدينكا. وكان دينق، المغنى لم يستجب لطلبات بالمثول أمام المحكمة. فأُرسل شرطى لإحضاره أو الاستيلاء على ثور ذاتيه لإجباره على الحضور. وعندما ظهر تمت إحالته للسجن فى انتظار المحاكمة. وقد تم فى وقت لاحق الحكم لصالحه.

ذهبت وجلست تحت شجرة المحكمة،
من كل الذين حضروا،
لم يقل واحد: "صباح الخير"،
لذلك جلست بقلب منقبض.
كتبوا أمر المحكمة بلا كلمات،
ولم يسألوا حتى عن اسمي.
لماذا يغضب الناس عندما أعرض حالتي؟
هل يريدون وضعي في السجن؟
"نعم، فالجرم خطير
ستذهب للسجن"
ألهذا يهددني الناس في غضب؟
السجن فحسب؟
وماذا الآن عندما أذهب بنفسي،
من غير أن يقتادني رجل شرطة؟
حتى لو كان هناك تمساح يلتهم الناس في السجن،
سأذهب إليه.
قفلوني في السجن، سجنوني.
وغطى العرق بالآلام عيوني،
غطى العرق بالآلام عيوننا، وانتنت الخفافيش.
يا ابن عشيرة باكر، مايون دي دان دي كير.
الحكومة ليست مثل زمنك القديم،
فلا تغضب عندما ترسلك الشرطة،
سيضربونك، وسيصبح وجه العار ضخماً.
عار الاعتداء على رجل مسن.
بينما ينظر رجال شبان لحظة ضربه.
فضحية القانون لا يمكن استبداله.
اتركنا نربط قلوبنا، يا أبا نيانوير،
ونذهب لكي نزرع القطن.
لما دفعونا للحقل،
مشيت ورأسي مائل كالقارب.
وكدت أن أرفض العمل.
عاد وجع التدشين إلى قلبي .

كدت أفعل ما كدت أن أفعله.
ميجانق دي داك لا تمش وراءنا،
لا تتبعنا بسوطك.
فالناس لا يستعبدون بعضهم البعض،
عندما يكونان معاً مدشنين.
فظائع شرطة العرب
لا يجوز أن يفعلها رجل الدينكا
فيقتل شعبه
أمرني العربي على حمار ميت
أمرني بأن أجلس تحت الشمس
قال: "احرس الحمار من الطيور".
كل الطيور التي تطير في السماء
هل أستطيع أن أحرسه منها؟
لا أستطيع، يا ميكار أرولجوك،
كل الطيور التي تطير في السماء،
لن يحرس منها أحد.
بسبب حيوان لا يؤكل ولا يُسلخ جلده
أجلس يومي كله تحت الشمس الحارقة
ثم يرفع أمري للمحكمة،
أنا لا أكدر نفسي عندما تذهب مسألة للمحكمة
لكن في هذه القضية
لو كان الخالق قريباً،
لدعوت أبي.
لدعوت أبي، ابن دينق،
ليأتي ويحضر قضيتي.
كل رجل يأتي مع أبيه،
وأنا أجازف في المحاكم وحدي،
أنا وحيد في دعواي،
وحيد كأنه لم يكن لي أب أبداً.
وقد أدى تُركيز المهام القضائية في يد الزعيم الأكبر إلى اكتظاظ محكمته وتراكم القضايا فيها، بدرجة استدعت تصدي الشرطة أحياناً، لمنع التقاضي

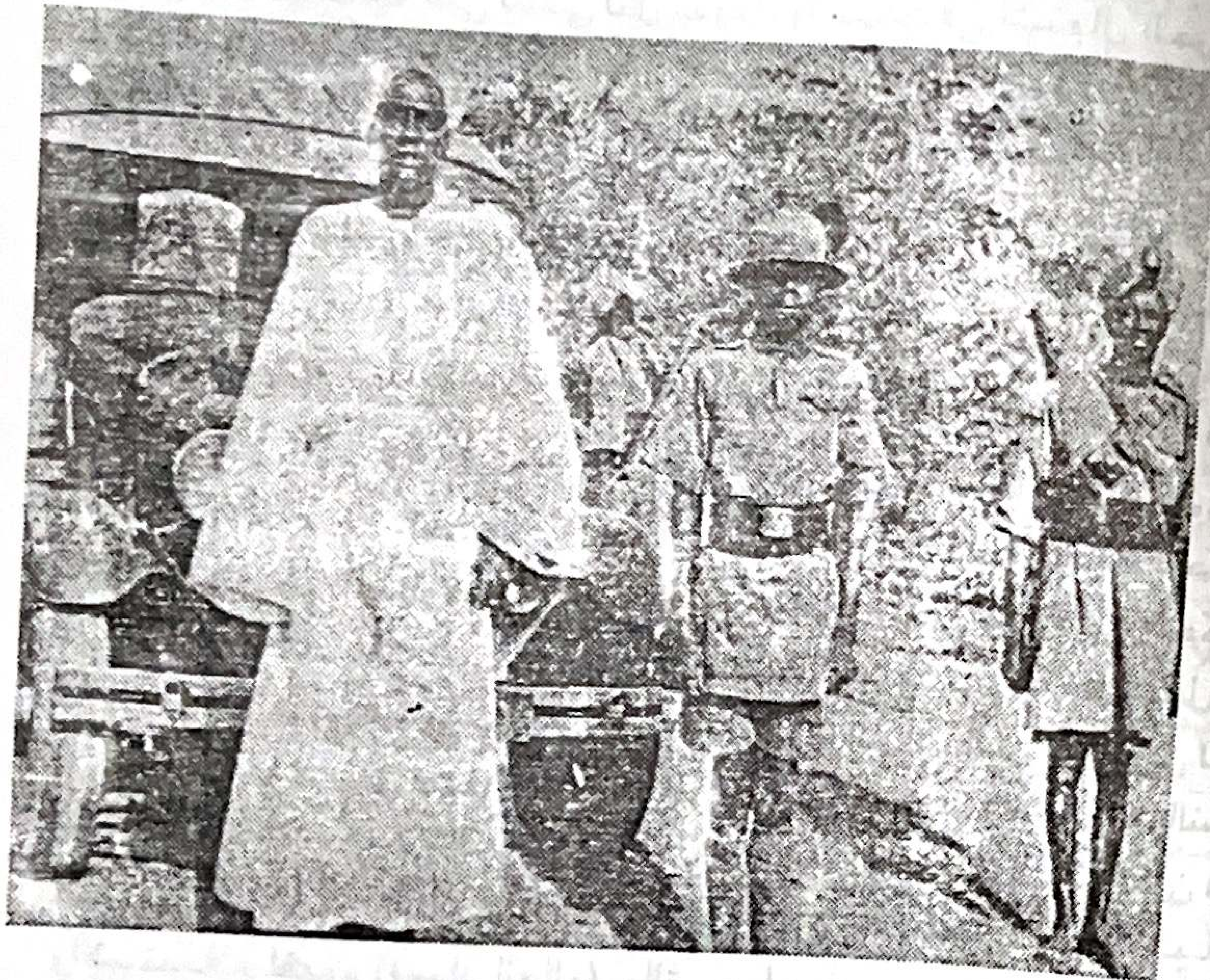
في بيته، وذلك في مخالفة صريحة للتقليد السائد، باستماع الزعيم للقضايا في أي مكان وزمان. وحدث، أحياناً، أن أبعد الناس بالضرب عن منزل الزعيم تطبيقاً لهذه السياسة. في بعض الحالات أمر الزعيم الشرطة بالسماح بدخول الناس. إلا أنه في كل الأحوال لم يؤد ضبط النفس من جانب الشرطة إلا إلى تخفيف التجمهر، ولكنه لم يستطع أبداً إيقاف التقاضي. فكان المرء يشاهد الناس منتشرين في مجموعات من شخصين وثلاثة، وفي كل المكان خارج مجمع الزعيم، ينتظرون ظهوره وعندما يظهر الزعيم، كان الوضع كثيراً ما يقتضي تدخل البوليس لمنع التزاحم الزائد من حوله، وخاصة أنه يجب تركه يمشي أمام أتباعه بمسافة، كنوع من التوقير تتم مراعاته عادة، إلا أنه يجب فرضه أحياناً.

وبرغم كفاءة النظام القضائي الجديد ظلت هناك بقايا من ممارسات اللجوء إلى أخذ القانون باليد، والتي تجد أحياناً مبرراتها في الظروف المحيطة، كما أنها أصبحت جزءًا من أسلوب الدينكا في الحياة بحيث يمكن اعتبارها أعرافاً. على سبيل المثال، يلجأ الشاكي، لكي يجبر شخصاً ما على تسوية مسألة، إلى الاستيلاء على بقرة المعتدي. كذلك قد يلجأ أقارب المرأة إلى للاستيلاء على بعض من أفضل أبقار المجرم لتسريع التعويض في حالة انتهاك الحقوق الجنسية للذكر في النساء. حيث يحتفظون بعد التسوية بنصيبهم ويعيدون ما زاد على ذلك من الأبقار.

وتتمثل إحدى النتائج الجانبية لعلمنة نظم الحكم والهيمنة من جانب، واضمحلال السلطة الدينية، من جانب آخر في تفاقم صراعات السلطة، وظهور المعارضة السياسية الحديثة. فالأعضاء الطموحون المنتمون للسلالات الحاكمة، وحتى الأفراد العاديون الذين اصطدموا، بشكل أو بآخر، مع الزعيم، قد بدأوا في الدعاية والتهييج. فأرسلوا إلى الحكومة المركزية، الشكاوى التي تهدف إلى التشكيك في كفاءة الزعيم، بصورة أو بأخرى، ولكنهم أخفقوا جميعاً في ذلك.

إجمالاً، تأثرت الأهمية التقليدية لمؤسسة الزعامة وسط الدينكا، والدرجة التي تعزز بها نفوذ الزعيم بفعل المؤثرات الخارجية، وتزايد علمنة السلطة، والميل إلى الحكم المطلق تأثرت جميعها، إلى حد كبير، بشخصية الزعيم المعني. في هذا الإطار كانت قيادة دينكا نقوك قد قويت، بصورة متزايدة عبر سلسلة من الرجال العظام، الذين كانت قدراتهم على التأقلم الانتقائي عند

نقطة تماس الثقافات، قد رفعت من مكانتهم، وأكسبتهم نفوذاً، وحفظت شعوبهم من الخطر الخارجي أو العواقب السلبية لمقاومة قصيرة النظر. إلا أننا نجد أن الوثائق تتحدث عن كل الزعماء الحديثين لنقوك: أروب دي بيونق وكول دي أروب ودينق مجوك دي كول بوصفهم زعماء مستعربين، وهو حكم خاطئ على تلك العملية المعقدة من التبني والتأقلم والتمثل التي قاموا بها لما رأوا أنه الأفضل في طرائق العرب، دون أن يتخلوا عمّا هو الأفضل في طرائق الدينكا، غير مساومين بروح المساواة لدى الدينكا إلا في الدرجة. وقد ورثوا منصباً يرجع إلى خمسة عشر جيلاً للوراء وقد تزيد على ذلك، حيث بنى كل واحد منهم فوق مجد أبيه، مورِّثاً خليفته، أحياناً، مجداً أكبر للمنصب. فعندما خلف كول اباه في ١٩٠٥سافر إلى الأبيض لكي يحصل على حماية الحكم الثنائي الإنجليزي – المصري الجديد، من غارات المسترقين العرب، الذين كان الجنوب، بالنسبة لهم ما زال مكاناً لصيد البشر.



الزعيم كول أروب ومعه بعض رجال البوليس يقفون بقرب أول عربة تدخل منطقة نقوك في بداية الثلاثينيات. وكان الزعيم كول قد خلف اباه الزعيم أروب في عام ١٩٠٥ وحكم حتى وفاته ١٩٤٥ (الصورة: ك.دي.دي هندرسون)

ومع ذلك لم تنل كثير من قبائل الدينكا فى الجنوب حماية الحكم الجديد الكاملة إلا فى عام ١٩٣٠ كذلك احتفظ دينق مجوك، الذى خلف والده، باستقلاليته واستقلال قبيلته أمام طموحات الزعماء العرب، الذين ضمه معهم مجلس واحد. حيث لم يتفهم ناظر عموم العرب بابو نمر، الذى امتدت سلطاته القضائية مع تلك الوحدة على قبائل عربية ونوبية أخرى، لم يتفهم أبداً لماذا لم يُضم نقوك إلى سلطاته القضائية، وقد أغضب دينق مجوك مجرد إثارة هذه المسألة. ودفع بأن نقوك كقبيلة من قبائل الدينكا يجب ألا تتم إذابتها فى سلطات زعيم عربى. وساندته فى هذا الموقف كل من الإدارتين الاستعمارية والوطنية، وظل مسئولاً فقط أمام سلطات الحكومة المركزية عن الشئون القضائية والإدارية.

وتفاقمت الأزمة فى عام ١٩٦٥، عندما أقام بعض زعماء العرب تحالفاً مع نقوك وانتخبوا دنيق مجوك رئيساً لمجلس المسيرية. فقد أدت هذه التطورات إلى توتر العلاقات بين نقوك والأسر العربية الحاكمة، ملقية بظلالها على علاقات المجموعات السكانية التى تنتمى لكل منهما. وأسهمت فى اشتعال الحرب بين البقارة والدينكا فى عام ١٩٦٥، والتى أزهقت فيها أرواح الألوف من الناس من كلا الجانبين، والتى لعب فيها دينق مجوك دوراً فريداً من أجل إعادة النظام والمحافظة عليه. وبرغم استدعائه لقوات الأمن، إلا أنه بذل الجهد لكى لا تقوم هذه القوات باغتصاب السلطات القبلية، وتحويل وجودها إلى احتلال عسكرى، ووسيلة لاخضاع الزعماء كما هو الحال فى الجنوب منذ بداية الثورة. وتركته هذه الصعوبيات قلقاً سياسياً، إلا أنها لم تؤثر فى وضعه ومكانته، بل رفعت من قدره، الذى كان قد بلغ شأواً عظيماً، وجعلته قائداً بطلاً حتى لدى معارضة وسط نقوك والقبائل الأخرى فى الجنوب. وقد عبر عن ذلك أحد قادة الجنوب قائلاً: "حصل دينق مجوك على المساواة الكاملة مع الزعماء العرب، وكان مقبولاً من الحكومة المركزية بهذه الصفة. بالنسبة لجنوبى، كانت تلك معجزة حقيقية. بل جعل منه تساويه برغم جنوبيته أبرز ذكراً وأرفع شأناً من نظرائه الشماليين المجاورين له."

وقد كان موت دينق مجوك فى أغسطس عام ١٩٦٩ فاجعة لا مثيل لها بالنسبة لنقوك وبقية الدينكا فى الجنوب. فقد كفت أرض نقوك فجأة عن أن تكون ذلك الجسر الآمن بين الشمال والجنوب. ولم تترك مشاعر الخوف واليأس والإستسلام لمفهوم (فساد العالم)، والتى صاحبت موت دينق مجوك، شكاً فى ذهن أحد بأن قائداً عظيماً وحامياً قد رحل عن هذه الدنيا.

كنا شهوداً على هذه المرحلة الحرجة من تاريخ نقوك، عندما صحبنا جثمانه

من القاهرة التى مات فيها. وعلى الرغم من أن الموسم كان موسم أمطار، إلا أنها لم تمطر لعدة أيام مما جعل إستخدام مهبط الطيران فى أبيبى ممكنا، بعد إجراء بعض أعمال التسوية عليها. وقد رتبت الحكومة لرحلتنا الجوية من الخرطوم على طائرة من طائرات سلاح الجو السودانى. عندما هبطت بنا الطائرة فى أبيبى وجدنا أمامنا عصراً للرعب. فقد ترك غياب دينق مجوك فراغاً، قامت قوات الأمن بملئه بالإعتقالات والتعذيب والقتل. إذ قامت هذه القوات، قبل وصولنا بيومين فقط، بقتل أخ للزعيم رمياً بالرصاص، بعد أن اتهمته بالتعاون مع الثوار. وكان شخصاً يلقى تقديراً عالياً ويتمتع بمكانة بارزة. ومن بين الكثيرين الذين تعرضوا للتعذيب أخت الزعيم، لأن واحداً من أبنائها كان من الثوار. وتسبب تعذيبها فى إصابة يديها بالشلل. وظل الدينكا بما فى ذلك زعماؤهم، والمتعلمون منهم على وجه الخصوص تحت الفحص الدقيق، وفى حالة خوف مستمر. وقد حاول عبدالله مونيياك دينق، الإبن الذى كلفه الزعيم دينق بالمسئولية، والذى كان سيخلفه فى الزعامة، ملء مكان أبيه، إلا أنه لم تكن له السلطة القانونية ولا التأثير الشخصى لكى يكون فعّالاً. بل أن قوات الأمن كانت تتهمه أيضاً بالتعاون مع الثوار. وقد خلف والده دون أن يساوره أى وهم حول مقاس الأحذية التى ورثها منه. وكان والده هو الذى يجب أن يُلام على ذلك، قال بعيون دامعة: "صلينا جميعاً لكى يعود ويضع نهاية لكل هذا الذى يحدث. بدلاً من ذلك عاد إلينا جثماناً فى لحظة كنا فيها فى أشد الحاجة إليه".

وأخبرنا أهلنا سريعاً بأنه لابد من حراستنا بواسطة محاربى القبيلة طوال فترة إقامتنا. ولكننا قبلنا دعوة الضابط المسؤل عن قوات الأمن للإقامة معه فى منزله، لأن منزلنا كان غاصاً بالمعزين. لم ننم طوال الليلة الأولى إذ إمتلأ المنزل بأناس يهمسون وهم يدخلون ويخرجون. كان هناك شيئاً شنيعاً يُحاك. وقررنا فى الصباح التالى أن نكون صريحين مع الضابط. فحدثناه عن مخاوفنا طوال الليل، وبأننا قد أخطرنا بموت عمنا، وأنه كان شخصاً عزيزاً جداً لدينا، ولكن بما أننا نتحمل مسئوليات أبينا كزعيم، يجب علينا مراعاة مصلحة المجتمع بأكمله مهما كان حجم حزننا أو فقدنا الشخصى. وطلبنا لذلك تفسيراً لموت عمنا، وتقريراً عن الوضع الأمنى بصورة عامة، والكيفية التى يمكن لنا أن نساعد بها فى إيجاد بعض التفاهم لتسريع عودة النظام وإنقاذ أرواح الدينكا. فحدثنا الضابط كيف أنه قد قتل عمنا فى قناعة تامة بأنه من الثوار، وكيف قام فى الليلة الماضية



الزعيم دينق مجوك كول (الرابع من اليسار) مع الزعماء العرب فى عام ١٩٥٤ فى احتفال قبلى مشترك على شرف ميخائيل تيبس، آخر مأمور للمنطقة من البريطانيين. وكان الزعيم دينق قد خلف والده، كول أروب كزعيم أكبر عام ١٩٤٥ (الصورة: ميخائيل تيبس)



(الصورة فى ص ١٤٧)
الزعيم دينق مجوك كول قبل ثمانية أيام من وفاته فى أغسطس ١٩٦٩ إثر مرض طويل.

بتطويق منزلنا وأبيبى بأكملها، لأنه قد وردت إليه معلومات بأن قادة الثوار المحليين (أبناء عمنا) قد يأتون لحضور مراسم الدفن. وكيف أنه قد أصدر الأوامر بإطلاق الرصاص عليهم فى الحال، حتى لو كانوا على (برش) العزاء. وحدثنا أيضاً عن الجهات التى تشتبه فى عبدالله، وأفصح عن شكوكه فى إمكانية موافقة السلطات المركزية على تنصيبه كزعيم. وقد يكون أفضل تعبير عن ثقته فينا – على ظرفيتها وهشاشتها – وعن بشاعة الأوضاع السائدة آنذاك، لفتة رمزية بدرت منه: فبينما كان خارجاً من المنزل فى طريقه لمشاركة قواته فى لعب الكرة الطائرة، رمى مسدساً نحوى قائلاً: "فى هذه المنطقة قد تحتاج لهذا". يجب ألا ننسى أن أهلنا هم الذين كانوا يريدون حراستنا منهم.

لقد وجدنا أن الشكوك المثارة حول عبدالله لا أساس لها من الصحة. وبذلنا الجهد لإزالتها، وواصلنا الليل بالنهار لمدة شهر كامل، فى عمل متصل لإعادة قدر من علاقة التعاون بين قوات الأمن، والزعيم والسكان. بل حاولنا حتى دفع قادة الثوار المحليين إلى السلام. غير أن المهمة كانت هائلة وبالغة الصعوبة تداخلت فيها عوامل معقدة. فبسبب أن بمعظم المتعلمين من الدينكا كانوا ينتمون للأسر القائدة، كان بعض من القادة المحليين للثوار أقارب للزعماء، مما أعطى العرب انطباعاً عن تحالف عريض بين السلطات المدنية والقوات الثائرة. أضف إلى هذا أن أولئك الذين كانوا يريدون إزاحة الزعامة القبلية القائمة سعوا لاستغلال هذه المصادفة. على هذا النحو كانت تتم زلزلة أساس النظام القبلى بطرائق عدة ظاهرة وخفية من بين ذلك أن الضابط القائد كان يكافئ مخبريه بأبقار تم الاستيلاء عليها من أشخاص مشتبه فيهم. وأصبح تحريف الأقوال، حتى اختلاق الأدلة سبيلاً للثروة والوجاهة. سأورد هنا مثالاً واحداً: اتفقنا مع الضابط على أننا يجب أن نجتمع مع القبيلة لمناقشة الوضع الأمنى. وقرر هو أنه لن يحضر الاجتماع حتى يستطيع المشاركون التحدث بحرية كاملة. فى الاجتماع عارض واحد من إخواننا الصغار تشجيع مثل هذه الحرية، دافعاً بأن ذلك سيعرض أرواح الذين ينتقدون الضابط إلى الخطر. وقال إنه يتحدث بهذه الطريقة لأنه لا يأبه بما يمكن أن يحدث له. وقال إنه مصمم أيضاً على رفع قضية عمه المقتول إلى السلطات المركزية، وعبر عن أمله فى أن نناقش نحن هذه المسألة وكذلك الوضع الأمنى بأكمله مع السلطات المركزية. فى اليوم التالى كنا نتناول وجبة الإفطار مع الضابط، قبل لحظات من الوقت الذى كان مقرراً أن نذهب فيه

للاجتماع الأخير، والذى كان مقرراً أن يشارك فيه الضابط. وكنا نريد أن نوحد فيه كل الجهات لكى تعمل معاً على المحافظة على أمن المنطقة. فى هذه اللحظات نودى الضابط إلى مكتبه المجاور لغرفة الإفطار. بعد فترة عاد إلينا وجلس كأن شيئاً لم يكن. ولكن فى تلك الفترة التى غاب فيها عنا هرع إلينا ولد قلق ليخبرنا أن أخانا تم اعتقاله وأنه موجود فى تلك اللحظة مع الضابط. كان الشعور السائد لدى الدينكا هو أن الأخذ مباشرة إلى الإدارة العسكرية بدلاً من قسم الشرطة يعادل حكماً بالموت - أو على الأقل بالتعذيب الشديد. وبقينا جالسين، نتناقش فى قلق عمّا إذا كنا سننتظر رجوع الضابط أو نتدخل فى الحال. فقد كان أخونا شخصاً حاد الطبع، وكان الاحتمال كبيراً فى أنه سيرتكب حماقة ما. ولم يخفف من حدة قلقنا إلا عدم سماعنا لصوت إطلاق للرصاص حتى عودة الضابط. سألناه ما الأمر، فحاول أن يصرف السؤال ولم يقل أكثر من أن أخانا رهن الاعتقال فى قسم الشرطة. ولم يقل لنا ماذا فعل أخونا. قلنا له أننا لن نذهب للاجتماع إذا لم نعرف على الأقل الأسباب التى أدت إلى الاعتقال. بعد نقاش حاد أخبرنا الضابط بأنه قام باختراق اجتماعنا السابق، وتبعا للتقارير الاستخباراتية التى تلقاها فإن أخانا قد هدد علناً بالثورة وطلب منا نحن أن نوفر الأسلحة من الولايات المتحدة الأمريكية. وأنه لا يشكل تهديداً لأمن أبيبى فحسب، بل أمن السودان كله. وتبعاً للضابط، جاءت هذه الادعاءات من أربعة من مخبريه السريين، ولابد بالتالى من أن تكون صحيحة. لأن الأخذ بغير ذلك سيخلق وضعاً غير مقبول، يصبح فيه رجاله هم المذنبون. بالطبع كان فى المسألة توريط لنا أيضاً. غير أن الادعاءات كانت على درجة من السخف ولا تستند على أى دليل حقيقى، الأمر الذى دعانا إلى الإصرار على إطلاق سراح أخينا أو أننا سنتخلى عن أى عمل يختص بالأمن وسنرفع تقريرنا للحكومة المركزية. وتم إطلاق سراح أخينا "ولكن من أجلنا فقط". وعندما سافرنا تركنا وضعاً أفضل، ولكنه كان هشاً غير مستقر. حتى فى اللحظات التى كنا نغادر فيها المنطقة، هرع إلينا عدد من الناس ليخبرونا أن سبعة من المتعلمين الذين كانوا يساعدوننا فى عملنا على تحقيق السلام، قد تم اعتقالهم للاشتباه فى تعاونهم مع الثوار. وكان الضابط قد أخطرنا فى الليلة الماضية أنه سيتم إعتقالهم لأغراض تأديبية بحتة، وأنه سيُفرج عنهم بعد فترة قصيرة وأنه لا داعي لكى نقلق على سلامتهم. وسعينا ما أمكن لطمأنة مخاوف الناس، ثم غادرنا لكى نرفع

قضيتهم إلى السلطات المركزية.

وفى أثناء الرحلة، طلب اثنان من الجنود الذين تم نقلهما من أبيبى التحدث إلينا - أخى وأنا - على انفراد. وأخبرانا بأنهما شهدا إطلاق الرصاص على عمنا. فقد تم أخذه ليلاً موثوق اليدين، من السجن إلى منزله بالقرب من أبيبى. وتم تفتيش المنزل، حيث وُجدت بعض الأدوية. فوُجهت إليه التهمة بأنها تخص الثوار، إلا أن عمنا أوضح أنه اشتراها من الخرطوم لقريبه الذى يعانى من مرض مزمن، فوصفه الضابط بأنه كذاب وهدده بمسدس. فقال له عمنا: "اقتلنى، فإن الحكومة ستسأل عنى، وفى كل الأحوال سيكون حسابك أمام الرب عن موتى". فأغضب ذلك الضابط، الذى قام بوضع مسدسه فى رأس عمنا وأطلق منه عدة طلقات. ثم أمر جنوده بعد ذلك بإطلاق الرصاص فى الهواء، وأعلن لاحقاً أن الرجل حاول الهرب وأنه قد سقط قتيلاً أثناء هربه. وعبر الجنديان اللذان تحدثا إلينا عن إعجابهما الشديد بشجاعة الرجل واستنكارهما لتصرفات الضابط. وأبديا استعدادهما للإدلاء بشهادتهما- التى قالا أن القانون العسكرى يحظر عليهما المبادرة بها إلا عند التحقيق. وقصا علينا كثيراً من الفظائع التى أجبرا على القيام بها، وكيف أن قدومنا قد جلب معه شيئاً من التخفيف عنهما، بتقليله إلى الحد الأدنى من الإعتقالات الجديدة، وتشجيعه لمعاملة أحسن للذين سبق وجودهم فى المعتقلات.

واجتمعنا مع السلطات المركزية فى المنطقة والمديرية والعاصمة لشرح الأوضاع وتقديم تقرير عن حالة المنطقة واقتراح الإجراءات اللازمة للتخفيف من حدة الأزمة. ولكن حتى قبل أن نكمل اتصالاتنا جاءت التقارير من أبيبى بأن سبعة أشخاص قد قتلوا رمياً بالرصاص. كانوا سبعة غير الذين اعتقلوا فى وجودنا.

وكان رد فعل السلطات المركزية مشجعاً. فاستجابت لطلباتنا بمنح عبدالله دينق السلطات القضائية والإدارية، وتم نقل الضابط وقواته من أبيبى، وحل محله ضابط آخر أكبر سناً وأكثر خبرة، وإن كان أقل تعليماً، تصحبه وحدة عسكرية جديدة. كذلك شُكلت لجنة للتحقيق فى الأوضاع فى المنطقة. وبرغم أن تقرير هذه اللجنة لم يعلن أبداً، إلا أن الضابط السابق قد بُرِّئ فى آخر الأمر.

ثم اقتضت الظروف بعد ذلك أن نعود - أخى وأنا - إلى عملنا خارج

السودان. كنا نقضى الساعات الطوال كل يوم نفكر بحزن فى الكارثة التى حاقت بأهلنا. ونعود إلى أيام طفولتنا، ونتذكر السلام الذى تمتعنا به، والألعاب التى لعبناها، والرجال الكرام الشرفاء الذين عرفناهم ونحن نكبر، وقارنّا كل ذلك بما شاهدناه عند عودتنا: أطفالاً لا يبدو أنهم قد عرفوا معنى اللعب، ووجوها يكتنفها الحزن واليأس، وأناساً مقموعين قُهروا إلى حالة من الذل لم يكن يخطر بأذهاننا أن أحداً من الدينكا من الممكن أن يتحملها، وكنا لانزال نجد، عندما نستمع لأغانى الدينكا التى قمت بتسجيلها، عزة وكرامة الماضى فى أصواتهم وفى ألحان أغنياتهم وفى إيقاعاتها، ولكن أذهاننا وأرواحنا كانت تهيم بعيداً فى ذلك الخراب الذى حلّ مع التغيير. بعض الأغانى عبرت عن أحزاننا، وأعادت إلينا ذكريات تلك الحياة والرحيل غير المواتي لذلك الرجل العظيم، الذى عظمت الحاجة إليه، أبينا دينق مجوك. وقد كان ولازال الإستماع إلى أصوات هؤلاء الرجال والنساء وهم يعبرون عن مأساتهم ببساطة، وذكاء، وإنسانية - بل ويرصدون أبعادها الدولية، كان ومازال يثير لواعج النفس ويحرك اشجانها:-

كيف حدث إفساد العالم،
أرضنا محشورة فى زنزانة بالسجن.
أفسد العرب أرضنا،
أفسدوا بلدنا بمدافع ملتحية.
مدافع تروى كالرعد، بل يصبح صوتها جميلاً لاحقاً
مثل الطبول القديمة يُستدرج بها الجاموس،
حتى تُقبض من قرونها.
هل لون البشرة الأسود سىء إلى هذا الحد،
حتى تخرج الحكومة مدافعها؟
وأن جوب البوليس المكان جيئة وذهاباً.
ويثير ذوو المدافع الغبار،
والجبناء يستسلمون للسلاح؟
البلد الذى استعدنا من الأجانب،
البلد الذى قاتلنا من أجله معاً،
وترك الإنجليز بلادنا،
فقط لكى تُهاجم بمدافع البرين.

يا له من "شينق"
اواه، ياله من "شينق"
يا جنوب دينق، ابن كول
الذى تفعله الحكومة
ليس أمراً حسناً،
يلوحون بمدافع البرين
كأنهم يقلون سمسماً.
يحصدون طلقات رصاصهم،
ثم يقولون "مليون طلقة
لم تقهر نقوك".
قضيتنا فى المحكمة،
قضيتنا فى المحكمة مع ناس الاعالى
تنعقد المحكمة بين طيات السحاب.
أكاى التى لباجوك،
والنفس التى فى أبداننا،
لها قضية
أجلسوا المحكمة،
ونادوا الرب،
ثم قالوا "أيها الرب، لماذا تفعل هذا؟
ألا ترى ما حدث للبشرة السوداء
وتأجلت المحكمة.
جاءت خالتنا،
مع الآلهة من الاعالى،
والنفوس،
وجلسوا على أرض أبناء بيونق
هبت عاصفة من الغبار فى أبيبى،
وعانقت الأعاصير السماء.
يأسرة أروب دى بيونق، [illegible]ن هناك ما يمكن عمله.
من يدرى ماذا تدبر الحكومة؟
حتى لو مسحونا بالمدافع الملتحية،

لمن ستكون أمنياتنا؟
هذا ما سنفكر فيه دائما . . .
وبينما نحو نتفكر ونتكهن بما سيحدث جاءت أنباء مشجعة من البلد. فقد أحرز عبدالله تقدماً محلوظاً على خطى والدنا، وصار ممثلا فعالاً وحامياً لأبناء شعبه. إلا أن سنوات عمره السبع والعشرين وخلافته لقائد فريد في عظمته لم تتح له بعد بسط نفوذه وسيطرته الكاملة على القبيلة وقوات الأمن ثم ساءت الأمور سريعاً. فقد أضحى الضابط الجديد أكثر وحشية من سابقه وصار يعتقل ويعذب ويقتل أناساً اعتبرهم الزعيم أبرياء. وسعى لمصادرة وبيع أبقار كل المشتبه فيهم، ولم يكن بوسعه أن يفعل ذلك بصورة قانونية إلا عبر محكمة الزعيم. وكثيراً ما كانت المحكمة ترفض ذلك. وزاد التوتر وتفجرت الصراعات المكشوفة بين أخينا والضابط الجديد. وفي وقت ما في نهاية شهر أغسطس أو بداية شهر سبتمبر ١٩٧٠، هاجم الضابط ورجاله معسكر أبقار الدينكا توك من بحر الغزال، الذين كانوا يرعون بأبقارهم في أراضي نقوك. وقد انبنى الهجوم عل بلاغ كاذب بأنه معسكر لجيش الثوار الأنيانيا. وقتلت قوات الأمن أربعة من الرجال وأخذت حوالي مائة وخمسين بقرة من المعسكر. ثم جاء الضابط لمحكمة الزعيم عبدالله طالباً التفويض ببيعها. ورفضّ عبدالله وأخبر الضابط بأنه سيرفع تقريراً بحادثة قتل الرجال الأبرياء والاستيلاء على أبقارهم إلى السلطات المركزية، وأنه سيطلب من هيئة أمن المديرية زيارة أبيي للتحقيق في نشاطات قوات الأمن. وبينما الاثنان في مواجهتهما العلنية، قال الضابط لعبدالله: أنه لن يعود مرة أخرى للمحكمة ليأخذ تفويضاً منها، وأنه إذا حدثت أعمال عنف في أبيي فإن الرصاصة الأولى التي سيطلقها ستكون موجهة نحو عبدالله. وفي السابع عشر من سبتمبر ١٩٧٠ بينما كان عبدالله واثنان من إخواننا وثلاثة من أعمامنا يجوبون أطراف القرية، هوجموا وتم اغتيالهم. وقد تعرّف شهود عيان على الضابط وستة من رجاله بأنهم القتلة. أما التقرير الرسمي الذي رفعه الضابط إلى رئاسة المديرية وإلى الخرطوم فقد نص على أنهم قُتلوا بواسطة الثوار وهو بديل معروف للصيغة الأخرى: قُتل باعتباره من الثوار. تحت عنوان: " كيف مات ستة من السودانيين: مذبحة أسرية." كتب ميخائيل ولفرز(Michael Wolfers) مقالاً عن هذه الاغتيالات في التايمز اللندنية بتاريخ ١٩/١٠/١٩٧٠م جاء فيه ما يلي:
" أعلن السيد جوزيف قرنق الوزير في الحكومة الثورية السودانية

والمسئول عن جنوب السودان، لتوه تمديد العفو لمدة عام آخر عن الجنوبيين الذين تورطوا في نشاطات انفصالية، ولكنهم يرغبون في العودة إلى وطنهم إلا أن ثقة هؤلاء الثوار في هذا الإعلان قد تتأثر بصورة خطيرة ببعض المعلومات الجديدة المتعلقة باغتيالات حديثة لستة من أعضاء واحدة من أسر الدينكا القائدة (واحدة من القبائل الرئيسية في السودان)، من ضمنهم الزعيم الأكبر للدينكا نقوك. ويتمثل التطور الحاسم في هذه الأحداث أنها وقعت لأسرة ظلت تاريخياً تفضل التعاون بين الشمال والجنوب، وأنها حدثت في منطقة أبيي بمديرية كردفان، ليس في الحدود الجنوبية للقطر، بل في منطقة التماس بين الشماليين والجنوبيين. وتنتمي كردفان جغرافياً إلى الشمال غير أن دينكا نقوك هم جزء من تركيبة قبائل جنوب السودان".
وقد قامت الحكومة منذ ذلك الحين بتكوين لجنة للتحقيق. بهرت الدينكا بطريقتها في أداء أعمالها إذ جعلت الشهود يؤدون القسم على الحراب المقدسة للزعيم. وهو إجراء لا يحدث إلا في اشد القضايا خطورة، حيث يُعتقد أن الإدلاء بشهادة كاذبة بعد هذا القسم يؤدي إلى الموت. وقد أدلى ستة وثلاثون شاهداً بأقوال شهدوا فيها جميعاً - باستثناء واحد سبق الاشتباه في تورطه في عملية الاغتيال - ضد الضابط ورجاله. حتى كتابة هذه الأسطر لم يتم نشر تقرير لجنة التحقيق. غير أن تكوينها بعد عدة أشهر من الحادثة، وعدم إصدارها لأي أوامر بالاعتقال ، حتى الآن، برغم توافر الأدلة، وبرغم تخويلها هذا الحق، هي مآخذ خطيرة على إجراء حكومي وجد الترحيب والقبول.
غير أن فظاعة وجسامة الأحداث السابقة لا تعكس تماماً حجم الأوضاع السائدة في جنوب السودان، فقد نجحت دبلوماسية زعماء نقوك في الاحتفاظ بمنطقتهم أكثر أماناً برغم التوسع الحالي للحرب في هذه المنطقة. وكما عبر عن ذلك ضابط من الجيش أثناء التحقيقات في أحداث ١٩٦٩ بأبيي :"عندما كان يتم نقل رجل من الجنوب إلى منطقة أبيي، كنا نعتقد أنه قد عاد إلى أهله إلى السلام". فحوادث أبيي هي مجرد إشارة لما هو حادث في عمق الجنوب.
ومع ذلك فقد كان موت عبدالله نقطة فارقة في تاريخ المؤسسة القائدة لنقوك. إذ لم يحدث أبداً من قبل أن تعرضت سلطات زعيم للنقوك لمثل هذا التشكيك ناهيك عن التحدي، من قبل موظف صغير. في الواقع عندما كان يُقال أن زعماء نقوك سعوا للتعاون مع الحكومات المختلفة، لابد أن يُفهم ذلك في إطار

السعى لاستقطاب حماية الحكومة من قهر خارجى. وبالتالى فإن أدوات الدولة الحديثة، التى دعمت فيما مضى مؤسسة الزعامة، وأضافت إلى أهميتها التقليدية، وأعطتها هذا الدور المركزى، لهى نفس الأدوات التى تهدد اليوم إستمرارها. إلا أن زوال مؤسسة الزعامة باعتبارها العمود الفقرى لمجتمع الدينكا، يهدد أيضاً وجود المجتمع نفسه. هذا هو جوهر أزمة نقوك. فهم أناس جُبلوا على الاعتماد على قادة أفراد، وعلى مؤسسة تتواجد الآن فقط بصورة مشكوك فى جدواها.

إن قدر الزعيم الأكبر لنقوك هو من العلو والرفعة. بحيث إن ماحدث لعبدالله وأقاربه هو أكثر الأمور التى يمكن أن تحدث إحباطاً وتخذيلاً. وكان يجب أن يكون رد الفعل لها هو بإجراءات سريعة وعلنية وصارمة ضد المسئولين عنها. ولكن ذلك لم يحدث. فى المقابل تزايد النزوح نحو مدن الشمال وتواصل. ولكن بعض الناس يرفضون المغادرة. إذ إنهم يفضلون، فى ارتباط عازم وفخور بأرضهم، أن ينتظروا ويروا، بل وأن يموتوا ويرقدوا فى قبور أرض الأسلاف التى يحبونها.

التعليم

كنت قد ذكرت فيما سبق أن البريطانيين لم يكونوا راغبين فى تطوير الدينكا حتى وقت متأخر من حكمهم الاستعمارى الذى استمر نصف قرن من الزمان. وتم افتتاح أول مدرسة لنقوك فى عام ١٩٤٣، بينما افتتحت أول مدرسة حكومية لدينكا بحر الغزال فى التونج عام ١٩٤٤ وقد ساد جدل شديد فى كل مناطق الدينكا حول إرسال الأطفال إلى المدارس. حيث عارض معظم الناس هذه الفكرة. حتى فى دائرة أسرتنا، كان هناك نقد شديد لقرار أبينا بإرسال كل أبنائه للمدرسة، دون أن يترك أحداً يعتنى بالأبقار. وكان تعليم البنات مستنكراً على وجه الخصوص، إذ كان يعنى تحويلهن إلى نساء مدن بلا خلق وغير مناسبات للزواج. وفى الواقع، على الرغم من أن أسرتنا كانت رائدة فى تعليم الأولاد، فإن تعليم البنات لايزال معدوماً. والأغنية التالية تعكس الموقف السلبى من تعليم البنات، عندما رغب زوج المغنية، ماوير ريان (زعيم التويك) فى إرسال ابنتها الوحيدة إلى المدرسة وعارضت هى ذلك. وبعد أن حملت شكواها إلى الراحل ساير دنيق "رجل الرب"، تمت الاستجابة

لطلبها:-

تتبعت سياير العظيم إلى انيآر،
فقال: "سنلتقى فى الصباح الباكر".
أنا شخص معذب، أنا شخص مخدوع
أنجب طفلاً لكى يأخذوه الآن بعيداً إلى "جور"
يا أيتها القبيلة، إلى أين أذهب؟
أيها الدينكا إلى أين أذهب؟
طفلة وحيدة كقائمة الطبل،
كيف أسمع عنها فى المدينة؟
سمعت اسمها "اكول" ولم تطرف عينى.
لم أنم، ولكن ماذا يمكن أن أفعل؟
يا أبن ريان، يا ابن ريان!
إن تركتها لى،
سنعيش متصالحين.
ماوير اجينقكير، إن تركتها لى،
سنعيش متصالحين.

مع الزمن، وبالتدريج، بدأت أهمية المدرسة تتبدى. حيث صُممت كثير من النشاطات المدرسية فى اتجاه تغيير موقف الناس. فشُجع الأطفال على التأثير على اندادهم وكبارهم لكى يتقبلوا التعليم. وأُقيمت المناسبات الاجتماعية التى دُعى إليها الآباء والزعماء القبليون ليشاهدوا أطفالهم وهم يعرضون مهاراتهم الجديدة، ويقيمون الدليل العملى على إحساسهم بالمسئولية الاجتماعية وتوقيرهم وإجلالهم لآبائهم وزعمائهم وكبارهم. ونُظمت الرحلات حول مناطق القبيلة لكى تنقل الفكرة إلى الناس فى أماكن تواجدهم. وكانت الأغانى على وجه الخصوص وسيلة رائجة للوصول إلى الناس وللتأثير على الأطفال. وفى ما يلى نجد نموذجاً لذلك:-

أنا ولد صغير،
ولكننى السيد المحترم فى المستقبل
فانا خير بلادى،
وسأفعل ما فى وسعى،

فعلَّمنى حتى يصير ذهنى،
قابلاً لمعانى المعرفة
لأن العلم قوة،
لأن العلم هو الأفضل.

كانت القراءة والكتابة عملاً خارقاً فى عيون الدينكا، حتى أن الأطفال الذين تعلموهما كانوا يتفاخرون بذلك. وأذكر أن أكثر الألعاب شعبية فى بيتنا، حيث كانت هناك دائماً جمهرة من رجال القبيلة، هى أن يطلبوا من بعضنا أن نكتب شيئاً على الأرض أو فى ورقة، بينما يؤخذ الآخرون بعيداً ويُراقبوا للتأكد من أنهم لا يرون ما يُكتب. وقد كان الرجوع وقراءة ما كتب بصورة صحيحة يثير عاصفة من ضحكات الدهشة العالية، وكلما قرأنا رسالة وردت إلى أبينا من زعماء أخرين حول قضايا قبلية مشتركة، كان من المعتاد أن يستمع حامل الرسالة باهتمام بالغ، ثم يقول: "بالضبط، ذلك هو ما طلب الزعيم من كاتبه أن يكتبه". ثم ينفجر الحضور المشدوه بضحكات الإعجاب. مع ذلك لم يتم تقبل التعليم إلا بالتدريج. وكانت هناك صعوبة كبيرة فى إبقاء بعض التلاميذ بالمدرسة. إذ إن الكثيرين كانوا يهربون ويعودون إلى بيوتهم، فقط لكى يُعادوا مرة أخرى إلى المدرسة ويوبخوا بالأغانى. أحياناً وصل الأمر حد تهديد الآباء غير المتعاونين بالسجن. غير أن المقاومة للتعليم لم تضعف إلا بعد أن بدأ الناس يشاهدون ثماره. أما بالنسبة للدينكا، الذين وجدوا رباطاً بين المعرفة والقوى الخفية، فقد أضحت القراءة والكتابة تحتل مكانة عالية فى نظام قيمهم كمصدر للحكمة.

وكانت الدوافع الأولية للتعليم الحكومى وسط الدينكا هى تعليم أبناء الزعماء لكى يتولوا قيادة قبائلهم وفق مبادئ التقليد والحداثة للحكم غير المباشر. لذلك كانت المدرسة الوسطى فى التونج، التى انتقلنا إليها بعد أبيى، تكاد تكون مقصورة على أبناء الزعماء. وكانت تُدار وفق مبادئ المدارس الإنجليزية العامة ممزوجة مع مبادئ الحياة القبلية للدينكا يتوجها نظام يكاد يكون عسكرياً. حيث كان مدير المدرسة من الإنجليز الذين خدموا فى الجيش البريطانى. وحتى تتم المحافظة على تعلق الدينكا وحبهم للأبقار ويتم توفير احتياجات المدرسة من الألبان، كان الآباء يرسلون الأبقار لأبنائهم فى المدرسة. وكانت الإقامة فى "قرى" تتكون كل منها من أربعة عنابر. ويرأس كل من العنابر والقرى زعماء كونوا نظاماً هرمياً، كان على قمته المجلس الأعلى

للزعماء. كما جلس الزعماء أيضاً فى محاكم ذات مستويات مختلفة بما فى ذلك محكمة للاستئناف. وكان هناك رجال يقومون بمساعدة الزعماء. وكما توضح هذه المقاطع فقد كان يتم إعداد التلاميذ لتولى القيادة:-

تلاميذ مدرسة التونج،
أبناء الزعماء،
أنتم ستكونون ملوك السودان.

وبرغم الجهد الذى بُذل لردم الهوة بين التعليم والتقاليد، إلا أن الأمور لم تتماسك، وتنامت بؤرة للصراع مصدرها المعرفة التى كان يتيحها هذا التعليم. فبينما كان يُطلب من التلاميذ احترام آبائهم وزعمائهم ومسنيهم، كان محتوى التحديث، الذى كانوا كثيراً ما يدعون زعمائهم إلى تبنيه وتسريعه يقوض نظم الحياة التقليدية. ونسبة لأن التعليم المدرسى لم يكن موجهاً نحو الظروف الحياتية للتلميذ، فقد أقر كل من التقليديين والمتعلمين فى آخر الأمر بأن الحكمة والمعرفة الحديثة تجافى الحكمة والمعرفة التقليدية. وقاد التعليم بذلك إلى الازدواجية الشخصية والثقافية، حيث لم تحصل عليه إلا أقلية ضئيلة، ولم يكن ما تحصلوه منه موجهاً نحو الثقافة التى كانت سائدة. وبالتالى تبلورت نظرة إلى الثقافات وإلى الأشخاص الذين يمثلونها بوصفهم خصوماً، إذ يحاول المتعلمون من جهة تغيير التقاليد بينما يسعى التقليديون فى المقابل للحفاظ عليها. من ناحية أخرى يعتبر التقليديون أن المتعلمين هم عيونهم، بسبب إستنارتهم فى شروط الحداثة، ولكنهم أيضاً يخشون تطرفهم. لذلك لم يكن غريباً أن يشير التقليديون للمتعلمين قائلين " نحن لم ننجب " ، يعنون بذلك أن المتعلمين لا يعبرون عنهم. وتقرن أغنيات هؤلاء فى مدح الذات بين قدر عظيم من التقليدية وبين اعتدادهم المحدث. فهم ينظرون إلى أنفسهم بوصفهم أعضاء فى مجموعة أنداد خاصة، ويرون أن أقلامهم هى حرابهم، يمثلون قبائلهم فى المنافسات، ويعتبرون مغامرتهم التعليمية معركة يخوضونها. ولكنهم فى الوقت ذاته يعبرون عن الثورة:-

مجموعة أندادنا الأصغر تجتمع باللبس الأبيض فى أبيى،
المدرسة تجتمع،
مجموعة الأنداد بزيها الأبيض تعرف كلمات الحكمة،
سأقلب الأرض رأساً على عقب،

سأغير البلد.
أنا ولد صغير لكننى رجل،
أجلس فى المكان الذى تسرى فيه الكلمات. . .
تبكى أمهاتنا جميعاً،
"ذهب أبناؤنا بعيداً
ولم يبق طفل فى البلد"
أنا لا ألومك يا أمى،
فأنت لا تعرفين شيئاً،
لا تعرفين شيئاً،
كلمات العالم تزحف إلينا،
تأتى عابرة للأراضى الفاصلة.
فى الخرطوم، يُولد الأطفال ويذهبون.
ألا يرضيك منى إلا بقرة؟
ماذا عن قلمى وملابسى البيضاء؟

وأكثر ما يلفت النظر فى هذا الإطار هو الصراع مع الزعماء. فالمعارضة ضد الزعماء يقودها عادة المتعلمون الذين يُنظر إليهم بوصفهم الأكثر تأهيلاً لمواجهة الزعماء أمام السلطات القومية. ولكنى سبق أن أشرت إلى إخفاق مثل هذه المحاولات. وكثيراً ما يجد المتعلمون حياة القبيلة أمراً غير محتمل. فقد ترك كل المتعلمين من نقوك، الذين عملوا فى المنطقة كمعلمين وضباط إداريين ومفتشين زراعيين ومحاسبين، تركوا العمل هناك وغادروا بسبب نزاعات مع الزعماء. بالطبع يترك العديدون المنطقة لغربتهم عن الحياة القبلية والثقافية، وبصورة أساسية لأن التعليم لا يعدهم لأى أعمال فى إطار القبيلة. إذ إنه يتوجه فى الأساس نحو الوظائف الخدمية، ومع ذلك كثيراً ما يكون الحصول على واحدة منها غير كاف. هذا وبينما يحصل أولئك الذين يتلقون تعليماً عالياً على وظائف جيدة، إلا ان الاغلبية الأعم لا يتجاوز تعليمها المرحلة الابتدائية، ولا تحصل بالتالى إلا على الوظائف الدنيا والمهنية أحياناً، ويظل كثيرون بلا عمل فى ظروف مزرية.

وتتجاوز أبعاد أزمة التعليم اليوم علاقاتها المتداخلة مع القبيلة. فقد ظهر جيل كامل تلقى تعليمه وفق المبادئ الغربية – المسيحية (البريطانية) ومناوئ للثقافة الإسلامية– العربية. وقد حاولت سياسات ما بعد فترة الاستعمار

عكس هذا التوجه، عبر التعليم جزئياً آملة فى إنتاج نموذج مؤيد للعربى المسلم فى الجنوب. فقامت بتأميم المدارس فى الجنوب للتقليل من التأثير الغربى – المسيحى إلى الحد الأدنى، ولإعطاء دفعة للتوجه الإسلامى العربى غير أن ارتباط الجنوبيين المستنيرين سياسياً بالمسيحية والثقافة الغربية كان أكثر رسوخاً ومعارضتهم أقوى من أن تسمح بإعادة صياغتهم فى النموذج العربى. وقد تضافرت عوامل اغتراب هذه الطبقة عن القبائل، وهجرتها إلى المدن، ومواجهتها لعقبات جديدة على المستوى القومى، ومساعى إخضاعها لقيم الشمال وحرمانها من القيادة التى أعدها التعليم لها، تضافرت جميعاً ليجعلها تشعر بالقهر بواسطة سيد مستعمر جديد – هو العرب. فتحولوا إلى منشقين يجب أن يقاتلوا بالسلاح أو بالسياسة. وقد اختاروا كليهما. وفى المقابل تؤدى الحرب الأهلية إلى تقويض العملية التعليمية. فقد اقفلت المدارس أو صارت لا تفتح إلا نادراً. وكان منظراً حزيناً أن نجد مدرستنا فى أبيبى قد تحولت إلى ثكنة للجنود تحتلها قوات الأمن، التى أصبح تلاميذ المدارس خدماً لها. أضف إلى ذلك أن المعلمين الشماليين يخافون العمل فى الجنوب بسبب الظروف الأمنية، والمعلمين الجنوبيين أكثر خوفاً منهم. وقد حاولنا، بعد أن رأينا ما آلت إليه حالة مدرستنا فى أبيبى إقناع المعلمين من دينكا نقوك الذين كانوا فى الشمال بالعودة وتولى مسئولية المدرسة. وقبل مدير تعليم المديرية طلبنا بنقلهم إلى هناك إذا رغبوا. ولكنهم رفضوا جميعاً. فقد سردوا وقائع من المضايقات والسجن والتعذيب تقوم بها قوات الأمن فى أبيبى. بل إن بعضاً منهم نجا من الموت بما يشبه الأعجوبة. لذلك فإنهم قالوا أنهم لن يعودوا إلا بعد حل المشكلة الأمنية. ولكن كيف يمكن ذلك مع حرب أهلية دائرة؟

لهذا وعلى الرغم من أن الزعماء هم جزء من المؤسسة التقليدية ويمثلون بالتالى ما هو موروث مهما كان تعليمهم، إلا أن ظهور جيل أصغر من الزعماء المتعلمين، وتصاعد الصراع مع العرب يعمل على تضييق الفجوة بين الزعماء التقليديين وأولئك التحديثيين، وعلى توحيد الدينكا فى مواجهة من يعتبرونه العدو المشترك. وكما عبر عن ذلك رجل من الدينكا كان قد أُعتقل لإيوائه الثوار لليلة وكنا قد أنقذناه لتونا من قائد قوات الأمن: "ماذا يظن العرب، أليس هؤلاء هم أولادنا؟".

إن إرجاع عقارب الساعة سبعة عشر عاماً إلى الوراء ستعيد إلى الذاكرة حادثة فى حياتى تلخص تحولاً دينياً قاطعاً للدينكا. كانت أمسية خريفية سطع فيها ضوء القمر فى سماء خالية من السحب. وكان أبى يجلس مع قادة قبليين فى الهواء الطلق، يتداولون بلا شكليات فى الأمور القبلية، وكنا - أخى وأنا - قد عدنا لتونا بعد غياب عام فى المدرسة." أبى" قالها أحدنا مغامراً "نريد لرؤوسنا أن تُنثر عليها مياه الرب". كان ذلك يعنى أننا نريد أن نُعمَّد. فجأة صمت الحضور صمتاً عميقاً. لم يكن الدافع لطلبنا هو عاطفة البنوة، بل كان شرطاً قانونياً. فى الواقع لم يكن هناك ما هو جديد فى هذه المسألة، فلقد ظللنا نتلقى دروساً فى المسيحية طيلة السنوات الخمس الماضية فى المدرسة. ما حدث هو أن أبانا قربنا منه ومسح على رؤوسنا، ثم سألنا بوجه مبتسم: "لماذا تريدون أن تُنثر على رؤوسكم مياه الرب". وأتاح لنا السؤال الفرصة لكى نؤكد المعارف التى اكتسبناها حديثاً. فطفقنا نحدثه عن الجنة التى تنتظر المسيحيين والنار التى ستكون مآل المكذبين. وكان له سؤال آخر: " فلنفترض أن المسيحيين سيذهبون إلى بيت الرب، وسيذهب الباقون إلى الجحيم، هل ستكونون مسرورين للاستمتاع ببيت الرب بينما تحترق بقية أسرتكم فى النار؟". كان سؤال والدنا طبيعياً، ففى ديانة الدينكا يواجه الناس الرب ليس كأفراد فحسب، بل أيضاً كأسرة. هل فات علينا أن نتذاكر حجة والدنا فى المدرسة؟ لا لم يفت علينا، أو بالأصح لم يفت على مرشدينا الدينيين. فقد علّمونا أن المرء فى يوم "المحكمة الكبرى" مسئول عن نفسه وعن نفسه فقط. ومن ثم أسرعنا إلى إزالة شكوك والدنا. كان المكان يكتنفه صمت غليظ كنا نستطيع أثناءه أن نسمع أصوات أبقارنا فى حظائرها، وأحاديث نسائنا فى الجزء المخصص لهن من المنزل. ثم قال والدنا معلناً إذعانه لطلبنا: " ليس الأمر بذلك السوء، على الأقل ستحفظون أبقارى من زيجات عديدة". ولكن برزت فى الواقع اعتراضات كثيرة على تحولنا، فكثيرون لم يستطيعوا أن يفهموا كيف نكون - ونحن أبناء الزعيم- من ذوى الزوجة الواحدة. تلك كانت نقطة الافتراق الروحيّة.

فيما عدا استثناءات قليلة سار التعليم والدين جنباً إلى جنب. ذلك أن التعليم فى الجنوب كانت توفره فى الغالب مؤسسات تبشيرية مسيحية، فكان

أن أصبح المتعلمون مسيحيين واستند مذهبهم فى المسيحية للمؤسسة التبشيرية التى ذهبوا لها. حتى فى الحالات التى كانت فيها المدرسة حكومية فقد تحول التلاميذ إلى المسيحية وتحدد مذهبهم بمجال النفوذ الذى كانت منطقتهم تتبع له. إذ إن البريطانيين خصصوا "مناطق نفوذ"، وفضلوا أن يُترك الجنوب للجمعيات التبشيرية المسيحية لكى "تمدن الأهالى".

وكان الصراع بين الموروث والحداثة أكثر ما يكون شدة فى مجال الدين، إذ تم تكييف التلاميذ لكى ينظروا للديانة التقليدية بوصفها متخلفة ولا دينية وآثمة. فصارت الثعابين التى ترمز للآلهه عند الدينكا، فجأة تمثل الشر عند الذين تحولوا، وأضحت تُقتل وسط احتجاجات التقليديين، الذين توقعوا الشر لقتلها. وأصبحت تُرفض وصفات المعالجين وطقوس الكهانة وتُستهجن بواسطة المتحولين، الذين شكلهم المعلمون والقساوسة. وصارت لحوم حيوانات القرابين بالنسبة لهم ملوثة روحياً، وأصبحوا يتجنبونها. وفى اتساق تام مع مبدأ إستخدام المناسبات الاجتماعية لإحداث التغيير، تم إبراز المواقف التى تمثلها هذه العوامل للتقليديين ليس فقط فى الأسرة، بل أيضاً فى الأغانى والمسرحيات والنشاطات المدرسية الأخرى. وتقدم المقاطع التالية نماذج للأغانى التى هدفت لدفع التعليم المسيحى وتحقير الديانة التقليدية.

الكتاب هو مع أولئك الذين يكتبون الكلمة
الحكمة القديمة لأبناء آدم،
معروفة لنا نحن الأنداد الذين نكتب، بملابسنا البيضاء.
الطفل المفقود لن يبحث عنه أحد،
البقرة المسلوبة لن يبحث عنها أحد،
إذا كان سيبحث عنهم أحد، فنحن الذين نكتب،
وما أكتبه لن يقرأه حامله،
لن يعرفه إلا من يعرف القراءة.
لن يكون أبداً رجل دين وثنى
فأنا لا أحترم رجال دينكم،
لأننى رجل كبير.

* * *

الأسقف هو الرجل الذى ينظم البلد،

أبانا، سيدنا، البلد يهددها الوثنيون،
البلد يهددها المحمدانيون.
أواه ماذا سيفعل المسيحيون؟
انظر من هنا فإذا هى روح الشر،
والمحمديين يواجهون المشرق
إنهم يواجهون من حيث تأتى الشمس.
ما هذه المصيبة؟ ما هذه المصيبة؟
نحن محصورون بأرواح خبيثة،
بعضها له عيون الشر،
بعضها يصيب بالسحر الخبيث.
وبعضها رجال أشرار يزعجون الأبرياء.
البلد فى حالة من الحيرة
ورأسها محصورة فى مشكلة.

كان من نتائج سياسة "الحد الأدنى من التدخل فى التقاليد مع التمدين من خلال المسيحية"، أن فاق الأثر الروحى بمراحل الميزات الاقتصادية للتحديث. فى الواقع كاد التعليم التبشيرى أن يخلو من أى طابع مادى. إذ كان المتحول يتبنى المسيحية ولكنه يبقى دينكاوياً من الناحية المادية، وعادة ما ينجرف عائداً إلى اقتصاده التقليدى. كان المبشرون، فى الواقع، يمتحنون قدراتنا الروحية فى عالمهم الجديد، وأرادوا أن يتجنبوا بكل السبل تحويل الدينكا إلى "ماديين".

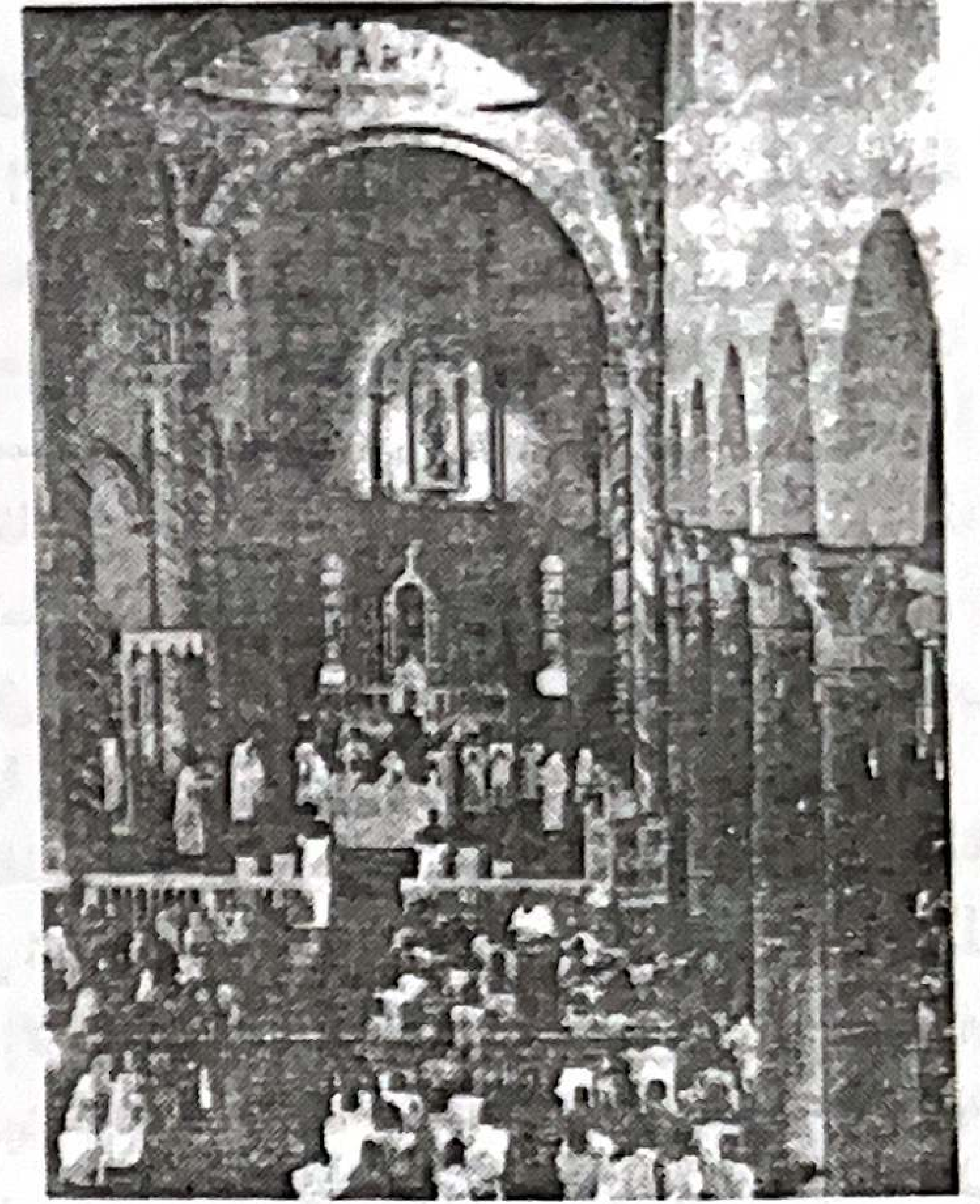
مع ذلك كانت هناك مؤسسة تقليدية واحدة قام المبشرون كاثوليك وبروتستانت باستخدامها بفعالية كبيرة، ألا وهى الغناء. فقد تميز كل حشد دينى رفيع أو متدنى، وكل مناسبة للصلاة ليلاً كانت أو نهاراً، بالغناء. فتُرجمت الأناشيد الدينية من الإنجليزية أو اللاتينية وتم تأليف أخرى جديدة بلغة الدينكا، وبواسطة الدينكا، بالموسيقى والإيقاعات التقليدية. بهذه الطريقة تمكنت المسيحية من الدخول إلى أعماق مشاعر الدينكا، وحتى فى الحالات التى لم يكن فيها المرء يصلى بالمعنى الغربى، ولا يعرف التراتيل اللاتينية، فإنه كان يصلى مع أصوات الموسيقى وألحان الأغانى. بل استخدمت الأغانى الدينية كأغان تضبط إيقاع المسيرات فى المنافسات التى كانت تقام بين

المدارس أحياناً وفقاً للأسس القبلية.

وقد قدم المبشرون ما هو أكثر بكثير من مجرد غرس معتقداتهم وسط الدينكا. فقد رأينا كيف أن التعليم فى الجنوب ترك لهم لفترة طويلة. إلى ذلك قاموا بتوفير الخدمات الصحية حتى للمناطق النائية فى أرض الدينكا. كما عرضوا على الدينكا أفلاماً سينمائية عن أوطانهم وأسمعوهم أغاني الدينكا مسجلة. وعندما نزح الدينكا إلى الشمال، أقام المبشرون لأجلهم ولأجل الجنوبيين الآخرين أندية اجتماعية ولمحو الأمية، كانت، بالإضافة إلى تعريفهم بالمسيحية إذ لم يكن قد سبق لهم التعرف عليها، تساعدهم على التأقلم على البيئة الاجتماعية والاقتصادية للمدن.

فى المقابل أبقى البريطانيون الإسلام خارج بلاد الدينكا حتى بداية سياسات التكامل، وكان من نتيجة ذلك أن ظل الإسلام حتى بعد الإستقلال بلا نشاط تبشيرى منظم. إلا أن العون المالى الشخصى للتجار المسلمين المهتمين أو الشخصيات الدينية كثيراً ما قاد إلى التحول بصورة فعالة. حيث كان يتم جمع مجموعات من رجال قبائل الدينكا، ويرُغّبون لفترة قصيرة فى دخول الإسلام، ويتم سريعاً إلباسهم الجلابية والعمامة (اللباس الوطنى للشمال)، ثم يُصيُرون ، - فى جو إحتفالى - إلى نطق الجملة أو الشهادة:- "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله". وتنهمر النقود من التجار المتحمسين، وترتفع مكانة المتحولين فجأة لتصبح موضعاً لغيرة وحسد الوثنيين غير الملتزمين، وتتسع قاعدة "الخضوع". ويتخذ المتحولون أسماءً إسلامية جديدة، وأحياناً يتم تغيير الاسم الوثنى للأب حتى من دون معرفته، فقط لإكمال المظهر الإسلامى.

وهناك فترة قصيرة، كانت فيها عملية الأسلمة زائفة على وجه الخصوص. بل كانت تقود إلى التحول المزدوج: وذلك عندما غادر الأولاد الأصغر سناً مدارس التبشير كمسيحيين، وذهبوا إلى الشمال واكتشفوا فتنة دين غريب ثان. فأُرسل العديد من رجال القبائل قارئين وأميين إلى الأزهر (المؤسسة الإسلامية الكلاسيكية فى القاهرة) وهم لاينطقون كلمة عربية واحدة. وعاد



(الكاتدرائية الكاثوليكية بواو من الداخل)

هؤلاء فى إجازاتهم السنوية يرتدون العباءات الخلابة غير المنسجمة مع أجواء قراهم، بأسماء كان يستحيل على الدينكا نطقها. ذهبوا إلى سوق الأبقار وتسببوا فى إفساد إقتصاد الدينكا، وفى الشارع لم يتكلموا فقط بلهجة مصرية، بل باللغة العربية الفصحى، لدهشة وتفكه المارين. وقد صار الناس يصفونهم بأنهم "أبناء مصر". مع ذلك كثيراً ماكان العرض قصيراً، إذ انجرف كثيرون نحو الحياة التقليدية مرة أخرى. صحيح أنهم لم يعودوا يؤمنون كثيراً بديانة الدينكا، ولم يندمجوا أبداً فى حياة الدينكا الثقافية بصورة كاملة مرة أخرى، إلا أن الإسلام خسر أيضاً، برغم أن آثاره ظلت باقية.

وحتى يمكن دعم الوحدة الوطنية، فقد تم تعميم النظام التعليمى لفترة ما بعد الإستعمار لكى يشجع على نشر اللغة العربية والإسلام فى الجنوب. وظهرت المساجد والمدارس القرآنية والإسلامية هناك. وأصبح عرفاً شائعاً أن يتحول الزعماء وبعض الموظفين الحكوميين إلى الإسلام للفوز بود الموظفين والتجار العرب المحليين. فى نفس الوقت كانت الحكومة تسعى لاجتثاث النفوذ المسيحى فى الجنوب. ففى عام ١٩٥٧ قامت بتأميم المدارس التبشيرية هناك، ولكنها تركت تلك الموجودة فى الشمال من غير أن تتعرض لها. وكانت الفكرة

السائدة أن المبشرين قاموا بتشجيع وتبنى الحرب المتصاعدة للجنوبيين ضد الشمال. ولم يؤد قانون الجمعيات التبشيرية لعام ١٩٦٢، فى واقع الأمر، إلى إيقاف النشاطات الدينية فحسب، بل منع أيضاً تقديم الخدمات الصحية والإجتماعية للجنوبيين. ومع تدهور الأوضاع السياسية فى الجنوب، قررت الحكومة فى مارس ١٩٦٤ طرد المبشرين والقساوسة الأجانب من جنوب السودان.

أظهرت التجربة الدينية للجنوب فى الماضى والحاضر، أن الجنوب ظل يُعتبر منطقة فراغ ثقافى يجب ملؤها ممن يملك السلطة اياً كان، وسواء كانت دوافعه هى فصل أو توحيد القطر. فى الوقت الحاضر فإن وضع الدعوة الإسلامية متميز من جهة وفى غير مصلحتها من جهة أخرى. فقد تنامى نفوذ الدعوة بسبب الدعم الذى تجده من الحكومة. ولكنها فى المقابل تواجه تياراً إنفصالياً متصاعداً فى الجنوب. والمسيحية هى أيضاً تخسر وتكسب فى آن واحد، فهى تخسر من معارضة الدولة لأصلها ووكلائها الأجانب. فى المقابل دخلت المسيحية بقوة فى الصراعات السياسية الداخلية للقطر وصار يُنظر إليها باعتبارها مؤسسة "جنوبية". كذلك أتجه الجنوبيون فى الماضى – ومازالوا – إلى إعتبار المبشرين المسيحيين حماة وحلفاء. والحكومة الحالية (حكومة مايو قبل ١٩٨٣) غير مهتمة بإعلاء شأن أى دين، بما فى ذلك الإسلام. وقد تجد فى هذا الموقف المحايد إن لم يكن السلبى – أرضية مشتركة مع الجنوب. ولكن هذا يمثل جانباً واحداً من صراع عميق. ذلك أن الحكومة ذات توجه قومى عربى. هذه الهوية تمثل جرحاً متقرحاً للجنوب، لا يخفف من آلامه اللامبالاة التى تبديها الحكومة تجاه الأديان.

الصحة

سواء تم توفير الخدمات الصحية الحديثة بواسطة الإرساليات التبشيرية أو الحكومة، فقد نظر إليها الدينكا بوصفها منافية للسلامة الروحية، وكانوا يخشون ويرفضون كل دواء أو معالجة طبية. حتى فى الاوقات التى انتشرت فيها أوبئة ، مثل الجدرى، كان الكبار يولون هرباً من حملات التطعيم، فى تناقض كامل مع قيم الشجاعة التى تقتضيها التقاليد. وكان لابد أحياناً من إجبارهم على قبوله. وساهم الكهنة أنفسهم فى تشجيع الناس على رفض

الطب الحديث ونظروا لكل مسعى يحاول الجمع بين مجهوداتهم وبين مجهودات المبشرين أو موقف الصحة كاستفزاز للآلهة وأرواح الأسلاف. ولكن برغم ردود الفعل الأولية فقد تم الإقرار بفوائد الطب الحديث حالما تأكدت نتائجه. وكان لهذه المسألة، مقرونة مع الاحترام الكبير الذى يكنه الدينكا للمتدينين المخلصين، مهما كان دينهم، الفضل فى أن يجد المبشرون المسيحيون تقديراً كبيراً بوصفهم "رجال الرب" و"المعالجين" من جانبهم أيضاً استخدم المبشرون هذه المفاهيم لترغيب الناس فى الانضمام للمسيحية والالتزام بمبادئها. غير أن هذه الإستراتيجية نادراً ما نجحت مع غير المتعلمين من الدينكا. بالنسبة لهؤلاء لم تكن الاستفادة من القدرات الروحية لشخص ما تعنى بالضرورة تبنى آلهة هذا الشخص أو أرواح أسلافه – وهى المقدسات التى تعطى معنى حقيقياً لمفهومهم عن الدين. ومن ثم بدلاً من أن تؤدى المستحدثات الروحية إلى إلقاء ظلال من الشك على ديانتهم الخاصة. فقد قادت إلى اتساع الشقة بين المتعلمين والتقليديين. وتم استبعاد الأولين فى المسائل الدينية باعتبارهم أناساً يعانون الاغتراب يعتذر لهم كبارهم التقليديون أمام القوى الروحية التقليدية. ولكن الدينكا ميزوا بصورة متصاعدة، بين الطب الحديث والدين المستورد قابلين للأول ورافضين لهذا الأخير. ومع مرور الزمن بدأ حتى الكهنة فى الاعتراف بأنهم وممارسى الطب الحديث، كليهما مهتم بصحة الناس، وأصبح الآن معتاداً أن يقوم الكاهن كمعالج بإجراء معالجاته التقليدية ثم ينصح بعد ذلك مريضه بزيارة طبيب أيضاً لأجل الحصول على الحد الأقصى من الفعالية.

غير أن المشكلة التى تواجه الدينكا اليوم ليست هى الإلتزام الخرافى بمفاهيم سحرية – دينية، بل غياب المرافق الطبية الحديثة. لإعطاء مثل واحد على ذلك نذكر هنا أن نقوك يبعدون على الأقل ٢٠٠ ميلا عن أقرب مستشفى. وتظل الطرق مقفولة لستة أشهر فى السنة. وحتى عندما تكون مفتوحة فإنها طرق سيئة. وبالتالى لم يعد أمام نقوك إلا الاعتماد على مركز صحى صغير معد إعداداً سيئاً ويديره مساعد طبى ومساعد جراح. ومن ثم لاتزال تؤدى إلى الموت، أمراض أصبح من السهولة بمكان معالجتها.

وقد فاقمت الحرب الأهلية من المشاكل الصحية لمجتمعات الدينكا. إذ قادت إلى مستوطنات سكنية مكتظة بأناس باحثين عن الأمان فى وقت غابت فيه تماماً مرافق الصرف الصحى، أو كانت ذات طاقة غير مناسبة بصورة

واضحة. نفس هذه الظروف الحياتية غير الآمنة جعلت المكملات النهرية والغابية لغذاء الدينكا صعبة المنال. فحتى الرجال فى القرى لم يعودوا يتحركون بحرية لصيد السمك. والنتيجة هى مجاعات من كل الأنواع والدرجات، تظهر حتى على وجوه أولئك الذين يدّعون الصحة. وفوق كل هذا يأتى الخوف المستمر من الموت، بل والرؤية المتكررة لمنظر الموت ذاته.

الإقتصاد

وقد تسارعت وتيرة التغييرات الاقتصادية – وليست التنموية – بدرجة تفوق غيرها من المجالات. ففى الماضى كان بيع الأبقار يُعتبر امراً معيباً، والذهاب للعمل فى المدن مقابل النقود يفوقه عيباً. ولكن الإدارة الاستعمارية اتجهت إلى التشجيع على بيع الأبقار، إذ إنهم كانوا ينظرون للدينكا بوصفهم إحدى أغنى القبائل السودانية بالأبقار، وأن هذه تمثل واحدة من الموارد الرئيسية للبلاد. لذلك فرضت الإدارة الاستعمارية أن يتم دفع الضرائب والغرامات نقداً. نسبة لعدم وجود عمالة مأجورة فى القبيلة، أضحى بيع الأبقار، بذلك إجبارياً. تقليدياً كان الناس يبحثون، فى الحالات التى يعانون فيها من نقص الحبوب، عن الحبوب البرية والمنتجات البرية الأخرى. فكانوا يصطادون السمك، أو يخرجون للصيد، أو يكتفون باللبن ولحوم أبقارهم. لكن مع ظهور الأسواق الحديثة صارت الحبوب متوافرة فى متاجر التجار العرب. وصار كل ما يحتاجه المرء هو النقود، التى لا يمكن الحصول عليها إلا ببيع الأبقار. كذلك توافرت أشياء أخرى مثل الملح والملابس. ونسبة لانخفاض أسعار الأبقار والارتفاع الفاحش لهذه السلع، صار من الممكن أن تحتاج الأسرة الواحدة لبيع عدة بقرات لدفع الضرائب، أو لتتجاوز سنة مجدبة، أو لتقتنى بعض الضروريات الأخري. وقد امتد ذلك إلى تجارة الدينكا: حيث يلجأ الدينكا، الذين لا يبدو أنهم يخططون أبداً للمستقبل، بعد الحصاد مباشرة، إلى استبدال الحبوب بالملح والمنتجات الأخرى، فقط لكى تباع لهم نفس هذه الحبوب عندما ينفد مخزونهم – وبأسعار فاحشة. باختصار إستمر الدينكا فى خسارة أبقارهم، ولم يحصلوا إلا على القليل فى مقابلها. فتناقصت حتى الثروة الحيوانية لنقوك بصورة واضحة.

مع تناقص الثروة ظهرت الحاجة المتزايدة للهجرة للمدينة، أو للمناطق الريفية العربية، بحثاً عن العمل. فقد رأى الرجال الشبان فى سوق العمل الحديث فرصة لبناء ثروة مستقلة. إلا أن العمالة المأجورة لم تكن معروفة داخل القبيلة، ما هو أكثر أهمية أن مشاعر الاعتزاز القوية السائدة نظرت للعمل المأجور بوصفه شكلا من العبودية لا تليق بسيد محترم: فإذا كان لابد من القيام بها فلابد أن يتم ذلك بعيداً عن أعين فتيات الدينكا، فى مكان لا يهم فيه ذلك كثيراً. وصار المثل: "الكرامة فى البقاء، أما المذلة فدعنا نذهب" والتى تعنى التغاضى عن مشاعر الاعتزاز فى بلد أجنبى لا يعرفك فيه أحد. غير انه بالنسبة للدينكا فقد أفرزت الموازنة بين الميزات المادية للمدينة وخسارة مشاعر الاعتزاز والكرامة فى صورتها التقليدية، تناقضاً وصراعاً نفسياً خطيراً:-

أيها الصبح أسرع فى حضورك،
يا ثورى ذا القرون المعقوفة، مادينق،
سيتم عبور النهر.
فى المدن يحرث الناس بآذانهم،
فى المدن، يعتمد الناس على حبوب السوق.
ياماكير مجوك،
الثروات التى أسمع عنها فى المدن
يعيش الناس حتى الكبر يبيعون ويشترون.
يقولون: "أقرضنى قرشين"
وفى نهاية الشهر،
سأعيدها لك"
ثم تؤخذ مليم إلى السوق.
بها يُشترى الملح والدواء،
الرجل يشترى الخضار،
والزوجان يطحنان الطعام معاً،
فقدت الأسرة قيمها،
روابط الدم تقطعت فى الجيوب.
حتى ابن خالتك،

عندما تسأله العون،
سيستهل باستدعاء اسم الرب،
وسيقسم بأبيه،
"فليقتلنى الرب انظر، يا أخى، جيوبى
لو وجدت فيها مليماً، فأنت محظوظ".
مائة قرش تذهب فى التوافه
ثم يذهب كل رجل لمكان نومه.
فى المدن يرقص الناس على طبول جيوبهم.
إذا لم يكن للمرء شيء، يذهب المرء بلاشيء.
والطبول جميعها متشابهة كقوم يتكلمون لغة واحدة،
يُقرع عليها فى حجور الناس،
"بيم سى كى كى بيم".
دعنى أقرع الطبول،
الطبول التى سنضل بسببها لكى نرقص.

ويمارس النازحون من الدينكا أعمالاً مثل زراعة حقول العرب، واستخراج المياه وتوزيعها، والعمل فى تشييد الطرق والمبانى. فيتركون مزارعهم فى البلد لكى يقوم بزراعتها البعض الذين ينتجون فقط ما يكفى استهلاكهم، وأحياناً أقل من ذلك. وعادة ما يكون الهدف هو العمل على جمع مبلغ من المال سريعاً والعودة إلى البلد. لذلك تجدهم يجتهدون فى العمل، ويأكلون قليلاً لتجنب صرف النقود، ولكنهم يشربون كثيراً من الخمر علها تجلب شيئاً من السرور المفقود تماماً فى ظروفهم تلك اليائسة وغير الصحية والمهينة جداً. هذه المجموعة من الأمبين هى التى تسعى، عندما ترجع إلى البلد إلى شراء الأبقار والتصرف فيها بصورة مستقله عن أبيهم. إلا أن زيجات أقاربهم أو المسئولية المتنقلة لمقابلة إلتزامات مثل الضرائب أو الديون كثيراً ما تفسد عليهم خططهم. فيلجأ بعض منهم، بعد قليل من مثل هذه التجارب إلى الامتناع عن العودة إلى القبيلة.

ومما أدى أيضاً إلى تزايد نزوح الشباب التقليديين تقلص نظام حلقات الأنداد. فبعد أن صارت النشاطات القتالية للشباب فى حكم الممنوعة، لم يتوافر متنفس مناسب لطاقاتهم فى إطار القبيلة. وخاصة بعد أن تم إلغاء العمل فى الطرق والمبانى والمزارع وما شابهها – والذى كان قد أُدخل حديثاً – باعتباره عمالة قسرية. فقد درجت حلقات أنداد المحاربين على النظر إليه بوصفه جزءاً من

نشاطاتها القتالية، التى تتنافس فيها الحلقات المختلفة.

وقد طال النزوح فى الآونه الأخيرة الفتيات والأسر. حيث تعمل النساء فى المنازل فى ظل أوضاع توفر لهن قدراً أكبر من الراحة والاحترام، وتسمح لهن بالتأقلم سريعاً على البيئة الجديدة ولكن، بالنسبة للدينكا كثيراً ما لا تكون النتائج بهذا القدر من الاحترام. حيث تترعرع الفتيات الشابات، بملابسهن العربية، ولغتهن العربية الطليقة، واندماجهن فى الأسر التى يعملن بها وبالتالى افتقادهن للإشراف المناسب وللضوابط الثقافية، تترعرع هؤلاء الفتيات فى جو من الإباحية والاختلاط. وقد يُقيض لهن تكوين ثروة يساعدن بها أقاربهن على العيش، بل وعلى إقتناء الأبقار ولكنهن يرجعن غير صالحات للزواج. فى العادة يكون هناك "أمثالهن" الذين يتزوجونهن، ولكن حتى هذه لا تعدو أن تكون زيجات "كسيحة".

وأصبح النزوح الآن شائعاً أكثر مما كان، نتيجة للحرب بين الجنوب والشمال. ولم تعد الدوافع إليه دوافع اقتصادية، بل الخوف من الموت والهرب إلى مدن الشمال الأكثر أماناً.

كل هذه التغييرات كانت لها- ومازالت - نتائج جد خطيرة على الأسرة. فهناك تيار قوى يجرف الآن بعيداً التركيز على الأسرة بوصفها الوحدة الأساسية للمجتمع، ويضع تماسك مجتمع الدينكا وحتى وجوده فى مهب الريح. فالتلاميذ صاروا يتعلمون فى أماكن بعيدة . ولكن التعليم نفسه وضع صحة القاعدة القائمة على التراتب العُمْرى فجأة موضع التساؤل والشك. كما لا تتوافر الوظائف التى تعيد التلاميذ إلى بيوتهم بعد ترك المدرسة. هذا فى الوقت الذي يذهب فيه الشباب التقليديون إلى المدن بحثاً عن العمل، ولكن الثقافات الحديثة والتقليدية لا تجد التشجيع على تمازج حقيقى، ويجد القطر نفسه غارقاً فى دوامة من الاضطرابات السياسية العنيفة.

الفصل الحادى عشر

خاتمة

حاولت فى هذا الكتاب أن أرسم لوحة لحياة الدينكا من لحظة الميلاد إلى الموت، فى حالات ثباتهم وإبّان تحولهم. تقليدياً تمحورت حياة الدينكا إلى حد كبير(ومازالت) حول قيم أساسية، يمثل فيها التناسل الأساس والمعيار للتراتب. وبإعتباره يهدف إلى الخلود البيولوجى والاجتماعى من خلال الذكور، فإن مفهوم التناسل يعطى الأسلاف وعالمهم الروحى التفوق على الكائنات الفانية، التى يتم ترتيبها حسب السن والنوع، حيث يجلس كبار السن من الذكور فى القمة والنساء فى الطرف الأدنى، أيضاً يصنف مفهوم التناسل المجتمع وفق خطوط سلالية إلى العامة والأرستقراطيين، الذين يقدمون الزعماء.

غير أن التناسل لا يمثل إلا مفهوماً أولياً فى منظومة مترابطة من القيم والمؤسسات التى توازن بعضها البعض وتسمح بالتعويض عن الحرمان. فى هذه المنظومة تحتل قيم التوقير: المودة والاحترام والاستقامة وقدرات الإقناع مكانة أسمى من القيم المادية: الثروة، المعرفة العلمية والمهارات الحرفية والصحة البدنية. ويكوّن شينق الذى يتضمن مفهوم العلاقات الإنسانية المثلى، نواة هذه القيم التوقيرية. فتتكفل هذه القيَم، تسندها فى ذلك مُثل الكرامة الإنسانية المضمنة فى "دهيينق" بإعطاء كل رجل ليس فقط الحق فى التقدير، بل طرائق أخرى لتحقيق الكرامة، متجاوزة بذلك أى قدر من عدم الاحترام يمكن أن تتضمنه التراتبية القائمة على السن أو النوع أو الأصل. وتدفع الجماليات المتصلة بامتلاك الأبقار والقيم الحسية المتمثلة فى الغناء والرقص والإعجاب بالقوة الجسمانية والحيوية، والتشوق لحياة الكبار، تدفع الشباب للتطلع إلى ثمار كبر السن ولكنهم فى الوقت نفسه يقنعون بمباهج

حياة الشباب. تستبطن النساء منظومة القيم ويتقبلن تراتبيتها ويتوهجن فى اعتزازهن بأنفسهن كزوجات وأمهات لأبنائهن. ولا يستشعر العامة والفقراء فجوة بينهم وبين الأثرياء أو الزعماء لأن القيمة الكلية المتمثلة فى الإحساس الاجتماعى تقفل الطريق مسبقاً أمام أى مس بالكرامة متصل بالتراتبية الاجتماعية. فالدينكا ليس لهم مُلاك وأقنان ولا سادة وعبيد، بل لهم قادة بين انداد.

وبالطبع تفرز مشاعر الحرمان المصاحبة للأعراف التقليدية آثاراً سالبة تتمثل فى العدوانية، والعنف، وعقدة الأبقار التى يعانى منها الشباب ومشاعر الغيرة والحسد، والشقاق، وتسلط الأرواح عند النساء. ولكنها لا تعدو أن تكون "زوابع فى فناجين". إذ برغم أنها ترمز لعدم الرضا، إلا أنها لم تهدد فى يوم النظام أو توازنه.

أما الآن فقد تدخلت قوى جديدة تهدد أساس المجتمع التقليدى مع رياح التغيير التى هبت على أرض الدينكا. والتغير ليس أمراً جديداً بالنسبة للدينكا، فلقد ظلوا معرضين لعوامل التأثير الخارجية لقرون عدة، ولقد تمثلوا بعضاً من العناصر الثقافية التى تبنوها حتى صارت جزءاً عضوياً من ثقافتهم، ولم يعد يُنظر إليها كعناصر متبناة. فى كل الأحوال شهد النصف الأول من هذا القرن خليطاً من اتجاهات الحفاظ الثقافى وتصاعد النفوذ الأجنبى، وترتب على ذلك أن حمل الدينكا معالم بارزة من كل واحد من هذين النقيضين. ولم تكن التأثيرات متجانسة فى الجوانب المختلفة للثقافة. فبينما تم إدخال مستحدثات متطرفة فى بعض الجوانب، لم تتأثر أخرى إلا بفعل التلازم، كما أن الناس أنفسهم لم يتأثروا بصورة واحدة، إذ بينما يكاد البعض أن يكونوا قد تحولوا ثقافياً، لم يمس التأثير آخرين إلا مساً طفيفاً، وكان أن سقط المجتمع فى انقسام عميق بين التقليدية والتحديث.

ويمثل التقليدية فى هذه الثنائية الزعماء وكبار السن، بينما يمثل الجانب الآخر المتعلمون والشباب الذين يذهبون الآن للعمل فى المدن. غير أن التقاليد تموت بصعوبة. فمازالت المشاعر الأسرية واحترام الآباء وكبار القبيلة متماسكة بما يكفى لمنع الثورة من داخل النظام. وقد عمل تطلع المتعلمين من الشباب إلى أكثر مما يحصلون عليه، وحدة الأزمة الشخصية التى يثيرها هذا

التطلع، والبعد القومى لمطالبهم، والمضامين العنصرية الثقافية للعراقيل التى تقف فى طريقهم؛ عملت معاً على تمديد الانشقاق إلى أبعد من مستوى الأسرة والقبيلة، فى الواقع إلى المستوى القومى.

ويواجه أولئك الذين يقع على عاتقهم عبء اتخاذ القرار تحدى إدماج الماضى فى الحاضر والمستقبل المرجو. ذلك أن التقليدية والتقليديين هم جزء من واقع اليوم، مثلهم فى ذلك مثل التحديث المتنامى والتحديثيين، برغم أن هؤلاء الأخيرين أقوى وأشد مراساً من سابقيهم. فلكى يسود بعض الهدوء هذه الدوامة المضطربة، لابد من إيجاد نظام يستقطب دعم العناصر الفعالة لكل من المجموعتين التقليدية والحديثة، ويعبئ طاقاتها أو الناشطة من أجل مشاركة إيجابية. حينها يمكن إدماج المتعلمين ومجموعات الشباب المقاتلين المتحدة، والنساء، فى الأدوار المفيدة لكل من التقليد والحداثة، وذلك للمساعدة فى إعادة بناء وترقية مجتمع الدينكا الجديد. حتى قيم الخلود، من خلال المنجزات الدنيوية للوحدة والانسجام، والتنافس الجمالى، يمكن تسخيرها من أجل التنمية. يجب تطويع التقدم وجعله يقدم للمجتمع كرامة تحقيق الذات والترقى، أكثر من جعله يبدو كتقليد لنموذج ذى اصل أجنبى سبق أن صُرِف النظر عنه.

غير أن هذه الاعتبارات تدخل فى إطار نظريات أوقات السلم، بينما المسألة الحاسمة بالنسبة للدينكا اليوم لم تعد هى من يحصل على ماذا أو ماذا يجب أن يفعل فى إطار نظامهم الخاص، بل الكيفية التى يمكن لهم بها البقاء على قيد الحياة عبر الصراع الذى احتدم بين الجنوب والشمال وهى مشكلة أصابت السودان بحرب أهلية عمرها ستة عشر عاماً الآن. ومات بسببها مئات الألوف، والبعض يقول أنهم قد تجاوزوا المليون، وشُرِّد ألوف أخرى من موطنها، بينما ظل الباقون يعيشون حالة خوف متواصل من الموت والحرمان من احتياجاتهم الأساسية. وقد أبدى الثائرون الجنوبيون تصميماً على القتال من أجل ما أسموه فى البداية "الفيدرالية" وصار الآن الانفصال أو حق تقرير المصير بينما يعتبر الشمال الحاكم ذلك أمراً غير مقبول، واستخدم فى سبيل قمعه الأسلمة والتعريب والقسر – جميعاً بلا نجاح. فى إطار هذا النظام السودانى، يعمل المدنيون الجنوبيون من أجل التغيير السلمى: بعضهم يأمل

فى الانفصال آخر الأمر. وينتظر آخرون ويأملون فى إيجاد تفاهم مع الجانب الشمالى. وهناك آخرون ينشدون شيئاً من الأمن فى أماكن ينعدم فيها الأمن أو لا يتوافر منه إلا القليل. وبينما تتواصل الثورة والهيجان، تشكلت العديد من الحكومات وسقطت بسبب هذه المشكلة. فقد أعطت بعضها وعوداً لم تقم بتنفيذها، دافعة بأنه لابد من تطبيع الأوضاع المضطربة فى الجنوب بتسليم السلاح وإيقاف الثورة، قبل البدء فى إعادة البناء. غير أن الجنوبى لا يلحظ تغييراً حقيقياً يبرر ثقته فى الشماليين، ويريد مؤشرات مرئية لتغيير عميق كشرط ضرورى لتسليم سلاحه. وهكذا تتواصل الحلقة الجهنمية.

إن نبوءة وأمل الكثيرين هى أن الدينكا سيتمكنون من البقاء أحياء عبر هذه الحرب المهلكة لكلا الجانبين. وأنا من الذين يشاركون هذا التفاؤل. فقد تمكن الدينكا، بتصميمهم وعبقريتهم فى التأقلم، على الصمود من قبل، أمام الحملات المخربة لصائدى البشر فاقدى الضمير. غير أن التاريخ الإنسانى قد شهد أناساً بقوا على قيد الحياة بعد خسائر مدمرة فى الأرواح، أو مسخ لا إنسانى للشخصية وللثقافة. وهذا هو الخطر الذى يواجه الدينكا الآن، وهم يواجهون مشاكل ذات أبعاد غير مسبوقة تتجاوز بمراحل مقدراتهم على الاستيعاب ناهيك عن التحكم فيها والسيطرة عليها.

ولابد أن تظل معظم المسئولية فى بقائهم الكريم هى مسئولية الدينكا. فهم الذين لابد أن ينهضوا الآن لمواجهة التحديات التى يفرزها عالم فى حالة تكامل، على الرغم من تنوعه ودفعه إلى التنوع أحياناً. غير أن الذين يتكاملون أو يتداخلون معهم لابد أن يكونوا أيضاً على قدر كاف من الحكمة لمقابلتهم بالاحترام واستقطاب مشاركتهم فى بناء عالم أفضل. هذا هو التحدى الذى يواجه العرب فى شمال السودان. البديل لذلك هو التشكيك فى إرث وهوية وكرامة الدينكا. ولا يمكن أن يتسبب ذلك، كما سبق وتسبب، إلا فى السخط والهزيمة فى نهاية الأمر.

ولكن لا يمكن ترك التحدى للسودانيين وحدهم، بل إنها لمفارقة محزنة أن يستمر عالم يوسِّع اهتمامه بصورة متزايدة بإنسانية جامعة أن يستمر فى تجاهل مأساة ما يزيد على أربعة مليون نسمة، ولمدة ستة عشر عاماً. إن شعوب السودان بمن فيهم أولئك الذين يوصدون أبوابهم أمام العالم، لفى

حاجة ماسة للعون. وفى هذا الإطار يمكن أن تقدم الدبلوماسية ومبادرات الوساطة أملاً فى السلام والحياة.

لقد ضرب إعصار مدمر الدينكا دون سابق إنذار. وهم الآن مجروفون يجهدون لمقاومة أمواج بحر هائج، تحت رحمة إرادة متفوقة، لا يعرفونها ولا يرونها، ولكنهم يسمونها الرب. غير أن قدرهم هو أيضا بين يدى الإنسانية، إذ إنه مهما كانت نقائص الأخوة العالمية. إلا أن ضميراً عالمياً أخذ فى التشكل بصورة متزايدة. لقد ولى زمان الانعزالية، وأصبحت المشاركة المسئولة هى نداء الساعة. فهنالك الكثير مما يجب أن يطلبه العالم فى كرامة وإرث هذا الشعب الذى وصفته، إلا أنه مهدد كله بالزوال. وإذا ما قدِّر لذلك أن يحدث، فإن إذلال ومعاناة وإفقار وتدمير الدينكا سيضيف إلى العبء الثقيل الذى ظل يرزح تحته ضمير الإنسانية. فليسوا الموتى هم أولئك الذين يتعذبون، بل الذين تسببوا فى موتهم والذين وقفوا يتفرجون عليهم وهم يموتون.

الفصل الثانى عشر

إضافة ملحقة عام ١٩٨٦ زيارة جديدة لدينكا السودان[١]

مقـــــدمة

فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب كتبت: " إن نبوءة وأمل الكثيرين هى أن الدينكا سيتمكنون من البقاء أحياء عبر هذه الحرب المهلكة لكلا الجانبين. وأنا من الذين يشاركون فى هذا التفاؤل. فقد تمكن الدينكا، بتصميمهم وعبقريتهم فى التأقلم، على الصمود من قبل، أمام الحملات المخربة لصائدى البشر فاقدى الضمير" [٢]. فى نفس العام الذى نُشر فيه الكتاب تحققت هذه النبوءة . حيث إن عملية طويلة من المفاوضات شارك فيها الكثيرون، قد تمخضت عن اتفاقية اديس أبابا التى أنهت الحرب فى ١٩٧٢/٢/٢٧ . بعد حوالى عشر سنوات بالضبط عاد السودان مرة أخرى إلى حالة الحرب، ولنفس الأسباب فى الجوهر.

وبينما نجد أن حالة السودان هى بلاشك، حالة قصوى، إلا أن القضايا الأساسية المطروحة تنحو لأن تعكس أنماطاً شائعة إلى حد كبير فى العديد من الأقطار الأفريقية.

إلا أن ما تم تجاهله فى الاهتمام الحالى بمشاكل المجاعات والتدهور الاقتصادى العام فى أفريقيا، هو المدى البعيد، الذى تجاهلت - بل وأضعفت - به السياسات والإستراتيجيات الداخلية والخارجية، الطاقات الإنتاجية الكامنة للأفارقة فى إطار التركيبة الاجتماعية والثقافية للمجتمع التقليدى. وقد عنى ذلك إهمال هوية الجماعات الإثنية والثقافية كوحدات مشاركة، وتفكيك الهياكل التنظيمية التى وفرت ليس فقط السند المؤسسى، بل أيضاً الموارد

البشرية والمادية لإنجاز المهام، واستبعاد القيم التى ولّدت الإلهام والدوافع وحتى الطاقات اللازمة للنشاطات الإنتاجية.

ويُعتبر السودان، أكبر أقطار أفريقيا مساحة، بموقعه المركزى، وجيرانه الثمانية، بالاضافة إلى المملكة العربية السعودية عبر البحر الأحمر منه، والذى يعكس فى إطار حدوده كل التنوع العنصرى والإثنى والثقافى للقارة، يُعتبر بحق صورة مصغرة لأفريقيا. وهو بوصفه قطراً أفريقياً عربياً يشكل رباطاً حيوياً بين أفريقيا والشرق الأوسط، ويتمتع بالتالى بموقع إستراتيجى يتجاوز الإطار الإقليمى. من جانب آخر تقدم تجربة السودان مثالاً جيداً للكيفية التى يؤدى بها تجاهل التنوع، المقترن بظلامات مقصودة فى البنيات العنصرية والإثنية والدينية والثقافية للدولة إلى إضعاف الطاقات الإنتاجية، وقد يقود إلى توترات وصراعات تهدد اقتصاد واستقرار القطر، بل وقدرات الدولة الموحدة على البقاء والاستمرار.

تكوين المجتمع التقليدى

حتى يكون باستطاعتنا إدراك الطاقات الكامنة غير المستفاد منها فى عملية بناء الدولة، لابد من دراسة متفحصة للكيفية التى عملت بها المجتمعات التقليدية الأفريقية قبل قيام الدولة القومية.

فكما توضح صورة مجتمع الدينكا التى أبرزها هذا الكتاب، تمحورت الحياة فى أفريقيا تقليدياً حول الأسرة وقيم التواصل بالسلاف، من خلال نظام السلالة. وبرغم التوترات والمزاحمات التى صبغت التنافس المصلحى للأفراد والمجموعات، فقد كان يتم دائما تأكيد ودعم الوحدة والانسجام والتضامن، التى تكمن خلف مُثل السلف، بواسطة كل من الوسائل المدنية والروحية. واعتمد أصحاب القرار الشرعيين من الزعماء وكبار السن إلى حد كبير على الإقناع أكثر من القسر، ولم يلجأوا إلى استخدام القوة القهرية للَعنة الروحية، إلا فى الحالات القصوى من الآثام والمعاصى والخروج عن الطاعة. وقد تم تحقيق الإجماع خلف هذه القيم بالرعاية والاعتناء برفاه كل فرد ومجموعة، بوصفهم عناصر حيوية فى الجماعة. بالطبع سادت فى المجتمع تراتبية قائمة على السلالة والنوع والسن، ولكن تكفلت فى المقابل، أساليب ووسائل ثقافية مفصلة بتعويض المتأثرين عن كل الأضرار التى نتجت

عن الظلامات المتصلة بهذه التراتبية. على سبيل المثال، بينما مُثل الزعماء وكبار السن أصحاب القرار الشرعيين فى الأسرة وفى الحياة العامة، تم تنظيم الذكور من الشباب فى تشكيلات عسكرية تسمى حلقات الأنداد، كان دورها هو حماية المجتمع من أعدائه من البشر والحيوانات، يدعمهم فى ذلك التشجيع المعنوى والحسى للحلقات النظيرة للإناث. وقد منحهم هذا الدور قدراً عالياً من الاحترام والاعتزاز وتأكيد الذات. هذا ويحتفظ كبار السن بحق متفوق فى التحكم فى الثروة، غير أن الثروة تحمل معها التزامات أخلاقية تجاه المحتاجين، والشباب والنساء، الذين يستغرقون فى الجماليات المتصلة بعقدة - الأبقار، كما تتحكم النساء فى إدارة الإنتاج الزراعى ومنتجات الألبان والغذاء بصورة عامة.

فى الإطار المحدود لنمط الإنتاج العائلى، اعتمد الناس على ما ينتجونه، ويكملون ذلك بما تجود به بيئتهم الطبيعية من وقت لآخر. واجهت المنطقة كوارث طبيعية نتيجة للفيضانات أو الجفاف، وكان عليها أن تتوجه نحو جيرانها الذين كانوا اقل تأثراً من أجل تجاوز ظروف الكارثة، مقايضين ما يملكونه بما يحتاجون إليه او معتمدين على كرم جيرانهم عارفين بأن دورهم فى مد يد العون لهم سيأتى يوماً ما. وفى الوقت الذى لا توجد فيه سياسة سكانية مخططة، تتضافر فترات الرضاعة الطويلة، والتحريم المفروض على العلاقات الجنسية خلال فترة الرضاعة، والإقلاع المبكر عن الإنجاب للأم التى يكبر ابناؤها، تتضافر مع العوامل الطبيعية لتحافظ على التوازن السكانى. بالطبع يزخر النظام بمخاطر وسلبيات كثيرة. فالناس ينتجون فقط ما يكفيهم لذا يُجبرون كثيراً على التوجه للبيئة من أجل بدائل طبيعية. هناك كذلك هذا الموقف القدرى من الأسباب والنتائج، فبينما يعيش البعض ويبلغون أعماراً عالية، تنتشر وفيات الأطفال. وبرغم الإجراءات التعويضية التى تضمن قدراً من الاهتمام الحقيقى بالنظام ودرجة عالية من الامتثال، إلا أن الأعضاء الذين يعيشون دون المستوى الاجتماعى وخاصة النساء والشباب يكشفون عن صفات تخالف بعض المُثل التى يحملها النظام. فُعرفت النساء بالمكائد والشقاق والتى ترتبت مباشرة على غياب مشاركتهن العلنية فى إتخاذ القرار والحاجة للعمل فى الخفاء عن طريق التأثير على الأزواج والأبناء. كذلك ضخّم الشباب الذكور من العنف والعدوانية كصفات حربية يستمدون منها مكانتهم واحترامهم فى تناقض تام مع المساعى الإقناعية لكبارهم الذين

امتلكوا زمام القوة المؤسسية على اتخاذ القرار.

ولكن على الرغم من وجود أشكال من الظلامات وعدم المساواة، ورغم التناقض الناتج عن التراتبية، إلا أن الناس كانوا على العموم راضين وقادرين على إنتاج ما يحتاجونه لحياة متماسكة، ينعمون بما يعتبرونه الثروة المثلى- الا وهى الأبقار. وكما عبر عن ذلك أحد المسنين من الدينكا "نحن الدينكا الذين يقطنون هذه الأرض الواسعة الغنية بالأعشاب، ملاك الأبقار"(٣) واستطرد آخر:

" إن الإعجاب بنا، نحن الدينكا، سببه الأبقار. تعترف بنا الحكومة بسبب ثروتنا من الأبقار. فى كل العالم ينظر إلينا الناس بسبب الأبقار. وعندما يقولون السودان فليس بسبب لون بشرتنا، فحسب: ولكن أيضاً بسبب ثروتنا العظيمة. وثروتنا هى الأبقار. بسبب الأبقار تنظر إلينا كل القبائل بعين الحسد"(٤)

وتتفق آراء الخبراء على أن النيليين السودانيين هم قوم فخورون، متمركزون إثنياً، ومحافظون، ظلوا حتى وقت قريب غير حريصين على تبنى طرائق أولئك الذين احتكوا بهم. وقبل أن يؤدى الاستقلال إلى علاقات مكثفة مع العالم الخارجى ويفتح الأبواب أمام إغراءات الحياة فى المدن، كان يُنظر إلى ترك القبيلة بوصفه نفياً ذاتياً طائشا، بينما كان النزوح إلى المدينة عملاً مخزياً يستدعى أغانى التحقير باتجاه الشخص النازح والباقين من معارفه وعشيرته.

تناقضات الدولة القومية

أدى قيام الدولة إلى تجميع هويات عنصرية وإثنية أو ثقافية كانت قد نظرت إلى بعضها البعض كأجانب، وكانت إما معزولة عن بعضها البعض أو أنها تعايشت وتداخلت كغرباء، أو حتى كأعداء. فى حالة السودان جمعت هياكل الدولة التنوعات الإثنية والثقافية الواسعة للقطر فى الشمال العربى المسلم، الذى كوّن الثلثين من ناحية المساحة والسكان، وشكل الجنوب بثقافاته وأديانه التى تغلب عليها التقليدية الأفريقية، وبطبقة مسيحية من المتعلمين، شكل الثلث المتبقى.

غير أن الهوية فى السودان هى محصلة موقف نتج عن تاريخ طويل من

التراتب العنصرى والثقافى أكثر منها انعكاساً للواقع. حيث احتل الأفارقة السود أدنى مرتبة بينما احتل العرب المسلمون مرتبة عليا، واحتل الأوروبيون المرتبة الأعلى . ونسبة لمرونة الإسلام والعروبة فى استيعاب الآخرين، وبالتالى تحسين مكانتهم، يمكن أن نفهم دون صعوبة لماذا كان السودانيون الشماليون على إستعداد للتحول للإسلام، ولتعريف أنفسهم كعرب حتى عندما كانت الحقائق العنصرية والثقافية تشير إلى غير ذلك. ولأسباب طبيعية، وعراقيل من صنع الإنسان، لم يؤثر هذا التوجه الاستيعابى فى الجنوب، الذى كان تواصله مع الشمال هو توفير منطقة لصيد العبيد والحيوانات.

وكان إطار الوحدة فى التنوع الذى أقامه البريطانيون بين ما يسمى الشمال العربى والجنوب الأفريقى، قد تعدل بسياسة انفصالية فصلت وعزلت الجنوب بوصفة من "المناطق المقفولة". وبينما تم إدخال مشاريع التطور الاجتماعى والاقتصادى إلى الشمال، والاعتراف بهويته العربية الإسلامية، تُرك الجنوب ليتطور وفق الخطوط الأفريقية المحلية، مع بعض التنازلات التى قُدمت للإرساليات المسيحية للقيام بالعمل التبشيرى، بالإضافة إلى دور "مدينى" متواضع. وقام بعد الاستقلال نظام سياسى موحد فى القطر أصبحت المشاركة الفعالة فيه تُبنى على اعتبارات ثقافية ودينية ميزت ضد الجنوبيين بتعليمهم القائم على نظام مسيحى محلى إنجليزى مخالف النظام العربى الإسلامى السائد فى الشمال.

أشعلت مخاوف الجنوبيين من السيطرة العربية تمرداً فى أغسطس ١٩٥٥، كان قد بدأ بكتيبة عسكرية ولكنه انتشر سريعاً على نطاق الجنوب وتطور فى النهاية إلى حرب أهلية استمرت لسبعة عشر عاماً، حتى تم إيقافها باتفاقية أديس أبابا١٩٧٢، والتى أعطت الجنوب الحكم الذاتى فى إطار وحدة القطر. وتم إستيعاب قوات الثوار، الأنيانيا، فى الجيش الوطنى، وأعيد توطين وتأهيل اللاجئين والنازحين بعون من المنظمات العالمية والأقطار الصديقة.

وكان الاستقرار الذى تمتع به نظام الرئيس نميرى لستة عشر عاماً، يعود بقدر كبير إلى هذه الاتفاقية التى غيرت الموقف الجنوبى، بصورة درامية، من الإنفصال إلى الوحدة. وقد أعطى حل مشكلة الجنوب الذى كان بلا شك أهم إنجازات حكم نميرى، دفعة قوية لعلاقات القطر العالمية. حيث حسّن السودان علاقاته مع معظم جيرانه، واقترح أو ساند مبادرات سلمية، وسعى بنشاط لتحقيق التنمية كإستراتيجية لبناء الدولة وحلت بفعالية محل الحرب النفسية.

بناءً على هذه الإنجازات الداخلية، استخدم السودان سياسته الخارجية بفعالية كي يستقطب العون الخارجي فى مجهوداته التنموية. فقد نُظر للسودان، بأراضيه الواسعة الصالحة للزراعة والتى تبلغ مساحتها ٢٠٠ مليون فدان، لم يُستغل إلا عُشرها، نظر إليه بوصفه سلة غذاء أفريقيا والشرق الأوسط مستقبلاً. وبوصفه دولة عربية وبهذه الإمكانيات الهائلة اعتبر القطر إطاراً أمثل لتعاون ثلاثى مع الثقافة الغربية ورؤوس الأموال العربية.

ولكن الأمور بدأت تسير فى الطريق الخاطئ. فقد اندفع السودان فى الإقتراض فى وقت كان فيه العالم الخارجي مستعدا لإقراض الأموال حتى يتمكن من تدوير أموال النفط التى تراكمت بسرعة كبيرة، وخاصة لأقطار تمتلك إمكانيات ظاهرة وكبيرة. وزاد من تعقيد المشكلة أن مفهوم التنمية الذى تبنته الجماهير لم يكن مهتما بالنمو بل يرتبط بتوفير الخدمات وإقامة المشاريع أو الخطط، التى تَعِد جدواها وترمز إلى نهضة اقتصادية حقيقية. بدلاً من ذلك تم أسر مُخيلة القطر وشغلها بفكرة مكلفة وتبذيرية للتنمية كانت فى الواقع سياسية أكثر منها اقتصادية.

ثم أصبحت القروض مستحقة للسداد، وتصاعدت فواتير البترول، وبدأ صندوق النقد الدولى فى فرض إجراءات إقتصادية، واضحت الفجوة بين التطلعات وواقع الحال غير قابلة للتجسير. وتصاعدت التوترات، وخاصة فى المناطق الأفقر من القطر، والتى كان الجنوب أسوأها. ومن سخرية الأقدار أن يحدث كل هذا فى الوقت الذى تم فيه اكتشاف احتياطى كبير من ابترول فى السودان، معظمه فى الجزء الجنوبى من القطر. بل أصبح اكتشاف البترول فى نفسه مصدراً للتوتر والاحتكاك. فحتى يمكن التخفيف من أعباء الديون الثقيلة، تقرر أن يتم تكرير البترول فى المناطق التى بها بنيات تحتية حتى يمكن الحصول على عوائده بسرعة. وكان ذلك يعنى إقامة المصفاة فى الشمال. وتقرر لاحقاً أيضاً أن يتم نقل البترول الخام للتصدير عبر خط أنابيب إلى البحر الأحمر. وقد نظر الجنوبيون لهذه الإجراءات بوصفها دليلاً على أن الشمال يريد إثراء نفسه على حساب الجنوب. بنفس الصورة تم رفض مشروع قناة جونقلى الضخم، والذى كان يهدف إلى حفظ مياه النيل من التبخر، واستعادة أراضى ذات قيمة عالية من السدود الموحلة، فقد نظر اليها على أن المستفيد منها هو الشمال ومصر، وأنها تدمر البيئة الطبيعية، وتغير دورة الحياة البشرية والحيرانية فى المنطقة.

وكلما بدأ الجنوب فى تأكيد ذاتيته كوحدة ثقافية منفصلة، أو رفع مطالبه بقسمة أفضل للسلطة، والثروة القومية وإمكانيات التنمية، كلما نظر الرئيس نميرى إلى حكمه الذاتى، بديموقراطيته الليبرالية التى يضمنها الدستور كشوكة فى إطار النظام الرئاسى الذى حكم السودان. كذلك ألقى التناحر السياسى الداخلى والتطلع للوظائف فى إطار الجنوب بظلاله على الأوضاع المحتقنة. فكان أن أصدر الرئيس نميرى بناءً على إدعاءات بوجود شكاوى من الأقليات القبلية ضد سيطرة الدينكا، مرسوماً قسّم فيه الجنوب إلى ثلاثة أقاليم، وخفّض سلطات الحكومات الإقليمية لتتساوى بمثيلاتها فى الشمال، ثم بدأت الحكومة، بعد أن استشعرت حالة التململ فى الجنوب، فى نقل القوات الجنوبية التى تم استيعابها إلى الشمال، بحجة ظاهرها ترسيخ اندماج القوات المسلحة، بينما كان الهدف الحقيقى هو إضعاف قدرات الجنوب على اللجوء إلى القوة العسكرية لمقاومة سياسة الحكومة تجاه الجنوب. وبينما قبل البعض فى تردد، رفضت إحدى الوحدات تنفيذ هذه الأوامر مؤدية إلى حادثة بور التى أعادت إشعال الحرب المنظمة. وقد صب الرئيس نميرى زيتاً على النار المشتعلة عندما قرر تطبيق قوانين الشريعة فى القطر، جاعلاً من السودان فى الواقع، دولة إسلامية يُعتبر فيها السكان غير المسلمين مواطنين من الدرجة الثانية، وكان رد الفعل هو عودة تلقائية إلى أوضاع الحرب الأهلية التى استمرت سبعة عشر عاماً، ومن ثمّ تأسيس الحركة الشعبية لتحرير السودان (SPLM)، وجناحها العسكرى الجيش الشعبى لتحرير السودان، اللذين يقودهما العقيد دكتور جون قرنق، وهو ضابط جيش يحمل دكتوراه فى الاقتصاد من الولايات المتحدة. وبالنظر للاسلحة المتطورة التى يمتلكها كل من الطرفين، ومستوى الدعم الخارجى الذى تتلقاه الحركة الجنوبية من أثيوبيا وليبيا، برهنت الحرب الحالية سريعاً على أنها أكثر دماراً من حرب السبعة عشر عاماً السابقة. وتوقف العمل فى كل من مشروع التنقيب عن البترول ومشروع قناة جونقلى. ومع الخراب الذى جلبته الحرب الأهلية، وتداعياتها على اقتصاد متدهور، والتعقيدات التى خلفها الجفاف فى مناطق معينة، وتدفق اللاجئين من عدد من الأقطار المجاورة، بالإضافة إلى الجرعة الأخيرة من الإجراءات التقشفية التى فرضها صندوق النقد الدولى، لم يعد بوسع السودان تفادى الانتفاضة الشعبية التى أسقطت نميرى فى عام ١٩٨٥. ومنذ سقوط نميرى تعدلت المتوازنات بصورة

طفيفة. فبدلت ليبيا الجانب الذى تدعمه فى الصراع واتجهت العلاقات بين السودان واثيوبيا نحو التحسن. إلا أن الحرب تواصلت بغير توقف.

كذلك كانت التطورات على مستوى تعبئة الموارد البشرية والاقتصادية للقطاع التقليدى مغامرة مؤلمة. لأن التأثيرات المحددة لمسلسل التبعية، الذى أوجدته السياسات الاقتصادية الحالية بتوجهها الخارجي، خاصة فى إهمالها لقاعدة الموارد الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع التقليدى، ضربت على وجه الخصوص سكان الريف وأضعفت إسهاماتهم فى اقتصاد متماسك . وصار النزوح الجماعى إلى المراكز الحضرية هو القاعدة. غنى عن القول أن ترك التجمعات القبلية والبحث عن الفرص فى المدن لم يقتصر على الأشد فقراً أو ذوى الحاجات من سكان الريف. فقد يلجأ رجل شاب ذو خلفية اجتماعية معروفة وثروة أُسرية معقولة ومكانة محترمة للنزوح للعمل فى المدينة بحثاً عن موارد شخصية لزيادة ثروة الأسرة، أو لإقامة قاعدة مستقلة تزيد من حريته فى تقرير مستقبله فى مسائل مثل متى وأين سيتزوج. إلا أنه بذهابه إلى المدينة، يصبح من بين الأدنى وسط الفئات الحضرية الدنيا، ويجد أن تأكيد قبيلته على الاحترام والكرامة مواجه بواقع مخالف تماماً للاحترام والكرامة. غير أن تجربة الحياة فى المدينة تجعل من الصعوبة بمكان الرجوع والاستقرار مرة أخرى فى القبيلة، كما أن منطق النظام لا يترك، فى الواقع، شيئاً يدفع للبقاء فى القرية. فيبدأ هؤلاء النازحون فى التنقل بين القبيلة والمدينة غير قادرين على الإندماج الفعلى فى أى منهما.

وتكشف المقاطع التالية لإحدى أغانى الثيران مشاعر أحد أفراد الدينكا حول إهانات ظروف العمل فى المدينة. وينتمى المغنى لأسرة تعانى وفيات الأطفال مما حرمها من الفتيات، اللائى تكتسب الأسر الأبقار عادة من زواجهن. واضطُر إلى النزوح إلى المدينة للعمل مقابل النقود حتى يتمكن من إقتناء أبقار:

جدتى جدتى الويل بنت شول
قد أتت وهى فى عزة محمية انكرها الاله
هى سيدة فخمة انجبت العديد من البنين،
ثم يا حزنها اهلكت معولاً وهى تحفر قبراً لهم
تركت والدى كعجل جاموسة منفرد .
لو كان له أخوات – لبقينا نرعى أبقارنا فى البلد

ولذا صرت عبداً
مرغماً عاملاً فى ديار اغتراب
محطماً عظام ظهرى كما يفعل الشرك مع طائر مقبوض
عملت فى حقل القطن حتى صار شعرى بلون الرماد
لم يكن رماد الكبر
بل مرارة الكلمات التى تدور فى رؤوسنا
عندما ضعنا فى ديار الاغتراب.
ماريال! لن ابوح بما قد وجدت.*

من وجهة نظر سكان المدن شكلت هذه الكتل البشرية النازحة من المناطق الريفية، ليس فقط استنزافاً لقطاع الخدمات المنهك، والموارد الشحيحة للمدينة، بل أيضاً تهديداً لأمن هذه المدن، خصوصاً بالنظر إلى أن فقرهم المدقع ومكانتهم الاجتماعية المتدنية التى أفرزت مرارات عبرت عن نفسها ، أحياناً فى جرائم الحاجة والحقد مثل السرقة والنهب. وقد كانت المفارقة أن معظم الأيدى التى تعرضت للبتر كنتيجة لتطبيق نميرى لقوانين الشريعة الإسلامية، كانت هى أيدى غير المسلمين.

وقد جاء وقت وجدت فيه السلطات الأمنية فى الخرطوم نفسها مدفوعة لإجبار كتل ممن يُعرف بالمشردين إلخروج من المدينة. فكان يتم إلقاء القبض عليهم بلا سابق إنذار ويُدفعون إلى ملاعب كرة القدم ثم يُشحنون من هناك إلى مناطقهم الريفية، غالباً فى الجنوب والغرب. وقد أثارت هذه العملية المعروفة "بالكشة" بالطبع تذمر هذه التجمعات الإقليمية، التى وجدت تعاطفاً كبيراً من قادة دوائرها الانتخابية، مما أدى إلى تفاقم مشكلة الوحدة الوطنية وإضعاف نسيج الأمن الوطنى. وقد كان غضب الجماهير الريفية من هذه العملية شديداً، وكانت احتجاجات قادة هذه الجماهير (الذين كان بعض منهم أعضاء بارزين فى الحكومة) ضدها صريحة وعالية حتى تم إلغاؤها فى آخر الأمر. ولكنها كانت قد سبقت وأفرزت ضرراً بليغاً.

* الجزء الاكبر من الأغنية مأخوذ عن ترجمة لعصام عبدالرحمن أحمد.

دعني أوضح المشكلة التي حاولت توصيفها والمقارنة التي اقترحتها ضمنياً بإعطاء تقرير قصير عن مشروع كنت شخصياً طرفاً فيه، ويدلل بصورة واضحة على وجهات النظر المختلفة فيما يتصل بالتنمية في أفريقيا. والشعب المعني هو دينكا نقوك ورئاستهم في أبيي، التي استمدت منها المنطقة اسمها. وعلى الرغم من أن نقوك هم جزء من التركيبة الإثنية والثقافية لجنوب السودان، إلا أنهم لأسباب تاريخية، ارتبطوا بمديرية كردفان إحدى مديريات الشمال. والمنطقة نفسها ظلت ملتقى طرق للقبائل الرعوية النيلية والعربية في الشمال والجنوب، يلتقون فيها أو يتبادلونها موسمياً بحثاً عن الماء أو هرباً من الفيضانات أو لأي أسباب أخرى. وقد بدأت الحرب الأهلية تتسبب في تقويض السلام والانسجام الذي ساد بين دينكا نقوك وعرب المسيرية لأجيال عديدة، حتى اشتعلت المنطقة عام ١٩٦٥ بأعمال العنف التي فصلت سكانها بشكل حاد وفق الخطوط الثقافية والإثنية للشمال والجنوب، مجبرة مواطني أبيي على الانخراط أكثر في الحرب. تلك كانت الأوضاع التي شهدناها في عام ١٩٦٩ لدى عودتنا للمنطقة في مراسم دفن والدنا التي سردتها في هذا الكتاب. وقد طالب كل من الجانبين بمنطقة أبيي أثناء مفاوضات أديس أبابا. غير أن الاتفاقية التي أعادت السلام إلى الجنوب، تركت المسألة بدون حل، وكان من المفترض أن يتم الفصل فيها عبر الاستفتاء. وبرغم وجود توجه شعبي عام من مواطني أبيي للانضمام للجنوب، إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى صار جلياً أن المشكلة أعقد بكثير من ذلك بسبب الرهانات العالية للمجموعات المصلحية المختلفة في المنطقة.

وكان ذلك هو الوقت الذي وصلتُ فيه إلى نتيجة فحواها أنه بدلاً من معاناة الرهق المتصل بمنطقة متنازع عليها، سيكون من الأفضل لهذه المنطقة البناء فوق تاريخها الإيجابي كحلقة وصل بين الجنوب والشمال، والاستفادة من أجواء السلام والوحدة والوفاق التي سادت بعد انتهاء الحرب. وكنت متأكداً من أنه في حالة مخاطبة ظلامات شعب أبيي، بإعطائه الحق في التحكم في شئونه المحلية، وأنه - بالإضافة إلى ذلك - إذا تم توفير الخدمات الأساسية له، وبرامج التنمية التي تعترف وتبنى على خصائصه المحددة، فإنه بذلك سيتم إشباع تطلعاته، وقد يمكن كسبه لإيجابيات وضعه المعبري. وتعود المنطقة مرة

أخرى حدوداً آمنة تجتمع فيها القبائل المتجاورة وتتداخل في أجواء من الانسجام تؤدي إلى تقوية الوحدة والتكامل.

ووجدت الفكرة قبولاً واسعاً من جهات القرار المختصة على المستوى المركزي، بما في ذلك الرئيس نفسه. ووصل الزخم مداه على المستويين الوطني والعالمي عندما كرر الرئيس على مسامع الحاضرين أثناء خطابه بمناسبة عيد الاستقلال بكادوقلي، عاصمة الأقليم، سياسات الحكومة في المنطقة معلناً في وقار ومهابة تعهده ومسئوليته الشخصية عن التنمية في منطقة أبيي. وقد ذكر الرئيس نميري، وهو يضع المنطقة ضمن الإطار العام للتنمية في الإقليم:

" إنني أريد أن تكون التنمية في هذا الإقليم الفتي تنمية مركزة ومتكاملة تعمل على تطوير القطاع التقليدي وعلى وجه الخصوص، تطوير مساهمات مواطني الإقليم من خلال مجهودات العون الذاتي، التي نريد لها أن تكون نموذجاً يحتذى في كل الأقاليم الأخرى.

وإذا كان ذلك هو ماتريده لإقليمكم، فإنني أريد أن تكون منطقة أبيي، التي تلتقي فيها قبائل الدينكا والمسيرية العظيمة وتعيش في وئام، أن تكون نموذجاً للتمازج الثقافي. فإن أبيي هي للسودان تماماً ما هو السودان بالنسبة لأفريقيا. لذلك فإن المشروع سيتم تنفيذه تحت إشرافي الشخصي بالتعاون مع كل مؤسسات الدولة والجامعات والمنظمات العالمية".

وكان قلقي من اتجاهات التغيير المُقعدة واللا إنسانية قد سبق ودفعني إلى أن أعكف على دراسة فوق - جامعية تهدف إلى استكشاف الوسائل والطرق التي يمكن بها توجيه التنمية لكي تصبح أكثر انسجاماً وأقل إخلالاً بالمجتمعات التقليدية. وكانت نتيجة تلك الدراسة هي أول كتبي: " الأصالة والتحديث: التحديات التي تواجهها قوانين الدينكا" والذي نشرته دار نشر جامعة ييل في عام ١٩٧١ قمت في ذلك الكتاب بصياغة شديدة التفصيل للأسس النظرية، وللخطوات العملية، الهادفة إلى دفع التكامل الانتقالي للقيم والمؤسسات والقوى الممثلة للأصالة والتحديث بما في ذلك كبار السن، النساء، مجموعات المحاربين الأنداد ونظيراتها من حلقات النديدات النسائية والطبقة المتعلمة. وقد نال ذلك الكتاب قبولاً حسناً في الأوساط الأكاديمية وحصل على جائزة هيرسكوفيتز عام ١٩٧٢ حيث وصفته لجنة الجائزة بأنه "علمي مكتوب بأسلوب جيد، أصيل ومُحفِّز نظرياً" مما زاد من تشجيعي لأن

أنظر للهدف منه بوصفه أكبر من مجرد الحصول على درجة علمية.

بتلك الدراسة المركزة للأبعاد الاجتماعية والثقافية للتنمية، وبالأجواء السياسية الملائمة فى داخل السودان، بدأت أبحث عن مؤسسة عالمية تمتلك المؤهلات اللازمة للمساعدة فى تنفيذ هذا المشروع. وكان ذلك هو الوقت الذى نُبهت فيه إلى أن معهد هارفارد للتنمية الدولية (HIID) هو الجهة المناسبة لمثل هذا الجمع بين البحث والتطبيق. فاتصلت بالمعهد فى عام ١٩٧٢ طالباً تنفيذ المشروع، معطياً سداده السياسى كمبرر للسند الوطنى الذى سيلقاه، ومرشحاً " الأصالة والتحديث" كنموذج نظرى للتجريب. وعلى الرغم من أن تلبية طلبى إستغرقت بعض الوقت، تبنى المعهد المشروع فى عام ١٩٧٦وبدا فى العمل فيه فعلياً عام ١٩٧٧، بتمويل من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID). فى ذلك الوقت كنت قد عدت مرة أخرى إلى القطر فى وظيفة وزير دولة بوزارة الخارجية، ومن ثم كان بوسعى تقديم يد المساعدة للمشروع من مكان قريب. وقد احتفظت، فى الواقع، طوال عمر المشروع بعلاقات وثيقة جداً مع كل المشاركين فيه سواء فى الجانب السودانى أو من جانب الولايات المتحدة.

وقد أتضح فيما بعد أن المقاربة التى اختطها المعهد للتنمية فى أبيبى كانت مختلفة عن التصور الذى كنت قد أقترحته. فقد تعلل مندوبو المعهد شح الموارد المالية والبشرية المتاحة لمشاريع التنمية فى العالم الثالث، خاصة المناطق الريفية النائية مثل أبيبى، ومن ثم قالوا أن هدفهم الرئيسى هو التجريب بحثاً عن أقل التقنيات تكلفة من تلك التى يمكن استخدامها فى مجالات الزراعة والصحة والمياه والنقل والتشييد وتربية الحيوان.

إلا أن اعتراضى الرئيسى لم يكن موجهاً نحو تواضع المقاربة، بل وافتقادها لأى توجه اجتماعى وثقافى إيجابى. فى البداية طُلب من مواطنى أبيبى تحديد إحتياجاتهم ، والتى كانت جلية من نواح عدة، وذلك كان هو المدى الذى شاركوا به فى المشروع. وكنا قد نجحنا بعدُ مجهود كبير فى إسناد المشروع بمجموعة من كبار الموظفين الحكوميين من أبيبى، ولكن على الرغم من أنهم شكلوا حلقة وصل جيدة مع المواطنين، بالإضافة إلى مهامهم التنفيذية، إلا انه لم يمض وقت طويل حتى عبروا عن استياءهم من غياب المشاركة فى اتخاذ القرار، خصوصاً فى المسائل المتعلقة بالسياسات. ثم بدأت تظهر خلافات حادة بينهم وبين الجانب الأمريكى فى العديد من المسائل.

إحدى هذه المسائل، والتى أبدى فيها المدير الأمريكى المقيم للمشروع قدراً متطرفاً من عدم الحساسية الثقافية، كانت إستخدامه للأبقار فى الحراثة الحيوانية. لم يكن ليغيب عن ذهن أى شخص له أقل دراية بمجتمع الدينكا أن الأبقار تحتل مكانة مركزية فى منظومة القيم الاجتماعية والأخلاقية والروحية، تفوق من نواحى عدة، وبمراحل قيمتها النفعية. ولقد شاهد الدينكا جيرانهم العرب يستخدمون الأبقار لحمل الأثقال لقرون عديدة، ولكنهم لم يفكروا أبداً فى تعريض أبقارهم لما يعتبرونه شكلاً من اشكال المذلة. وقام الدينكا بما فى ذلك متعلموهم بإطلاع المعهد بصورة لا لبس فيها بأن مثل هذا الاستخدام للأبقار غير مقبول تماماً لأسباب ثقافية. وكان أن هدد المدير الأمريكى المقيم للمشروع والذى كان متمسكاً بفكرة الحراثة الحيوانية، بأنه يملك المفتاح للنقود وأنه فى حالة رفض الدينكا لاستخدام الأبقار سيتم إنهاء المشروع. بالطبع مثل هذا التهديد يعتبر ماساً بكرامة الدينكا ، فكان أن بدأت تنهمر علىّ النداءات بإنهاء المشروع. فى أخر الأمر تم استبدال المدير المقيم بأمريكى أخر، نجح فى كسب ثقة المواطنين المحليين. ولكن كان قد سبق وحدث ضرر بليغ. حتى الحجة التى كانت تصنف الدينكا بوصفهم أفقر من أن يتحملوا قدراً أكبر من أكثر مفاهيم التنمية تواضعاً ، حتى هذه الحجة أخفقت تماماً فى تقدير الصورة الفخورة التى يحملونها عن أنفسهم، بوصفهم ملاك أبقار أثرياء، وأنهم ، بدلاً من أن يكونوا أناساً يستحقون الشفقة، يرون أنهم محسودون، وأنهم بأبقارهم وعملهم يستطيعون إحداث التنمية، كل ما يحتاجونه هو التوجيه المناسب وقنوات لاقتناء المعدات والخبرة.

والكلمات التالية لأحد زعماء الدينكا تكشف الكثير، حتى إن لم يزد ذلك على الثقة فى النفس التى تعبر عنها:

"دعنى أقول ما الذى يجب علينا أن نفعله لكى نحسِّن من انفسنا. هذا الجرح الذى تراه فى يدى أصابنى من تشييد الطرق. منذ أن جاءت الحكومة ظل شعبى يقوم ببناء طرقهم الخاصة. وقد عملت انا دائماً فى بناء الطرق. لم تأت النقود أبداً إلى قبيلتى لكى تُدفع للذين يعملون فى بناء الطرق. وإذا كنت تريد مالاً للتنمية فكل أبقارنا فى البلد تحت تصرفك. عليك فقط أن ترينا ماذا يجب أن نفعل بها. لقد جمعت النقود من قبل أن أغادر إلى هنا ووضعتها فى صندوق، وجئت وسألت، آملاً أن توفر لى

الحكومة شاحنة أشتريها وأعود بها لكى أبنى منطقتى بنفسى. هذا هو كل ما أريد. أريد شاحنة ولدى النقود. ولا أريد أى مساعدة. أريد شاحنة وأريد معدات .. والشيء الذى يزرع الأرض بالمحاصيل. وعندما نزرع المحاصيل، فإن جزءاً من الإنتاج سيباع للنقد وسنستهلك الجزء الآخر. هذه هى كل الأشياء التى أسأل عنها، وأنا أملك النقود لتسديد أثمانها"(٥).

وبعد أن أحصى زعيم آخر المؤسسات التى يرى أنها يجب أن تُقام، بما فى ذلك المدارس والمستشفيات أثار مسألة التمويل وأجاب عليها:-

"بأى أموال سنبنى كل هذه المؤسسات؟ إنها ستُبنى بأموال شعبنا. لابد أن يجمع الزعيم الأموال ولابد أن يؤسس الزعيم جمعيات تعاونية. ولابد أن يُنظم الزعيم اجتماعات ويطلب من شعبه جمع الأموال وبناء البيوت، وبعد ذلك نقول للحكومة " نحن نريد أن يحضر إلينا طبيب" (٦)

لست أُريد بهذا أن أوحى للحظة واحدة بأن الدينكا أثرياء بما يكفى لتمويل تنمية منطقتهم. بل أسعى لمجرد التشديد على مسألة الوعى الذاتى كمورد غير مطروق لتنمية قاعدية عريضة للمناطق الريفية. إذ إن هناك شيئاً عظيم الخطأ فى مواجهة أناس يحملون مثل هذا الموقف الإيجابى، بأنهم من بين أفقر الفقراء الذين يستحقون المساعدة لهذا السبب.

ولكن مع ذلك كانت هناك مشاكل أخرى واجهت مشروع معهد هارفارد، فوق إفتقاده للتوجه الاجتماعى. وفى الواقع باستثناء شخصى والسلطات الحكومية المركزية، التى شاركتنى تصورى، بدت معظم العناصر السياسية المهمة فى المنطقة، غير سعيدة بالمشروع، إلى حد كبير، بسبب دلالاته السياسية. فقد نظرت إليه العناصر النشطة من بين شباب المتعلمين فى أبيى، والذين كانوا متشددين سياسياً، بوصفه وسيلة لتحييد الحركة الوطنية الجنوبية فى أبيى. وقد كانت بعض هذه الخلافات تعكس منافسات ظلت قائمة طويلاً بين أجنحة القبيلة. خارج نطاق الدينكا، أخطأت القبائل العربية والسلطات فى كردفان الهدف الرئيسى للمشروع، والذى كان هو خدمة المصالح المتبادلة لكل من الدينكا والعرب، ورأت فيه تفضيلاً لمواطنى أبيى،

وتجاوزاً للسلطات الإقليمية، بل وقد يكون خطوة أولى نحو الفصل النهائى لمنطقة أبيى من كردفان، وإلحاقها بالجنوب. وأضحى المشروع والمعهد مورطين فى النزاعات السياسية حتى وصل الأمر درجة أثيرت فيها ادعاءات سخيفة، بلغت حد اتهام الدينكا بتلقى السلاح عبر ذلك المشروع. وهكذا أصبح حاصل المشروع هو العكس تماماً من النتائج التى كانت مرجوة منه. ثم تصاعدت بعد فترة قصيرة المشاكل السياسية حول منطقة أبيى وحول المشروع نفسه بين العرب والدينكا، وبين الدينكا أنفسهم. وكان الأثر النهائى لهذه المشاكل معاً هو الذى حدا بالوكالة الأمريكية للتنمية الدولية آخر الأمر بأن تقرر عام ١٩٨١ إنهاء تمويلها للمشروع والانسحاب منه. وانسحبت هارفارد أيضاً. وتم إعلان المشروع فاشلاً.

والآن عندما أعيد النظر إلى تلك الأيام، أجد أن الجوانب التقنية التى ركز عليها معهد هارفارد، وتلك الاجتماعية والثقافية التى شغلتنى تكمل بعضها البعض بصورة واضحة، وتعكس على نحو ما تحيزاتنا الثقافية. وبرغم أننى فى البداية ظللت اراقب معهد هارفارد وهو يجرب أفكاراً مختلفة، إلا أننى فى آخر الأمر أعربت عن اعتراضاتى. وقد قيل لى وقتها فى صراحة ووضوح أن تناولى يستوجب عمقاً فى النظر لا يمكن أن يتوقعه أحد من شخص أجنبى. وبغض النظر عن أننى كنت أفضل أن أكون واعياً بهذا الموقف منذ البداية، إلا أنه يبدو لى أن هذا الدفع يؤكد الحاجة إلى التعاون بين الأجانب والمواطنين فى تخطيط وتنفيذ مشاريع التنمية الريفية، أكثر منه تثبيتا للحاجة إلى تجاهل التوجهات الاجتماعية والثقافية للتنمية.

وقد كان شعورنا نحن، من كلا الجانبين، الذين ارتبطنا بالمشروع ارتباطاً وثيقاً هو شعور الأسف لإنهاء المشروع، فى نفس الوقت الذى كنا فيه قد بدأنا إجراء تعديلات هامة بإتجاه تصورات كل واحد منا. وقد اتفق الجميع الآن على أن هناك الكثير الذى تعلمناه من هذا الفشل. فى الواقع تضمن اتفاق لاحق بين مواطنى أبيى وحكومة كردفان خططاً لتنشيط المشروع تحت رعاية سلطات الإقليم، وبتعاون المنظمات العالمية. إلا أن مشاكل تتصل بالوضع السياسى والإقتصادى العام للقطر، أعاقت تحقيق هذا الهدف حتى الآن. ولكن الأمل هو أن تنال المنطقة مرة أخرى الفرصة للاستفادة من هذه التجربة، ولتصحيح أخطاء سابقة، ولكى تقوم بمسعى آخر لابتكار برنامج للتنمية الريفية ذى توجه اجتماعى ثقافى وبتقنية متجددة قادرة على البقاء.

خـــــاتمة

فى دراسة كنت أعددتها عام ١٩٧٢، تحت رعاية برنامج جامعة ييل للقانون والتحديث، كتبت معلقاً على اتفاقية أديس أبابا، التى كان قد تم التوقيع عليها للتو بين الجنوب والشمال:-

"بإعلان الرئيس نميرى للحكم الذاتى الإقليمى للمديريات الجنوبية، خرج السودان لتوه من ستة عشر عاماً من الحرب الأهلية، التى ميزت ما يعرف بمشكلة الجنوب. لقد عاد السلام إلى السودان، ويمكن القول بأن المشكلة قد حلت. غير أن تداعياتها على مستقبل السودان مازالت تلقى بأسئلة لابد أن يقوم السودانيون أنفسهم بمواجهتها. أهم هذه الأسئلة هو ما إذا كان السودانيون سيستطيعون الآن تنمية وعى عام بهوية مشتركة تضمن بناء وحدة وطنية حقيقية ودائمة".(٧)

وفى إطار آخر استطردت قائلا:

"مازالت المسائل المتصلة بالهوية السودانية معلقة لم تحسم، وقد تصبح سبباً للاحتكاك فى العلاقات المستقبلية للشمال والجنوب. وبرغم أن الحكم الذاتى الإقليمى هو حل قصير المدى لمشاكل الجنوب والشمال، إلا أنه يصعُب أن نتوقع أن السودانيين الجنوبيين سيقنعون بالمشاركة الإقليمية ولا يهتمون بمسائل مركزية وطنية ودولية من مثل ماذا يجب أن تكون هوية السودان؟ ولا يسع المرء إلا أن يقترح صيغة توحد بدلاً من أخرى تؤدى إلى الانقسام".(٨)

وبعد عدة سنوات قدمت هذا التقويم للاتفاقية وللطريقة التى تُطبق بها على أرض الواقع: إن الأوضاع الحقيقية اليوم تعطى مجالاً لكل من الوحدة والانفصال، ولأنها تحديداً تجمع بين هذين التوجهين المتناقضين، لاقت هذه الاتفاقية الاستجابة فى الجنوب، وعلى الأقل وسط العناصر المؤثرة من القيادات الشمالية. إذ يتيح النظام القائم للجنوبيين المشاركة فى كل من المستويين، الإقليمى والقومى. وقد تمت صياغة القانون الذى يحكم النظام، كما هو الحال مع كل القوانين الأساسية، بصورة فضفاضة تسمح بهامش للاجتهاد. ولكن فى النهاية، يُعتمد الأمر على القيادة المركزية وبصفة خاصة على الرئيس ليقر ما إذا كان الحكم الذاتى سيُعطى مجال عمل واسعاً أم مقيداً. فى الوقت الحالى يميل تطبيق الحكم الذاتى الذى يدعمه السند الكامل

للقيادة القومية، وللرئيس على وجه الخصوص، يميل لأن يكون تطبيقاً واسعاً. حتى إذا اقتصر ذلك على مسائل غير حيوية او غير حساسة لشخصية القطر. إلا أن هذا، وبنفس القدر يعنى ضمناً إعتماداً إقليمياً طوعياً على المركز. ونظراً لقوة الطرد المركزى التى يمارسها الرئيس وبسببها، من جانب، ولأهمية المركز بالنسبة لأمور حاسمة – مثل إدارة العلاقات الخارجية، التى يعتمد عليها الكثير من العون المالى والتقنى الوارد للتنمية، من جانب آخر يتم تصريف المشاركة الإقليمية عبر الأيدى المتحكمة، وأن كانت تبدو بعيدة، المركز. هذه المسألة تصطبغ أيضاً ولأسباب عدة بالتنافس الجنوبى الشخصى أو الجماعى، وأحياناً بالمكائد التى تهدف إلى ضمان نفوذ أكبر فى الإقليم أو المركز.

وبالتالى ينشأ وضع معقد يتم فيه بالإجماع الاعتراف بالوحدة، ويُنظر فى نفس الوقت للإقليمية بوصفها تتمتع بسلطات واسعة. ولكن المفارقة هى أن الإقليمية تعتمد على مساندة المركز، وبالتالى يتم التحكم فيها مركزياً. وهذا ما سوف يدفع المركز لكى يمتص بصورة خفية الحكم الذاتى للجنوب.(٩)

غنى عن القول أن هذه النبوءة قد أصبحت الآن واقعاً حزيناً. فماهو التحليل الذى يمكن أن يتوقعه المرء لمسيرة الأحداث مستقبلاً فى ضوء التطورات الأخيرة؟ للإجابة، تقفز إلى الذهن عدة بدائل. أحد هذه البدائل أن الشمال قد يختار أن يتبنى نظام حكم مركزى ويستخدم الإسلام واللغة العربية كوسائل للوحدة القومية. ولكن أن يقبل النيليون أو بالأحرى السودانيون الجنوبيون بصورة عامة، وهم الذين يعتزون بعنصرهم وبثقافتهم، أمر يصعب تصوره أى أن يقبلوا طوعاً وحدة وطنية قائمة على مثل هذه الأسس غير العادلة، من مُثل دين واحد، هو الإسلام، ولغة واحدة، هى العربية، وهوية عنصرية وثقافية واحدة، هى العروبة، والتى تعبر كلها عن الشمال فقط. ما يجب الإقرار به هنا هو أنه على الرغم من أن المسيحية واللغة الإنجليزية غريبان على الجنوب، إلا أنه قد تم تبنيهما بواسطة الصفوة على أنهما رمزان حديثان للهوية، يوازنان الهوية الإسلامية العربية للشمال، ويحميان من شبح الاستيعاب والفناء الثقافى المرعب. فرموز الهوية الشمالية لا يمكن قبولها كأساس للوحدة والتجانس والاندماج إلا عبر فرضها بالقوة، وهو أمر يكاد يكون مستحيلاً. البديل الآخر أن الجنوب قد يفضل الانفصال عن الشمال وإقامة دولة مستقلة. إلا أن هذا أيضاً يبدو غير ممكن، فبخلاف

المسائل المتعلقة بالقدرات الاقتصادية، وأخطار المزيد من التفكك وفق الخطوط القبلية، فإن الالتزام الحالى لمنظمة الوحدة الأفريقية والذى يكاد يكون تعصباً، وللعالم عموماً، بالحفاظ على الحدود الوطنية كما خلفتها القوى الاستعمارية يجعل الانفصال أمراً غير ممكن إلا بتحول رئيسى فى النظرة الأفريقية والإستراتيجية العالمية.

ويتمثل البديل الثالث فى إقامة نظام حكم فيدرالى أو لا مركزى يعترف ويحافظ على التنوع العنصرى والإثنى والدينى والثقافى الحالى فى إطار دولة وطنية واحدة. وبينما يبدو هذا على أنه إختيار معظم الجنوبيين، إلا أنه يميل لأن يوفر تربة خصبة لاستمرار التراتبية والمظالم التى ولدت توترات وصراعات انقسامية.

والبديل الرابع والأخير الذى يقفز إلى الذهن كإطار واعد لوحدة حقيقية هو بناء شخصية الدولة على أساس المبادئ التى توحد بين المواطنين والابتعاد عن تلك التى تفرق بينهم. ويعنى ذلك الجمع بين نظام حكم لا مركزى يعترف بالتنوع، وإطار وطنى يعبر بشكل إيجابى عن كل المجموعات العنصرية والإثنية والدينية والثقافية بصورة عادلة، وينمى روح الانتماء والاعتزاز الوطنى فى كل شعوب السودان، ويسمح لعملية الإندماج الوطنى المتبادل أو الإستيعاب أن تتطور فى جو من الوحدة والإنسجام. ويكون تبنى العناصر الثقافية أو الحفاظ عليها أو صرف النظر عنها على أساس قيمتها الذاتية أو شعبيتها. والإحتمال الأكبر هو أن يكون الناتج النهائى لهذه العملية نموذجاً سودانياً فريداً وفعالاً ومتجدداً لا تحده هذه التصنيفات المحدودة من مثل "عرب" أو "أفارقة".

باختصار فإن ما يحتاجه السودان، كما يبدو لى هو بناء وحدة القطر على أساس الحياد الدينى، العلمانية، الثنائية اللغوية - اللغة العربية واللغة الإنجليزية، وبرنامج وطنى ثقافى أفريقى- عربى حقيقى. فى الواقع ، حتى فى علاقاته الخارجية يستطيع السودان أن يقوم بدوره المرسوم، كصورة مصغرة لأفريقيا وكحلقة وصل بين القارة والشرق الأوسط، بالصورة المثلى، عن طريق الاستفادة القصوى من فعالية هويته الثنائية كأفريقى وكعربى، وهو أمر لن يتأتى له من غير المشاركة الكاملة لمواطنيه غير العرب فى الجنوب والغرب والشرق بل وفى الشمال، وعلى كل المستويات المحلية والوطنية والإقليمية والعالمية.

هوامش

١- ظهرت أجزاء من هذا الملحق فى مقالة نُشرت فى التقرير السنوى لصندوق الأخوان روكفلر ١٩٨٥، وقد أُعيد طبعها هنا بموافقة الصندوق.

٢- صفحة ١٦٦، كل الاستشهادات من الطبعة الانجليزية.

٣- الزعيم جيير كيرو (معروف أيضا بجيير ثييك) فى:
Deng: Dinka Cosmology. London, Ithaca Press, 1980, p.46.

٤- الزعيم أنيانيا إليو، سبق ذكره، ص ٩٩.

٥- الزعيم ماكيواى بيلكواى ، سبق ذكره، ص 86-87.

٦- الزعيم ثون واى، سبق ذكره ، ص170.

٧- د. فرانسيس دينق، "مشكلة الهوية فى السودان: أسس التكامل القومى" ترجمة محمد على جادين. مركز الدراسات السودانية، القاهرة، ١٩٩١م، ص7

٨- سبق ذكره.

٩-

Deng: Africans of two Worlds: The Dinka in Afro-Arab Sudan. New Haven, Yale University Press, 1978,pp.173-74.

مراجع

Deng, Francis Mading (1971), *Tradition and Modernization: A Challeneg for Law among the Dinka of the Sudan*. New Haven Conn. and London: Yale University Press.

------ (1972), *The Dinka Through Their Songs*. Oxford, Britain: Clarrendon Press.

Howell, Paul P. (1951), The Ngok Dinka of the Western Kordofan, Vol. 32 of *Sudan Notes and Records*, 239.

Ibrahim, Effendi Berdri (1939), Notes on Dinka Religious Beliefs on their Chiefs and Rainmakers, vol. 22 of *Sudan Notes and Records*, 125-131.

------ (1948) More Notes on the Padang Dinka, vol. 29 of *Sudan Notes and Records*, 40-57.

Lienhart, Godfrey (1961), *Divinity and Experience: The Religions of the Dinka*. Oxford, Britain: Clarendon Press.

----- (1958) The Western Dinka, *Tribes Without Rulers* (Eds, J. Middleton and D. Tait) London: Routledge & legan Paul, 97-135.

Machrell, J E. C. (1942). The Dinka Oath on Ashes, Vol. 25 of *Sudan Notes and Records*, 132-134.

Nebel, A. (1954), *Dinka Dictionary*. Verona, Italy: Verona Fathers.

----- (1948), *Dinka Grammar*. Verona, Italy: Verona Fathers.

o'sullivan, h. (1910) , "Dinka Law", *Journal fo the Royal Anthropological Institute*, 40: 171-191.

seligman,c.g. and B. Z. Seligman (1932), *Pagan Tribes of the Nilotic Sudan*. London: G. Routledge & Sons, Ltd.

stubbs,j,n. and C.G. T. Morrison (1938), Land and Agriculture of the Western Dinka, Vol. 21 of *Sudan Notes and Records*, 251-265.

titherington, majorg. w. (1927), the Riak Dinka of Bahr-el-Gazal province , vol. 10 of *Sudan Notes and Records*, 159-209.

treatt,majorc. court (1931), *Out of the Beaten Track*. New York: E. P. Duton & Co., Inc.

ثبت بمعانى كلمات لغة الدينكا التى وردت فى النص:

أبآر : يتيم ، ويستخدم الدينكا هذه الكلمة للكبار وللصغار أيضاً.

أشيى يووت: حرفياً تعنى أكلته النمل والأرض. وتستخدم عامة لتعنى أن الشخص قد مات.

أشيتوك: لعبة هوكى يمارسها الدينكا.

أدهينق: عند استعمالهما للرجل تعنى : نبيل، وسيم، رشيق، جذاب، أنيق، لطيف، كريم، مضياف، طيب الأخلاق، رجيم ، أو ذو صفات جميلة. وتستخدم أيضاً لتعنى سيداً محترماً، ورجل مدشن فى مقابل صبى، انظر "دهينق" لأسماء ادهينق.

أقاملونق: حرفياً تعنى مُستقبِل الكلام، وهو الرجل الذى يردد بصوت عال وحاد كل أو جزء من كل جملة تقال فى المحكمة، أو الصلاة، أو أى خطبة عامة، ولا يستطيع أى شخص أن يتحدث فى مناسبة رسمية دون موافقة أقاملونق.

أقور: طعام تتركه المرأة لزوجها أو ابنها أو أحد أقربائها الذكور بصورة خاصة، فى مقابل الطعام الذى يقدم عادة فى وجود الضيوف والمشاركين الآخرين. وهى ممارسة مستنكرة اجتماعياً، ولكنها متوقعة من كل زوجة برغم ذلك.

أقوين: كلمة ودودة تستعمل لمخاطبة الأطفال وتعنى حبيبى أو حبيبتى.

أكيث: الممارسة الجنسية بين الأقارب. وأيضاً مرض جلدى يصيب الخلايا الصبغية للبشرة ويربطه الدينكا بالجنس بين الأقارب، أو الوطء على قبر أحد الأخوال.

ألينق(١) الانق (٢): حرفياً التحادث أو المزاح. وتستخدم للإشارة إلى مرحلة فى العلاقة بين الشاب والفتاة يكون فيها على درجة من الحميمية بحيث ينامان معاً، بالرغم من أن ذلك لا يعنى أن هناك علاقة جنسية بينهما.

ألويث: كذاب. وتستخدم أيضاً للتعبير عن الوهم أو حب الاستعراض، ولكن ليس دائماً فى إطار استنكارى بل أحياناً على العكس تماماً من ذلك.

أميوك، أمي – يوك: نبات سام الثمار، حلو الجذور.

أنيات: أعضاء فى حلقة أنداد تم تدشينها حديثاً لكنهم أصغر سناً من أعضائها الآخرين.

أينويك: الفترة بعد توقف موسم الأمطار مباشرة، عندما تنضج المحاصيل وتبدأ الأبقار فى الرعى بعيداً عن القرى.

أنيانيا: الجناح العسكرى للحركة السودانية الجنوبية.

أريل: "لسعات البرد" وتستخدم أيضاً لعملية تعسر الولادة، ولما يعتقد الدينكا أن الطفل يعانى منه إذا لم يقم المشرفون عليه بإعطائه الحمام الدافئ الذى يعتبرونه جزءاً هاماً من عملية العناية بالرضيع.

أويك: دفعية لشخص أرتكب فى حقه جُرم، وليس الأساس فيها التعويض المادى بل الاسترضاء وطلب الصفح.

إوبيك: سمكة صغيرة بزعانف وعظام طرية.

أيور: عكس أدهينق.

بأى: (جمع باى) الأسرة ، البيت، القرية، القبيلة، القطر أو الناس حسب السياق الذى تستخدم فيه.

بيينى: الزعامة، تستخدم بصورة عامة للإشارة إلى النبل أو الأرستقراطية.

بنى: زعيم، وتستخدم أيضاً لأى شخص ينحدر من سلالة أو عشيرة الزعماء.

بيوك: معركة بين حلقة الأنداد التى تم تدشينها حديثاً وتلك التى سبقتها مباشرة. وتحدث هذه المعارك عادة بسب التنافس على حلقة النديدات النسائية التى تناظر حلقة الأولاد الأصغر.

كاكديت: حرفياً تعنى (خلق) أغنية، أى تأليفها.

كاكويل: حرفياً تعنى أن تخلق كلمات، أى أن تكذب.

شين أو أشين: إعلان يفصح عنه رجل محتضر ويعبر عادة عن وصيته الأخيرة .

"وشين" أو"أشين" تعنى أيضاً اللعنة، سواء دعا بها شخص مظلوم بصورة واعية أو نتجت عن الجرم بصورة تلقائية. وبرغم أن اللعنة قد تكون فعالة أثناء حياة الشخص المظلوم، فإن معنى شين يتضمن أيضاً عقوبة بواسطة روح الميت، وقد تنتقل هذه اللعنة إلى ذرية الشخص الملعون أيضاً. ومن الممكن أن يكون الاعتقاد فى المخاطر المترتبة على عدم تنفيذ الوصية الأخيرة للشخص

الميت هو السبب فى إستخدام نفس المصطلح لكل من الوصية واللعنة.

شينق: الفعل يعنى: يرعى ، يأمر، يحكم ، يسكن، يعامل (شخصا ما)، ويقرب (صلة القربى) لشخص ما. أما الاسم منها فيعنى: العلاقات الإنسانية، التصرف، السلوك، العادة، الشخصية، التقليد، القانون، الحكم، أسلوب الحياة، الثقافة، الجوهر، الطبيعة. ويعبر هذا المصطلح عن مفهوم الدينكا للعلاقة الطبيعية المثلى.

شوت: حرفياً تعنى مناداة فتاة. وهو مصطلح يستخدم للإشارة إلى زيارات الحب التى ينتظر من الرجل فيها أن يقف على مسافة من منزل الفتاة احتراماً لأقاربها ثم مناداتها بعد ذلك بالتنبيه إلى حضوره أولاً، ثم بالسؤال عنها بعد أن يأتى إليه شخص ما.

دهيت: ميلاد.

دهيك: لعبة مطاردة يلعبها الأولاد.

دايت: حرفياً تعنى الطيور، ولكنها تستخدم فى معظم لهجات الدينكا للإشارة إلى التوائم.

دور: نوع خاص من أغانى الحرب يقوم فيها أفراد تصاحبهم جوقة بأداء نماذج تدعو للسلم أو للحرب.

قيم: حرفياً تعنى الذى يستقبل الطفل ، أى القابلة.

قور: استعراض راقص يجرى الناس أثناءه ويقفزون فى الهواء وهم يحملون حراباً فى وضع الإستعداد لرميها، ويبدون وكأنهم يرمون هذه الحراب – ومحتوى الرقصة هو تقليد لمعركة بواسطة الحراب.

قر: " تفقيس" الجنين. ويحدث ذلك عن طريق مضاجعة امرأة حامل، لأن الدينكا يعتقدون أن ذلك يساعد على نمو الجنين.

جاك: (جمع جوك)، وهى الأرواح التى تسبب الأمراض والمصائب الأخرى.

جور: (مفرد جوور)، وهو التعبير الذى يستخدمه الدينكا لغير الدينكا (باستثناء النوير الذين يسمونهم "النوير") وعادة ما يشير بها دينكا نقوك للعرب.

كاراج – كا – راج: (جمع كراج) وتعنى حرفياً الأشياء السيئة، ويستخدمها نقوك للثعابين أيضاً. وتطلق بعض لهجات الدينكا على الثعابين كابينى (أشياء الأرض). هذا ومعظم الثعابين أيضاً رموز مقدسة للعشائر،

بالتالى "أقارب" لا يجوز إيذاؤها، وبنفس القدر يجب الا تؤذى فى هؤلاء الأقارب. وربما تكون تلك هى طريقة الدينكا لتهدئة هذه الحيوانات الخطرة التى يجب عليهم العيش معها فى بيئتها.

كيبى: جذور نبات السعن.

كير: فصل ممطر - من بداية مايو حتى يوليو.

كِت: الهجاء بالأغانى. وينطبق ذلك أيضاً على عادة الرقص والغناء التى تسعى بها حلقة أنداد أكبر للاستخفاف بحلقة الأنداد الأصغر منها مباشرة.

كيج: عامة الناس.

كوج إنوم: حرفياً تعنى "الوقوف على الرأس" الخلود عن طريق النسل.

كور: الأسد، وتستخدم أيضاً للإشارة إلى "الأحاجى"، ذلك أن الأسود تلعب دوراً بارزاً فى أحاجى الدينكا.

لر: القفز العالى.

لوَر: الطبل، وتعنى أيضاً الرقص.

لوك: قضية. وتعنى أيضاً الحث أو التوسل إلى إنسان لكى يفعل شيئاً ما، وتستعمل أيضاً كفعل.

لونى: إطلاق سراح أو تحرير. انتهاء فترة التدشين للمدشنين حديثاً وبدء مرحلة النضج الكاملة.

ماى: الفترة من فبراير إلى مايو، موسم الجفاف.

مشار أقير: ثور أسود اللون قرونه متباعدة (حرفياً). وهى إشارة استخفاف لعامة الناس تعبر عن قلة حيلتهم، إذ إن الثور الذى له مثل هذه القرون لا يستطيع القتال مثل الثور ذى القرون.

ميوج: مقطع شعرى قصير عن ثور الذاتية، أو لحظة هامة فى حياة الإنسان وتسخدم فى الرقص والحرب والصيد وصيد الأسماك عندما يقوم شخص بتوجيه ضربات أو التعبير عن أى عواطف (عواطف الغضب).

مونجانق: تعنى حرفياً: "سيد" أو زوج (رجل) كل الناس. وهى الكلمة التى يسمى بها الدينكا أنفسهم. أما كلمة الدينكا فهى أجنبية.

نار - نأر: عشيرة الأم. مشتقة من الاسم الذى يطلق على الخال .

نقوك: سمكة صغيرة شديدة الخطورة لها زعانف حادة يشبهها الدينكا بقرون الثيران. ومن الممكن أن يكون إسم الدينكا مشتقاً من إسم هذه السمكة.

نقوث: مصطلح يطلقه الشخص عندما يقوم بطعن عدو أو حيوان أو سمكة كذلك تردده المجموعة عندما ينثر عليها الزعيم أو أحد رجال الدين الماء المقدس.

نياليك: الرب. يستخدم أحياناً للإشارة إلى الهه اقل شأناً ولكن يفهم أنها شيء واحد مع الإله الأعظم.

نيال روت: ترنيمة من مقاطع خاصة يتوج بها الأصدقاء الحميمون قهقهاتهم. وهى كذلك تعبير عن امتنانهم لمشاعر الحب والتفهم التى يتبادلونها بينهم فى حالات معنية. ويرتبط هذا المصطلح بالقيل والقال والثرثرة أو المزاح.

بان: نسبة إلى فاى (انظر أعلاه) أى ينتمى إلى شخص معروف.

بار: يحكى احجية، وتحمل نوعاً من التشكك لا يظهر فى مصطلح "يحكى أحجية.

بيث: فيث: السحر ، العين الشريرة.

بور: عصيدة تصنع من اللبن، يعدها الأطفال عادة و(بكميات أكبر) الزوجات كوليمة خاصة لأزواجهن.

ريار: (حرفياً) يتلف، ويستخدم هذا التعبير بمعنى "الموت" "أى" يموت المرء إذا توفى دون أن يكون له أولاد من الذكور يحفظون اسمه.

ريلوى: يتيبس أو يتخشب من البرد. ويستخدم أيضاً لما يؤمن الدينكا أنه سيحدث للطفل الذى لا ينال الحمام الساخن التقليدى، والغرض من الحمام ليس تدفئة الطفل بقدر ماهو دفع نمود الطبيعى.

رينق: حرفياً تعنى "اللحم" ولكن هناك أيضاً اللحم المقدس الذى هو مصدر القوة الروحية النورانية لعشائر الزعماء.

رووث: حفل تدشين يرقص فيه الرجال مع النساء كبيرات السن خاصة أمهات المدشنين الجدد. وهى الرقصة الوحيدة التى تتلامس فيها أجساد الدينكا (ولكن حتى هنا لا يتعدى ذلك الأرجل).

رويل : موسم الأمطار، فى الفترة من يوليو إلى أكتوبر.

روت: موسم الجفاف، الفترة من نوفمبر إلى فبراير.

ثيل: العود الذى يُضرب به الطبل.

ثيانق: مرض يصيب الأطفال يعتقد الدينكا أن أسبابه تعود إلى انتهاك حرمة الممارسة الجنسية أثناء فترة الرضاعة. كما يعتقدون أنه معدى.

ثياو –فياو: اضطرابات المعدة المختلفة، وتستخدم أيضاً للإشارة إلى الديدان الغينية وللأورام التى تتسبب فيها هذه الديدان.

ثووك: حرفياً تعنى رفع عرش (الزعيم). وهو مصطلح يستخدم للإشارة إلى عملية تشييع الزعيم إلى مثواه الأخير. ولا تستخدم كلمة الدفن فى حالة الزعماء.

توج: حرفياً تعنى الانبطاح على الأرض. وهو تقليد يذهب بموجبه الشباب إلى معسكرات الأبقار البعيدة لمدة شهرين أو ثلاثة يشربون اللبن، ويأكلون اللحم ولا يبذلون فيها إلا جهداً قليلاً، فتمتلئ أبدانهم وتزداد أوزانهم كما يقومون أثناء هذه الفترة بتأليف الأغانى التى تتناول أموراً تهمهم – عادة الزواج. وعند نطقها بشكل مختلف تعنى أيضاً مستنقعات السافنا التى تستخدم معسكرات للأبقار فى مواسم الجفاف.

واك: حرفياً تعنى "الاستجمام". تستخدم أيضاً للأغانى التى تم تأليفها أثناء فترة التوج (أعلاه).

وال: مستحضر مؤذ يقال أنه عادة ما يكون فى حزمة نباتات صغيرة أو أشياء رمزية أخرى.

وبير: السباق.

وبيث: أمراض الطفولة، وتستخدم الكلمة أيضاً لبعض أمراض الكبار المزمنة

ويل : عمل سحرى، ممارسة رمزية عامة معممة لكى تسبب الموت أو تلحق أذى ما بمن توجه ضده . وتفهم عادة على أنها شيء مستنكر.

يط، يث: (جمع ياط، ياث) آلهة العشيرة (الخيرة فى مقابل ياك).

يوور: مقابل دهينق (وضاعة – ذل – هوان – قلة المنزلة – تفاهة).

د. فرانسيس دينق:

من أبناء قبيلة الدينكا، تخرج في كلية القانون - جامعة الخرطوم، ثم درس في بريطانيا والولايات المتحدة. وعمل استاذا بجامعتي بيل وكولومبيا، عمل سفيرا لدي الدول الاسكندنافية والولايات المتحدة وكندا - وزير دولة للشئون الخارجية، يعمل الدكتور فرانسيس كزميل رفيع بمعهد بروكنز في مدينة واشنطن.

للمؤلف:

البحث عن السلام، بالإنجليزية - بذرة الخلاص - طائر الشوم - صراع الرؤى - رجل يدعي دينق ماجوك.

نشر العديد من الكتب حول ثقافة الدينكا ومقومات الذاتية السودانية.



THE SUDANESE STUDIES CENTRE
مركز الدراسات السودانية

الغلاف : حسين شريف